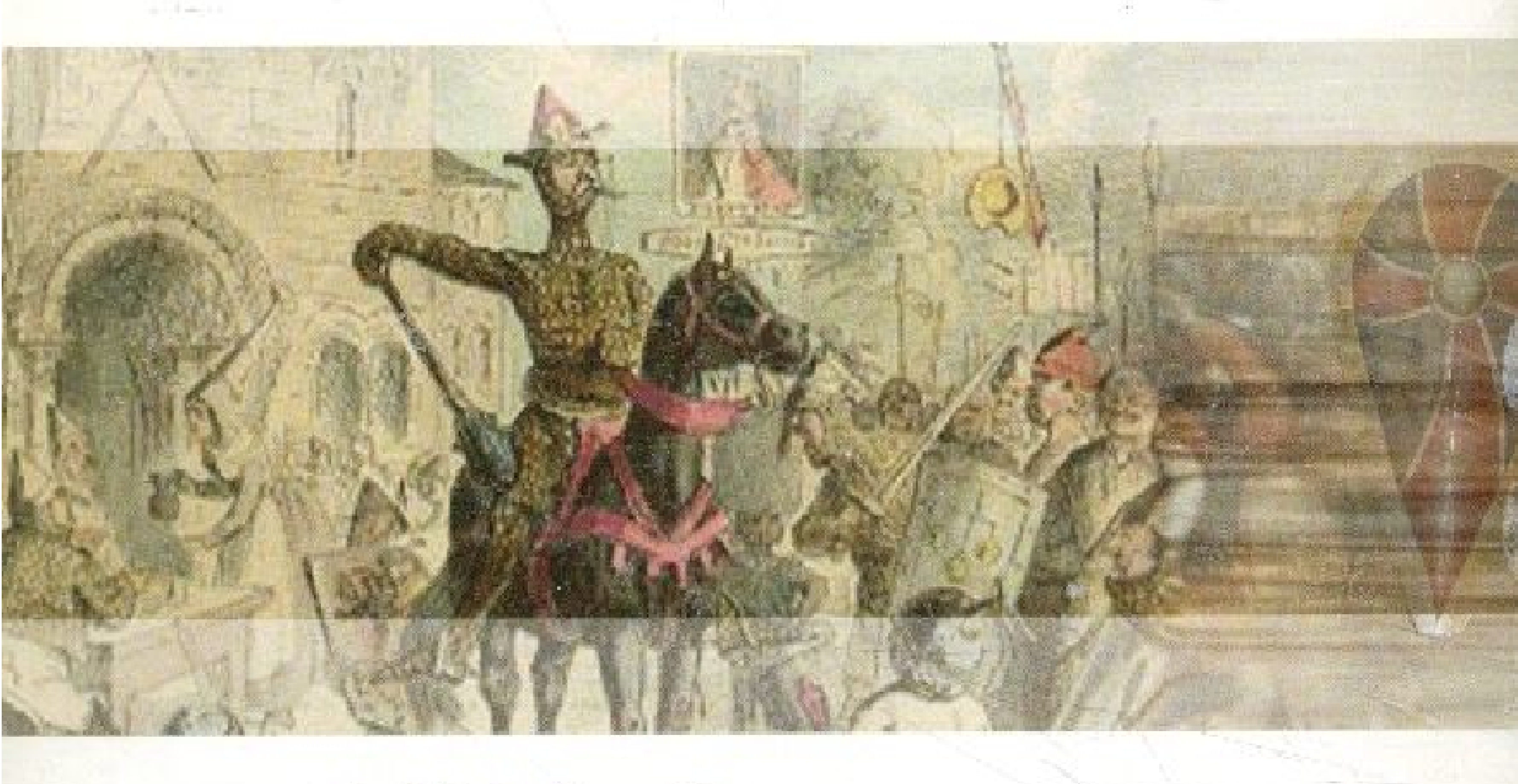
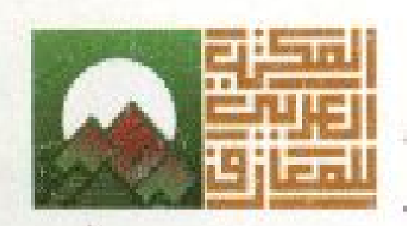
انجلترا تحت حكم النورمان

تاريخ اوربا فى العصور الوسطى



دكتور: أسامة ابراهيم حسيب
اشراف: أ.د. زبيدة محمد عطا



إنجلترا تحت حكم النورمان
(١٠٦٦م – ١١٥٤م)

تأليف
دكتور/أسامه إبراهيم حسيب إبراهيم
كلية الآداب ـ جامعة سوهاج

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م

اسم الكتاب : إنجلترا تحت حكم النورمان
(١٠٦٦-١١٥٤م)

اسم المؤلف : دكتور/ أسامة إبراهيم حسيب

تصميم الغلاف : ماستر أدفرتايزينج

الناشر
المكتب العربي للمعارف
١٠ شارع الفريق محمد رشاد حسن - خلف عمر أفندي -
ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون/ فاكس: ٢٦٢٢٢٧١٧٣
بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٥٠٠٦
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-276-539-X:

إنجلترا تحت حكم النورمان
(١٠٦٦م – ١١٥٤م)

تأليف

دكتور/أسامه إبراهيم حسيب إبراهيم
كلية الآداب ـــ جامعة سوهاج

الناشر
المكتب العربي للمعارف

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على من فجر في البشرية طاقات العلم والعقل والإيمان، فكانت معجزته عقلية علمية بيانية ٠

الحمد لله الذي وفقني إلى إنجاز هذا العمل، والصلاة والسلام على معلم البشرية سيدنا محمد بن عبد الله ٠

ليسعدني ويشرفني توجيه خالص الشكر والتقدير والثناء للأستاذ الدكتور الفاضل/ زبيدة محمد عطا – أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة حلوان – والتي حبتني برعايتها وتشجيعها، ومنحتني جهدها ووقتها وأمدتني بالكثير من الكتب من مكتبتها الخاصة مما كان له أكبر الأثر في خروج البحث بهذه الصورة، فلسيادتها مني خالص الشكر والتقدير ٠

وأتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى جميع العاملين في دير الآباء الدومنيكان والفرنسيسكان والعاملين بالجامعة الأمريكية، ومكتبة جامعة القاهرة المركزية، والمعهد الفرنسي، لهم مني مزيد من الشكر والعرفان٠

والله ولي التوفيق،،

دكتور / أسامة إبراهيم حسيب

المقدمــة

تهدف الدراسة موضوع البحث إلى إلقاء الضوء علــى وضــع إنجلترا تحت حكم النورمان في الفترة من (١٠٦٦-١١٥٤م).

* **الفصل الأول** : يُعنى بدراسة الجهود التي قام بها النورمان من أجل تأسيس الملكية الإنجليزية، وقيام وليم الفاتح بإرساء قواعد هــذه الملكية الجديدة، ثم رد فعل الشعب الإنجليزي مــن عمليــات الفــتح النورماني لبلادهم، وكذلك الجهود التي قام بها النورمان خلفاء ولــيم الفاتح من أجل تأسيس هذه الملكية الإنجليزية في عهد ولــيم الثــاني وهنري الأول وستيفن، واختلاف وجهة نظر كل منهم تجــاه ثــورات الشعب الإنجليزي.

* **أما الفصل الثاني**: فيتتبع سياسة وليم الفــاتح وخلفائــه تجــاه الكنيسة البابوية، فتتحدث عن دور البابوية فــي الغــزو النورمــاني لإنجلترا سنة ١٠٦٦م وتأييدها لعمليات الفتح، وإرسال البابــا بيرقــا بابويا إلى وليم حملة معه إلى إنجلترا، والقيام بالإصلاحات الكنسية في إنجلترا، وبروز الحزب البابوي في عهد أنسليم، ثم عصر ستيفن وما ساده من فوضى واضطراب في كل أنحاء البلاد.

* **وفي الفصل الثالث** : يستكمل البحث أحد أركانه الأساسية في الحياة الاقتصادية في إنجلترا في عهد النورمان، وأدخل ولــيم علــى الزراعة بعض التعديلات، وأدخل نظام الأقاليم، وكذلك حســن مــن صورة الإقطاع، وأدخل عليه تعديلات جذرية، ونشط حركة التجــارة وكذلك الصناعة وأدي ذلك إلى زيادة المالية بقوة، وكذلك قام بمســح دومزدي.

* **أما الفصل الرابــع**: نتناول فيه الحياة الاجتماعية ونعالج فيــه ضعف النظام الإنجليزي القديم وإبقاء وليم على العــادات الأنجلــو-

سكونية، ثم عالجنا القرية بعد الفتح، وتطور الحياة بها وحيازة الأرض مقابل خدمات للملك والدولة، والحصون التي تقوم بحماية البلاد، ثم أسلوب معيشتهم في إنجلترا .

* والفصل الخامس : هو خاتمة البحث وهو فصل حضاري نتحدث فيه عن الثقافة في إنجلترا النورماندية، والمؤثرات الجرمانية على اللغة، وتطور الآداب الإنجليزية وكذلك تطور المكونات القانونية وأعلام النهضة الثقافية الذين أثروا في أدب وثقافة البلاد، وفي النهاية الأسلوب الفني الرائع الذي ساهم فيه الإنجليز والنورمان معا ليكون بذلك الفن الأنجلو-نورماني.

***

يعد بيده Bede- (٦٧٣-٧٣٥م) من المصادر الأساسية في معرفة تطور المجتمع المسيحي ونظمه الأولي في إنجلترا، وهو أول مفكر إنجليزي ينادي بضرورة تقدم الجنس البشري عن طريق المعرفة والدين، فهو بحث يمثل خلاصة النتاج الفكري لأوربا الغربية عن طريق كتاب "التاريخ الكنسي للأمة الإنجليزية- The Ecclesiastical History Of English Pepole".

وكان بيده مؤرخ الإنجليز عالما من طراز راق، فلم يزيف في أصل شعبه، وذكر لنا ببساطة معلوماته عن الأصول الحقيقية للإنجليز والسكسون، وكان ينادي بسمو الوحدة الدينية على الوحدة السياسية، وكانت بريطانيا ولاية رومانية والبعثات التبشرية قد نشرت المسيحية في ربوعها، كما تم تنظيم الكنيسة الإنجليزية على أساس كونها ابنة كنيسة روما· ولقد بذل بيده مجهودا للفصل بين التاريخ الكنسي العلماني، وركز اهتمامه على الكنيسة، كما جعل عنوان كتابه "التاريخ الكنسي للشعب الإنجليزي"، وعلى أية حال فقد جاء التاريخ العلماني في سياق هذا الكتاب، وذلك لأن ثروات الملوك الإنجليز وما تميزوا به من روح إيثار تركت تأثيرها الكبير حيث كثرت أوقاف الكنائس والأديرة، كما أثرت بشدة في الحياة العلمية لرجال الكنيسة، وهكذا استطاع بيده المزج ما بين التاريخ الديني والتاريخ الدنيوي وأن يظل باقيا·

وتأتي المجموعة المعروفة باسم "تاريخ حكام إنجلترا" الحوليات الخاصة ببريطانيا العظمي، وأيرلندا أثناء العصور الوسطى·
rools Seris: The Chronicles and Memorials of great Btitain and Ireland During The Middel Ages.

من المصادر الهامة كذلك التي اعتمدت عليها في البحث، ونظرا لضخامة أعداد المجلدات التي نظمتها هذه الحوليات، والتي تقرب من المائة مجلد مدونة جميعها باللغة اللاتينية في الجامعة الأمريكية فقد اكتفينا بالاعتماد على المدونات الوثيقة الصلة بموضوع البحث، وتأتي حولية وليم ينبرج–William of Newburgh، المعروفة باسم تاريخ مملكة إنجلترا Historia Rerum Angligarm، وتندرج تحت المدونات الخاصة بوليم الفاتح، ووليم الثاني، وهنري الأول، وستيفن·

وفيما يتعلق بمؤرخنا فهو ولـيم ينبـرج ، ولـد فـي مقاطعـة بريدنجتون –Bridington– عام ١١٣٦م وعاش فترة طفولته في دير ينبرج، ومن هنا ينسب في تسميته إلى هذا الدير، حيث بـدأ ضـمن أطفال جوقة المرنمين في الدير، وكتب هذا المؤلف في جزئين والجزء الأول الذي يخصنا ينتهي عند صفحة ٤٠٨ ويبدأ أحداثه التاريخية من عام ١٠٦٦–١١٩٨م أما الجزء الثاني فبدأ عند عام ١١٩٨–١٢٩٨م، ويضم الجزءان تاريخ مملكة إنجلترا، وترجع أهميـة ولـيم ينبـرج باعتباره شاهدًا للأحداث أو قريبًا منها فقد أتم تدوينها وعـاش فتـرة منها·

وأهم ما يؤخذ على وليم ينبرج أنه يقدم لنا الإطار العام للأحداث دون الدخول في تفاصيل كتابية وهي عبارة عن عناصر وشرح موجز جدًا، وكان يغلب على الأحداث الطابع الديني أكثر من السياسي·

ومن المصادر الهامة التي اعتمدت عليها فـي دراسـتي ولـيم مالسبوري –Willaiam of Mal;mesbury– وقد ولد تقريبا فـي عـام ١٠٥٥م، وعاش بداية حياته راهبًا في مالسبوري، وكان سليل أسـرة أنجلو–نورمانية، وكان باحثًا دءوبا، وقارئا يسعى وراء الكتب أينمـا كانت·

ومكتبة مالسبوري أثرت في تكوينه الثقافي من خلال مجموعـة الكتب الجيدة التي تضمها، ولأن أحد مقـدمي الأديـرة مـن علمـاء

جيميجي Jumieges– وأعاد وليم تأسيس المكتبة وتولى بنفسه وظيفة أمين المكتبة، مما أتاح له فرصة الإطلاع على الكتب والحصول على نصوص جيدة للمكتبة، وقد أضاف مصادر تاريخ بريطانيا من خلال المعلومات التي جمعها عن طريق الرواية الشفوية التي كان يسمعها سواء في مالسبوري أو خلال رحلاته المتعددة.

وحاول مالسبوري أن يفصل بين الأسطورة والتاريخ، حيث كانت القصص التي نشرت حول الملك آرثر Arthur ملك بريطانيا منتشرة ومتداولة، وحين بدأ وليم يكتب مؤلفاته لم تخدعه هذه القصص.

ويتميز وليم كمؤرخ ببحثه النقدي الواضح، وباهتمامه بالدوافع الكامنة وراء الحادث التاريخي، وكان وليم يعتقد أن التصرف دون وجود الدوافع الذاتية أمرًا نادرًا ومثيرًا للدهشة فهو يكتب عن الولاء المنزه عن المصلحة باعتباره استثناء، فقد وقف إيرل روبرت جلوستر باستمرار إلى جوار أخته غير الشقيقة ماتيلدا في حربه ضد الملك ستيفن، وكان دافعه إلى ذلك الولاء الخاص لها.

وقد أظهر وليم مقدرة طيبة على الفصل في التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوي، ويعرض كتابه "أعمال الأساقفة" لتاريخ إنجلترا الكنسي على حين يعتبر كتابه "أعمال الملوك" المرادف العلماني له، وكانت آخر أعماله رسالة أسماها "التاريخ الجديد–Historia Novella" والذي قام بترجمته من اللاتينية إلى الإنجليزية المؤرخ K; R . Potter، ويبدأ باستعراض السنوات الأخيرة من حكم هنري الأول ثم يقودنا إلى الحرب الأهلية التي دارت رحاها في عهد الملك ستيفن، ولم يكمل وليم هذه الرسالة إذ وافته المنية سنة ١١٤٣م، وهذه الرسالة هي أفضل أعماله، فقد استطاع أن يوظف معلوماته كشاهد عيان للحوادث التي جرت في غرب أوروبا.

ومما يبرر شعبية وليم عند المؤرخين المحدثين ما يتمتع به من مواهب كمؤرخ، فهو يصف لنا الأحداث بأسلوب فني رائع، فقد كان يدرس الماضي السحيق ويفسر الحاضر، ومما يزيد من جاذبيته أنه يتمتع بالقدرة على اجتذاب القراء، وهذا ما يميزه عن غيره من المؤرخين الأنجلو – نورمان.

ولد أوردريك فيتاليس –Orderic Vitalis– صاحب كتاب التاريخ الكنسي –The Ecclesiastical History– في السادس من فبراير سنة ١٠٧٥م ومات في أوائل الأربعينيات من القرن الثاني عشر، وقد عاش حياة الرهبان في مطلع حياته، وكان راهبًا من رهبان دير سان أفرول St. Evroul في نورماندي، فقد ولد لأب فرنسي أو نورماني ولم إنجليزية، وولد بالقرب من شروسبيري –Sherwsbury– إلا أن أباه وهبه لدير سان أفرول وجعله يكرس حياته لخدمة الرب، وعندما عاد إلى إنجلترا لجمع مادة كتابة "التاريخ الكنسي" أقام في ورستستر –Worcester– وكرولاند –Crwland–، وقدم نفسه لقرائه كراهب بسيط لم يتولى منصبا في ديره، وكان حضوره المجالس الكنسية أو الذهاب إلى البلاط شغله الشاغل إلا في أحوال قليلة.

ويتولد في نفوسنا انطباع أننا أمام رجل متواضع لا يفرض نفسه علينا إلا بتصديق روايته كشاهد عيان، وهو يحكي لنا حادث غرق السفينة البيضاء ١١٢٠ حيث غرق فيها الأمير وليم بن الملك هنري الأول ورفاقه، ورغم أنه لم يكن بينهم أحد من أصدقائه أو أقاربه، لكن انتماءه إلى الإنسانية عموما هو الذي خلق بداخله مشاعر الحزن والأسى على من ماتوا.

ومقدم الدير هو الذي طلب منه أن يكتب تاريخ سان أفرول فكتب عن المحسنين الذين أغدقوا على الدير وكل ما يخص الدير، وتحول كتابه إلى كتاب عن العالم المسيحي، ووصل بكتابه حتى سنة ١١٤١م حين أعجزته الشيخوخة وهو في السابعة والستين من عمره

عندما عجز عن الإمساك بقلمه وكان قد جمع كتابا عاما من تجسيد المسيح في عصره.

ويذكر أن النورمان شعب طيب وقادر حين يحكمهم حاكم قوي، ولكنهم يتجهون إلى العنف والفوضى عندما يكون حاكمهم ضعيف.

وكان على النورمان أن يشكروه على المساحة التي أفردها لهم فكانت المرة الأولي التي يظهر فيها النورمان كشعب مسيحي في مجال التدوين التاريخي.

- من المصادر التي اعتمدت عليها كذلك وليم بواتيه William of poitiers - وهو مؤرخ فرنسي ومن أشهر من كتب الحوليات، وكتب حوليته في الفترة ما بين ١٠٧٢-١٠٧٤م وتعتبر من أهم المصادر المكتوبة عن معركة هستنجز.

وقد أخذ الأسقف أودو - مادته العلمية لقطعة القماش المطرزة منها، وكتب كتابه عن تاريخ الأدوق النورمان: Gesta Cuillelmi Du Normarument Regis Anglorum في سنة ١٠٧١، والجزء الأخر عن الذين عاصروا تلك المعركة. وبقيت هذه الحولية في عصر النورمان، وكانت هناك محاولات لتبقى كتاباتها بدون تعديل كما هي في الماضي، وتم ترجمة أعمال وليم وتنظيم تاريخها لتساعد القارئ على فهمها.

ولقد خدم وليم بواتيه في القصر النورماني، وخدم وليم الفتح النورماني بنفسه، فكان قريب منه جدا، وقد ذكر أن وليم النورماني هو الذي أدخل للنورمان النظام الإقطاعي على شاكلته في نورماندي في ذلك العصر.

وكتب بواتيه متحازا إلى وليم النورماني خوفا من سطوته وبطشه، وكان أول ما كتبه عن الغزو النورماني لإنجلترا وما يدل على ذلك أنه كتب عن هارولد عدو وليم النورماني قائلا: كان رجلا إنجليزيا غبيا، وملطخا بالرذيلة، وقاتلا، وقاسيا، وأن ما فعله وليم لم

يكون سوى عدل الرب، على أن افتقاره للموضوعية ما هي إلا خاصية اتسمت بها المصادر المكتوبة مثل مدونة وليم ينبرج -William of New burgh-.

واعتمدت في بحثي كذلك على مجموعة من الوثائق المنشورة لتدعيم البحث منها :

- Documents In English History, Brial & Blakeley.
- William of poitiers, Norman Conquest, (1064-1066).
- The Bayeux Tapestry The Battle of Hastings, (1066).
- Domesday Book, (1086).
- Documents of Medieaval of, Borraw & Miller.

وتتضمن مجموعة من الوثائق الإنجليزية الأصلية ومنها عملية الفتح النورماني، معركة هستنجز، العادات الإنجليزية، والقوانين، والمجامع الكنسية، ومجموعة خطابات هامة خاصة بالدولة والكنيسة Documents Eujrope & Rom 80070 1789, Henry Bettensan، وتشمل التاريخ الأوربي وتعرض إلى تاريخ إنجلترا السياسي والاجتماعي والديني -Documents of Church, Henry Bettenson- وتشمل مجموعة قيمة من الوثائق الكنسية خاصة بالمجامع في الكنيسة وكذلك مجموعة خطابات مرسلة من البابوية في روما إلى إنجلترا والعكس .

***

تمهيد :

الفتح النورماني لإنجلترا حدث هام في التاريخ الإنجليزي كله، وهو من الأحداث الفاصلة في التاريخ الأوربي أيضا[1].

---

(1) White (R.J). The Harizon Cise History of England. New York,1971.p.25.

ولقد كانت بريطانيا جزيرة في المحيط، وكانت تدعى قديما ألبيون -Albion- وتحيط بها ألمانيا والغال وأسبانيا، ويبلغ امتداد طول الجزيرة حوالي ثماني مائة ميل من ناحية الشمال ويبلغ عرضها حوالي مائتي ميل[1]، ولهذا كانت في عزلة شبة تامة إلى أن جاء الفتح النورماني فربطها بعجلة الأحداث، وعاشت الجزر البريطانية حتى نهاية العصور الوسطي وبداية العصور الحديثة في ظل المؤثرات القارية والموجات الحضارية في أعقاب استكمال الأمة الإنجليزية لمقوماتها[2].

وكانت الجزر البريطانية قد تعرضت لغزوات الوافدين من رومان، وأنجلو سكسون، ودانمركين، ونورمان، واشتركوا جميعا في تكوين الأمة الإنجليزية، وكان قد استقر عزم يوليوس قيصر Hulius Caesar- على غزو بريطانيا لأسباب متعددة، منها أن هذه الجزيرة أصبحت مأوى للفارين من حكم الرومان، وأصبحت كذلك مركزا لمقاومة حركة التوسع الروماني في القارة الأوربية[3].

ولقد فشل في المحاولة الأولي من جراء العواصف التي تعرض لها ومقاومة الأهالي، إلا أنه نجح في محاولته الثانية في غزوها في عام ٥٤ ق.م، مما اضطر البريطانيين إلى التراجع شمال نهر التايمز -Thames-، ونقلوا خطوط دفاعهم شمال النهر بقيادة ملكهم كاسيفلاونوس -Cossivellaunas- ثم غادر بلادهم بعد أن أقروا بالجزية[4].

---

(1) Bede. Ecclesiaticcal History of The English Nation Trans, New York, 1955. pp. 5-7.

(2) Wood Ward: History of England, Landom. 1997, p.2 .

(3) Wood Ward . Op. Cit. , p. 3.

(٤) أدمون ديمولان: سر تقدم الأنجلو سكسون، ترجمة فتحي زغلول، الرحمانية، ١٩٤٦، ص٧.

غير أن عملية الفتح الروماني النهائي لبريطانيا لم تتم إلا في عام ٤٣ق.م في عهد الإمبراطور كلوديوس –Claudius– حيث دخل الرومان لندن في أعقاب مقتل الملك البريطاني سمبلين –Symbeline– وتصدي للقوات الرومانية ابنه كراكتاكوس –Caractacus– إلى أن سقط أسيرًا في أيدي الرومان(١).

ولقد استغرقت الشعوب الجرمانية في بريطانيه مرحلتين :

المرحلة الأولى: من عام ٤٥٠ إلى ٥٥٠م عندما جاء السكسون إلى بريطانيا في جماعات قليلة، بعضهم جاء في جماعات من المحاربين القادرين تحت قيادة زعماء من أهل الحرب والمحبين للمغامرة، وجاء البعض الآخر لمساعدة البريطانيين ضد اعتداءات البكتيين من أهل أسكتلندا، وهكذا جاء الإنجليز السكسون خلال قرن في موجات أقرب إلى الاستعمار منها إلى الغزو(٢).

أما المرحلة الثانية: من الاستقرار الأنجلو –سكسوني، فهي التي شغلت الفترة ما بين عامي ٥٥٠–٨٥٠م، وتمكن الإنجليز من خلال

---

(1) Wood Ward, op. Cit. ,pp. 2-3.

– أدمون ديمولان : المرجع السابق ، ص ٧ .

(2) Wood Ward, op. Cit. , pp.5-7.

– ولد جريجوري الأول في روما عام ٥٤٠ في أسرة عريقة من النبلاء، ولكنه أظهر منذ حداثته نزعة دينية قوية فاستغل الثروة الطائلة التي ورثها عن أهله في تأسيس ستة أديرة في صقلية ودير سابع في روما، وعندما أجمع رجال الدين على اختياره لمنصب البابوية عام ٥٩٠ أخذت تظهر شخصيته العظيمة واتخذ لقب "خادم خدام الرب– Servus Servorum Dei–.

انظر في ذلك :

– سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، التاريخ السياسي، ج١ ، ط٧، الأنجلو المصرية، ١٩٩٤، ص٣٦٤.

فرض سيطرتهم على الجزيرة، ولعل أهم حدث وقع للإنجليز في تلك المرحلة هي اعتناقهم المسيحية التي أدخلها البابا جريجوري الأول (٥٩٠-٦٠٤م) ودخلت إنجلترا في حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، وقام جريجوري العظيم بتعظيم شئون الكنيسة الإنجليزية[١]، ونكبت إنجلترا بالغزو الداني في بداية القرن التاسع الميلادي، وهم فرع من للشماليين -Northmon- وإن كانوا من جيش الجرمان، وتمكنوا من اقتحام الجزء الشمالي الغربي من فرنسا -نورماندي- والجزء الشرقي من إنجلترا، وجعلوا إنجلترا تابعة لأمبراطوريتهم الدانمركية[٢]، وأيا كان فالدانيون في إنجلترا أصبحوا إنجليزا، بينما تحول الدانيون في نورمنديا إلى فرنسيين، واعتنق جميعهم المسيحية، وتأثروا بالثقافة اللاتينية، ولعل ذلك يرجع إلى أصولهم الجرمانية[٣].

وتصدى لهؤلاء الدانيين ملوك وسكس -دولة السكون الغربيين- وبرز من بينهم ألفرد العظيم - Alfred The Great- ٨٥٠-٨٩٩م، واستطاع ألفرد إدخال تحصينات على إنجلترا وقوى دفاعاتها ضد الأعداء، وخاصة من شستر -Chester- إلى سانت البينز - Saint Albanns-، وقاد المقاومة الشعبية -Fyrd-، وقوى الجيش وخير مثال على ذلك معركة أدنجتن -Adington- ٨٧٨م، والتي سحق فيها الدانيون الدانمركيين Danelaw[٤].

---

(1) Wood Ward, op. cit. . pp 9-10.

(2) Haskins (C.H.) , The Norman In Europe History, New York, 1945, p52.

(3) Freeman, Ashart History of Norman Conquest of England, oxford, press, 1922, p.8.

(4) White, op. cit. , p.19.

واستطاع ألفرد أن يوحد البلاد بعد أن كانت سبع ممالك مختلفة، وأصبحت البلاد تحت زعامة وسكس –Wessex– بقيادة زعيم واحد هو ألفرد، وفي عهد أولاده وأحفاده ظلت إنجلترا مملكة متحدة وامتد حكمها حتى الدانمرك [١].

ولكن تعرضت هذه الوحدة للخطر فأعيد تقسيم إنجلترا إلى ممالك سبع كما كانت من قبل، وهذه الإغارات اضطرت أثلرد ملك وسكس (٩٨٧–١٠١٦م) إلى الفرار إلى نورماندي في عام ١٠١٣م بناء على مشورة زوجته إيما –Emma– [٢]، وبعد فرار أثلرد عاش الدانيون في إنجلترا، وأعلن سوين ملك الدانيين نفسه ملكا على إنجلترا في عام ١٠١٣م [٣]، وعقد موته نودي بابنه كانوت (١٠١٣–١٠٣٦م) ملكا على مملكة أسكتناوية، والتي ضمت إنجلترا والدانمرك والنرويج وأطراف أسكتلندا، وأصبحت إنجلترا بذلك جزء من الإمبراطورية السكندناوية حوالي عشرين عاما، وكان هذا الملك القزم العملاق من أعظم ملوك أوروبا من الناحية الإدارية والحربية، ولم يكن يوجد له مثيل، حتى خلفائه من بعده لم يستطيعوا أن يسيطروا على هذه المملكة المتسعة من بعده بدون مندوبين أقوياء من قبلهم [٤].

وأصبح هذا الرجل أسطورة عصره ، نظرا لإدارته المملكة المتسعة في الغرب الأوربي بهذا الشكل الرائع، وقد ذكر كاتب معاصر من المؤرخين قائلا: "إن كانوت كان حاكما من قبل السماء" [٥].

---

(1) Freeman, op. cit. ,p. 8.

(2) Wood Ward, op. cit. . p 20.

(3) Brook , The Szxon and Norman Kings, Cambrdge, 1936, p.135.

(4) Wood Ward, op. cit. . p 19.

(5) Brook, Op. Cit. ,p.135.

واستمر حكم كانوت لإنجلترا إلى أن توفي في عام ١٠٣٦م، فتم استدعاء إدوارد المعترف –Edward The Confessor– من منفاه في نورمانديا في سنة ١٠٤٢م، وهو من سلالة ألفرد العظيم، وانتهي بذلك عهد الدانيين[١].

وكان إدوارد المعترف كما يستدل من اسمه رجلا تقيا وقديسا إلى أبعد الحدود على الرغم من أنه كان مثل كل القديسين الجالسين على العرش ضعيفا عاجزا، وكان يلاحظ نظرات الاحتكار والازدراء في عيون الإنجليز، وهم ينظرون إلى ملكهم العاجز عن القيام بوظيفة الملك كما يراها الجرمان والتي يجب أن يكون عليها القائد الحربي[٢].

وقضى الملك إدوارد فترة في منفاه في نورماندي، وعلاوة على ذلك كان إدوارد فرنسيا في اللغة أكثر من كونه إنجليزيا[٣]، وكان قد أحضر معه إلى إنجلترا عددا كبيرا من النورمان، وقد عين عددا منهم مستشارين له، وبدأت المشاكل التي أثارها هؤلاء النورمان، فقد كانوا يتآمرون على أهل البلاد الأصليين من الإنجليز[٤]، وكان الملك إدوارد قد قام بتعيين عدد كبير من النورمان في وظائف هامة في البلاد، حتى أنه من منطلق سلطته وتمشيا مع سياسة أسلافه من النورمان، فقد

---

(١) هـ.أ.ل. فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة مصطفى زيادة والباز العريني، القسم الأول، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦، ص١٢٦.

(٢) نورمان ف. كانتور : التاريخ الوسيط ، ترجمة قاسم عبد قاسم القسم الثاني، ط ٢، دار المعارف ، ص ٣٢٩.

(3) Petit (C.H) , The Feudal Monorchy In France and England, London, 1949, p.57.

(4) Derry, Great Britain History From Earliest Times to Present Day, Oxford, 1962, p.55.

أصر على تعيين رؤساء الأديرة والأساقفة من النورمان ، وقام بإبعاد رجال الدين الأنجلو –سكسون، وأحل محلهم رجال الكنيسة من النورمان [١].

وانتهز الإيرلات الإنجليز فرصة اهتمامه بالشئون الكنسية وتركه للأمور السياسية والحربية، فظهرت قوة الإيرلات في إنجلترا ومنهم جدوين من وسكس Godwind of wessex – وليفراك من مرسيا – Leofric of Mrcia – وسيورد من نورثمبريا – Siward of Norhumbrie –، وهؤلاء كانوا يعتمدون على أملاكهم الخاصة في مواجهة الملك الإنجليزي على الرغم من إعلان ولائهم للملك [٢].

ولو أن إدوارد المعترف أنجب ابنا ما دارت رحا معركة هاستنجز، وكان إدوارد هذا ابنا لأيثلرد الثاني الذي كان متزوجا من إيما –Emma–، وعندما مات أثلرد ١٠١٦ جاء كانوت –وألفرد ابن أثلرد من إيما– إلى نورماندي طلبا للحماية، حيث وافق دوقها على حمايتهما.

---

(١) يذكر في هذا الصدد أن سياسة الملك إدوارد المعترف تتسم بالتحيز ومحاباة للنورمان مع الفرق في الدوافع بالمقارنة بالفاتح، ويرجع ذلك للفترة التي قضاها لدى دوق نورماندي، وإنتمائه لجذور نورمانية، ونتيجة لزواج أمه إيما ابنة الدوق النورماني بعد وفاة زوجها الملك أثلرد الثاني من كانوت ، مما يؤكد قوة العلاقة بين إنجلترا ونورماندي، لذا ففي عهد الملك إدوارد ارتقى العديد من هؤلاء المناصب الأسقفية في إنجلترا، حتى قيل إنه قبل الفتح النورماني لم يتجاوز عدد رجال الدين الإنجليز في المناصب الكنسية الهامة أكثر من سبعة من بينهم وستجاند رئيس أساقفة كانتربري.

انظر في ذلك :

– زينب عبد المجيد : دور إنجلترا في الحروب الصليبية (١١٨٩–١٢٩١) رسالة دكتوراة – الزقازيق، ١٩٩٣، ص٢٨.

– Petit, op, cit, p 58; Derry, op, cit, p ,55.

(2) Hernshaw , op. cit. , p.81 .

وفي عام ١٠٤١م استدعى هارتو كسانوت –Hortho Canute– ابن إيما من زوجها كانوت أخاه غير الشقيق إدوارد الذي اعتلى العرش في العام التالي.

وتزعم هؤلاء جدوين إيرل وسكس، الذى تزوجت ابنته إيديث –Edith– من إدوارد، بيد أنه لسوء طالع بلاده أنه لم ينجب ولداء وتوفي في عام ١٠٦٦م[١].

□ □ □

---

(١) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، ط٢، الهيئة العامة للكتاب، ص٧٦-٧٧.

- William Hunt (L.) , poole (M.A0. The political History of England, vol. 1, New York, 1920, p.474.

الفصل الأول

الغزو النورماني لإنجلترا وتأسيس الملكية الإنجليزية

أولا : وليم الفاتح وإنجلترا (١٠٦٦ – ١٠٨٧م).

ثانيا : رد فعل الشعب الإنجليزي من الغزو .

ثالثا : وليم الثاني وضعف السلطة الملكية (١٠٨٧–١١٠٠م).

رابعا : هنري الأول والعودة للسيطرة الملكية (١١٠٠– ١١٣٥م).

خامسا : ستيفن وعصر الفوضى (١١٣٥ – ١١٥٤ م).

أولا : وليم الفاتح وإنجلترا
(١٠٦٦ - ١٠٨٧م)

تتجلى الفترة المبكرة من تاريخ النورمـان ودوقيـة نورمانـدي بظهور الدوق الرابع ريتشارد الطيب – Richard The Good– وابنـه روبرت العظيم، الدوق الخامس لنورمانـدي، وفـي حالـة روبـرت تمخض الأمر عن مشكلة، حيث لم يكن متزوجا، وليس لـه وريـث شرعي مباشر يمكنه أن يحل محله إذا لم يعد من رحلته إلى الأراضي المقدسة[١].

إلا أنه رغم ذلك كان قد أقام علاقة غير شـرعية مـع إحـدى الفتيات وتدعى هرلفيا –Herleve– ابنة فـولبرت الـدباغ – Fulbert Tonner– من بلدة فالاس –Folouse– ، وقد أنجب منها ابنـا أسـماه وليم[٢]، وكان روبرت يميل عاطفيا إلى هذا الابن الغير شرعي، وإلى

---

(1) The Cambridge Medival History, vol .v., Cambridge, 1926, p.493.

(٢) ولد وليم في قرية فالاس سنة ١٠٢٧م، ويذكر بعض المؤرخين أنه ولد سنة ١٠٢٨م، وربما أثناء الخريف في أواخر هذا العام، وكان الدوق السادس لنورمانديا، ويذكر إردريك فيتاليس –Vetalis– أن أصل أمه كان وضـيع وحقير، حيث كانت تعمل في حانة، وتزوجت من هيرلين فيكومت كونتيفل –Herlin of vicomute contevillo– وانجبت اثـنين مـن أولادهـا المشهوريين في التاريخ الإنجليزي، وهما : أودو أسقف بايو– Odo biship of Bayeaux– ، والثاني روبرت مورتان –Robert mortian– وهمـا أخوان غير شقيقين لوليم.

انظر في ذلك :

- Douglas. Williame the conqueror, the Norman act upon England, Bristal, 1946, p.15.

أمه ميلا عظيما، وصمم على أن يكون هذا الصبي الذي يبلغ من العمر سبع سنوات هو وريثه القادم من بعده، خاصة أن وريثه الشرعي وابن أخته كان أصغر من وليم، بينما أخواه غير الأشقاء مالجار -Malger- ووليم يعتبران وريثين غير شرعيين، لذلك دعا إلى اجتماع وعرض على البارونات أن يقبلوا ابنه غير الشرعي إذا أصابه مكروه أثناء رحلته إلى الأراضي المقدسة، ويبدو أنهم ظاهريا وافقوا على ذلك، على الرغم من أن هذا العرض كان لا يروق لعدد غير قليل منهم[١].

وبذلك تم اختيار أربعة أوصياء من الدوقية للقيام بعمل الحكومة ورعاية وليم الصغير، إذا فشل والده في العودة، وكان الأوصياء الذين تم اختيارهم هم : جلبرت كونت بريون -Gilbert of Brionne- أسبيرن -Osbern- وثورولد -Thuruld- وآلان كونت رينيس -Alane of Renece- وهو ابن عم الدوق روبرت، وقد تم الحصول على موافقة ملك فرنسا على هذه الترتيبات باعتباره القائد الأعلى للبلاد.

ولقد أصاب الحظ السيء رحلة الدوق روبرت، فبعد أن وصل إلى القدس آمنا سقط فجأة صريع المرض في طريق عودته إلى آسيا الصغرى، وقضى نحبه في الثاني من يوليو سنة ١٠٥٣م[٢]، وبمجرد إعلان خبر وفاة روبرت في نورماندي، اندلع التمرد والاضطراب الاقطاعي في معظم أجزاء الدوقية، وبذلك أعلن وليم الصغير أنه الدوق الجديد دون اعتراض، ولم يكن يتوقع البارونات أن يصبح الابن غير الشرعي في بضع سنوات قليلة هو سيدهم بدون منازع، والأكثر

(1) Cam. Med. Hist. , Vol, p.493.

(2) Cam. Med. Hist., Vol. v. p.493; ordericus (v.) the Ecclesiastical History, trans, chiball , oxford, press, 1964, p.14; Hasskins, op. cit., p.52.

من ذلك أنه في يوم من الأيام سوف يُنادى عليه بأنه قـاهر إنجلتـرا وفاتحها[1].

ولقد بذل الأوصياء جهدا كبيرا لتأدية واجبهم نحو الدوق ولـيم، حـتى أن ثلاثة مـن هـؤلاء الأوصياء كانت نهايتهم عنيفـة، فقـد أغتيل أوسبـرن وهو فـي فراشه بيد أحد أفـراد عائـلة مونتجمري -Montgomery- وأصبح بعد ذلك تحت وصاية ملك فرنسـا نفسـه، ولكن من المحتمل أنه رُبي تحت وصاية رئيس أساقفة ربون، والـذي كان يرغب بشكل أساسي في أن يسيطر على القوى الروحية للـدوق الصغير[2].

ولما بلغ وليم سن العشـرين تبلـورت شخصـيته[3] وأصـبح البارونات الذين تحت سيطرته يخشون سطوته وبشطه، ونتج عن ذلك

(1) Doglas, op. cit., p.46; cam. Med. Hist., vol. v.p. 493.
(2) Cam. Med. Hist. , Vol, p.493. Hasskins, op. cit., p. 54.
(3) Brial & Blakeley, Documents in the English History, New York. 19755. p.30.

- كان متوسط القامة، بدين الجسم، ذا شخصية مهيبة، حاد الطباع، مراوغـا، كثير الطمع، عظيما في مقدرته الحربية، وإدارته ، وتشريعاته،
انظر في ذلك:
- وليم لانجر: موسوعة تاريخ للعالم، ترجمة مصطفى زيـادة ج٢ ص١، النهضة المصرية، ١٩٥٩ص ١٢٧.
- كان وليم خجولا، متواضعا، مقرب إلى والده ووالدته، وعندما أصـبح دوقا رفع لخوية أدور أسقف بابو وربرت كونت مورتان.
انظر في ذلك :

~ Freeman , op. cit., p.13.

- كان أصلع الرأس ، قاسيا مع الأعداء، يعشق الرياضة والتسلية، عنيدا، صارما عند الغضب، يعشق للصيد، ويتشاور مع مساعديه:
انظر في ذلك:

- Petit, op. cit. , p.56.

أن قاموا بإعداد خطة للتخلص منه على أساس ميلاده غير الشرعي، وسعوا إلى أن يستبدلوه بابن عمه جاي –Gay– الذي بدأ يأخذ مكانته في دوقية بريون –Brouen– والذي قاده إلى هذا الاتجاه: رالف من بريكيسارت –Ralf of Brcusart– ووينجل من سانت سوفرير –Wangal of sant soverer–، اللذان أصبحا كونتين لبيسن –Becen– وكونتين، وقد بدأ تآمرهما بمحاولة القبض على وليم بتهمة الخيانة في فاوجنز، إلا أن وليم قد تم تحذيره في الوقت المناسب، مما جعله يهرب عبر نورماندي إلى بايوس –Baues– بالقرب من باريس لكي يطلب مساعدة الملك هنري ملك فرنسا[1].

وكان الملك هنري راغبا في أن يرد الخدمات التي تلقاها بنفسه من روبرت والد وليم منذ ستة عشر عاما، وتمكن وليم أن يكسب المبادرة ضد المتمردين على رأس قوة مشتركة من النورمانديين والفرنسيين بمساعدة الملك هنري، حيث تلاقت القوات المتبارزة في معركة شهيرة عند فال–أذ–دون –Val-es-Dune– سنة ١٠٤٧م، والتي تبعد بضعة أميال عن كاين –caen– من ناحية الشرق، وانتهت بانتصار ساحق لوليم، وتبع ذلك ضم بريون –Brouen– لأملاكه، وطرد جاي خارج نورماندي، وأعطاه هذا الانتصار الفرصة للوصول إلى السلطة[2].

وبعد ذلك بعام واحد ازدادات شهرته بقيادته لمجموعة ضخمة من الفرسان النورمانديين إلى أنجو –Anhou– لكي يساعد الملك هنري في هجومه على جيوفري مارتل –Geoffrey Martel– كونت الأنجو، وأظهرت هذه الحملة التي قام بها ضد كونت الأنجو مهاراته وبراعته بشكل كبير كقائد عسكري، حيث أعلن جيوفري أنه لا يوجد فارس بارع مثل دوق نورماندي؛ وبهذا الظهور الأول الناجح، لم يكن

(1) Cam. Med . Hist. Vol. v, p.494.

(2) Freeman , op. cit., p.33.

وليم هو الرجل الذي يجعل العشب ينمو بين قدميه، وبعد هيمنته على السلطة كان لابد من التخلص من أعدائه، وأول من مسهم غضبه هـم أقرباته: وليم كونت مورتان -Williim of Mortian-، ووليم بوسـاك من آيو -William Busace of Eu- وتم نفيهم، حيث نفي الأول إلـى إيوليا -Apulia- والثاني إلـى بولونيـا -Boulogne-[1]. وبعـد أن استقرت الأمور في نورماندي، قام الدوق وليم بزيارة إلى إنجلترا في سنة ١٠٥١م، وعندما عاد أعلن فيما بعد أنه تلقى نوعا من الوعود من قريبه الملك إدوارد أنه سيرشحه ليصبح خليفته على عرش إنجلترا[2].

وفي وقت مبكر من سنة ١٠٤٨م تقدم الدوق وليم إلـى كونـت فلاندرز بالدوين الخـامس -Baldwin v of Flanders- يطلـب منـه خطبة ابنته الأميرة ماتيلدا -Matilda-، واعترضت الكنيسة لأسـباب غامضة، وكان الملك هنري يعلم تماما أن وليم بهذا الزواج وتحالفـه مع الفلاندرز يخل بالتوازن في ميزان القوى في شمال فرنسا[3].

وأدت تلك السياسة الجديدة إلى قيام القـوات الفرنسـية بغـزو نورماندي مرتين، وفي كلتا المرتين هُزمت قوات هنري ملك فرنسـا هزيمة منكرة، الأولى في سنة ١٠٥٤م عند مـورتمر -Martemer- والتي لا تبعد كثيرا عن أومالي -Aumale-، والثانية في سنة ١٠٥٨م في فارافيل -Veraville- بالقرب من نهر ديفز -Dives-[4].

وزادت تلك الانتصارات من ثقة وليم ، وحولت أفكـاره نحـو التوسع على حساب جيرانه، ففي عام ١٠٤٩م استولى على دومفرنت

---

(1) Cam. Med . Hist. Vol. v, p.494.

(2) Petit. Op. Cit., p.58; Hemshaw, op.cit.,p.85;Freeman, op. cit., p.34.

(3) Douglas, op. cit., p.61.

(4) Cam. Med . Hist. Vol. v, p.494.

–Domfront– والمناطق المحيطة بالشمال الغربي لمــاين –Maine– وضمها إلى دوقيته في نورماندي.

وفي عام ١٠٥١م قام وليم بطرد هربرت الكونت الصغير لماين –Herbert of Maine– من وقفه الكنسي بمساعدة جيــوفري مارتــل، وكافأه بضمها إليه، ثم انقلب وليم على جيوفري الأنجو نتيجة وشــاية من أحد أتباعه، وتقدم وليم اثني عشر ميلا داخل ماين وشــيد قلعــة أمبريرز –Ambrieres– وذلك إمعانا في تحدي جيــوفري المتــزعم لماين الغربية، والذي أجبر على إعلان الولاء والإخلاص لوليم[١].

أما في ماين الشرقية التي كانت تحت سيطرة جيــوفري أيضــا فإنها لم تتأثر كثيرا، ونكاية في وليم قام جيوفري بخطبة طفله الرضيع روبرت لأخت الكونت هربرت مارجريت –Margaret– واضعا فــي اعتباره حق هربرت في ماين وكذلك نورماندي، وفي عــام ١٠٦٠م توفي كلا من هنري ملك فرنسا وجيوفري الأنجو وتبعهم هربرت في ١٠٦٢م[٢].

وبعد عام توفيت مارجريت قبل زواجها من روبرت، وضــاعت بذلك قلعت لي مانز –Lemans– ولكن وليم أصر على الاحتفاظ بها، واتخــذ لقب كونت ماين، مما أثار معارضة ملك فرنسا فيليــب الأول –Philip I–، وكان قاصرا تحت وصاية بلدوين كونت الفلاندرز –عم وليم– بينما مسألة خلافة الأنجو كانت قد تحولت إلى نزاع بين ابنــي أخ جيوفري مارتل، وأصبح بذلك لوليم مطلق الحرية[٣].

وبحلول عام ١٠٦٥م أصبح وليم أكثر قوة في دوقية نورمانــدي بشكل كبير مما كان عليه سنة ١٠٤٧م، واتخذ بعض الخطوات التــي تمكنه من فرض سلطته على الدوقية، فقد قام بتثبيت معايير الخدمــة

(1) Cam. Med . Hist. Vol. v, p.495.

(2) Freeman, op. Cit., pp 37-38.

(3) Cam. Med . Hist. Vol. v, p.495.

العسكرية الخاصة بالبارونات، ومنع بناء القلاع والحصون دون موافقته[1].

وعندما توفي الملك إدوارد المعترف في سنة ١٠٦٦م، كان من بين المطالبين بالعرش الإنجليزي هارولد بن جدوين Harold Son – Godwin–، والذى أصبح إيرلا لمقاطعة وسكس في سنة ١٠٥٣م، ومنذ وفاة والده حتى ذلك الحين حقق لنفسه شهرة بفضل مآثرة الحربية في ويلز ، وفي عصره كان لابد أن يكون الملك شخصية مقاتلة، وشجاعة هارولد الحربية هي التي ذكته لإعتلاء العرش مادام لم يظهر أحد أكثر منه مقدرة، لذلك فكر إدوارد وهو على فراش الموت في هارولد، ليكون خليفة له على العرش الإنجليزي[2].

وأصبح هارولد ملكا على إنجلترا بصفة رسمية في السادس من يناير ١٠٦٦م، وتم تتويجه في كنيسة ويستمنستر[3].

على أن الشخصية السكسونية المهمة التي تصدت لإعتلاء هارولد العرش، لم تكن سوى أخيه توستنج –Tosting– ، وكان رجلا محنكا ومقربا من الملك إدوارد وأصبح حاكما لنورثمبريا –Northumbria– في سنة ١٠٥٥م، وهي أكبر الأقاليم الإنجليزية، ولو قُدّر أن يظل في الحكم إلى ١٠٦٦م لاتخذ التاريخ الإنجليزي مسارا آخر ، إذ ربما فضله الملك إدوارد على شقيقه هارولد[4].

---

(1) Cam. Med . Hist. Vol. v, p.496.
(2) Hemnshaw, op. cit. , p.83.
(3) William of Newburgh, Historia Yeurn Anglicacrum , in Chroniclss of The Reigns of William 1, William 11, Henrey1, Stephen, Trans by Howlett, 2vols,Rs,1984. p.20; Fliche, Histoire Dumoyn Age,1 'Europe occide Ntale de 888 a1125, Tome11, paris, 19350, p.379.
(4) Douglas, op. Cit. , p.179.

وكان هارولد قد تزوج من ابنة حاكم نورثمبريا، وسعى إلى عرقلة عودة أخيه توستنج إلى نوثمبريا، واعتمد على مساعدة أخويه الصغيرين جايرث -Gyrth- وليوفوين -Leofwine-[(١)]، وظهر طامع آخر في العرض الإنجليزي وهو هيرالدا هارداراذا - Herald Hardrada- ملك النرويج الذي خامرته الرغبة في أن يكون مطالبا ثالثا بالعرش الإنجليزي[(٢)]، وتحالف هيرالد مع توستنج ضد هارولد، وأدرك هارولد خطورة هذا التحالف والتهديد من ناحية الشمال، فعرض هارولد على توستنج إقليم نورثمبريا كمحاولة متأخرة لإبعاده عن التحالف، ولكن توستنج رفض عرض هارولد بازدراء[(٣)].

ولم يحدث من قبل أن غزا إنجلترا جيش من الشمال مثل الجيش الذي قاده هيرالد، إذ كان جيشا قويا ومدربا جيدا، وعندما وصل هيرالد إلى مصب نهر تاين -Tyne- وانضم إليه توستنج وأصدقاؤه

---

(1) Freenan; op . Cit., p.39.

(٢) كان هيرالد هارداذا أحد المغامرين من الفيكنج في ذلك العصر، ومن أشهر المحاربين في عصره، وفي شبابه ترك بلاده النرويج وذهب إلى روسيا، وحققت شجاعته الحربية احترام ياروسلاف الحكيم Yarolset the wise، والظفر بيد ابنته، ثم رحل إلى القسطنطينية وعمل قائدا للحرس الفارنجي Varangian، وعاد للنرويج كملك في سنة ١٠٦٦ وطالب بالعرش الإنجليزي بناء على معاهدة عقدها ومع هارث كانوت Hartha Canute مع ماجنوس Mabnus أحد أسلافه.

انظر في ذلك:

- جوزيف داهموس: المرجع السابق، ص ٨٢.
- Hounson, History of English people, London, 1972, p.31.

(3) Davis (H.W.C) , England under the Normans Angevins, London, 1930, p.5.

(3) Davis (H.W.C) , England under the Normans Angevins, London, 1930, p.5.

وتجاوز تعداد أسطوله ثلاثمائة سفينة عندما اتجه من بيرجن -Bergen- عبر شيتلاند -Shetands- وأوركنز -Orkneys-.

وفي أوائل سبتمبر اتجه هيرالد وتومستنج جنوبا، وفي العشرين من سبتمبر وعلى بعد ميلين جنوب يورك عند بوابة فولكفورد -fulkford- هزم الجيش الإنجليزي الذي كان تحت قيادة كل من حاكم مرسيا -Mercia- ونورثمبريا، وتقدم هيرالد إلى يورك التي استسلمت، وأقام معسكره علي بعد تسعة أميال من المدينة عند ستامفوردSramford bridge[١].

وفي الوقت نفسه كان هارولد مشغولا بتدعيم أركان عرشه المترنح، فقد سافر إلي يورك حيث تزوج من إيلد جيث -Ealdgyth- شقيقة كل من أدوين حاكم ميرسيا -Edwin of Mercia- ومخوركار حاكم نورثمبريا -Mocar- ، كخطوة منه ليتأكد من مساعدة هذين الحاكمين الشماليين له[٢].

ولم يكد هارولد يصل إلى لندن حتى علم بأن هيرالد أنزل قواته في الشمال، وهزم الإنجليز في فولفورد -Fulford- وأسرع تجاه الشمال، وجند كل من استطاع تجنيده من قوات المقاومة الشعبية، وكان هارولد معروفا بالتهور، بيد أن خبرته في محاربة أهالي ويلز علمته عنصر المفاجأة الذي حقق له النصر في موقعة جسر ستامفورد في الخامس والعشرين من سبتمبر، غير أن المؤرخين لم يذكروا سوى الخسائر الفادحة في الأرواح التي منيت بها قوات هيرالد وتوستنج، إذ لم يبقى سوى عشرين سفينة من ثلاثمائة[٣] .

---

(1) Brook, op. cit., p.153.

(2) Hernshaw, op. cit.,p.84; Cam. Med . Hist. Vol. v, p.497.

(3) Hernshaw; op. cit.; p.87. =

غزو إنجلترا:

وبينما هارولد جالسا في وليمة أقامها احتفالا بانتصاره، أبلغه بعض رسله بخبر وصول وليم إلى وسكس[1] .

أسرع هارولد في استدعاء القوات الشعبية لحماية سواحل وسكس وكنت –Kent– اللتين تقعان في مواجهة نورماندي، وتولي قيادة أسطول السكسون الذي كان في جزيرة وايت –Wight–.

وفي الثامن من سبتمبر سرح هذه القوات، وحرك سفنه تجاه لندن، وليس معروفا السبب الحقيقي وراء ذلك وربما يكون ذلك لسببين:

الأول : احتمال انقضاء مدة الشهرين المطلوبة لبقاء القوات الشعبية، ولم يكن في استطاعة أحد إبقاؤهم أكثر من ذلك .

– – جوزيف داهموس : المرجع السابق، ص ٨٤.

(١) كان وليم الفاتح أحد الطامعين في العرش الإنجليزي ، ويقال إن إدوارد المعترف وعده بخلافته على العرش، غير أن كتاب الحوليات يوافقون على أن هارولد وجد نفسه في بحر المانش سنة ١٠٦٤، إما في رحلة صيد أو في سفارة لوليم، ويوافقون على أن سفينته جنحت ووقع في قبضة الكونت جوي من بونيثرو الذي قام بتسليم هارولد لسيده الإقطاعي الأعلى وحصل منه على مكافأة، والتزم هؤلاء الكتاب الصمت بخصوص الوعود التي أعطاها هارولد لوليم ، وأرسل وليم لهارولد مذكرا إياه بوعده له، وأعلن للعالم أنه مغتصب للعرش الإنجليزي، وأرسل إلى البابا اسكندر الثاني الذي وافق على الفتح وأرسل له البيرق البابوي كعلامة على التأييد البابوي لغزو إنجلترا.

انظر في ذلك :

– Cam. Med . Hist. Vol. v, p.497; Douglas, op. cit., p61; Derry.op. cit.,p85.

– جوزيف داهموس : المرجع السابق ص ٨٤.

الثاني: أن الرياح التي كانت تهب من الشمال إبان شهر أغسطس هي التي جعلت الرحلة من نورماندي مستحيلة، ومع هبوب الرياح يومًا بعد يوم قللت من خطر غزو بريطانيا [١]. وأخيرا غيرت الرياح اتجاهها وهبت من الجنوب، وبذلك استطاع وليم نقل قواته إلى الشاطئ البريطاني [٢].

وكانت هناك مشكلة قابلت وليم، فقد عقد مجلس من البارونات وطلب منهم أن يساندوه في حملته، ولكن ثمة صعوبة في ذلك، إذ أن القانون الإقطاعي لم يعط الدوق أي حق في طلب مثل هذه المساعدة خارج فرنسا [٣]، ولكن وليم تغلب على هذه المشكلة بطلب متطوعين من خارج نورماندي، وقام بإنشاء مواصلات في جميع أنحاء الدوقية، وقام بتشييد مخازن للسلاح والمؤن، بحيث تصبح جاهزة بحلول موسم الحصاد، وكان أكثر المتحمسين للحملة وليم فتز أسبورن – William Fitz Osborn –، الذي كان يعرف جنوب إنجلترا جيدا، وقد طالب العديد من المغامرين الأشداء أن ينضموا تحت راية وليم [٤].

ويذكر – ليون – أن وليم حصل على مساعدات كبيرة من خارج نورماندي، فهناك عدد ضخم من إقليم بريتاني – Brittany – بقيادة براين – Brian – وألان بنثيفر – Alan of Penthievre –، وعدد من الفلامنجيين – Flemings – يساوي عدد البريتانيين في جيش ولسيم، وجاءت كتائب من آرتوس – Artois –، وبيكاردي – Picard –، وقدم أوستاتس بولونيا عدد كبير من فرسانه – Eustace –، ووصلت مساعدات قليلة من ماين والأنجو، وبضعة فرسان من مناطق نائية مثل تشامبين – Champagne – وبواتيو – Poitou – وأبوليا، وذكر المؤرخون الأعداد الكثيرة التي انضمت إلي وليم [٥].

---

(1) Douglas, op. cit., p.191.; derry, op. cit.,p58.
(2) Lemmon (the campaign of 1066) ed Leyon, (Norman conquest, Lodon, 1969; p.83.
(3) Cam. Med . Hist. Vol. v, p.497.
(4) Lemmon op. cit., p83.
(5) Cam. Med . Hist. Vol. v, p.497.

ويتضح من الاستعدادت التي أعدها وليم لهذه الغزوة أنه لم يكن مغامراً، فقدا استطاع جمع جيش يلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل، وهــو جيش يصعب جمعه، وإن كان هذا العدد يشمل من يقومسون بإعــداد الطعام والملاحة وإقامة المعسكرات[١].

وقدمت نورماندي حوالي ألفاً ومائتي فارس، ووصف الشـــاعر واس –wace– الحملة في قصيدته : "الرومان على الطريق"، في سنة ١١٧٢ قال: "إن والده أخبره أن عدد السفن الخاصة بنقل الجند تصل إلى حوالي سبعمائة سفينة وإن كان أكبرها عبارة عن بارجة مفتوحــة بشراع مربع واحد تحمل أكثر من دستة خيول"[٢].

وفي الثاني عشر من سبتمبر نقل وليم جيشه إلى قاعــدة جديــدة على مصب نهر القديس فاليري –St. Valery– ثم إلى مصــب نهــر

---

(١) اختلف المؤرخون في تقدير عدد جيش وليم، فقد ذكرت موسوعة كمبريدج أن عدد الجيش بلغ حوالي خمسة آلاف رجل منهم ألفي فــارس مسلحين بجيادهم المدربة، وثلاثة آلاف من المشاة وأطقم قيادة السفن .
انظر في ذلك :

– Cam. Med . Hist. Vol. v, p.497.

– وذكر –Mowat– أن عدد جيش وليم يقدر بحوالي عشـرة الاف إلـى خمسة عشر ألفاً من المشاة والفرسان .
انظر في ذلك:

– Mowqt, op., cit. ,p.45.

– ويذكر Petit أن عدد جيش وليم يقدر بحوالى ستة آلاف رجـل تحملهـم سبعمائة سفينة .

– أما جونسون –Heunson– فذكر أن تعداد جيش وليم يبلغ سـبعة آلاف رجل وقسمهم إلى: القلب من النورمان، والميسرة من البريتون، والميمنة من الفرنسيين وطليعة الجيش من الرماه ثم المشاة ثم الفرسان.
انظر في ذلك :

– Hounson , op. cit., p.31 .

(2) Lemmon , op . cit., p.84.

سومي -Somme- على بعد ستين ميلا من شاطئ سيسكس، ولم يذكر المؤرخون سببا لذلك، وربما كان ذلك بسبب عاصفة هوجاء دفعت سفن وليم إلى الشرق، أو ربما كان يعتقد وليم أن أقصر الطرق للقتال الإنجليزي يقع عند هذا المصب[1] .

وفي الساعة الثامنة من يوم الخميس الثامن والعشرين من سبتمبر نزل وليم بجيشه على الشاطئ الإنجليزي عند خليج بيفنسي -Pevensey Bay-، وفي اليوم التالي تحرك جيشه صوب هاستنجز -Hastings- على بعد أحد عشر ميلا إلى الشرق وأقام حصنا قويا هناك، وما أن بلغ هارولد نبأ إنزال وليم قواته على الأراضي الإنجليزية حتى غادر يورك -York- وانطلق مسرعا قاطعا حوالي مائة وخمسين ميلا حتى وصل إلى مدينة لندن في السادس من أكتوبر، حيث قضى الأيام التالية في حشد ما استطاع حشده من الجنود، وأعطى فرصة لأخوية جايرث وليوفين لجمع رجالهما لمساعدته[2] .

***

معركة هاستنجز :

وفي الحادي عشر من أكتوبر اتجه وليم بجيشه ناحية هاستنجز* ، التي تقع على بعد ثمانية وخمسين ميلا جنوب لندن، وأقام معسكره على بعد أميال من شمال غرب المدينة، ولا شك أنه كان يأمل أن يؤدي تحركه السريع من يورك إلى لندن إلى إحراز النصر ليأخذ وليم

---

(1) Lemmon , op . cit., p.89.

(2) Douglas , op. cit., p 198 ; Freeman, op p 71.

* هاستنجز : تقع في جنوب شرق المملكة على ساحل القنال الإنجليزي، واكتسبت شهرتها من المعركة التي حدثت بها في الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٠٦٦م، والتي حددت مصير الأمة الإنجليزية .

انظر في ذلك :

- Stenton , Angle- saxon England, press, 1943, p.588.

على حين غرة، كما فعل مع الدانمركيين في معركة جسر ستامفورد[١].

ويذكر المؤرخون أن جيش هارولد كان يبلغ حوالي خمسة آلاف مقاتل إذ أنه من المستحيل القول إنه كان أكثر كثيرا من جيش وليم أو أقل كثيرا منه، فقد ذكر أحد المؤرخين المحدثين أنه يبلغ سبعة آلاف مقاتل[٢].

وأعلن هارولد بمصطلح اليوم التعبئة العامة في البلاد وكان جيشه يعتمد أساسا على المقاومة الشعبية ، وبدأت الأمة الإنجليزية تتكلم عن السلام، وأن يقيموا معاهدة صلح مع وليم، وأقاموا مؤتمرا في بلنجسلي –Billingsley– في شربشاير –Shrop shire– للتشاور فيما بينهم[٣].

وكان العنصر الرئيسي في جيش هارولد يتكون من المشاة الذين وعدهم بمنحهم إقطاعيات، وهؤلاء كانوا يحترفون فن الحرب، علاوة على أنهم من أتباعه وأتباع أخوية الإقطاعيين الأثرياء، وكانوا يحاربون مترجلين بدون خيول "مشاة" كما هي عادة السكسون[٤].

وبصرف النظر عن كل ما حدث من جدل حول المعركة، فإن خطوطها الرئيسية بدأت واضحة المعالم تماما، فقد احتلت فرق هارولد تلا محصنا يبعد إلى الداخل من هاستنجز نحو ثمانية أميال عن طريق لندن، واصطف الكارولات المهرة –House Carles– يحميهم حائط متين من الفرق الأخرى المسلحة تسليحا جيدا، ولاسيما من السكسون،

---

(١) جوزيف داهموس : المرجع السابق ، ص ٨٩ .

- Ordericus; v . , op. cit., p. 31.

(2) Derry , op . cit., p 50.

(3) William Hunt, the political History of England, press, 1943, p. 466.

(4) Freeman , op. cit., p 73.

ويدعمهم من الخلف المجندين من أبناء الريف المسلحين بالرماح، والهراوات الحجرية والفئوس التي يحارب بها الفلاحون من السكسون، ولديهم القليل من رماة السهام، ولم يكن لديهم فرسان على الاطلاق، ولم يكونو حتى ذلك الوقت قد تعلموا أن يحاربوا كفرسان، ولهذا السبب اتخذوا من سطح الجبل والتلال المجاورة مكانا لهم للحماية من هجمات الخيالة النورمان[1].

وعن أحداث المعركة، فإن أكثر المصادر المعاصرة التي أفردت لهذه المعركة مساحة عظيمة هي اللوحة المرسومة على قطعة القماش المطرزة بمدينة بايو –Beyeaux Tepestry–[2].

ويذكر المؤرخون النورمان وعلى رأسهم "وليم مالمسبوري" أن الدوق وليم قضى مع جيشه الليلة التي قبل المعركة في الصلاة والتوسل إلى الرب، بخلاف الإنجليز الذين قضوا هذه الليلة في الغناء والشراب كما لو كانوا في عيد[3].

---

(١) محمد محمد الشيخ : ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، الفتح النورماني لإنجلترا ، ج ٢ ، دار المعارف ، ١٩٨٣، ص٥٢٥–٢٥٣.
– Freeman , op. cit., p.73 ; Douglas, op. cit., p.199.

(٢) كانت هذه اللوحة تمثل مصدر هام من مصادر المعركة وبقيت حية إلى الآن وستبقى يقام العالم بالأدلة المرئية عن طريق الصور الوصفية للمعركة، ويبلغ طول اللوحة حوالي ٢٣٠ قدما وعرضها ٢٠ بوصة، ويبلغ عدد اللوحات ٧٣ لوحة منفصلة تصف أحداث المعركة في تسلسل تبدأ من سفارة هارولد إلى نورماندي سنة ١٠٦٤م ، وتنتهي بموت هارولد في معركة هستنجز وقام بالإشراف على تصميم القطعة أودو أسقف بايو، وصممت بعد المعركة بحوالي اثنى عشر عاما سنة ١٠٨٢م عن طريق جنود نابليون وبقيت هذه اللوحة محفوظة في متحف باريس .
انظر في ذلك :
- Brial , & Blakeley, op .cit., pp. 31-36.

(3) Douglas , op. cit., p. 200.

أما وليم فقد تكون جيشه من رماة السهام والمشاة من الجنود المسلحين بأسلحة ثقيلة، ثم الفرسان بدروعهم[1]، وكان تسليح الجيش النورماني أفضل بكثير من الجيش الإنجليزي، حيث يحمل الجندي النورماني سهامه وأقواسه، ويرتدي درعًا حديديًا وهو فوق حصانه، أما جندي المشاة فكان يرتدي خوزة على رأسه، ويرتدي قميصًا حديديًا وصدرة مصنعة من الجلد لتحميهم من سهام الأعداء، أما السكسون فكان سلاحهم الوحيد البلطة الدانمركية، وهو سلاح تدميري بالإضافة إلى الفئوس الحربية[2].

ولقد دارت رحا معركة هاستنجز في أرض فقيرة نسبيا، ويحدد المؤرخ "جونسون" مكان المعركة بوجود شجرة تفاح رمادية " فوق التل وتبعد حوالي ستة كيلو مترات شمال هاستنجز، ولم تكن تلك المنطقة هي التي اختارها هارولد لاستخدام القوة لحسم الموقف بينه وبين وليم، وإنما كان المكان الذي توقف فيه مساء يوم الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٠٦٦[3].

ووصل رجال هارولد حيث تحركوا من لندن، ووصلوا لمكان المعركة وهم في غاية الإجهاد من بعد المسافة، وقرر هارولد الاستراحة في تلك الليلة ومباغتة معسكر وليم في اليوم التالي، ورأى معظم المؤرخين أن هارولد لجأ إلى الأسلوب الذي اتبعه في معركة جسر ستامفورد لمباغتة وليم ، وهناك احتمال أنه تحرك بسرعة ناحية الجنوب بهدف عدم تمكين وليم من تخريب الإقليم الذي كان به معظم إقطاعيات هارولد[4].

---

(1) Lemmon, op. cit., p.105.
(2) Derry, op. cit., p.61.
(3) Jounson, op. cit., p.31.

(٤) جوزيف داهموس : المرجع السابق ، ص ٩٢.
- Doglas, op. cit., p.198.

وبدأت المعركة الساعة التاسعة صباحا[1] ، ودفع وليم طليعة جيشه من المشاة تجاه أعلى التل، وما أن تحصنوا حتى شعروا أن سهامهم لن يكون لها تأثير، ولقد بدأت موجات الفرسان من خلفهم ويتقدمهم مغني يدعي تيلفر – وُصف بالشجاعة والإقدام، وكان يتغنى بغناء جميل قاذفا سيفه في الهواء ومتلقفا إياه منشدا :

من رولان ومن شارلمان وأليفر وكل الأفصال

الذين ماتوا في الحرب عند رونشفال[2] .

وركب الدوق وليم وأخواه غير الشقيقين: الأسقف أودو وروبرت كونت موران، ويتوسطهم العلم البابوي المرسل من روما يحمله فارس يدعى ثورستان Thurstan، وكان الدوق وليم يحمل حول عنقه قسم هارولد له[3].

وتحرك هارولد بجيشه إلى التل ليدفع بكل قواته لمواجهة هجوم النورمان[4] ، وكان عدد جيش هارولد ربما يفوق عدد الغزاه ، ولكن إمكانيات الجيش الإنجليزي كانت أقل من نظيره النورماني، حيث أن عدد الرماة عنده قليل للغاية، وكذلك عدد الفرسان المواجهين لفرسان النورمان في جيش وليم[5].

وأعطي هارولد أوامره لرجاله ألا يتركوا أماكنهم تحت أي ظرف، لأنه كان يعلم أن الأعداء عليهم أن يهاجموا رجال هارولد من أعلى منحدر شديد، سواء كان ذلك في المقدمة أو على الجانبين، ولكن

---

(1) Doglas, op. cit., p.198.

(٢) محمد محمد الشيخ : المرجع السابق ص ٢٥٣-٢٥٤.

(3) Freeman, op. cit., p.78.

(4) Jounsos, op. cit., p.31. ; Freeman, op. cit., p.78.

(5) William of poiters, gesta Cuillelmi Ducis Nermannorumet Regis Anglorum, Trans by Folevill, paris, 1952 , p.188.

رجال وليم تقدموا بثبات، حيث تقدمت وحدات المقدمة من كل قسم الذي يتكون من الرماه ثم المشاه يتبعهم الفرسان[١].

وقاتل الدوق وليم بنفسه في المعركة، ويقال إن الإنجليز قتلوا له ثلاثة خيول كان يمتطيها، وكان أخوه أودو في أرض المعركة يحث الجند على القتال، ولم يحمل أدوات القتال لأنه من رجال الكنيسة[٢]، ووقف وليم ورجاله بضعة ساعات لإقتحام الجبل، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل، ووضع ذلك وليم في موضع صعب، إذ كان عليه أن يمنع تراجع البريتانيين عصب جيشه وهم في حالة هيسترية[٣].

وذكر "وليم بواتيه" أن الدوق وليم استخدم التكتيك الحربي الخاص بالانسحاب المخادع[٤]، حيث استخدم وليم استراتيجية التظاهر بالهروب والتراجع من ناحية اليمين، وهنا تم إغراء الإنجليز بالاندفاع أسفل الجبل لمتابعتهم، بينما التف الفرسان النورمانديين بخيولهم حول الجبل وبسهولة قطعوهم إربا إربا، وهذه كانت الفاتحة التي كان يرجوها وليم، وعندما تجدد الهجوم استطاع الفرسان النورمانديين الضغط بشدة على الحائط المتين من قوات المشاة الإنجليزية حتى تراجعوا[٥].

---

(1) Cam. med. Hist., vol. v.pp.500-501.
(2) Douglas, op. cit., p.200.
(3) Cam.med.hist. , vol.v, p.501.
(4) William Poit, op. cit., p.189.

- يذكر ليمون وليون في دفاعهما عن هارولد، بأنه كان محاربا محنكا للحد الذي لا يجعله يتعرض للخديعة الحربية نفسها ثلاث مرات، ولاسيما أن موقع الإنجليز في المعركة كان جيدا :

انظر في ذلك :

- Lemmon, Leyon, op. cit., p.107.

(5) Cam. Emd.Hist., vol. v, p.501.

وقد أصيب هارولد بسهم قاتل في عينه، وبسرعة التف فرسانه حول رايته، ولكنهم قتلوا في الحال من جانب فرسان الدوق وليم، وأصبح الجيش الإنجليزي بحلول الليل مجموعة مبعثرة من الجنود بدون قائد، وهربوا داخل الغابات، وكانت كارثة هارولد تامة فقد قتل أخواه جايرث وليوفين، وذبح العديد من قادته[1].

وبعد انتهاء المعركة ، سيطر وليم على الموقف تماما، وبدأ التحرك ناحية رومني Rommeny ودوفر Dover لكي يؤمن خطوط المواصلات مع نورماندي، وذهب بعد ذلك إلى كانتربري، وفي نفس الوقت كان قادة الكنيسة الإنجليزية في لندن التي يرأسها وستيجاند تعمل بالتعاون مع رئيس ملاك الأراضي بمنطقة ميدلاندذ والمقطاعات الشرقية تحت توجيه إيسجار وسالتر –Aesgar- Stller– والمفوضين البارزين من البارونات في وسكس، وأعلن حاكم نورثمبريا وبعض رجال الكهنوت بما فيهم رئيس أساقفة يورك اختيار أثلنج Aethelin لعرش المملكة الإنجليزية[2].

وبعد تتويج أثلنج قام بتنحية إدوين وموكار اللذان عملا سرا لمنع تنصيب الأمير الصغير الذي لم يبلغ السابعة عشر بعد، وأسرعوا للعودة إلى أقليميهما دون المحاربة في صفوف جيش أثلنج ضد النورمان، ويبدو واضحا أن الشعب الإنجليزي لم يتم صهره ليكون شعورا قوميا واحدا[3].

ويذكر وليمسون: أن أثلنج حفيد إدموند كان شابا أحمقا، ولم يكن بقادر على قيادة الجيش الإنجليزي لمواجهة الغازي، وكان النبلاء متنازعين فيما بينهم كما هي عادتهم، ولم يتمتع أحد فيهم بقوة كافية

---

(1) William Poit, op. cit., p.189.
(2) Cam. Med. Hist., vol. v. p.501.

(٣) جوزيف داهموس : المرجع السابع ، ص ٩٥.

لقيادتهم مما سهل مهمة الدوق وليم[١]، واستطاع وليم اجتياز دوفر التي كانت مفتاح إنجلترا، واستولى على المواقع والقلاع الحصينة في إنجلترا، وقام وليم بتعبئة الجنود وسيطر على الطرق التي تؤدي إلى لندن العاصمة، واتخذ جنوده مواقعهم، وتمركز الجنود في النقطة المتفق عليها، ولم يلتزم رجال أثلنج بمواقعهم مما سهل مهمة وليم في إلحاق الهزيمة بهم بسهولة[٢].

وأثناء هذه الأحداث، وصلت الأنباء إلى وليم بأن الملكة إيدث Edith زوجة الملك إدوارد المعترف، جمعت جنودها في وينشستر واستعدوا لاعتراض جيش وليم، وذلك جعل الأمر أكثر أمانا بالنسبة لوليم للتقدم نحو لندن، ولكن قبل أن يهاجموا المدينة كان عليه من الناحية السياسية أن يقوي وضعه في جنوب نهر التايمز، وبذلك انطلق مسرعا عبر سارثورك Southwar وكينجستون Kingston، وبطول نهر التايمز، وعند هذه النقطة العطف عائدا نحو الشرق إلى بركهانستد Berkhansted في مقاطعة هيرتفورد Hertford، حيث يستطيع تهديد لندن من الشمال الغربي، ويخترقها بحيث يتمكن من الحصول على ميد لاند، ولأن أدوين وموكار ظلا دون اتخاذ إجراءات، فقرر المفوضون في لندن أن المقاومة المسلحة لا تفيد، وطبقا لذلك رغب المسئولون من الجانب الإنجليزي في مقابلة الدوق وليم ليستسلموا، وكان من بينهم الملك أثلنج، وبذلك انطلقت القوات النورماندية جنوب لندن دون أي مقاومة من الجانب الإنجليزي[٣].

***

---

(1) Williamsom, English History, London,1899, p.1.
(2) Davis, op. cit., p.8.
(3) Cam. Med. Hist., vol.v, p502; William of poit, op. cit., p.216.

تتويج وليم ملكا على إنجلترا :

وتوّج وليم الفاتح ملكا على إنجلترا في كنيسة "إدوارد المعترف الجديدة" في ويستمنستر على يد كبير أساقفة يورك إيلدر Ealdrd[1].

وعندما تم تنصيب وليم كان اتجاهه نحو هؤلاء الذين خضعوا له عن طريق الفتح قد تغير من موقف الغازي الذي يعتمد على بث الرعب والدمار إلى ملك قانوني يطلب أن يلتف الناس حوله، وموقفه في عيون رعاياه الجدد في أن يمنحهم السلام العظيم كما في نورماندي[2]، إلا أن وليم واجه مأزقا، ذلك أنه لم يستطع أن يسمح لملاك الأراضي التي صارت في حوزته أن تظل دون حماية نورماندية، أو يخاطر بإثارة غضب الجنود الذين ساعدوه في انتصاره بتجنب حصولهم على مكافأتهم التي وعدهم إياها[3].

ولكي يشعر بالأمان قام بمنح قادته وتابعيه الكبار إقطاعيات كبيرة، وقاموا هم بدورهم بتوزيعها على تابعيهم، وبدأ وليم في التفكير بأن يحصل على أراضي كافية لكي ينعم على رجاله بفيض كرمه الكبير[4]، حيث قام وليم بمصادرة الإقطاعيات الإنجليزية بشكل

---

(1) William of New burgh, vol.1, cit., p20 ; Davis, op. cit., p.9p Cam. Med. Hist., vol. v. p502; Hasskins, op. cit., pp.80-81p; Douglas, op. cit., p.206; Fliche, op. cit., p.384; Freeman, op. cit, p.87.

- ويذكر وليم بواتيه أنه حينما كان وليم الفاتح في ولنجفورد جاءه إنهمه ومستجاند وأقسم له يمين الولاء والإخلاص.

انظر في ذلك :

- Willam of poit, op..cit., p.216.

(2) Cam. Med. Hist., vol .v, p.502.
(3) Cross, op. cit., p.76.
(4) Dietiz, Apolitical and social History England, New York,1973, p.32.

شرعي بتهمة الخيانة ، والمناطق التي لم تعارضه مثل وسكس الغربية وميركيا الشمالية ونورثمبريا لم يقم بمصادرة كل إقطاعياتهـا، وبعد ذلك وجه وليم جهوده نحو تنظيم النصف الشمالي الشرقي من البلاد، واضعا في اعتباره الحفاظ على القوانين والعادات الإنجليزية، حتى هولاء الذين كانوا قد ساعدوا أثلنج كان يمكن أن يحصلوا على أمنهم وسلامتهم بدفع غرامات أو توفير أديرة للعبادة في وسكس وشرق إنجليا Anglia[1]، ومعظم أصحاب السلطة البارزين في إنجلترا كانوا يؤيدون وليم مثل أسقف لندن بيري Bury ، والقديس إدموند St. Wimar، ورالف ستالر -Rolf Staller- ، وروبرت وايمار - Robert -Wimar- ، وجميعهم كانوا يؤيدونه لأنه مثلهم من أصل فرنسي، إلا أن سياسة الانتظار التي اتبعها وليم جاءت بثمارها في ميد لاند ، حيث أن أهل مرسيا البارزين مثل إدوين وموكار اتجهوا إلى بلاط وليم في باركنج -Borking- وأقسموا قسم الولاء والإخلاص، وقوبل الميدان مقابلة حسنة من جانب وليم، لأنهم لم ينضموا لمعارضي الملك وليم، لذلك أمنهم على ممتلكاتهم بشرط أن يظلوا في صحبته[2].

وبحلول شهر مارس كان وليم قد أصبح آمنا بشكل يجعله يقوم بزيارة إلى نورماندي لغرض مزدوج: ليتقدم تقدم الظافرين للدوقية من جهة، ويثير الرعب في جيرانه الأوربيين من الجهة الأخرى.

ولكي يضفي على رحلته الجلال اصطحب معه الملك الإنجليزي أثلنج والأسقف ستجاند والإيرل إدوين وموكا وإيرل وليثوف -Waltheof- والعديد من الشخصيات الإنجليزية البارزة، وحمل معه كمية ضخمة من الذهب والفضة التي استولى عليها من المقاطعات، لكي يقوم بتوزيعها على الكنائس في نورماندي كنوع من الشكر للرب على نجاحه في غزو إنجلترا[3].

---

(1) Freeman, op. cit., pp.89-90.
(2) Cam. Med. Hist., vol .v p.503.
(3) Willam poit, op. cit., p.238.

وترك تدبير دفة أمور إنجلترا في يد أخيه أودو أسقف بايو ووليم أسبورن، وكان مقر الأول في كنت وسكس، والثاني في هامشاير بجزيرة وايت Wight، ومجلس الوصاية كان موجودا في مقاطعة جلوستر Gloucaseter Shire.

***

ثانيا : رد فعل الشعب الإنجليزي من الفتح النورماني

لقد حدثت ثورات عديدة في التاريخ الإنجليزي[1]، والحقيقة أن هذه الثورات كانت رد فعل طبيعي من قبل الشعب الإنجليزي لما يشعر به الفرد من ظلم وقهر، ونظرا لقوة وليم في ذلك الوقت لم تحدث ثورات خطيرة من جانب الإنجليز، ولكن كانت هناك انتفاضات غير مؤثرة، وكانت هذه الثورات على المستوي السطحي، وهي عبارة عن ثورات من المطالبين بالعرش أو الطامعين فيه، أو من أمراء الإقطاعيات حرصا على مصالحهم الشخصية، وإن كانت هناك مناطق لم تخضع لسلطتهم فسعى معظمهم لضمها، وهناك حالة الشغب أو المحاولة غير الناجحة التي قام بها أستاس من بولونيا، وساعده بعض الرجال من كنت لكي يزيحوا إدوين من موقعه في دوفر، وهي مواقع يزعم الكونت أستاس أنها حق له[2].

وفي ديسمبر سنة ١٠٦٧ عاد وليم من نورماندي، وأدرك سريعا أن المناطق النائية لن تخضع لسلطته دون إجبارهم على ذلك، والبداية

(1) Keth Feilinf, Ahistory of England; From the coming of the Norman to 1918, London, 1950, p.79.

(2) Brook, Soxon and Noroman, op. cit., p.177.

كانت لوالدة جيثا –Gtha–* والتي مازالت تسيطر على غرب وسكس، على الرغم من أن رجال سرموست قد تخلوا عنها، وتطلب الأمر تحرك وليم إلى إكستر –Exeter–، وقبل انتهاء حصار المدينة التي استغرق ثمانية عشر يوما دخل رجال ديفون Devon وكرنول Cornwall تحت لوائه[1].

وكان هناك انتفاضة أخرى من جانب إدوين وموكار تحولت إلى ثورة، حيث انطلق أثلنج مع إخوته نحو الشمال، وكان جوسباتريك Gospatric الذي اعترف به وليم كأمير لبرنثيا Bernicia قد اضطر إلى إعلان أثلنج ملكا للبلاد، وبذلك تحدى وليم الذي أسرع بدفع قواته نحو يوركشاير، وكانت سرعة تحركاته في ورميك Warmick ونوتنجهام Nittigham ويورك مما ساعده على التحرك إلى يورك شاير، وكان قادرًا على دخول يورك بدون معركة[2].

وجدد وليم التحالف بينه وبين أدوين وموكار، ولكن إدجار وجوسبارتيك طلبا اللجوء إلى بلاط الملك مالكوم كانمور – Malocolm Canmore– ملك أسكتلندا (١٠٥٤–١٠٩٢م) الذي استقبلهم بكمل ترحاب، ولكن وليم لم يذهب أبعد من يورك وتحول نحو الجنوب مرة أخرى، وقضى فصل الخريف في بناء الضيعات في لنكولن وهانتجدن Huntingdon كمبريدج[3].

---

* دفعت جيثا والدة هارولد ثقل جثته ذهبا للحصول عليها، فلم يقبل وليم بما دفعت، وأمر أن تلقى الجثة على الشاطئ فتأكلها الأسماك، إلا أن بقاياها جمعت بعد ذلك ونقلت إلى كنيسة ولثام، وهذا ما دفعها للقيام بالثورة انتقاما من وليم.

انظر في ذلك:

– أدمون – ديمولان: المرجع السابق، ص ٢١.

(1) Hemshaw, op. cit., p.89.

(2) Davis, op. cit., p.18.

(3) Williamson, op. cit., p.4.

وصمم وليم على أن يكون له موقع في الشمال، وقام بإعطاء منصب الإيرل الخاص لبرنشيا لأحد تابعيه من الفلمنجيين وهو روبرت كومانيز -Robert Commines- ، وأرسله في بداية ١٠٦٩م بقوة عسكرية مكونة من خمسمائة فارس إلى درهام -Durham-، وقد باء هذا التحرك بكارثة، وذلك لأن أهل نورثمبريا انقضوا فجأة وقتلوا كومانيز ورجاله، وظهر على الساحة منافس آخر وطالب بحقه في العرش الإنجليزي وهو سيفن إيسترسون-Sevin Estrithson-، واستعان بملك الدانمرك، وقام بإعداد الجيش لكي ينفذ إدعائه بالقوة في أحقيته بالعرش الإنجليزي ، وعلى اعتبار أنه وريث الملك كانوت(١).

***

الحملة الدانمركية على إنجلترا سنة ١٠٦٨م :

انطلقت الحملة الدانمركية في أغسطس سنة ١٠٦٨م بعد هجمات غير مؤثرة على كنت وشرق إنجليا، حيث قام الملك الدانمركي مالكلوم كانمور بضم قواته مع قوات أثلنج في هامبر، وسقطت في أيدي قواتهما يورك مع نهاية شهر سبتمبر، وقد لعب والثوف -إيرل يورك شاير- دورًا بارزًا في هذا الهجوم(٢).

أما عن وضع إنجلترا قبل مجيء الحملة الدانمركية، فإن الأوضاع قد ساءت حيث كان هناك تمرد في شروبشاير – Surop Shire-، وكذلك في مقاطعة وستامفورد ويقوده فارس يدعى إيدريك -Eadric-، وقبل شهر أو اثنين كان بعض من أبناء هارولد غير الشرعيين الموجودين في دبلن -Dublin- قد نزلوا على منطقة قريبة من باذاستابل في ديفون، إلا أنه لم يكن هناك تعاون حقيقي بين أعداء وليم، ومرت الأزمة بسرعة، وكان أعداء وليم من الدانمركيين قد

---

(١) Cam. Med. Hist., vol .v, p.19. ; Davix, op. cit., p.19.

(٢) Douglas, op. cit., p.216; Cam. Med . Hist.; vol .v, p504; Herenshaw, op. cit., p.89.

توغلوا في أجزاء من إنجلترا، وأرسل وليم قادته بسرعة للتعامل مع الخطر القادم من الجنوب، وكان على رأس حملة وليم الأسقف كاوتانيس –Coutances– وبريان بينثيف –Brian Penthievre–، وانطلق وليم بنفسه نحو ستا مفورد، وأرسل جزءا كبيرا من جيشه إلى ليندسي تحت قيادة الكونت مورتان وإيو في جنوب هامبر، واستطاع هؤلاء القادة أن يستعيدوا أجزاء عديدة من أيدي الدانمركيين، إلا أن وليم حجزته فيضانات نهر إيري Airee لأكثر من ثلاثة أسابيع، ولقد أرعب وصوله الدانمركيين الذين أخلوا يورك، وتقدم وليم وأمر بمعاقبة أهل يوركشاير، وأمر كذلك بتدمير البلاد الواقعة بين هامبر وتايين –Tyne– بشكل كامل، وأمر بإحراق القرية تلو الأخرى [١].

ونتيجة لذلك فإن أسقفيات يورك الممتدة من بحر الشمال إلى القنال الأيرلندي أصبحت بلا سكان لمدة عشرين عاما، والحقيقة أن هذا العمل البربري قد أساء لسمعة وليم، ولكنه أدى بسرعة استسلام جسباترك ووالثوف، وحرر النورمانديين من كل أشكال الخطر القادم [٢].

***

ثورة الثائر هرورد الإنجليزي :

هي نموذج للثورات التي عبرت عن رد فعل الشعب الإنجليزي تجاه الغزو النورماني لإنجلترا، تلك الثورة التي قام بها هرورد ليفرك

---

(١) كل هذا الخراب والدمار الذي جلبه الفاتح على الشعب الإنجليزي أدى إلى مجاعة يذكر المؤرخون المعاصرون أنها تسببت في موت أكثر من مائة ألف شخص، وهرب عدد كبير من الإنجليز إلى أسكتلندا خوفا من بطش وليم ورجاله، لأن ملك أسكتلندا ارتبط مع الإنجليز بصلة النسب، حيث تزوج مالكلوم كانمور مارجريت أخت أثلنج .

انظر في ذلك :

- Williamson, op. cit., p.3. ; Lioyd, op. cit., p.105.

(2) Cam. Med. Hist. ,vol. v, p.505.

-Hcrewrd Leofric- زعيم شرق أنجليا ويدعى هرورد المتيقظ، وكان من الزعماء المشهورين في التاريخ الإنجليزي.

وذكر الملك وليم أنه لو وجد في إنجلترا رجالا قليلين في شجاعة هرورد لاستطاعوا أن يحافظوا على العرش الإنجليزي[1].

ويذكر "وليمسون" أن هرورد عندما كان طفلا تمتع بشجاعة فائقة، وعندما أتم رجولته كان قد تعلم فنون الحرب والقتال، وكانت طبيعته الوحشية وشجاعته النادرة قد أقلقت الأعداء مرارًا وتكرارًا، وعامله الملك إدوارد كخارج على القانون أيام والده، وعاش هرورد فترة طويلة خارج وطنه، وعندما توفي والده اغتصب الغزاة النورمان بيت العائلة منه، واغتصبوا أرضهم ووزعها الملك وليم على أتباعه، لذلك صمم هرورد على العودة إلى إنجلترا واستعادة وضع ومكانة والده السابقة[2]، وعند عودته وجد النورمان قد استولوا على ممتلكاته الخاصة فقتل عددًا منهم، لذلك كلف وليم رجاله بالبحث عنه وقتله، وتكلف هرورد عناء البحث عن مكان آمن للاختفاء فيه بعيدا عن أنظار النورمان، ووجده في جزيرة إيلاي -Ely- في مقاطعة كمبريدج مع جماعة من أتباعه المخلصين، ولجأ هرورد إلى معسكر تابع للجزيرة، وكانت هذه الجزيرة مكان آمن للاختفاء، حيث كان محاطا بالمستنقعات، ولم يكن لها طريق أو ممر حتى يستطيع الجيش النورماني الهجوم على هرورد وأتباعه من النبلاء الذين انضموا إليه[3].

وقام النورمان بمجهودات كبيرة للقضاء على هرورد دون جدوى، وبعد فترة بدأ وليم بناء ممر لعبور هذه المستنقعات التي تمكنه

---

(1) Trevelyan (G.M), A.shortened History of England, New York, 1942, p.121.

(2) Williamson, op. cit., p.19.

(3) Dougls, op. cit., p.222.

من بسط سيطرته عليها، ووضع هرورد عوائق لتعوق تقدم النورمان، وهاجم وليم عددًا من رجال هرورد، وأشعل النيران في الغابات عن طريق الممر الذي بناه النورمان، وأظهر هرورد الكثير من الشجاعة المهارة الحربية التي اكتسبته إعجاب واحترام أعدائه من النورمان[1]، وكان وليم قد فقد الأمل تقريبا في اختراق دفاعات المعسكر الذي لجأ إليه هرورد وأتباعه، ولكن بعض الرهبان في جزيرة إيلاي الذين تقدموا للصلاة ليكشفوا عن سر الممر خلال المستنقعات في الجزيرة، واستطاع عدد من الجنود النورمان اختراق الممر والوصول إلى هرورد وأتباعه[2]، وقاتل هرورد الإنجليز بمهارة وشجاعة وسقط منهم ألف قتيل، وعندما رأى هرورود بعين القائد المحنك أن استمرار الحرب ليس في صالحه هو ورجاله، لذلك قرر الهرب من جزيرة إيلاي مع عدد من رجاله، وبحث له عن ملجأ آخر في مقاطعة لنكولن، وقرر هرورد أن يواصل نزاعه المسلح مع النورمان، ولكن النورمان ضيقوا الخناق على هرورد، ولم يعد هناك أمل للإنجليز في الحصول على حريتهم من النورمان، وفي النهاية قرر هررود أن يستسلم ، وبشيء من الشجاعة والفروسية المعهودة منه ذهب هرورد إلى وينشستر حيث مقر الملك وليم، واتجه إلى البوابة وطلب من الحراس أن يخبروا الملك وليم أن هرورد قد حضر، وسر وليم لذلك، وأمر وليم بقتله لتنتهي ثورة الثائر هرورد في مواجهة النورمان[3].

---

(١) يذكر "جونسون" أن هرورد كان بطل وشاعر، وكان بحق أسطورة عصره خلال القرون المتأخرة في التاريخ الإنجليزي، واسمه مازال يتردد حتى الآن على أنه رمز لمقاومة الفتح النورماني لإنجلترا .
انظر في ذلك .
- Jounson, op. cit., p.32; Davis, op. cit., p.25.

(2) Davis, op. cit., p.21.

(3) Williamson, op. cit., p.21; Lioyd, op. cit., p.108.

وليم الفاتح وتنظيم الملكية الإنجليزية :

بعد أن تتبعنا مسيرة وليم خلال هذه السنوات التي استطاع فيها توطيد حكمه في دوقية نورماندي، وإحكام سيطرته على المملكة الإنجليزية، حان الوقت للعودة إلى تنظيماته في إنجلترا، فقد بدت الملكية الإنجليزية أقوى الملكيات الأوروبية، لاستنادها إلى حق الفتح وجعل الملك مصدر السلطات جميعا، ولأن وليم حرص على أن يكون أكبر ملك في البلاد، وذلك منذ أن بدأ في توزيع الأراضي إلى إقطاعيات بين أتباعه، وأخذ عليهم العهود في سنة ١٠٧٢م بأن يكون إخلاصهم له(١).

وكانت الخصائص والمميزات الأساسية الملحوظة لحكم وليم الفاتح أن الدولة كانت تتمتع بملكية قوية ذات أثر فعال، لأنها كانت تؤدي وظائفها وتقوم بها وفقا لخطة واقعية ومحكمة، وجاء أبناؤه من بعده وحافظوا على المبادئ الأساسية التي قامت عليها الملكية، بيد أن المملكة ظلت مؤسسة شخصية، ولم تتحول إلى مؤسسة يمكنها أن تستمر في إدارة البلاد بعيدا عن تأثير شخصية الملك ذاته، ولذلك عندما حل وقت سقوط هذه الملكية كانت الأمور قد وصلت إلى درجة حاسمة حددت التطورات المستقبلية للحكم في إنجلترا بعد ذلك(٢).

وبدأ وليم في تطبيق قواعد حكمه الاستبدادي في الملكية الإنجليزية على ثلاث أسس هي: قانون يحترمه الناس، قوة حربية للدفاع عن البلاد، وحصيلة مالية معلومة.

واستمد وليم ذلك من التزاوج بين القوانين الأنجلو-سكسونية والنظم النورمانية، واعتبر وليم نفسه خليفة الملك إدوارد، وحرص

---

(١) أ.ل. روامن: المرجع السابق ، ص ٣٨-٣٩.

(2) Sayles, (G.O) , the Medieval foundation of England, press, 1950, p.313.

على قيام مجلس "الواتان"* ، وكان بإنجلترا محاكم كلية Shire Courts ومحاكم جزئية Hundred Courts وعين عليها نوابًا من قبل الملك "الأشراف" Dheriffs** للحكم باسم الملك، وأصبحوا مسئولين أمام القانون والمحاكم عما يُرتكب من مخالفات[1] .

وكان وليم قد وضع يده على جميع الأراضي الجديدة، ما عدا بعض الإقطاعيات التي تملكها الكنيسة والمعابد، ووزعها على قادات واحتفظ لنفسه بالأراضي الأفضل، وسيطر على مقدار كاف من الأراضي، لكي يوفر الرواتب للموظفين مثل الأطباء، والأشراف، والطباخين، والحلاقين، والعاملين بالغابات، وعمال الصيانة اللازمة للطرق وشق القنوات[2] .

ويذكر –وليم بواتيه– أن إنجلترا فقدت كثيرا من اقتصادها حينما عاد وليم إلى نورماندي ، حيث حمل معه الكثير من الذهب والفضة

---

* يتألف مجلس الحكماء من رؤساء الأساقفة، ورؤساء الأديرة ، والنبلاء، والقسيسين الذين يكونون حاشية الملك، وبهذا كان العنصر الغالب من رجال الدين، لذلك أضفى هذا على عملية التتويج أهمية بالغة .

انظر في ذلك :

- Dietz, op. cit., p.40; Stenton (F.m), English Society in the Early Middle Ages 1066-1307; Penguin, op. cit., p.219;Cross, op. cit., p.79; Jounson, op. cit., p.39.

** الشريف : هو كبير ضباط التاج، والمختص بالأمن وتنفيذ العدالة وفقا لتوجيهات المحاكم ، ويشرف على الانتخابات .

انظر في ذلك :

– ج . ج. كولتون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، ط١، دار المعارف (الإسكندرية–١٩٦٤). ص٩٠.

(1) Douglas, op. cit., p.71; Mowat, op. cit., p.53.

(2) Cam. Med. Hist, vol .v, p.505; Mowat, op. cit., p.60; Jounson, op. cit., p.34.

من خزانتها أو عن طريق السلب والنهب، وعاد بها إلــى نورمانـــدي ليكافئ الأديرة بعد نجاحه في سنة ١٠٦٧م مما أثــر علــى اقتصــاد إنجلترا[١].

ومع بداية سنة ١٠٧٢م تدخل إنجلترا في الفترة الثانية من ولاية وليم، ففي الخمسة عشر عاما التالية عاشت إنجلترا في مرحلــة مــن السلام واندمجت نظمها مع نظم القــارة الأوربيـــة، والتـــي نظمهـــا النورمان وأعادوا صياغتها بالرجوع إلى المصادر الإنجليزية، وأصبح لإنجلترا مكان بارز كعضو في النظام الأوربي[٢].

وكان وليم يقوم بعقد اجتماعات لمناقشة أمور البلاد، تضم كبـــار الحائزين لأراضي التاج ورجال الكنيسة والأعيان ورجـــال الـــبلاط، وأطلق عليه المجلس الكبير –Magnum Concilium– وله الحق فــي إقرار الضـــرائب ، ومستشـــار التـــاج –The King's Chancellor– والمحكمة التي تختص بالمسائل المالية –The Excheguer– ومحكمـــة الأمور القانونية والإدارية ويطلق عليهـــا –Curia regis– ، ومجلـــس الملك والذي فاقت أهميته كل ما سبق[٣].

ولقد صبغ وليم الملكية الإنجليزية بالصبغة الإقطاعية، وبنهايـــة حكمه سنة ١٠٨٧م كان الشطر الأكبر من هذه العملية قد تم إنجـــازه، باعتباره السيد الأعلى على كل ضيعة إقطاعية في إنجلترا، وبموجـــب حق الفتح استطاع أن يبني هيكلا إقطاعيا يتركز حول الملك باعتباره السيد الإقطاعي لكل فارس في المملكة، كما هو الحال في نورماندي، وتم إخضاع الأساقفة ومقدمي الأديرة بالتزامات إقطاعية باهظة فـــي بادئ الأمر، ثم منحت الإقطاعات للنبلاء المدنيين[٤].

---

(1) William piot, op. cit., p.256.
(2) Freeman, op. cit., p.30.
(3) Tre Velyan, op. cit., p.129.

(٤) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق ، ص ٣٨٠ .

ولقد أدهش وليم معاصرية، بسبب أزدياد موارد البلاد الماليـــة، ويذكر –ستنتون– أن وليم ورث هذه المالية عن أســلافه الأنجلـــو– سكسون والتي كانت موارد ثابته للمال، وأهمها أراضي التاج وعوائد المدن ورسوم القضـاء [1] ، وأهم عنصر في ثراء إنجلترا الواسع كانـــت العملة الأنجلو –سكسونية، فقد كانت من أفضل العمـــلات الأوربيـــة، وزاد من هذا الثراء ضريبة الدانجلـــد –Danegeld– التـــي فرضـــها الملوك الإنجليز لقتال الغزاة من الإسكندنافيين، وجلبت قدرًا كبيرا من المـال [٢].

ومن أهم أعمال وليم الفاتح في إنجلترا ســنة ١٠٨٥م ، قيامـــه بعملية مسح دومزدي –Domasday Book– ســنة ١٠٨٦م ، وكـــان يهدف من ذلك إلى زيادة الموارد المالية، وساعدته هذه الموارد المالية على التوسع في عملياته الحربية، وتشهد على ذلك الحوليات الأنجلو– سكسونية [٣] ، وهذا المسح الشامل الغير مسبوق، اشتمل على مقـــاييس للأراضي الزراعية ، وأحصى كل شيء حتى عدد الثيران والخنازير في إنجلترا، ولم يترك كبيرة أو صغيرة إلا وأحصاها هذا المسح [٤].

(1) Stenton, Anglo-Saxon, op. cit., p.635.

(٢) الدانجلد: ضريبة فرضها الملوك الأنجلو–سكسون في القرن العاشر كوسيلة لتمويل الجزية التي كان ينبغي دفعها للغزاة الدانمركيين فـــي عهـــد أثلـــرد الثاني (٩٨٧–١٠٦٦م) وعادة ما كانت قيمتها شلنين ، ولكنها أحيانا تصـــل إلى أربعة سنتات أو أكثر، ومصطلح الدانلجد لم يعـــرف إلا بعـــد الغـــزو النورماندي، وفرضها وليم وهنري الثاني حتـــى ســـنة ١١٦٢ لأغـــراض حربية لمواجهة النفقات. انظر في ذلك :

– نورمان . كانتور : المرجع السابق ، ص ٣٧٦.

- Cross, op. cit., p.81.

(3) Brial & Blakeley, op. cit., p.36.

(٤) كتاب يوم القيامة الأصلي محفوظ في الخزانة بونشستر، والآن محفوظ فـــي مكتب لندن بلجنة خاصة ١٧٨٣. انظر في ذلك :–

وكان هدف وليم من تلك القواعد السابقة التي وضعها لحكومته الجديدة في إنجلترا هو تأسيس حكومة مركزية قوية، وقادرة على التصدي لقوات البارونات، وساعد وليم على ذلك صغر مساحة إنجلترا من ناحية، وانفصالها عن أوروبا عن طريق القنال الإنجليزي من ناحية أخرى.

***

نهاية وليم الفاتح :

وكانت متاعب الملك وليم صادرة من أبنائه "روبرت، وليم، هنري" وإن كان أكبرهم روبرت الملقب "بقصير السراويل"، وكان أخواه وليم، وهنري يحقدان عليه لقوته، وأهاناه بأن ألقيا عليه من إحدى الشرفات الماء في أحد الشوارع بمدينة إيجل، فغاظه ذلك فسل سيفه، وهجم عليهما للانتقام منهما، فتوسطهم والدهم وأوقف الهجوم، وغادر روبرت المدينة تلك الليلة، ولكنه ما لبث أن بث روح العصيان في البلاد المجاورة بمساعدة أمه ماتيلدا، وأخيرا حط رحاله في قلعة جربروي "Gerberoi"، فحاصره أبوه "الملك وليم" فيها، وتبارز الملك وليم وابنه روبرت وجرح وليم في يده سنة ١٠٧٧م[1].

وفي سنة ١٠٨٧م قامت الحرب بين وليم وسيده الإقطاعي الأعلى ملك فرنسا "فيليب الأول" والذي هزأ من وليم لضخامة جسمه وقصر قامته، وخاض وليم المعركة ومعه جيش كبير وذهب إلى فرنسا، وحرق قرية مانتز "Mantes"، وحولها إلى خراب، وركب وليم وانطلق لمشاهدة الحريق فوطأ فرسه جمرة من النار، فكبا الحصان وسقط وليم من أعلى صهوة الجواد، وأصيب بأذى شديد، وحمل إلى ريون "Rouen"، وبعد ستة أسابيع مات بالقرب من ريون[2].

= - Brial & blakeley, op. cit., p.36.

(١) أدمون - ديمولاند : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(2) Williamson, op. cit., p.10 ; William of New burgh, vol.1, op. cit., p.21.

وذكر رهبان كاين أن وليم الفاتح تـوفي مبكـرًا، فـي صـباح الخميس في التاسع من سبتمبر سنة ١٠٨٧م، عن عمر يناهز الثانيـة والخمسين عاما، ودفن في كاين في دير القديس ستيفن.

تقييم عهد وليم :

الحقيقة أن مميزات حكم الملك وليم لا يمكن إحصاؤها كلها فـي هذا المقام، وكان على رأس هذه المآثر كتاب دومزدي، وهـو سـجل للأراضي الإنجليزية في سنة ١٠٨٦م[1]، وهو الـذي أدخـل النظـام الإقطاعي بصورته الأوربية إلى إنجلترا[2]، وقام بإنشاء العديـد مـن القلاع والحصون القوية لمنع غزور للبلاد[3].

وأدخل وليم إلى إنجلترا كذلك قانون خاص بالغابة، والذي يشدد العقاب على من يقتل الحيوانات في الغابة[4]، واستخدم جرسا للتنبيـه إذا كان هناك حريق، حيث يدق الجرس ليتجمع كل من في المعسـكر لإطفاء الحريق[5]، وعمل على ضبط الإدارة المالية في البلاد فازدادت الموارد المالية في البلاد[6]، وأحل وليم تـدريجيا اللغتـين اللاتينيـة والفرنسية محل اللغة الإنجليزية[7]، وفرض وليم قوتـه علـى كبـار البارونات ، حتى لا يعثوا فسادا في البلاد، ويضروا بمصـالح أهـل البلاد من الإنجليز[8].

---

(1) Brial & Blakeley, op. cit., p.36 ; Orderi cas v., op. cit., p.7.

(2) Davis, Docoments Europe from 800 To 1789, London, 1930, p.43.

(3) Michtell, op. cit., p.34.

(3) Davis, op. cit., p.66 ; Cross, op. cit., p.87 ; Mowat, op. cit., p.54 ; Pet,t, op. cit., p.63.

(5) Williamson, op. cit., p.14.

(٦) نورمان ف. كانتور : المرجع السابق ، ص٣٨١.

(7) Freeman, op. cit., p.142.

(8) WilliamSon, op. cit., p.11.

وقام وليم بإصلاحات عديدة في الكنيسة الإنجليزية بعد أن أصابها الفساد والانحلال، وطغت عليها النزعة الدنيوية، وقضت المحاكم في الدعاوى الدينية والمدنية من غير تمييز، كما تدخل مجلس الدولة في المسائل السياسية دون تفريق، فقام وليم بإنشاء المحاكم الكنسية وفصلها عن المدينة، ومحاكمة الأساقفة وفقا للقوانين الدينية، واستعان وليم في تنظيم الكنيسة بلانفرانك وأنسليم اللذان توليا منصب رئيس الأساقفة واحدا تلو الآخر، وسوف نعالج ذلك في الفصل التالي.

***

ثالثا : وليم الثاني وضعف السلطة الملكية (١٠٨٧ - ١١٠٠م)

لقد توجه وليم رفوس إلى إنجلترا حتى قبل أن ينتهي عهد وليم الفاتح، واتجه إلى لانفرانك في السادس والعشرين من سبتمبر، ثم تم تنصيبه ملكا على إنجلترا في وستمستر دون مقاومة بعد وفاة والده بسبعة عشر يوما[1]، وكان وليم الفاتح قبل وفاته قد أوصى بتقسيم المملكة كالتالي: تمنح نورماندي إلى ابنه الأرشد روبرت، وإنجلترا إلى وليم رفوس، ويأخذ هنري خمسمائة جنيه من الفضة كتعويض له[2].

وغضب البارونات النورمان غضبا شديدا، بدأ عندما انتخب وليم الثاني ملكا على إنجلترا، لأنهم ظنوا أن روبرت سوف يسمح لهم بتجاوزات كثيرة منها أن يصطادوا في مزارعهم أو المزارع الأخرى، ويتسع نفوذهم إلى مدى أوسع، لذلك غضبوا من اختيار رفوس،

---

(1) Com. Med. Hist., vol. v, p.21;William of New burgh,vol1 , op. cit., p.23 ; Williamson, op. cit., p.21.

(2) Cross, op. cit., p.83.

وأصبح بذلك ملك إنجلترا، وأصبح أعداؤه يخشون على ممتلكاتهم في نورماندي، وعلى أراضيهم التي اكتسبوها في إنجلترا[1].

وتوقع الجميع أن فصل نورماندي عن إنجلترا سوف يكون مصدر لكثير من المشاكل ، حيث وضعت جميع البارونات الذين لديهم اقطاعيات على جانبي القتال في مأزق، وعليهم أن يختاروا إن عاجلا أو آجلا التحالف مع الملك وليم أو الدوق روبرت، ذلك أن روبرت بعد عودته من المنفى كما هو متوقع، اعتبر وليم مغتصبا للعرش، ووجد نفسه مدعوما من البارونات الذين اعتقدوا أن روبرت يستطيع إثبات جدارته، ولن يقف بشدة أمام أطماعهم، وكان يقود هذا الاتجاه إيرال كنت، وأودو الأسقف الذي خرج من السجن، حيث بقي به خمس سنوات يطلب الثأر من إدفرانك الذي كان يعتقد أنه كان الدافع الحقيقي وراء أزمته، وأصر على قلب أوضاع وليم، وأن يجعل من نفسه الرجل الأول في إنجلترا كما كان[2].

***

الثورة ضد وليم الثاني :

بعد أشهر قليلة من تتويج رفوس ثار معظم النورمان عليه، وكان على رأس الثوار أودو أسقف بايو، الذي توجه نحو مقاطعة كنت الخاصة به، وبعد بضعة شهور قضاها في التآمر السري، وضع نفسه علنا على رأس فريق يعمل على خلع وليم من أجل مصلحة روبرت، ولم يكن يطمع في مصلحة مثل روجر سالسبوري –مستشار الملك وليم رفوس– أو الأسقف جيوفري من كونساس – Geoffrey of Coumsces– أسقف درهام، والذي كان يطمع هو الآخر في العمل

---

(1) Williamson, op. cit., pp.22-23.

(2) Com. Med. Hist., vol. v., p.52 ; William of New brugh, vol.1 , op. cit., p.23.

كمستشار للملك رفوس، ولكن هوف إيرل شستر ورئيس الأساقفة لانفرانك والأساقفة الآخرون كانوا لايزالون على إخلاصهم للملك[1].

ولقد دفعت بعض الانتفاضات المشتتة في مختلف المقاطعات مثل نورفولك وسمرست ومقاطعة هيريفورد، وفاز حزب رفوس على حزب روبرت، ولكن تغيرت خططه المستقبلة في توسيع مناطق نفوذه وخاصة استعادة نورماندي، فقد كان يرغب في أن يكون فاتحا مثل والده، وعرف تماما أنه لو نجح في ذلك فسوف ينتهي من مشكلة السخط الشعبي[2]، وكانت أول تحركات وليم رفوس ضد أخيه روبرت في سنة ١٠٩٠م، وكان مصمما على أن يستولي على شرق نورماندي التي كانت تحت سيطرة أخيه روبرت[3].

وقد أيد معظم كبار النبلاء –الفرنسيين والإنجليز– وليم رفوس في خططه مثل كونت إيو –Eu–، وأوميل –Aumale–، ووليم وارين –Warenne–، وولتر جيفارد، ورالف مورتمر، وكلهم كانت لهم مصالح كبيرة في إنجلترا، لذلك وضعوا رجالهم وحصونهم تحت أمره، وتم تكوين حزب في مدينة ريون لصالح رفوس يقوده كانون –Conon– وهو أحد المواطنين الإنجليز الأثرياء[4].

وفي وسط نورماندي كان وضع الدوق روبرت أقل استقرارا من رفوس، حيث لا يستطيع الاعتماد على ولاء أهل كاين، بينما كبار الملاك مثل الأسقف أودو أسقف بايو، وكونت إيفريي، وكذلك وليم بريتول، وروبرت بليمي الذين يملكون إقطاعيات واسعة في نورماندي

---

(1) Freeman, op. cit., p.132.

(2) Com. Med. Hist., vol.1 .v, pp.522-523.

(3) William of Neh brugh, vol.1, op. cit., p.24.

(4) poole (A.L.) , from Donesda Book to magna Carta 1087-1216 Second Edit, ptess, 1955, p.106.

الأم، ولم يكن لهم أية أطماع في إنجلترا، ولكنهم وقعوا في خلاف مع رفوس فانضموا إلى روبرت.

وفي سنة ١٠٩١م رأى وليم رفسوس أن الحالــة فــي غــرب نورماندي تعطيه بديلا أفضل، حيث كان الرجل القائد البارز هناك منذ سنة ١٠٨٨م هو وأخوه هنري الابن الأصغر لوليم الفاتح[1].

وكان هنري قد اشترى حق روبرت في دوقية نورماندي، وكذلك حقه في كونتين، ولكن روبرت كعادته في عدم الحــزم اعتبــر هــذه الصفقة مع أخيه هنري لاغية، ورغب في استعادة الدوقيــة، وعنــدما علم رفوس بذلك فبدلا من مهاجمة روبرت في وسط نورماندي ذهب لكي يقابله في كاين، وعرض عليه أن يساعده في مهاجمـــة هنــري، وفي استعادة ماين بشرط أن يعطيه تشبري –Chenboury– ومنست سانت ميشل –Michel Mont. Sant– بمجرد أن يخرج منها هنـــري، ويعطيه حقوقه في فيكامب –Fecamp– وأجزاءًا من شرق نورماندي، وكانت تلك الشروط التي عرضها رفوس من جانــب واحــد، ولكــن روبرت اعتقد أنه من الأفضل له أن يقبلها، وبعدها بوقت قصير تقدم الأخوان الكبيران –وليم وروبرت– لمهاجمة أخيهم الأصغر هنــري، وبعد أن أخرجوه من الدوقية قسموا الغنائم بينهم، وبهذه النتيجة شــعر وليم بالرضا، ففي ثمانية عشر شهرا فقط استطاع إحكام قبضته علــى الدوقية من الغرب والشرق، والأكثر من ذلك أنه حصل على ذلك من خلال اتفاقية مع روبرت دون حرب[2].

وعقد الملك وليم رفوس اجتماع في لندن حضره رجال المقاومة الشعبية، وكذلك رجال المقاطعات الغربية، وقد أيد الملــك فــي هــذا الاجتماع لانفرانك وكل الأساقفة، وادعي الملك أنـــه ســوف يســاعد

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.524.

(2) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.524.

انجليز ووعدهم أن يمنحهم أفضل القوانين، وأن يحكم بينهم بالعدل، وكذلك إعطاء بعض الامتيازات في تحصيل الضرائب، ووعدهم بأنه سوف يغير قانون الصيد في الغابة[1].

والتف عدد كبير من الشعب الإنجليزي والبارونات حول الملك رفوس، الذي استطاع أن يقضي على ثورة الشعب الإنجليزي بشيء من الدبلوماسية السياسية، وفجأة انقلبت سياسته رأسا على عقب، وجعل قانون الغابة أكثر استخداما مما كان عليه أيام والده، واستخدم كل الوسائل الوحشية، وتحمل الشعب الإنجليزي عبء الضرائب الباهظة، والتي ضاعفها أكثر مما كانت عليه في عهد والده وليم الفاتح[2]، وجعل وليم حقوقه الإقطاعية على كل الأمراء نقدية، فإذا مات البارون لا يقر ورثة إلا بعد دفع مبلغ معين من المال، ولا يصرح لبارون بتزويج ابنته إلا إذا وهبه أجرا كبيرا، وإذا مات البارون وله ابنة غير متزوجة زوجها الملك لمن رست عليه المزايدة من أتباعه، لذلك غضب البارونات وعامة الشعب الإنجليزي من تصرفات الملك وليم[3].

وأثناء هذه الأحداث جاءت الأخبار أن مالكلوم كانيمور ملك أسكتلندا قد اجتاح نورثمبلاند مرة أخرى، ولكن عندما وصل إلى فورث –Forth– وجد نفسه محاصرا من رفوس أسرع مالكلوم بإعلان قسم الولاء لرفوس، ووعده أن يصبح رجله بنفس الشروط التي أسنها والده في سنة ١٠٧٢م، ولكن في سنة ١٠٩٢م قام رفوس بنقض اتفاقية السلام من جانبه ، واجتاح المناطق الخاصة بكمبرلاند وستمورلاند التي كانت تعتبر جزءا لا يتجزأ من مملكة أسكتلندا،

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.521.

(2) Williamson, op. cit., p.23.

(3) Poole, op. cit., p.105. ; Davis , op. cit., p.88.

منذ أن أعطاها الملك إدموند إلى مالكلوم الأول في سنة ٩٤٥م، وقـد اعترض مالكلوم على ذلك كالعادة وجاء شخصيا إلى جلوستر للتحدث مع رفوس، ولكن الملك الإنجليزي رفض أن يقابله وطلب منه كتـابع له أن يضع قضيته أمام محكمة مجلس الملك، وفي نفس الوقت أمـر الملك رفوس مستوطنيه أن يقيمـوا فـي وادي إيـدين -Eden- وأن يقوموا ببناء قلعة في كارليسل -Carlisle-، وقام مالكلوم بعـد ذلـك بغزو إنجلترا، ولكنه ذبح في كمين بالقرب من ألنويك، وهنا يجب أن نعترف بنجاح آخر بارز لرفوس، وكانت نتيجة ذلـك أن تـم تثبيـت حدود إنجلترا[1] عند مقاطعة سولواي -Solway-، واستطاع رفـوس إدخال كمبرلاند ووستمرلاند ضمن الحدود الإنجليزية، وتقدم رفـوس إلى ويلز التي كانت تتمتع باستقلال واضح عن إنجلترا، والتي كانـت قيادتها موزعة بين العديد من البارونات الأقوياء ، وفضل رفوس ترك جميع مسئوليات ويلز في أيدي هؤلاء البارونات[2].

وعند موت وليم الفاتح -كما يوضح كتـاب دومـزدي- كـان ضباطه قد توغلوا في شمال ووسط ويلز بعد خط أوفا -Offa-، وفي مناطق عديدة وخاصة في مقاطعة جوينيد -Gwynedd-، حيث قـام روبرت رودلان بإنشاء نقاط تفتيش على مناطق كونواي -Conway- وبويز -Powys-، وكان روجر مونتجمري -رجل وليم الفاتح- قـد وصل إلى بلاينيمون Plynlimon، أما على الجانب الآخر من جنـوب ويلز، كان هناك تقدم ضئيل منذ وفاة وليم فيتز أسـبورن فـي سـنة ١٠٧١م، وتقدم الفاتح بنفسه سنة ١٠٨١م نحو الغرب وترك مقاطعتي ديهوبراث -Deheubarth-، وجلامورجان -Gamorgan- في يد أمير

---

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.524.

(2) Poole, op. cit., p.107.

ويلزي يدعي رايز آب تويدوير –Rhys Ap tawdwr– حيث كان يحصل منه على جزية قدرها أربعون جنيها في العام[1].

وداخل البلاد كان الحدث الأكثر بروزا خلال تلك الفترة هو اختلاف وليم رفوس مع الكنيسة، لأن الملك كان ملحدا وفاسدا ويقبل للرشوة، ولم ير الملك أي سبب في البداية لكي يكبح جماح فلمبارد –Flambard– المنتظم للعادات الكنسية[2].

وفي سنة ١٠٩٣م سقط رفوس فريسة لمرض خطير، ولم يكن متوقعا له الحياة بعد ذلك، وفي نوبة تقوى مفاجئة أبدى شعوره بالندم على سياسته، بعد أن أسدى إليه رجال الدين نصيحتهم بأن روحه سوف تتعرض للهلاك الأبدي إذا توفي قبل التكفير عن الاستخفاف الهائل بالمقدسات، ولذا أعطى سلسلة من الوعود الطيبة من بينها ضرورة شغل وظيفة رئيس أساقفة كانتربري، ولهذا بعث إلى أنسليم –Anselm– رئيس دير بك –Bec– الشهير في نورماندي لتولية منصب رئيس الأساقفة في كانتربري[3].

***

---

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.525.

(2) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.525.

(٣) في إطار الوعود التي اتخذها وليم الثاني أثناء مرضه التعهد بحماية الكنيسة، وإلغاء القوانين السيئة، وإطلاق سراح جميع الأسرى، وأمر بإيداع هذه الوعود على مذبح الكنيسة، ولكنه فور شفائه تبرأ تماما من هذه الوعود، وألقى في الحبس كل من أشار عليه بالتفكير عن الاستخفاف بالمقدسات، واستمر في الاستحواذ على إيراد الكنيسة .

انظر في ذلك :

- William of New brugh , vol. v ,op. cit., p.25.

نزاع وليم رفوس مع أخيه روبرت :

وفي سنة ١٠٩١م نقض رفوس اتفاقه مع أخيه روبرت، وذلك بعد مضي ثلاث سنوات، وأستأنف أعماله فقامت قواته بغزو وسط نورماندي، على أمل الحصول على مدينة كاين، ولكنه حقق نجاحا ضئيلا، ذلك أن الملك فيليب الأول ملك فرنسا جاء لمساعدة روبرت برجال تكفي لطرد رفوس من مقاطعة أرجنتان –Argentan– والمقاطعة المجاورة لي هولم –Le Haulme–، ثم قاما معا بعبور نهر السين لمهاجمة رفوس في شرق نورماندي، ولكن الملك أنقذ نفسه برشوة فيليب لكي يتخلى عن حليفه[1].

وفي سنة ١٠٩٥م استطاع رفوس القضاء على تمرد روبرت موبري –Mowbry– وكان حاكم لأكبر بارونية نورماندية، وحاصر جنود وليم قلعة بامنور، والتي كان محاصرًا بداخلها روبرت موبري، ووقع أسيرًا في يد رفوس، وكانت زوجة موبري "ماتيلدا" محاصرة في القلعة فطلب وليم منها أن تسلم مفاتيح القلعة فرفضت، وأمر رفوس أن يأتوا بزوجها أمام سور القلعة ويُأتى بالجلاد، وأمره أن يخرج عينه، فلما رأت ماتيلدا ذلك أذعنت وسلمت مفاتيح القلعة[2]، وعندما عاد رفوس إلى نورماندي قام على الفور بفتح المفاوضات مع أخيه هنري الذي كان لاجئا في دمفرنت –Domfront– قبل ذلك بسنتين– بأن ينضم إليه، إلا أن هذا التحرك أثبت عدم أهميته[3].

وكان وليم قد وعد أخاه روبرت أن يدفع إليه تعويض عن القلاع التي خسرها، إلا أنه أخلف الوعود وعاد الخصام بين الأخوين، وعرض روبرت على رفوس أن يضيف نورمنديا ومين إلى حكم

---

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.527.

(2) Poole, op. cit., p.109.

(3) Poole , op. cit., p.109.

رفوس لمدة خمس سنوات، ويحصل روبرت مقابل ذلك على عشــرة آلاف مارك –المارك يساوي ١٢ شلنا وثلث آن ذاك[١].

وقام روبرت المحب للمغامرة في سنة ١٠٩٦م بالاستجابة لدعوة البابا أوربان الثاني للمتطوعين لكي يحرروا القبــر المقــدس، فأخــذ الصليب دون النظر إلى مصالح دوقيته[٢] ، وانطلق روبرت في سبتمبر نحو الشرق وأخذ معه الأسقف أودو، على الرغم من أن وليم رفــوس أصبح أخيرا يمتلك نورماندي بشكل مؤقت، إلا أن رفوس كان مقتنعا تماما أن روبرت لن يعود إلى سابق وضعه ولن يستطيع رد القرض، لذلك عزم رفوس على استعادة للدوقية وكذلك ماين، وسقطت مقاطعة مايــن فــي يــد روبرت هيــلي –Rebert Helie– وهو سيد لافليش –Lefleche– ولكن في سنة ١٠٩٨م ألقى رفوس القبض على هيلــي، وأغضب هذا التصرف فولك لي رتشن –Fulk le Rechen– صــاحب الأنجو ، وعاد رفوس في السنة التالية سنة ١٠٩٩م لإســتعادة مــاين ولكنه فشل، وحمل رفوس على عاتقة اســتعادة مقاطعــة فيكســن –Vexin– الفرنسية ، وفي سنة ١١٠٠م كان يرغب في ضم مقاطعــة أكوتين –Aquitaine– وبواتيو –Boitou– بنفس الشروط التي حصل بها على نورماندي، ولكن هذه الخطة الخياليــة قــدر لهــا أن تظــل حلما[٣].

***

وفاة وليم رفوس :

توفى رفوس في الثاني من أغسطس سنة ١١٠٠م، حيث مــات أبشع موتــه، وذلــك عندما كان يصطاد في غابة نيوفورست – New

---

(١) لديمون – ديمولاند : المرجع السابق، ص٣٠.

(2) William of New brugh,vol. 1. , op. cit., p.25. Davis , op. cit., p.108

(3) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.527.

-Forest-، حيث سقط صريع سهم أطلقته يد مجهولة، ولم يتم التعرف على القاتل.

ويذكر -وليمسون وتؤيده موسوعة كمبريدج- أن صهره جيلبرت -Gilbert- صاحب كلير -Clare-، وهو والد ولترتال -Walter Tirel- لورد لانجهام --، والتي تقع بالقرب من كولشير، وهو الذي يتحمل مسئولية قتله، لأنه خرج معه في رحلة صيد، وأثناء تصوبيه على حيوان في الغابة ، انطلق منه سهم طائش عبر الأشجار، واستقر في قلب الملك رفوس وأرداه قتيلا في الحال، ومما يدل على أن ولتر هو الفاعل انطلق بفرسه ناحية سيده الملك فور انطلاق السهم فوجده قد مات، فهرب إلى شاطئ البحر هو وزوجته وحماه، وانطلقوا إلى فرنسا، وعثر الفلاحون ليلا عن طريق عيدان الفحم على جثة الملك رفوس وفي صدره سهم مكسور، ونقلوا جثمانه على عربة صغيرة يجرها حصان إلى ونشستر ودفن الملك هناك، ولم تدق الكنائس أجراسها، ولم تشرف الكنيسة على الاحتفالات الدينية الخاصة بموته [1]، ولم يتم التحقيق في حادث موته، فقد رضي الناس بموت الرجل الذي كبت حريتهم وأذاقهم الذل والمهانة، وعلى الرغم من جميع ذنوب رفوس وأعمال عنفه، إلا أنه كان قد أدى عملا عظيما، فهو كرجل كان بغيضا، وكملك عرف كيف يجعل الناس تطيعه على الرغم من تركيزه على حقوق الإقطاعيين [2].

---

(1) Poole, op. cit., pp.113-114. ; Davis, op. cit., p.118.

(2) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.527.

- يذكر إدمار -Edmer- قسيس كانتربري الذي كتب حياة أنسليم معلقا على وليم رفوس قائلا: "إن الرياح والبحر بدلت تطيعه" وكذلك في حربه وامتلاك المقاطعات استمتع بهذا النجاح لدرجة أنك تعتقد أن العالم كله قد ابتسم له.

انظر في ذلك :

- Kenneth (O.M), the Oxford History of Britain, New York, 1983 , p.132.

رابعا : هنري الأول والعودة للسيطرة الملكية
(١١٠٠ - ١١٣٥م)

كان اختفاء وليم رفوس المفاجئ وهو في سن الأربعين من الساحة بدون أن يترك من يخلفه من أولاده قد أعطى لأخيه هنري الفرصة ليتقدم ويعلن نفسه ملكا على إنجلترا، فلم يكن شاهد عيان للحادث، ولكنه أبلغ به على الرغم من أنه كان ضمن المجموعة التي ذهبت للصيد، ولكنه ركب وترك جثمان أخيه وعاد بسرعة إلى ونشستر، وتوج هنري الأول ملكا على إنجلترا في الخامس من أغسطس سنة ١١٠٠م في كنيسة وستمنستر على يد الأسقف موريس -Mourice- أسقف لندن[١].

وكان هنري يعلم كل شيء عن إنجلترا، حيث عاش بها من سنة (١٠٩٥-١١٠٠م) بشكل ودي مع رفوس ووزرائه، والأكثر من ذلك أنه كان واثقا في نفسه أن الجميع يشعرون بالحنق على أخيه، وجاء مفوضون من الشعب ورفضوا إدعاءات روبرت[٢]؛ لذلك انطلق هنري نحو ونشستر بمجرد أن سمع أن رفوس قد مات، ووضع يده على الخزانة الملكية[٣]، وهنا عارضه الخازن وليم جيفارد

---

(١) يرجع أسباب تتويج هنري الأول عن طريق موريس أسقف لندن لوجود أنسليم في منفاه، ومرض توماس رئيس أساقفة يورك، بالإضافة إلى خوف هنري الأول من عودة أخيه روبرت دوق نورماندي من الأراضي المقدسة، ولهذه الأسباب تعجل هنري بالتتويج، وأوضح ذلك في خطابه لأنسليم يوضح له الموقف ·

انظر في ذلك :

- William of New brugh ,vol. 1. , p.26 . Adams, op. cit., p.114 ;Davis op. cit., p.119.

(2) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.528.

(3) Davis, op. cit., p.118.

-Giffatd- وهو مستشار الملك رفوس، أما الذين أيدوا الملك الجديد هنري الأول هم كونت مولان -Meulan-، وإيرل ويرويك -Warwick-، وكانوا أكثر البارونات ظهورا على الساحة السياسية في إنجلترا، وانطلقوا مع الملك إلى ونشستر حيث توج، وقام بإصدار بيان تم طبعه في جميع أنحاء المملكة، وعد فيه بتعويضهم عن المظالم، ولكي يظهر لكل أفراد الشعب أنه مهتم بأمرهم، أمر بالقبض على رانولف فلامبارد -Ronulf Flambrd- أسقف درهام، ووضع هنري ميثاق للحريات يحتوي على العديد من الوعود الكنسية، وهو ما سوف نعالجه في الفصل التالي.

وقد أعفى هنري بعض المناطق البارونية من ضريبة الدانجلد، وكان هنري يهدف لاستعادة نظام حكومة الفاتح الأكبر، وألغى كل التجديدات السيئة التي وضعها رفوس، والتي تتعلق بمشكلة الإعانات ، والزواج، والوصاية، والغرامات، والجرائم، وكان هنري يعلم تماما أن ذلك سوف يلقى قبولا من الشعب الإنجليزي المطحون، ويلقى قبولا عند البارونات البارزين مثل ولتر جيفارد إيرل بكنجهام، وروبرت ماليت، وروبرت فيتز هامون وغيرهم [(١)]، وكافح هنري في البداية ليرضي الشعب الإنجليزي الذي وعدهم بالحرية، ووزع المنشورات العمومية على الأهالي مدعيا أنه جاء لرفع الظلم، وإقامة العدل، ورفع الضرائب، واحترام الكنائس، وإعادة سنة القوانين القديمة التي وضعها المعترف، وأعطي حرية الكتابة، وكل ما وعد به في خطبته وذكر أنه سوف ينفذه، وأن المواطن الإنجليزي سوف يحصل على كافة حقوقه، وذكر أنه أفضل من أخيه وصاحب الحق عنه في العرش [(٢)].

***

(1) Poole , op. cit., p.115; Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.528 .

(2) Williamson , op. cit., p.31.

هنري الأول والنزاع مع روبرت:

وفي الوقت الذى كان هنري يحاول زيادة شعبيته في إنجلترا كانت نورماندي تتراجع نحو الفوضى، فقد عاد أخوه روبرت، ولكن الناس علموا أن الدوق روبرت مازال على تساهله، فلم يقم بأي خطوة نحو منع هيلي سيد دي لافليش من أن يصبح كونتا لماين، وبسبب الكسل من جانب الملك هنري ضاعت تلك المقاطعة الهامة، وأصبحت تحت سيطرة ونفوذ فولك لي ريتشن صاحب الأنجو، الذي خطب لابنه ابنة هيلي ليضمن اتحاد ماين والأنجو ضد الملك هنري الأول عن طريق هذه المصاهرة، كما لم يظهر روبرت رغبة كبيرة للتدخل في شئونه، حتى أقنعه رانولف فلامبارد الذي هرب من السجن الإنجليزي واستطاع تكوين حزب معارض إنجليزي يرغب في جعل روبرت ملكا عليهم[1]، وأبحر روبرت نحو إنجلترا في صيف سنة ١١٠١م بمساعدة وليم وارين، الذي جعله رفوس إيرلا لسوري –Surrey–، وكونت إوستاس من بولونيا الذي كان سهر هنري، ولكنه انشق عليه بسبب إقطاعيه، وغضب روبرت عند عودته من الأراضي المقدسة لأن أخيه أخذ مكانه في الملك، وتمنى البارونات النورمان أن يحصل روبرت على عرش إنجلترا، واستعدوا لمساعدته في حربه ضد هنري، وعسكروا في ميناء سميث –Port Smoth– ومعهم جيش ضخم يحاول انتزاع العرش من هنري، واستعد الفريقان للمقابلة[2].

وتدخل أنسليم رئيس أساقفة كانتربري، وقام بالصلح بين الأخوين، ولكن بشرط أن يتنازل روبرت عن مطالبة في العرش ويأخذ راتبا سنويا قدره ثلاثة آلاف مارك[3]، وكان هنري من جانبه

---

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.529 . William of New burgh, vol.1 op. cit., p.26.

(2) Williamson , op. cit., p. 32.

(3) Davis , op. cit., p.123; Dietz, op. cit., p.42.

قد تنازل عن جميع إدعاءاته بأن يصبح كونت لمقاطعة كونتين الفرنسية بناء على صفقة.

وفي اتفاق مبكر مع روبرت سنة ١٠٨٨م عاد أوستاس من بولونيا إلى إقطاعيته في إنجلترا ، ووعد بمساعدة هيلي دي لي فليش، وكانت تلك الترتيبات تروق لروبرت الذي كان في حاجة ماسة إلى المال، وكان ذلك دليلا على مكر ونفاق هنري، وكانت فرصته في أن يتقدم بطلب للحصول على نورماندي بمجرد سوء حالة حكومة الدول، والتخلص من مساعدي الدوق روبرت، وإن كان أكبر مساعدي الدوق روبرت بيليمي –Belleme– الذي نجح سنة ١٠٩٨م في ضم إقطاعيات شروبشاير ومكسكس ومناطق أخرى تشكل إيرلية شروسبري، وكان يعتبر أكبر الإقطاعيين في نورماندي، حيث كان يمتلك ضياع شاسعة في النسون –Alencon– بالإضافة إلى كونه كونتا لبونيثو لحساب زوجته، وبوجود هذا الرجل –بيليمي– بالقرب من هنري جعله يشعر بعدم الأمان.

وفي سنة ١١٠٢م افتعل هنري مشادة مع روبرت بيليمي، ودعاه أن يحضر أمام محكمة مجلس الملك في تهم تصل إلى خمس وأربعون تهمة، ففضل الإيرل روبرت القتال بدلا من الرجاء كما هو متوقع، ولم يستطع أحد أن يقف أمام هنري وقضى بذلك على التمردات الإقطاعية في إنجلترا [١] ، ولم يعد هناك شيء يخيف هنري من الاتجاه نحو استعادة نورماندي، وإن عامل وليم البارونات بمزيد من الاحترام نظرا لثروتهم وقوتهم وأملاكهم الواسعة ليفوز بولائهم له [٢].

وقام هنري في سنة ١١٠٤م بخوض المعركة بنفسه ضد أخيه روبرت، ومعه حملة ضخمة من البارونات الأنجلو –نورمان لقتال أخيه روبرت الذي طلب من هنري التفاوض، فعرض روبرت على

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.530.

(2) Kenneth, op. cit., p.134 ;Davis , op. cit., p.131

أخيه هنري أن يتنازل له عن كونتية إيفركس ~Everes~، ووافق هنري وتأجلت بذلك الحرب، وحانت لحظة الحرب في سنة ١١٠٥م، وانضم روبرت بيليمي بقواته إلى قوات كونت مورتان ثم قاما معا باقتحام كونتين التابعة للملك هنري وسلبها، وكان فيها عدد كبير من أصدقاء هنري المخلصين، خاصة وأن روبرت تواطأ في جريمة القبض على فيتز هامون سيد إيفيركس وجلامورجان وسجنهما في بايو، وهذا جعل هنري يعجل الحرب ضد روبرت، وقام بدعوة هيلي دي لافليش بمهاجمة روبرت من ماين، وقام هو بنفسه بمهاجمة بايو وأحرقها، واستطاع احتلال كاين[1].

وفي الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١١٠٦م جاءت المواجهة الحاسمة في منطقة لا تبعد كثيرا عن تينشبراي ~Tinchebrai~، وكان جيش روبرت يتكون من عشرة آلاف مقاتل من النورمان وأربعمائة فارس فقط، وهزم روبرت في تلك المعركة، وأخذ الملك هنري حوالي ألف أسير من رجال روبرت وهو منهم، ولم يقتل من الفرسان سوى ستين فارسا[2]، وسيق روبرت أسيرا إلى قلعة كرديف ~Cardiff~ على الحدود مع ويلز، وبقي بها أسيرا حتى سنة ١١٣٤م، ويذكر المورخون أن عينيه قد ثملت بأمر من أخيه الملك هنري حتى لا يهرب[3].

***

هنري الأول وتوطيد حكمه في إنجلترا:

كانت الخمس سنوات الأولي من حكم هنري، كانت عبارة عن صراع مع البارونات، ولكن هذه الفترة المبكرة كانت مختلفة في

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , pp.530-531.

(2) William of New brugh, vol.1 , op. cit., p.27. ; Davis, op. cit., p.129.

(3) Williamson , op. cit., p.33.

شكلها عن السنوات الثلاثين المتبقية من حكمه (١١٠٥-١١٣٥م)، والتي استطاع فيها هنري الأول توطيد أركان حكمه في إنجلترا وإحكام السيطرة على البلاد، ولم تكن هناك سوى انتفاضات قليلة في إنجلترا ونورماندي ، واللتان كانتا تمثلان دويلات بارونية صغيرة ممثلة في شرق نورماندي في فيكسن أو حول إيفيركس، وكانت لدى هنري مشاكل أدت في النهاية إلى تمردات في سنوات (١١١٢-١١١٨-١١٢٣م)، ولكن هذه المقاطعات كانت تقوم بالثورة بتحريض من لويس السادس -Louis VI- ملك فرنسا (١١٠٨-١١٣٧)، وفولك الخامس -Fullk v- حكم الأنجو، وقد نظم الملك هنري عددًا من التحالفات حيث زوج بناته الثمانية من الأمراء المجاورين ليضمن ولاءهم له وبدأ من ألكسندر -Alexander- من أسكتلندا في الشمال إلى روتريو -Rotrou- من برش -Perche- على نهاية الحدود الإنجليزية[1] .

وهذه التهديدات السابقة أثبتت حالة من القلق وعدم الاستقرار في حوض السين -Sine- وإيوري -Eure-، ولكن تلك المناطق كانت غير محصنة، حيث كان معظم المتمردين من الذين يملكون إقطاعيات صغيرة على جانبي القتال مثل جيفارد -Giffard-، أو مورتمر -Mortimer-، ووارين -Warenne-، ولكنهم كانوا كونتات فرنسيين، حيث كانت ممتلكاتهم جزء من نورماندي مثل أموري دي مونتفرت -Amawry de Montfort- أو أن يكونا من ملاك الإقطاعيات الحدودية مثل هوف جورناي -Hugh of Gowrnay- أو ريتشر لي إيجل -L'Aigle ficher- والذي كان لورد في جيش هنري، وحاول هنري أن يستميلهم لصالحه، لكي ينفذ كل أغراضه في نورماندي وإنجلترا[2] ، وكانت النتيجة النهائية لكل هذا النشاط من جانب هنري أن احتفظ بنورماندي، لذلك ركز هنري في حروبه دائما على البقاء.

(1) Kenneth , op. cit., p.134.

(2) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.536.

وكان أمر الدفاع عن نورماندي أمرًا هاما في إنجلترا ويقع على عاتق الملك هنري، وليس فقط من أجل ملاك الأرض الكبار الذين يملكون عقارات وممتلكات في كل أنحاء القارة، وكذلك حماية القلاع والحصون، ودفع رواتب الحاميات العسكرية، والحروب في الداخل والخارج، كل ذلك تكلف أموالا طائلة، وكان على هنري أن يوفر هذه الأموال ليضمن للبلاد الاستقرار في الداخل والخارج، وفي سنة ١١١٨م قضى الملك هنري هذا العام بأكمله في نورماندي لدخوله في الحرب مع سيده ملك فرنسا، وكذلك أمير الأنجو وأمراء الفلاندرز، ولقد دفعت إنجلترا كثيرا من الضرائب لتمويل حروب هنري طوال هذا العام[١].

أما علاقته مع جيرانه الفرنسيين فالمفروض أنها علاقة السيد بالتابع، لأن دوق نورماندي الملك هنري تابع لملك فرنسا لويس السادس، ولكن هنري دخل في نزاع مع لويس السادس، ففي سنة ١١١٩م انتصر هنري على لويس في بريمول -Bremule- وأصبحت لهنري اليد العليا، وبعد ذلك واجه مشاكل مع بريتويل -Breteuil-، وحتى قبل انتصاره في بريمول كان قد اتفق مع فولك صاحب الأنجو، ورتب لزواج ابنه الأكبر الذي لم يتجاوز السادسة عشر من عمره من ابنة فولك لي رينتش، ولكن في سنة ١١٢٠م تحطمت تلك الخطة على صخرة أزمة مفاجئة[٢].

***

حادث غرق السفينة البيضاء سنة ١١٢٠م:

وفي سنة ١١٢٠م سار الملك هنري وولده الأمير وليم الذي كان يبلغ من العمر إذ ذاك ثمانية عشر عاما، وعبر إلى نورماندي للحصول على مصداقية البارونات، وأخذ البيعة من الأمراء والنبلاء

(1) Kenneth , op. cit., p.136.

(2) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.539.

النورمان لابنه وليم ليخلفه على عرش إنجلترا، وأقلع هنري في المركب الشراعي، وأمر الملك قائد السفينة بالإبحار، وأبحرت السفينة من إنجلترا إلى نورماندي ووصلوا بسلام[1].

وعند عودة الأمير وليم والنبلاء من نورماندي وبعد حصولهم على مصادقة الأمراء والنبلاء النورمان، فجأة اصطدمت السفينة في مكان صخري عالي وتحطمت وسقطت حاميتها بين الصخور بسبب سرعتها وامتلأت بالمياه، وأسرع البحارة –وعددهم خمسون بحارا– بإنزال القوارب من السفينة لإنقاذ الأمراء، وسمع البحارة صوت بكاء لأخت الأمير وليم غير الشقيقة الأميرة مارجريت، وأمر وليم البحارة بسرعة إنقاذها من بين حطام السفينة، ولكن بسرعة غير معهودة غاصت السفينة وعليها الأمراء ومنهم الأمير وليم وغرق الجميع، ولم ينج من الغرق إلا واحد هو الجزار سفاك الدماء روان –Rouen– الذي تمسك بكتلة من الخشب، وأخبرهم في الصباح بالحادث المؤلم.

وعندما سمع الملك هنري بهذه الأخبار أصيب بإغماء وقال ينعي ولده: "أنه لن يبتسم أبدا مرة ثانية".

وكان هذا الحادث سببا في تنغيص معيشته طوال حياته التي عاشها بعد وفاة الأمير وليم[2]، وحاول هنري جاهدا أن يمنع هذا الصرح الشامخ من السقوط ، ففي أقل من ثلاثة شهور بعد موت الأمير وليم تزوج هنري ، ولكن وريثه الذي كان يتمناه في يأس لم يولد أبدا، وبدأت مشكلة التعاقب[3].

---

(1) Williamson , op. cit., p.34.

(2) Williamson , op. cit., p.34 ; Davis, op. cit., p.151.

(٣) توفيت زوجة الملك هنري الأول ماتيلدا عام ١١١٨م وتحولت أفكاره للزواج وخاصة بعد موت وريثه الشرعي الأمير وليم، وتزوج من إديلائد –Aedlaide– ابنة دوق اللورين السفلي –Lorraine Lower– ولم تنجب ولدا.

الصراع على العرش :

كان لا يزال لدى الملك هنري الأول ابنة غير شرعية هي الأميرة ماتيلداء حيث كانت قد تزوجت في سنة ١١١٤م من هنري الخامس ملك ألمانيا الذي يبدو عائقا حقيقيا أمام ماتيلدا لكي تكون الوريثة الشرعية لوالدها، ولكن المشكلة انتهت بموت هنري الخامس سنة ١١٢٥م، فقام هنري بإعادتها إلى إنجلترا سنة ١١٢٧م فقام بعقد اجتماع موسع حضره كبار الأساقفة والبارونات في إنجلترا يترأسهم ديفد ملك أسكتلندا –David of Scotland–، واستيفن بلو – Stehphen of Blois–، وروبرت جلوستر –Reberet of Gloucester–، لكي يقسموا أمامه أن يقبلوا ابنته لتصبح ملكتهم في المستقبل، وقد كره العديد منهم هذه الترتيبات، والتي لم يكن مسبوقا في إنجلترا أو نورماندي أن تحكمهم إمرأة[1].

وكان هنري يرغب في استعادة ماين، وبذلك تقدم إلى كونت الأنجو مرة أخري يعرض عليه أن تتزوج الإمبراطورة من ابنه ووريثه جيوفري بلانتاجينت –Plantagenet–، وكان هذا الأمر مقبولا عند لوئك حيث يعني له أن موت هنري لن يصبح ابن جيوفري ليس حاكم الأنجو ونورماندي فقط، ولكن سيكون حاكم إنجلترا كلها[2]، وأرضى هذا الوضع طموح هنري العائلي، وكان يُنظر إليه في إنجلترا ونورماندي بعين الكراهية والغضب، حيث نظر إليه جميع الرجال من ذوي الدماء النورماندية لأنه استهان بهم حيث قبلوا حكم

– انظر في ذلك :

- Kenneth, op. cit., p.136 ; Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.540.

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.540 . William of New brugh, vol.1, op. cit., p.29; Davis, op. cit., p.35.

(2) William of New brugh ,vol. 1. , op. cit., p.29 ; Davis, op. cit., p.151; Williamson , op. cit., p.35.

عدوهم بالوراثة، إلا أن هنري لم يكن ليسمح باعتراضهم ، وفي يونية سنة ١١٢٨م أحضر ابنته إلى لي مانز، حيث تزوجت من جيوفري في حفل رائع، ورغم كل ذلك لم يهدأ قلقه حول مستقبل جيوفري الذي لم يناهز الخامسة عشر عاما، وكانت ماتيلدا تبلغ عامها الخامس والعشرين، وكانت شخصيتها متغطرسة وتشاجرت بسرعة مع زوجها الصبي، كما أعلن عدد من البارونات أنهم لم يوافقوا من البداية على هذه الزيجة، وإنهم غير مرتبطين بالقسم الذي أقسموه للملك هنري[1].

وفي سنة ١١٣٣ شعر الملك هنري الأول بالرضا عند سماعه أن الإمبراطورة قد وضعت ولدا، وقامت بتسميته هنري وكان قدومه سيضع الخلافة بعيدا عن موضع الخلاف مؤقتا، فقد أتم الملك هنري خمسة وستين عاما وهؤلاء يزال في عنفوانه، وكان يأمل أن يصل حفيده الصغير إلى السن الذي يصبح فيه مقبولا كملك تحت وصاية أمه، ويتجنب أي معارضة حول كونه ابنا لأنثى، ولكن ذلك لم يتم، ففي أغسطس سنة ١١٣٣م غادر الملك مرة أخرى إلى نورماندي وهو تواق لرؤية وريثه الصغير، ولكنه وجد نفسه متورطا في مشاكل مع جيوفري الذي أصبح كونت الأنجو بعد أن خلف والده سنة ١١٢٩م الذي ذهب إلى فلسطين ليصبح ملكا على بيت المقدس[2].

***

وفاة الملك هنري الأول :

وبحلول عام ١١٣٥م تشاجر هنري بطريقة عنيفة مع جيوفري الذي كان يريد بناء قلعة في نورماندي، ولم يوافق هنري، وقد أثار ذلك وليم تالفاذ من بيلمي –Wiiliam Talves of Belleme– الذي وقف مع جيوفري، ورد هنري على ذلك بأن أعلن تلفاذ خارجا على القانون، وفي سنة ١١٣٥م فرض تالفاز حصارا على قلعته في

---

(1) Kenneth , op. cit., p. 137.; Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.540.
(2) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.541.

أليسون "Alencon"، ولم يصمد الصرح الذي بناه هنري طويلا، وكانت تلك الحملة هي آخر جهوده الحربية[1].

وتوفي هنري في سان دنس في نورمنديا بعد مرض دام سبعة أيام نتج عن إفراطه في أكل نوع من الأسماك يشبه الحيات[2]. وصور المؤرخون هنري الأول كملك في حالة دائمة من القلق، فكل هذه الانتصارات التي حققها هنري جعلته قلقا على أن يفقد ما اكتسبه، إلا أنه كان بحق أكثر ملوك عصره بؤسا[3].

ودعم هنري الأول حكومته باتباع القواعد التي وضعها والده الفاتح الأكبر وأخوه رفوس، عدا ما ابتكر من وسائل جديدة، مثال ذلك أن وليم الأول والثاني قررا ضرورة نظر القضايا الملكية أمام قضاة ملكيين، ومن الناحية التنفيذية عهد إلى نواب الملك "الأشراف" بالنظر فيها، فلما جاء هنري أنشأ المحاكم الملكية وجعلها تنتقل بانتظام في طول البلاد وعرضها للنظر في قضايا التاج، وأكمل هنري الأول سياسة رفوس فيما يختص بتعيين نواب الملك وقضاته من رجال يعتمدون على تأييد الملكية ومعاونتها، بدلا من اختيارهم من بارونات يعتمدون على مواردهم الخاصة ونفوذهم الشخصي[4].

---

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.541 . Kenneth, op. cit., p. 137.

(٢) ذكرت "موسوعة كمبريدج" أنه تم نقل وليم فجأة بسبب مرض ألم به وهو يصطاد في فيكسن، وتوفي في الأول من ديسمبر في ليون لافوريت "Lyons-La- Foret" بعد فترة حكم دامت خمسة وثلاثين عاما، وعن موت هنري الأول.

انظر في ذلك :

- William of Malemsbury , Historia Novella, p.14 ; Poole, op. cit., p.129 ; William of New brugh, vol,1, op. cit., p.30.

(3) Kennth , op. cit., p.137.

(٤) نظير سعداوي: المرجع السابق، ص٧٥ – سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٤٧٠.

تقييم لأعمال هنري الأول :

لقد قام هنري الأول بتحسين نظام الحكومة، وتشييد نظام قانوني ليحل محل نظام الطغيان الذي أرساه أخوه رفوس، والحقيقة أن ذلك لا يعود إلى دوافع نبيلة لدى هنري، فقد سعى لذلك في كل من إنجلترا ونورماندي لأنه كان يكره تضييع الوقت والإسراف، وكان يحب المال بشكل أساسي، ولديه الذكاء ليدرك أن الطريقة الأكثر تأكيدا لأن يملأ خزائنه كانت عبارة عن الضغط المنظم الذي يطبقه عملائه "الأشراف" على مستوى عال، وربما كان هنري مثل رفوس في انعدام الضمير والطمع والجشع، ولكنه كان داهية يملك الذكاء في تعاملاته مع الآخرين، ويحسب كل شيء بدقة، وضع نقته في مرموسيه[1].

واكتسب هنري الأول لقب "بوكلارك" ومعناها "عالم جيد"، نظرا لاهتمامه بالتعليم، وترجمته لخرافات إسوب "E Sop" ولقب كذلك "بأسد العدالة" لإتباعه الصرامة في أحكامه" وهو أول من خطب خطبة رسمية ملكية من ملوك إنجلترا، وضرب في أيامه نقودا جديدة، وحسن أنواع النقود القديمة، وكان يقاضي المزيفين بشمل العينين، وعوض عن الخراج العيني بالخراج النقد، وأسس قواعد للموازين والمكاييل فجعل "الإل" "وهو وحدة قياس يساوي ياردة وربع طول ذراع الملك في أيامه"، وأدخل معامل الصوف إلى بلاده[2].

ومن الناحية الإدارية والمالية، فقد كانت قوية في عهد أسلافه، والذين كان يبقون على الخزانة الملكية في ونشستر، ولكن هنري نقلها إلى القصر الملكي تحت حراسة أمناء بيت المال، وعهد بالإشراف على الخزانة إلى وزير المالية، وقام بوضع نظام ثابت لجمع

---

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.532 .
- Ordericus,v. op. cit., p.43.

(٢) إيمون - ديمولان : المرجع السابق ، ص ٣٤.

الضرائب، وكان هنري يختار بدقة العاملين في بيت المال، وأمرهم أن يكتبوا له تقرير مالي "Pipe Roll" حتى عام ١١٣١م، وكان يعتمد في موارد المالية كذلك على العوائد الملكية وهو نظام جديد، وكان الأشراف هم الذين يقومون بجمع أمواله، وظل النظام المالي قويا من سنة ١٠٦٦م وحتى موت الملك هنري الثاني سنة ١١٨٩م[1].

وأقام وليم محاكم للمسائل القانونية والإدارية "Curia Regis" "أي مجلس الملك"، وعندما أصبح ملكا اهتم بالشئون الخارجية لإنجلترا ونورماندي، والتي كانت تمنعه من حضور جلسات هذا المجلس، لذلك استخدم مفوض من قبله "نائب" أو وزير محل ثقة يترأس الإدارة في غيابه، وكان يعد المراسم باسمه في حالة غيابه، ويتعامل مع المشاكل الملحة، وكان الرجل الذي اختاره هنري الأول يعتبر وصيا على العرش أثناء غياب الملك، ويحمل لقب رئيس "هيئة مجلس الملك" ورئيس "إدارة العدل" وهو روجر القس "Roger"[2].

كان هنري مثل أسلافه يعتمد على القانون الإنجليزي القديم الذي وضعه إدوارد المعترف، ولكن العمد النورمانديين كانت لديهم صعوبة في التأكيد على ما هية ذلك القانون، ولكي يساعدوهم في ذلك قام رجال الترجمة بالعمل ليس فقط في ترجمة قواعد القانون الإنجليزي القديم ولكن أيضا من أجل تنظيمها[3].

---

(1) Davis , op. cit., pp.140-140.

(٢) القس روجر هو من أهل كاين ورقاه الملك هنري الأول ليصبح مستشارا عند توليته العرش، وأصبح بعد عامين أسقف لساليسبوري من سنة ١١٠٢-١١٣٩ وعند تنصيبه في الأسقفية جمع بين منصبي الوصي على العرش وأمين الخزانة بنجاح. انظر في ذلك:

- Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.533 . Davis, op. cit., p.130. ; Fredrick (p.) , matland (F.W), the History of English law, vol.1, press,1953.p64; Davis, op. cit., p.137.

(3) Davis , op. cit., p.137.

ونتيجة لذلك أعدوا عددا كبيرا من القواعد القانونية الجيدة التي استخدمت من أجل تنسيق القواعد القانونية ووضعها في بنود يمكن تنفيذها، وكان المثال على ذلك كوادري بارثينوس –Quadri Parthns– وهنريس –Henrici–، وقد أصدرا مجلداتهما القانونية في الفترة من ١١١٣–١١١٨م، ووصلت إلينا عن طريق كتاب فرنسيين غير معروفين[1].

ولقد كتب كتاب الحوليات من الرهبان عن عصر هنري الأول وذكروا أن ثروة الأراضي قد زادت، وأصبحت الطرق آمنة، ويستطيع التاجر في إنجلترا ونورماندي أن يحمل معه الذهب والفضة، على الرغم من عدم وجود حراسة في الجبال، ذلك لما توفر في عهده من الأمن والأمان بعد أن كانوا يخشون السلب والنهب[2].

***

خامسا : ستيفن وعصر الفوضى (١١٣٥–١١٥٤م)

بمجرد موت هنري الأول أصبح من الواضح أن الخطط السالفة الخاصة بتولية ابنته ماتيلدا لن يتم تنفيذها، فلو كان حفيده الصغير أكبر قليلا لكان هناك جموع كثيرة من الشعب يمكن أن تؤيده، ولن يكن هناك شكوك حول أحقيته في العرش وخلافه جده، فكانوا على استعداد لتحمل فترة قصوره الطويلة –الوصاية عليه–، لأن الإنجليز والنورمان كرهوا أن ينتقل العرش إلى الإمبراطورة، ليس فقط لأنه لا يوجد سوابق لوجود ملكة سيدة من قبل، ولكن لشخصيتها الكريهة

---

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v. , p.535 ; Davis, op. cit., p.135.

(2) White , op. cit., p.36.

والمتغطرسة، ولأن الرجال من ذوي الدماء النورماندية يكرهون أن تحكمهم إمرأة، وخاصة زوجة عدوهم القديم جيوفري الأنجو[1].

وفي هذه الأثناء ظهر على مسرح الأحداث ستفين بلوا كونت مورتان وهو ابن أخت الملك هنري الأول، وطالب بحقوقه في العرش الإنجليزي، وكان قد أقسم اليمين من قبل إلى هنري على تتويج الإمبراطورة، وعاد كذلك الإيرل روبرت جلوستر ومعه النبلاء، ولم يقم الإيرل بأي تحرك لحماية حقوق أخته غير الشقيقة ماتيلدا، وتجمع المفوضون من الإنجليز والنورمانديين في ريون لمناقشة من الأحق بالخلافة بعد أن تقدم لها كذلك ثيوبولد –Theobold– كنت بلوا وهو الأخ الأكبر لستيفن، وهو الشخص الوحيد القادر على مواجهة أطماع كونت الأنجو، إلا أن هذا النقاش لم يؤد إلى قرار.

وكان ستيفن في بولونيا عندما وصل خبر موت خاله هنري، وتوجه بسرعة إلى إنجلترا، حيث استقبله الشعب الإنجليزي وخاصة أهالي لندن استقبالا حافلا، ورحبوا به على اعتبار أنه ملكهم الجديد، وفتحوا البوابات احتفالا بقدومه، وحدث ذلك في ونشستر وأحضر معه الأسقف روجر سالسبوري وكذلك وليم بونت –William Pont– الذي قام بتغيير الخزانة الملكية، وكان ستيفن محبوبا جدا من الشعب الإنجليزي خاصة من أهالي لندن لأنه كان يتميز بالشجاعة والإقدام والكرم والنبل، ولكنه كان مغرما بالمرح والسرور، رغم كونه عنيدا وصعب المراس مع البارونات.

ولقد أبرز حكم ستيفن وأثار قضية الأهمية الدستورية، لأنه كشف بوضوح عن اتجاه الفكر المعاصر لحق الوراثة، وكان الملوك النورمانديون يؤكدون دائما على الطبيعة الوراثية لنظام حكمهم الملكي، وذلك في المقام الأول مثلهم في ذلك مثل أجدادهم الأنجلو–

(1) Com. Mad. Hist ,vol. v.; , p.541 ;William of New bugh , op. cit., p. 31.

سكسون، بالرغم من أنهم كانوا أيضا يرون أنه من المناسب أن يكون الاختيار أو الانتخاب الرسمي عن طريق مجالس مكونة من الوجهاء ذوي المكانة والشهرة، لأن كلا منهم كان يرث العرش نتيجة تحديه لمنافس، ومع ذلك فإنهم كانوا يحتقرون في داخلهم ذلك الانتخاب أو الاختيار، الذي يحد من سلطتهم بأي شكل من الأشكال، أو يتضمن أي حق ينص على خلعهم أو عزلهم.

وعند وفاة هنري الأول كان من الواضح لكل إنسان أن ما قام به من فنون الحكم في سنواته الأخيرة لم يكن ليمر بسهولة مر الكرام، فكان من المحتم علينا معالجة مسألة وراثة العرش كقضية عاجلة، وكان لابد من توضيح قضية الوراثة ومن هو الأحق بها، أهو ستيفن أم ماتيلدا.

***

قضية حق ماتيلدا في العرش:

أ- كانت ماتيلدا هي للوريث المباشر والتي ولدت كطفلة لأب متوج، وانحصرت قوة هذا الجدل في ثلاث نقاط: لم يسبق الحكم لامرأة من قبل، ولم يقبل بها النبلاء والاقطاعيين- وهل ستكون ملكة بمفردها أو وصية على ابنها هنري بلانتاجنت، وكذلك تخوف الجميع من جيوفري أن يصبح ملكا عليهم كزوج لماتيلدا بالإضافة إلى شخصيتها الكريهة، وأدى كذلك زواجها من الإمبراطور الألماني إلى انقطاع صلتها بالتقاليد الإنجليزية، وأثار زواجها الثاني من كونت الأنجيفيين -جيوفري- إلى اشمئزاز النورمانديين، ورغم كونها مستبدة ومتغطرسة وعنيدة ووقحة في سلوكها، وغير محبوبة على الإطلاق من الشعب الإنجليزي.

ب- وكان اليمين المقدس هو الذي ضمن لماتيلدا حقوقها، تلك الأيمانات الدينية المقدسة التي حصل عليها هنري من رعاياه الأقوياء بما فيهم ستيفن نفسه، ولو رفض ستيفن البيعة يعتبر قد ارتكب إثم

الحنث باليمين، ولا يمكن أن يصفح عنه المجتمع، ولكن يمكن إبطال هذا الاتهام إذا حصلوا على منافس لماتيلدا بموافقة البابا، وهذا ما حدث على وجه الدقة.

ج- كان هنري يأمل في دعم حقوق ماتيلدا في العرش عن طريق كونت الأنجو زوجها القوي، وكان واضحا أن الكونت لا يستطيع أن يفعل شيئا لزوجته في إنجلترا، إذ لم يتمكن من حشد بعض الفرسان لمساعدتها، ولكنه ركز جهوده على إقليم نورماندي -المجاور لدوقية نورماندي- وبحلول عام ١١٤٢م اعترف به ملك فرنسا دوق شرعي لنورماندي.

د- كانت ماتيلدا تستطيع الاعتماد على بعض التأييد من إنجلترا، حتى ولو جاء من تلك الأحزاب العنيدة التي ترى في الفوضى وعدم النظام فائدة لها، بالرغم من قوة نشاط إيرل جلوستر الذي كان يتآمر عليها في سنة ١١٣٧م، ولكن بعد أن نزلت إنجلترا في سنة ١١٣٩م أعلن أنه مستشارها الخاص، وجعل أملاكه في غرب إنجلترا تحت سيطرتها.

***

قضية حق ستيفن في العرش :

وبمقارنة ما لماتيلدا من حق في العرش، نجد أن ما لها من حق كان أقل بكثير مما كان لستيفن وذلك لما يلي :

أ- إذا كانت ماتيلدا هي ابنة الملك هنري الأول، فإن ستيفن هو ابن ابنة الفاتح الأكبر -أديلا- ووالده هو الإيرال -بلوا-، فإن ستيفن لم يمثل فقط السلالة النورماندية، ولكنه كان يمثل البيت الأنجلو - سكسوني أيضا، لأن زوجته مارجريت هي أخت أثلنج -ملك إنجلترا السابق- ولم يستطع ستيفن أن ينكر المنزلة الرفيعة لماتيلدا، وكان يدعمه في سعيه للعرش أخوه الأكبر ثيوبولد، لذلك كان يفضل مبدأ الانتخاب، ويرفض مبدأ الوراثة.

ب- وكان في استطاعة ستيفن الحصول على تأييد ومساندة الكنيسة، وإن كان حقه الشرعي موضع شك بسبب قسمه لهنري، وكان انتخابه السريع مشكوك فيه إلى حد كبير، فكان لزاما عليه أن يزيل عائق القسم الذي أقسمه على نفسه، والكنيسة هي الجهة الوحيدة التي يمكن أن تغفر له وتحله من قسمه، كما كانت هي الجهة الوحيدة التي يمكنها تتويجه، ومن حسن حظه أن كان له أخ وهو -هنري بلوا- الذي كان أسقفا لونشستر وكان قادر على أن يقنع زملاءه بتأييد ستيفن وخاصة رئيس أساقفة كانتربري نفسه، وتم تتويجه في كنيسة ويستمنستر في إنجلترا بعد وفاة هنري بثلاثة أسابيع.

ج- وكان ثيوبالد أخوه الأكبر يلح في طلب حقوقه في التاج، ويعتبره البارونات هو الأحق بلقب ملك إنجلترا، وفوجئ ثيوبالد بالأمر الواقع وطرح طموحاته ومطالبه جانبا، وقد وقف إلى جانب أخيه وانحاز إليه في حب وشهامة بعد أن ذهب إلى إنجلترا للمشاركة في تتويجه، وكان على استعداد لترك العداء مع أخيه إذا وجدا خطرا حقيقيا على إنجلترا.

د- وقد تقبل موظفوا الحكومة الكبار ستيفن ملكا عليهم، لأن السلام ينتهي بموت الملك ويستمر بوجودهن، ويمكن أن تندلع أعمال الفوضى ولا تنتهي طالما ظل كرسي العرش خاليا، وكان لابد لشخص ما أن يعتلي العرش ويسيطر على الأمور بسرعة، وعلى الجميع أن يعلنوا ولاءهم للشخص المرشح لإعتلاء العرش.

والحقيقة أن شخصية ستيفن هي التي جعلته في البداية أكثر قبولا من ماتيلدا، إلا أن الأحداث الأخيرة أثبتت عكس ذلك، فقد كانت شخصيته متذبذبة ومترددة وينقصه الخبرة في الحكم والإدارة ، فالحق الشرعي لستيفن لم يكن ضعيفا إذا قارناه بالحق الشرعي لماتيلدا، والذي أضعف مركز ستيفن إندلاع الثورات والعصيان، وتلك العصيان يمكن تبريره في تحول بسيط للولاء لماتيلدا، كما أن الزيادة

في عدد أصحاب الإقطاعيات والاعتماد على المرتزقة من الفلمنك، وتبديد أموال الدولة ومواردها داخلها، والعمل على تخفيض العملة، كل هذه الأعمال جعلت سلطته في ضعف مستمر، ومع ذلك فقد تم تتويجه.

***

سياسة ستيفن في الداخل والخارج :

توج ستيفن في الثاني والعشرون من ديسمبر سنة ١١٣٥م في يوم الأحد ملكا على إنجلترا في حضور ثلاثة فقط من الأساقفة وهم رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف وينشستر، وأسقف سالسبوري، وعدد قليل من النبلاء، وكسب ستيفن تأييد الكنيسة مثلما كسب تأييد الشعب من قبل وذلك عن طريق إنشاء عصبة من الرهبان من سافيجني -Sovigny- في فيرنس -Furness- في مقاطعة لانكاشاير، وهو نظام رهباني جديد في إنجلترا ، وكان الملك يعتمد عليه في تأييده في الحكم.

وكان أول من ساند ستيفن في نورماندي هم إيرل ليستر -Leicester-، وسوري -Surrey-، وكذلك كلت مولان-Meulan-، وجميع الأساقفة النورمان، وأخوه كونت ثيوبالد، وتفاوض ثيوبالد نيابة عن أخيه ستيفن مع النبلاء، لكي يصلوا إلى ترضية مع الإمبراطورة ماتيلدا، ولكنها رفضت هذه الترضية، ولم توافق على الإطلاق على تتويج ستيفن وقدمت شكوى إلى البابا أنوسنت الثاني ضد اغتصاب ستيفن للعرش.

وأول من عارض ستيفن بشكل صريح هو فيكونت هيسموي -Viconte of Hiesmois-، الذي اعترف بولاية الإمبراطورة على أرجنتان -Argentan-، وإكسميز -Exmes-، كما عارضه وليم تالفاز -Tavles-، وبونثيو -Ponthieu Belleme-، وديفد ملك أسكتلندا الذي قام بشن هجوم على كابلاند ونورثمبلاند من أجل مصلحة ابن أخيه،

ولكن في الحقيقة كان يريد أن يؤمن تلك المقاطعات لابنـه هنـري، وتحرك ستيفن بسرعة نحو درهام تاركا نورماندي ليتعامل معها فيما بعد.

وكان واضحا من البداية أن ستيفن لن يستطيع الحفـاظ علـى النظام في مملكته وعلى الحدود كذلك، ففي البـدايات المبكـرة لعـام ١١٣٦م على سبيل المثال، هاجم دوق فورفولـك قلعـة الملـك فـي نوربتش واستولي عليها، كما قام أحد الوجهاء من ذوي المكانة والنفوذ في المنطقة بنهب قلعة إكستير؛ مبررا ذلك بالإشاعة التي انتشرت أن الملك قد مات، وهذه كانت الحالات الأولي للتمرد والعصيان، بالرغم من أنها لم تكن حالات خطيـرة إلا أنهـا أظهـرت حـالات القلـق والاضطراب في ذلك الوقت، ولأن ما حدث من حـوادث قـد أفلـت مرتكبوه من العقوبة، فكانت نماذج وأمثلة لما سيحدث بعد ذلـك فـي المملكة.

وكان ديفد ملك أسكتلندا على عداء مع ستيفن، لأنه أقسم على أن يحافظ على مطالب الأميرة وحقوقها في العرش الإنجليزي.

وفي فبراير سنة ١١٣٦م توصل ستيفن إلى اتفاق مع ديفد بـأن يعترف ديفد بستيفن كملك في مقابل منح هنـري ابـن الملـك ديفـد إقطاعية كامبرلاند له، وكذلك يعطيه حق ملكية هانتجـدون، والتـي كانت في حوزة الإسكتلنديين، وكان ستيفن يعتبر هذه التسوية صـفقة رابحة، وفي أحد جوانبها كانت تعتبر ترتيب عائلي، ولكـن اكتشـف ستيفن أن لها عيبان فهي لن ترضي ديفد بشكل حقيقي، وقد غضـب إيرل شيستر حيث كان لديه ادعاءات في كامبرلاند، وقد تحولت إلى نقطة معارضة طوال الوقت، وبعودة ستيفن من لندن احتفـل الملـك بأول عيد ليوم القيامة كملك بإقامة حفلة رائعة تم فيها تنصيب زوجته كملكة معه، وقد حضر الاحتفال حوالى تسعة عشر أسـقفا إنجليزيـا ونورمانديا، وحضرها ما لا يقل عن أربعين بارون من جميع أنحـاء المملكة.

وإزدادت سلطة الكنيسة في إنجلترا، لأن ستيفن تـرك الحريـة للكنيسة، وأعطاها امتيازات كبيرة، وكان ممن إزدادت سلطتهم بشكل كبير الأسقف روجر سالسبوري وابن أخته، وكان أخو روجر ألكسندر من لنكولن قد بني قلعة في نيو أرك –New Ark– لحمايته.

وهذه الحرية الكنسية أثارت البارونات ضد ستيفن في أواخر سنة ١١٣٦م، وكان على رأسـهم هـوف بيجـود –Hagh Bigod– فـي نورفولك، وهي انتفاضة صغيرة في ديفون قادها بلدوين دي ريد فنر –Baldwin de redvars– وربرت بامبتون –Bampton–، إلا أن تلك المشاكل كان من السهل التغلب عليها ومواجهتها[١].

ولكن ستيفن لم يستطع الدفاع عن مملكته ضد الأخطـار التـي كانت تتربص بها من الخارج، بالرغم من أن ملك فرنسا قـد صـدق على معاهدة مع ستيفن بأن نورماندي تقع ضمن أملاك إنجلترا، إلا أنه عندما زار ستيفن نورماندي سنة ١١٣٧م تصرف تصـرفات تحتـاج لكثير من اللباقة والدبلوماسية، لدرجة أنه أثـار عـداء النورمانـديين ضده، وترك الأمور في حالة سيئة وأكثر خطورة عما كانت عليه قبل الزيارة، فإذا كان في بداية حكمه قد تخلص من هجوم الأسكتلنديين عليه بإعطاء هنري بن الملك ديفيد ملك أسكتلندا إقليم كمرلاند ، بيد أن ذلك دعوة إلى ابتزازه واستغلال ضعفه بدرجة أكبر، ومطالبة الأمير هنري بمنحه مقاطعة نوثمبلاند بطريقة مماثلة، وهذا يسـمح بتحـرك الحدود الإسكتلندية إلى الجنوب، وذلك بموافقة سـتيفن، ولكنـه عـاد ورفض هذا المطلب، وجاء الرد الذي لا مفر منه في الاكتساح الهائل للمقاطعات الشمالية[٢].

***

---

(1) Cma. Med. Hist, vol. v, p.545.

(2) Sayles,op. cit; p.316 ; Mowat,op. cit; p.57.

النزاع بين ستيفن وماتيلدا :

وفي سنة ١١٢٠م وجد ستيفن نفسه مضطرا لكي يعبر إلى نورماندي، حيث ظل هناك مدة تسعة أشهر على الرغم من أن الامبراطورة كانت ماتزال في موقع التملك في أرجنيتان وبعض القلاع الأخرى، ولو لعب ستيفن بأوراقه بشكل جيد لكان من السهل عليه أن ينتزع ملكيتها، ذلك لأن الملك لويس السادس كان يسانده، وكان قد منحه الدوقية في شهر مايو، بينما كان جيوفري صاحب الأنجو قد أثار حفيظة نورماندي بسبب شن هجوم عليها في العام السابق، إلا أن ستيفن لسوء الحظ أحضر معه مجموعة من الفلاحين يقودهم صديقه وليم يابرس ‑Ypres‑، وانزعج النورمانديون من هذا التصرف الذي أغضب بعض الرجال في إنجلترا مثل وليم وارين ‑Warenne‑ وهوف جوراني ‑Gournay‑، وأدى إلى مشاكسات من جديد مع روبرت جلوستر[١].

وفي صيف سنة ١١٣٨م قرر روبرت جلوستر أن ينضم إلى جانب أخته غير الشقيقة ماتيلدا، ويثبت أن ارتداده لم يعني فقط أن ستيفن فقد السيطرة على بعض النقاط القوية الهامة في نورماندي خاصة في بيسن ‑Bessin‑، وهي التي يوجد فيها إقطاعيات جلوستر النورماندية، ولكن أيضا إشارة إلى أن شعب الأنجيفين ‑Angevin‑ كان على وشك بدء الكفاح ضد إنجلترا[٢].

وقد تمادى روبرت جلوستر في الإمعان في خططه بعقد تحالف مع الكونت جيوفرس الأنجو سنة ١١٣٨م، وبعث برسالة تتضمن تهديدًا ووعيدًا لستيفن متهما إياه بأنه مغتصب وينهي تحالفه معه،

---

(1) Cma. Med. Hist, vol. v, p.543 ; William of Malmesnury, Historia Novella,p.21.

(2) Kenneth,op. cit; p.138 ; Brook, Saxan and Norman,op. cit; p.184.

وأدى هذا الحدث في إنجلترا إلى حدوث خلل في عدد من الإقطاعيات الخاصة ببارونات غرب إنجلترا، حيث كان هناك أقارب جلوستر الذين أعلنوا تأييدهم ومساندتهم مثل وليم فيتز أسبورن، وآلان أولسستيري –Alan of owestryw–، ورالف باجنال –Ralph Paganel– من دودلي –Dudley–، والعديد من ملاك الأراضي في سومرست ودريست ويقودهم وليم موهان –Mohun– لورد دونستر، ولم تكن تلك هي المشاكل الوحيدة التي واجهت ستيفن، وكان لزاما عليه أن يواجهها[1].

وفي الشهور الأولى من سنة ١١٣٨، تعرضت إنجلترا لغزو منظم من قبل ديفيد ملك أسكتلندا في أواخر فصل الصيف، ومع ذلك لم يكن ستيفن هو الذي يستطيع أن يقهر العدو، ولكن القوات المحلية المتواجدة في يوركشير، والتي كانت تعمل بتوجيه من ثرستان –Thurstan– رئيس أساقفة يورك المسن، حيث جمع البارونات في الشمال فيما عدا إيرل تشيستر وتوجهوا نحو الميدان لإعاقة أي تقدم من جانب ديفيد، وحدثت هذه المعركة في أغسطس في منطقة نورثاليرتون –Northatterlon–[2] واكتملت استعدادات الفريقين في موقعة ستاندرد –Standard– وفي هذه المعركة كان يتوسط الجيش الإنجليزي عمود عليه العلم البابوي، وكان مثبت على عربة تجرها الخيول، وفي نهاية العربة أعلام القديسين ومنهم القديس كثبرت –St. Cuthbert– في كنيسة درهام، والقديس بطرس –St. Peter– في كنسة يورك، والقديس ولفرد –St. Wilfred– في كنيسة روين، والقديس جون –St. Jhon– في كنيسة بفرلي، وفوق ذلك وضع البارونات توابيت من الفضة تحتوي على رفات القديسين، وأحرز الملك ستيفن انتصارا رائعا على ديفد في ستاندرد[3].

---

(1) Cma. Med. Hist, vol. v, p. 544.

(2) Sayles,op. cit; p.318.

(3) Williamson,op. cit; p.40 ; Davis,op. cit; p.159.

وبدد ستيفن في سنة ١١٣٩م كل ما حصل عليه في المعركة السابقة في ستاندرد التي لم يحقق الانتصار فيها بنفسه، وذلك عندما منح مقاطعة نورثمبلاند لهنري بن مالكلوم كانمور، كإشارة مفهومة بأنه سوف يساعد الملك ستيفن ضد رعاياه المتمردين، أو يسحب مساعدته لماتيلدا، وسمح لها مالكوم أن تذهب لتنضم إلى روبرت جلوستر في برستول، ولكنه أخلف وعده وقبض عليها وقام بسجنها وتصاعدت الأحداث[1].

وكان ستيفن قد وقع في ثلاث أخطاء هي :

أ- استبعد ستيفن القوات البرية التي شكلها وجمعها لسد العجز وأوجه القصور عنده، واستبعد أيضا قوات الخدمة المدنية التي شكلها هنري الأول، ويبدو أنه كان مصممًا على استعراض قوته الملكية لقهر وإذلال أصدقائه، لأنه لم يستطع أن يقهر أعداءه، ولا يصدر هذا إلا عن رجل ضعيف[2].

ب- وأساء ستيفن لأسرة "لي بوير" تلك الأسرة الثرية التي كانت تتمتع بنفوذ كبير، ومن أفرادها روجر سالسبوري الذي يعمل وزيرا للعدل وقاضيا للصلح، وابنه روجر مستشار الملك، وابن أخيه نيجل أسقف إيلاي وخازن بيت المال، وابن أخيه ألكسندر أسقف لنكولن، وكان ستيفن مقتنعا بأن هؤلاء يمثلون عصابة خطيرة، فانتهز حدوث خطأ فادح من ناحيتهم وأجبرهم على تسليم قلاعهم إلى القوات الملكية، وإن كان الحادث يمكن أن يحدث في الأيام العادية، ولكن تلك الأيام كانت خطيرة، وأذل الملك هذه الأسرة العريقة وسجنهم، وعمت الفوضى البلاد، وتخلص بذلك من أعمدة حكمه الرئيسية[3].

---

(1) Kenneth,op. cit; p.138.; Brook , Saxon and Norman, p.184.

(2) Sayles,op. cit; p.318.

(3) Davis,op. cit; p.165; William of Malmesnury, Historia Novella, p.26.

ج- أما الخطأ الثالث في سنة ١١٣٩م عندما هاجم ستيفن الكنيسة وطرح موضوع تأييدها له جانبا، وهي التي بذلت كل ما في وسعها لتتويجه ملكا على البلاد، وكانت الكنيسة هي المؤيد والسند القوي للملكية، وبعد هذا التجاهل والهجوم على الكنيسة من ستيفن، لم يعد المطلوب إلا إجراء بسيط بصرف النظر عن السلطة التي تقوم بتنفيذه، وأعلنت الكنيسة سعيها للتحرر من السلطة العلمانية، ولم يعد ستيفن هو الرجل الذي يمكن أن يقاوم ضغوطها.

وأثناء هذه الأحداث قامت الإمبراطورة وإيرل جلوستر باتخاذ قرار القدوم إلى إنجلترا، ووصلوا في الخريف إلى أروندل -Arundel- وأحضروا معهم حوالي مائة وأربعون فارسا، وكان ذلك إيذانا ببدء حرب أهلية ساخنة، وانضم إلى روبرت جلوستر مايلز يربك نوك -Miles of yarbeck Nock- وبريان فيتز -Brian Fitz- اللورد الشرفي لجولستر، واللذان انضما إلى روبرت جلوستر في برستول.

وأعطى ذلك الإمبراطورة القدرة على السيطرة على منطقة أعالي التايمز، وبذلك أصبح الجزء الجنوبي الغربي من ويلتشاير -Wilt Shire- إلى كورنول قد ضاع عمليا من يد ستيفن بالإضافة إلى هيريفورد شاير، على الرغم من أنه لم ينضم سوى بضعة بارونات إلى جانب ماتيلدا بشكل صريح، وكان الشخص الأكثر وضوحا الذي قام بذلك هو نيجل أسقف إيلاي، والذي تقاسم المهانة التي أصيب بها عمه الأسقف روجر الذي تواطأ مع ماتيلدا لكي يأخذ ثأرهم، وكان الهدف الرئيسي للإمبراطورة هو اتساع تأثير الملكية نحو الشرق لتمكنها من امتلاك لندن وونشستر، وكان من السذاجة أن تعلن نفسها ملكة قبل أن تؤمن طريقها للتتوج في وستمنستر[1].

---

(1) Cma. Med. Hist, vol. v, pp. 545-546.

وأثار وجود ماتيلدا وجولستر اضطرابات كثيرة، ففي سنة ١١٤٠م بدأت تلك الفترة البربرية التي لم تقتصر آثارها القبيحة على أعمال التخريب والتدمير والسلب والنهب، وإنما امتدت إلى القيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية وقوانين البلاد، إذ وجد البارونات ورجال الدين فرصتهم الذهبية في تلك الحرب الأهلية للإثراء والتملك والجاه والسلطان، وكانت وسائلهم في تحقيق أهداف متعددة، فركنوا إلى الخيانة والغدر والنفاق والانضمام إلى حزب دون الآخر، إذا ما منحهم من الأراضي والامتيازات ما يفوق الحزب الآخر[1].

وبفضل التنقل من حزب لآخر وخلال شهور أصبح جيوفري دي مانديفيل –Geoffirey de Mandeville– إيرل وسكس قائد حامية لندن ونائبًا عن الملك في مقاطعات ميد لمكس وهريفورد، مما آثار رجال الدين وجعلهم يقومون بالثورة ضد ستيفن، وتعرضت البلاد للسلب والنهب ثانية[2].

وبدأ ستيفن يفقد المؤيدين له، وكان أولهم إيرل لنكولن الذي كان غير راض، لأن المقاطعات النورمندية الخاصة به كانت في خطر، وكان يدعي كذلك أحقيته بالوصاية على القصر الملكي في لنكولن كوريث لعائلة بلواء، ولم يثق فيما سيقدمه له الملك بالإضافة إلى منصب الإيرل بالمقاطعة[3].

***

الحرب بين ستيفن وماتيلدا :

وفي الثاني من فبراير سنة ١١٤١م غضب إيرل شستر المستقل استقلالا كبيرا، عندما وجد أنه ليس بمقدوره استعادة كمبرلاند من

---

(١) نظير سعداوي : المرجع السابق ، ص ٧٧.

(2) Davis,op. cit; p.167 ; Brook , Saxon and Norman,p.185 ; Sayles,op. cit; p.323

(3) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.546.

أيدي الأمير الأسكتلندي، لذلك أعلن شستر التمرد والعصيان متحالفا مع أخيه غير الشقيق إيرل لنكولن، وأسرع جلوستر للانضمام إليهما بقواته[1]، وحارب الملك ستيفن بمهارة وبسالة وكان يعتقد أنه بستة إيرالات فقط يمكن كسب المعركة، ولكنه هزم ووقع أسيرا وسجن في سجن بريستول[2]، ولم يعطي هذا الانتصار للإمبراطورة المسيطرة على لنكولن شاير، فقد كان الإيرالات يحاربون من أجل أنفسهم فقط، وليس لديهم الرغبة في أن يروا ماتيلدا في موقع السلطة الحقيقية بدلا من ستيفن المتساهل الضعيف، كما أن مواطني لنكلن وأصحاب الأراضي لا يرغبون في ذلك، وبعد الانتصار تقدمت ماتيلدا إلى ونشستر لتأمين بيت المال وعرش الملك، وبدأت سياسة ستيفن السيئة تؤتي ثمارها فبدلا من معارضة الإمبراطورة فإن ممثل البابا هنري أسقف ونشستر الذي تقدم للقاء الإمبراطورة في ويرول -Wherwell- ورحب بها، ووافق على الاعتراف بها كملكة بشرط أن تكون له الأمور الدينية، وسلم قصر ونشستر في الثالث من مارس، وكانت الإمبراطورة قادرة على إعلان نفسها ملكة لإنجلترا في ونشستر، وكانت آمالها أن ينتخبها أهالي لندن، وأن يؤمنوها قبل أن يتم تتويجها بالطقوس التقليدية في كنيسة ونشستر[3].

وبعد ذلك بشهر دعا ممثل البابا إلى اجتماع كنسي، وأعلن أن ستيفن قطع الصلة بينه وبين الكنيسة، وخسر بذلك الملك الولاء والدعم الكنسي، وتم انتخاب ماتيلدا لتحل محله على العرش، ولأن التتويج كان يعتمد على الكنيسة فكان من حقها الاعتراض "الفيتو" ويجيز لها حق الاعتراف وحق الانتخاب[4]. ولكن قبل نهاية شهر يونية كانت

---

(1) Sayles,op. cit; p.32 ; Williamson,op. cit; p. 40.
(2) Kenneth,op. cit; p.139.
(3) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.547 ; Davis,op. cit; p.169.
(4) Sayles ,op. cit; p.320 ; Davis,op. cit; p.169.

ماتيلدا قد دخلت لندن وباشرت عملها كملكة بالأمر الواقـع، وقامـت بتعيين أسقف للندن، وأمرت بتعيين إيـرالات جديـدة فـي كورنـول وديفون، وأعطت سومرست لأخيها غير الشقيق ريجنالد –Reginald– ومساعديها الأكثر إخلاصا مثل بلدوين دي ريـد فيـرز وولـيم دي موهان، إلا أن الإمبراطورة لم يكن مقدرًا لهـا الاسـتمرار كملكـة متوجة[1].

فخلال فترة وجودها القصيرة في السلطة أثارت السخط بسـبب غطرستها غير المقبولة إلى حد كبير[2]، كما أنها تجاهلت مشورة إيرل جلوستر وأسقف ونشستر واتبعت طريقًا لا كياسة فيه، وأثارت بـذلك سخط الشعب الإنجليزي عامة ومدينة لندن خاصة والتي أيـدتها فـي البداية، وسارع أهالي لندن بطردها ومعها هنري بلواء، وندمت لنـدن على الإجراءات التي اتخذتها لصالحها، وانقلبت الأمـور وصـارت للمعارضة ضدها، وجاء أسر إيرل جلوستر السند الرئيسي لها بمثابـة نهاية لأطماعها، وتبع ذلك أسر ستيفن كذلك، وتـم مقايضـة سـتيفن بجلوستر، وفي ديسمبر سنة ١١٤١م دعا الأسقف هنري إلـى عقـد مجلس بابوي أدان فيه ماتيلدا لعدم وفائها بوعودها للكنيسة، حيث تـم قبول ستيفن ملكا شرعيا للبلاد[3].

ولكي يثأر هنري من الإمبراطورة التي لـم تـوف بوعودهـا للكنيسة وقف إلى جانب ستيفن وساعد في إعادته للسلطة فـي شـرق نورماندي ووسط إنجلترا، وقام ستيفن بالهجوم على إكسـفورد، وتـم احتلال المدينة بسهولة، ولكن الإمبراطورة ظلت في القصـر ثلاثـة

---

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.547.
(2) Kennth ,op. cit; p.139.
(3) Sayles,op. cit; p.165; William of Malmesmry, Historia Novella, p.29.

شهور ثم هربت في النهاية* ، وإن كان الشخص الذي خـرج بغنـائم كثيرة في هذا الصراع هو الفلمنجي وليم يابرس، وبعد هروب الملكة اتخذت طريقها نحو ولنجفورد، وبحلول الوقت كان جلوستر قد عـاد من نورماندي ومعه ابن الإمبراطورة هنري الصغير، وقوة من ثلثمائة وستين فارساً، ولكن هذا الاستعداد لم يكن كافيا لاستعادة ما سلب من أخته، وفي سنة ١١٤٣-١١٤٤م حافظ جلوستر علـى موقعـه فـي منطقتي دورست ووايت شاير ، وفي الوقت نفسه تشجع ستيفن فـي سنة ١١٤٣م وقام بإجبار إيرل وسكس على تسليم قلاعه، وكان لهذا التحرك الفضل في إعطاء ستيفن السيطرة على لندن ووسكس(١) .

واستمر القتال المتقطع عدة سنوات، ثم انتهـى بسـلام نتيجـة للحروب التي استهلكت قواهم واستنفدت أمـوالهم، وتـداعى حـزب ماتيلدا وضعف تدريجيا، وخاصة أن جلوستر العضو القوي فيـه قـد مات سنة ١١٤٧م، وغادرت ماتيلدا إنجلترا إلـى الأبـد فـي سـنة ١١٤٨م، وفي عام ١١٥١م مات كذلك الكونـت جيـوفري الأنجـو، وبذلك خلا الجو من أعداء الملك ستيفن(٢) .

وبعد أن تخلص ستيفن من منافسيه كانت لديه الفرصة ليجعل من نفسه سيدا على إنجلترا، ولو تمكن من تأمين ولينجفـورد وبرسـتول لأجبرهم على الاستسلام، ولكنه كان متساهلا لدرجة كبيرة فلم يقتنص

---

* عندما حاصر الملك ستيفن قلعة إكسفورد في خريف ١١٤٢م والتـي لجـأت إليها ماتيلدا، وقد قررت الهرب في ملابس بيضاء ومعها ثلاثة مـن الجنـود الموالين لها، وقد لبسوا أيضا الملابس البيضاء وساروا خلف الملكة على الثلج الأبيض حتى لا يتكشف أمرهم .

انظر في ذلك :

- Willamson, op. cit; p.321 ; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.548.

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.459.

(2) Sayles ,op. cit; p.322.

هذه الفرصة، وسمح بمرور خمس سنوات (١١٤٧-١١٥٢م) ولم يسجل خلالها أي نشاط حقيقي سوى المحاولة النصف جادة للحصول على ونشستر من رجال مويلان -Meulan-[1].

وفي عام ١١٤٩م عاد هنري الأنجو -ابن ماتيلدا- إلى إنجلترا مرة ثانية وجمع حوله أصدقاءه، ولم يقم ستيفن بأي تدخل وسمح لهم برحلة دون رقابة إلى كارليل لزيارة عمه ديفيد، وعندما سمع ستيفن أن إيرل تشيستر الذي كان يرغب في تأمين لانكستر ذهب إلى كارليل لمقابلة هنري انتابه القلق والحذر، ولكنه تحرك بسرعة وبشكل غير شرعي برشوة الإيرل ليظل مواليا له عن طريق إعطائه عددا من الأراضي المبالغ فيها في نوتنجهام وليشيستر، وبالسماح له مرة أخرى بتملك لنكولن، وكانت زيارة هنري تعني أن الجانبين قد استهلكت قواهم من القتال ويرغبان في الحياة بسلام، وخاصة بعد أن بلغ ستيفن أكثر من ستين عاما[2].

وبدأ الخطر يقترب من ستيفن بمجرد أن سمع بأفعال هنري، وحدد ستيفن طلبه بتتويج ابنه الصغير أيوستاس، ولكي يدعم موقفه أمر ستيفن بالهجوم على ولنجفورد وهي المعقل الذي اتخذه بريان فيتز لمساندة هنري في وادي نهر التايمز لمدة أربعة عشر عاما تقريبا، إلا أن استئناف الاجراءات النشطة جاء متأخرا جدا، وبدلا من المقاومة قام ستيفن والأسقف ثيوبالد بالهرب أثناء القتال، ولم تستطع مقاومة أهالي ولنجفورد التغلب على هنري، ووصل هنري إلى إنجلترا سنة ١١٥٣م بقوة صغيرة من الفرسان بلغت حوالي مائة وأربعين فارسا وثلاثة آلاف رجل من المشاة، واستلم هنري عرض للمساندة من إيرل تشستر، وبعد بضعة أسابيع احتل هنري مالسبوري وخفف الوطأة على ولنجفورد[3].

---

(1) Davis ,op. cit; p.178.
(2) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.549.
(3) Davis ,op. cit; p.179 ; Brook , Saxon and Norman, p187.

ولكن الرغبة في السلام أصبحت عامة في المملكة، وخاصة بعد أن توفي أيوستاس بن ستيفن في أدهوندس، وكانت قد توفيت قبله بعام زوجة ستيفن إديلاد، لذلك سعى ستيفن في السلام ولم يعد له ولد يحارب من أجله، ولكن أدت تلك الأزمات العائلية إلى إعلان عدم رغبته في الاستمرار في الصراع العائلي، لذلك أمر أخيه أسقف وينشستر أن ينضم للأسقف ثيوبالد في التوسط من أجل السلام الذي يتم الترتيب له ومن خلاله يظل ستيفن ملكا على إنجلترا طوال حياته، وأن يعترف بهنري خليفة له ويتم استشارته في المستقبل في الأمور المتعلقة بالبلاد، وكانت تلك التسوية التي تم التوقيع عليها عن طريق هنري وأتباعه بالولاء لستيفن في وينشستر في اجتماع المفوضين، ورحبت بها جميع الأحزاب، وكانت تلك التنازلات التي قدمها هنري الصغير لستيفن غير هامة بالنسبة له[1]، وسيطر هنري وأتباعه على البلاد.

وفي الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١١٥٤م، توفى الملك ستيفن[2]، وأصبح هنري الثاني سيدا على إنجلترا بدون منازع (١١٥٤-١١٨٩م) وكان من أعظم ملوك أوربا في العصور الوسطى من الناحية السياسية والإدارية والقانونية[3].

***

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.551 ; Davis,op. cit; p.179; Willamson,op. cit; p.41

(2) William of New brugh, vol. , 1 ,p.31 ; Brook , Saxon and Norman, p.188.

- توفى الملك ستيفن في دوفر ودفن في قبر امرأته إديلادا وولده إستاس في دير فاروشام في مقاطعة كنت. انظر في ذلك:
- أديمون ديمولاند: المرجع السابق، ص ٣٧.

(3) William of New brugh, vol. ,1 ,p.31; Brook , Saxon and Norman, p.191. ,op. cit; p.180.

تقييم حكم الملك ستيفن :

ولقد سجل كُتاب الحوليات من المؤرخين صورًا حية لعبارات ذات مغزى تصور الرعب والفزع الذي اجتاح البلاد خلال تسعة عشر عاماء ومن هذه العبارات: "عندما كان المسيح والقديسون نائمين، كل شيء كان مباحًا، وفي هذه الفترة عمت الفوضى والاضطرابات كل أنحاء البلاد، وكانت مليئة بالمكائد والدسائس والمؤامرات وكل صور الفزع والرعب". وذكر كذلك: فبالقدر الكبير الذي نمجد فيه النظام الملكي في عهد الملك هنري الأول، فإننا على النقيض من ذلك ندين ونستنكر بشدة النظام الإقطاعي للبارونات الذي يتسم بالطبقية، ولأن إدارة ذلك كانت تتسم بتقديرها لسلطة الناس ذوي الاقطاعيات المحدودة ويضيق الخناق القانوني والمالي، وظهر بوضوح في إيجاد مساحات شاسعة من الغابات تخضع لقانون الغرامات على المخالفات، ولعلنا نستنتج من هذه القاعدة القانونية التي وضعها أحد الأشخاص والتي تقول: "جعل السلام للناس والغزلان" والتي تقول كذلك: "ومع الله وحده يمكنك أن تنافس الناس لتعيش في سلام"[1].

أما فيما يتعلق بالحرب فلم تكن سائدة في كل أنحاء المملكة، ففي بعض المناطق خاصة في وادي التايمز والمناطق المجاورة في إيلاي وغيرها لم يكن هناك دمار بشكل خطير، ولكن الجزء الأكبر في إنجلترا لم تدم الحرب فيه فترة طويلة، ولكن الذي كان يمكن أن نشتكي منه في تلك الفترة الفوضى، وهي الفشل في تقليل معدل الجرائم العادية من القتل والسرقة، وعدم جدوى المحاكم، ومع ذلك فإذا كان السادة والإقطاعيون طغاة ومثيري للمشاكل، فلا يمكننا أن نتجاهل عددا كبيرا من أتباع ستيفن الذين كانوا مشهورين بأعمال الورع والتقوى[2].

(1) Sayles,op. cit; p.322.

(2) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.553.

وكان علينا أن نوضح في هذا المقام أن المتاعب التي واجهت ستيفن في بداية حكمه لم تكن جميعها نتيجة أخطائه، ولكنها كانت تعبر عن صحوة الخلاص من الأوضاع المتردية، تلك الصحوة التي كان من الضروري أن تأتي إن عاجلا أو آجلا مع نظام البارونات الإقطاعي بصفة عامة، ولم تكن لديهم الرغبة في حدوث الفوضى على الإطلاق، ولم يكن أمرا مبالغا فيه أن هؤلاء البارونات كانوا يبحثون عن الاستقلال، لأن ذلك الاستقلال كان قوة دافعة لهم ومحركا لطموحاتهم، وعندما كان هناك أشخاص يطالبون بالعرش وحروب أهلية، لم تستطع المملكة أن تقدم الحماية للناس، فما الذي يمكن أن يفعله البارونات سوى العناية بأنفسهم ورعاية مصالحهم الخاصة والمحافظة على أمنهم الخاص[1].

وكانت مغامرات البارونات تنطوي على الخسة، فعلى سبيل المثال نجد أن جيوفري دي ماتنفيل حاكم مقاطعة أسكس يتاجر في المبادئ ويساوم ستيفن في سنة ١١٤٠م لتأييده بالحصول على إقطاعية وسكس مقابل الوقوف بجواره، ولكنه يتخلى عنه سنة ١١٤١م ويتصل بماتيلدا لكي تجعله عمدة لمقاطعة وسكس وقاضيا لها، وكذلك حاميا لقلعة لندن، وميدلسكس وهيرتفورد شاير، وبذلك تكون له الأسبقية والتميز على العمدة في هذه المقاطعات، كما كانت له السيطرة الكاملة على لندن، ثم عاد ثانية إلى ماتيلدا سنة ١١٤٢م بهدف الحصول على ثمن أعلى ، وأضاع بذلك القيم والمبادئ من أجل مصلحته، ووقع في الأسر في يد ستيفن سنة ١١٤٣م ثم هرب ومات في سنة ١١٤٤م[2].

---

(1) Sayles ,op. cit; p.323 ; William of Malmesnury, Historia Novella, p.23.

(2) Sayles,op. cit; p.323 ; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.553; Davis, op. cit; p.167.

وكانت مؤامرات البارونات تدل على الفوضى في النظام الإقطاعي بكل مساوئه، فالبرغم من أن هؤلاء الرجال كانوا أقوياء فإن الأرض الزراعية دمرت وخربت بدرجة كبيرة، وتوقفت الزراعة وأصابتها حالة من الركود، وانتشرت المجاعات والأوبئة المدمرة بين الفلاحين وتدهورت المناطق الريفية ، وهذه الحروب كانت تعني لهم ضياع وخسارة الإيجارات وإيرادات الأرض، وتسببت في الاضمحلال وقلة الرجاء، وحتى عندما أصبح هنري الثاني ملكا ظهرت هذه الأفكار والمبادئ الفوضوية في سنة ١١٧٤م عندما قام أولاده بالثورة ضده، على الرغم من تصميم الملك هنري الثاني على استعادة الملكية القوية، لذلك فإننا لم نجد أدنى ترحيب بالدكتاتورية بعد ذلك بثلاثة قرون بعد الحرب الأهلية التي كانت تسمى بحرب الوردتين في إنجلترا[١].

□ □ □

---

(1) Sayles , op. cit; p.323 .

الفصل الثاني

سياسة وليم الفاتح وخلفائه

تجاه الكنيسة وعلاقاتهم بالبابوية

أولا : علاقة وليم بالبابوية والكنيسة الإنجليزية

ثانيا : القديس أنسليم وبروز الحزب البابوي عن الملكي

ثالثا : هنري الأول والعودة إلى السيطرة الملكية

رابعا: ستيفن وعصر الفوضى الكنسية

الفصل الثاني
سياسة وليم الفاتح وخلفائه تجاه الكنيسة
وعلاقاتهم بالبابوية

ليس هناك ثمة ضرورة للخوض في غمار تفاصيل دخول المسيحية لإنجلترا من بداية عصر البابا جريجوري الأول (٥٩٠-٦٠٤م) لذلك وجدنا أنه من الأفضل أن نبدأ مع بداية الفتح النورماندي لإنجلترا .

لقد كان لوليم الفاتح دوق نورماندي وجهة نظر تشبه تماما وجهة نظر وهنري الثاني هنري للرابع فيما بعد، والتي على أساسها يكون الحاكم هو القائم بعمل الإصلاح، وفي نفس الوقت يسيطر على شئون الكنيسة، ومن المهم أن ندرك أن وليم والبابا كانا يعملان من أجل غاية واحدة وهي إصلاح الكنيسة التي أدت في النهاية إلى اختلافهما البين، ووجد كل منهما وسائله المختلفة للوصول لتلك الغاية، ولقد كان وليم الأول يتصرف بطريقة تشبه تلك التي يتصرف بها الحكام المستنيرون، فقد كانت فكرة الكنيسة المركزية التي يتحكم فيها البابا جديدة بالنسبة لوليم وغير مستساغة وتعذر الدفاع عنها، فقد كان ذلك انتهاك للتقاليد والعادات في إنجلترا[1] .

ويبدو أن جريجوري السابع، قد تساءل بينه وبين نفسه في أخريات أيامه عما إذا كان قد شن الحرب ضد العدو الحقيقي، فقد كان مهتما بالسياسة الكنسية للملكية الأنجلو- نورمانية، ولكنه لم يكن بقادر على الانتقاص من سلطة وليم الفاتح، والهيمنة على الكنيسة بأية وسيلة تمنع تدهور الملكية المالية، وبرزت مكانة الحاكم الأنجلو- نورماني في أوربا باعتباره ملكا لا نظير له[2] .

---

(1) Book (Z.N) , the English church papacy from the conquest to reign John Cambridge, 1939,p.132.

(٢) نورمان ف . كانتور : المرجع السابق، ص ٣٧٥ .

أولا : علاقة وليم بالبابوية والكنيسة الإنجليزية

علاقة وليم بالبابوية ليست وليدة سنة ١٠٦٦م ولكن ترجع جذور تلك العلاقة إلى سنة ١٠٥٠م حيث تزوج وليم من ماتيلدا ابنة بلدوين الخامس –Beldwin v– كونت الفلاندر، رغم رفض البابوية لتلك الزيجة؛ ولهذا توترت العلاقة بين وليم والبابوية[1]. لكن وليم تحدى تحريم البابا ليو التاسع (١٠٤٨م–١٠٥٤م) –Leo x– وتزوج وليم من ماتيلدا عندما كان البابا أسيرًا للنورمانديين في جنوب إيطاليا، إلا أنه في سنة ١٠٥٩م سحبت الكنيسة اعتراضاتها، وباركت الزواج في مقابل القيام بدفع كفارة وطلبت منهما بناء كنيستين كبيرتين في مدينة كين –Caen– للتكفير عن خطيئتيهما وبارك البابا إسكندر الثاني (١٠٦٢–١٠٧٣م) الزواج[2].

وتألم مالجار –Malgar– أخو وليم غير الشرعي –رئيس الأساقفة لخروج أخيه على القانون الكنسي، وقام بتحريم وليم كنسيا، ونتج عن ذلك أن قام وليم بإبعاده بعد ذلك بعامين بتهمة أنه أسقف دنيوي للغاية، ومنح وليم منصب رئيس الأساقفة إلى موريلياس –Mqurilius– وهو ناسك من فيكامب –Fecamp– وخلال هذا

---

(١) لا نعرف الأسباب الدقيقة التي دفعت البابا ليو التاسع إلى عدم الموافقة على الزواج، ففي العصور الوسطى كانت القرابة هي القاعدة المألوفة التي نالت موافقة الجميع بشأن الزواج، بيد أنه في حالة وليم فإن ذلك لم يتم ومن المحتمل أن يكون الملك الفرنسي وراء ذلك خوفاً من زيادة قوة تابعه الإقطاعي بعد هذا التحالف.

انظر في ذلك :

- Doouglas,op.cit;p.381.

(2) Brook,op.cit;p.134.

الصراع العائلي قام وليم بزيارة إلى إنجلترا سنة ١٠٥١م، وعندما عاد زعم أنه تلقى نوعا من الوعود من قريبه الملك إدوارد. أنه سيرشحه ليصبح خليفته[1].

***

موقف البابوية من الغزو النورماني لإنجلترا :

كان دور البابوية هام جدا بالنسبة لوليم في الموافقة على أن يحارب الإنجليز ويفتح بلادهم تحت مظلة ومباركة البابوية –البابا إسكندر الثاني–، وكانت البابوية قد حصلت على وعود من وليم بتحرير الكنيسة الإنجليزية من رئيس أساقفة مغتصب يدعى وستجاند –Stigand– آخر الأساقفة الأنجلو– سكسون بعد طرد رئيس الأساقفة الشرعي روبرت جوميج –Roberet jumieges–، الذي عينة الملك إدوارد في إطار سياسته الرامية إلى إدخال العناصر النورمانية في المناصب الكنسية البارزة[2].

ولم يكن وستجاند رئيس الأساقفة الأنجلو –سكسوني يحظى بقبول وليم، لأنه أقحم على الأسقفية، وهذا ما كان يخشاه وليم، لأن الإنجليز يفضلونه لأنه واحد منهم، رغم أن وستجاند كان شخصية انفصاليه، وقد تلقى تعليمه على يد أعداء للبابا –بندكت العاشر (١٠٦١–١٠٧٢م)– ورفض طاعة البابا الشرعي، لذلك رفض الدوق وليم أن يتم تتويجه على يد وسجاند، وأسند هذه المهمة إلى إيلدرد –Aldred– رئيس أساقفة يورك في يوم عيد الميلاد في سنه ١٠٦٦م، حيث توج وليم ملكا على إنجلترا في دير كنيسة وستمنستر[3].

---

(1) Cma. Med. Hist,. vol.v,p.494.
(2) Davis ,op.cit;pp. 46-47.
(3) Brook,op.cit;p.135.

وكان وليم حريصا على الرجوع إلى الكنيسة في بداية حكمه في كافه الأمور الدينية، وقد استفتى وليم الكنيسة في روما في سنه ١٠٦٧م في نقل أحد الأساقفة، وذلك للحصول على الشرعية، وكان حريصا على أن يركز جهوده بطلب ميراثه الشرعي في العرش الإنجليزي وأنه ليس مغتصبا، ولذلك رفع وليم وصمة اليمين الزور ضد هارولد "في المحاكم الكنسية" ووعده هارولد بالعرش بعد إدوارد.

وكان مهما لوليم أن يحرر نفسه من تهمة اغتصاب العرش في روما، وحصل على مساندة وتأييد كبير الشمامسة هلابراند، ولقد كان الأمر متماشيا مع وجهة نظر هلدبراند، وهي أن البابا يجب أن يتدخل في كافة الأمور الكنسية، ولأن دخول وليم لإنجلترا يعني دخول الإصلاحات الكنسية في كنيسة إنجلترا[1].

وعلى الرغم من أن الغزو قد تحقق فإن وليم مازال في حاجة ماسة لمساعدة البابا، فقد كان البابا كرئيس للكنيسة يعتبر مصدر السلطات، حيث يتلقى كبار الأساقفة أوامرهم منه، ويؤدون إليه فروض الطاعة والإذعان، وهو الذي يثبتهم في وظائفهم، وكذلك هو حامي القانون الكنسي[2]، لذلك أغدق وليم في بداية حكمه على الكنيسة الإنجليزية بكثير من المنح، لإرضاء البابا ليؤيده في عملية الفتح، فقد منح كنيسة القديس دينس -St. Denis- في دير هيرست Deer – Hurst- في ١٣ أبريل سنة ١٠٦٩م بعض الامتيازات: "من وليم ملك الإنجليز وحاكم النورمان إلى كل رجال الكنيسة، وكل من يؤمن بالمسيح الإله الرحيم مهما كان جنسهم، قررنا أنا وزوجتي ماتيلدا ومجلسنا الموقر من أجل إنقاذ أرواحنا وأرواح أطفالنا إعطاء كنيسة دير هيرست مرسوما للتحرر من كافة الأعباء العلمانية، وإذا حاول

(1) William of New brugh, vol. ,1 ,p.120; Cross, op. cit; p.80.
(2) Brook ,op. cit; p. ; Fliche, op. cit; p.392.

أي شخص تابع لأي سلطة أن يسلب عظامنا هذا، سوف يتعرض لعقوبات كبيرة، وفي المقابل أعطى تعويضات عادلة للقديسين وكل الأخوة[1].

وقام البابا بعد أن أصبح وليم ملكا لإنجلترا بإيفاد أرمنيفوري -Ermenfroy- أسقف سيون -Sion- مبعوثا له في إنجلترا، ويعتبر أول مبعوث للبابوية في أي جزء من الجزر البريطانية، وذلك لإصلاح شئون الكنيسة التي تدهورت والوصول إلى مستوى الكفاءة والطهارة الذي تحقق في كلا من فرنسا وبرجندي، وأهمل رؤساء الأساقفة عقد المجامع الكنسية[2].

وفي سنة ١٠٧٠م وجهت الدعوة لمبعوث البابا الذي كان في إنجلترا، وأوفد البابا ثلاثة من المندوبين الرسميين إلى المجلس الكنسي، الذي دعا الملك فيه رؤساء الأديرة والكهنة في ونشستر، وأقر المجلس خلع وستجاند رئيس أساقفة كانتربري[3].

---

(1) Barrow & Edward ,op. cit; p.144.

- كانت هذه المنحة في اليوم الثاني من عيد الفصح ١٣ إبريل سنة ١٠٦٩ (في دير القديس سويزن -St. Swithen- في مدينة ونشستر أثناء الاحتفال بالقداس.

(2) Davis, op. cit; p.47.

- زينب عبد المجيد : المرجع السابق ، ص ٢٩.

(٣) في اجتماع ونشتر سنة ١٠٧٠م الذي دعا إليه الملك بهدف الاطاحة بآخر رؤساء الأساقفة الأنجلو- سكسون، فقد وجهت إليه ثلاثة إتهامات الأولى: احتفاظه بأسقفية ونشستر بجانب رئاسته لأسقفية كانتربري، والثانية : إغتصابه لمنصب رئيس أساقفة كانتربري من روبرت النورماني الذي يعتبر رئيس الأساقفة الشرعي، والثالثة: استلام رسامته من البابا المضاد بندكت العاشر -Bendict X- (١٠٥٨-١٠٥٩) وقد وستجاند هذه الإتهامات بأن الأول لم يكن مألوف في إنجلترا، والثاني يعتبر أمرا رسميا لأن جميع رجال الكنيسة الذين أبعدهم صفح عنهم وهذا حقه، ولم تفلح دفاعاته في إثناء المجتمعين-

لانفرانك رئيس لأساقفة كانتربري :

وتم موافقة كل الحاضرين على اختيار لانفرانك -Lanfranc- رئيس دير بك الشهير رئيسا لأساقفة كانتربري، وفي الاجتماع الـــذي عقد في وندسور -Windsor- سنة ١٠٧٠م تم تعيين رئيس أساقفه جديد لأسقفية يورك، وثلاثة أساقفة لكل من ونشستر وسيلسي وإلمهام، بناء على ترشيح الملك وليم نفسه، وتم ترسيم لانفرانك في العشـــرين من أغسطس سنة ١٠٧٠م[(١)].

ولقد كان تعيين لانفرانك مقبولا عند البابا وكذلك الملك، وانتهت الفترة الحرجة واستطاع لانفرانك ومرءوسيه أن يعملوا بمفردهم، فلــم تعد مساعدة البابا مطلوبة، ويمكن أن تؤدي إلى تدخل البابا وهو مـــا حرص وليم على منعه، ولقد كان وليم ولانفرانك على اتفاق تام فيمـــا يتعلق بهذا الأمر، وأصر وليم في حقيقة الأمر على الانفراد بالسيطرة على جميع رعاياه، ورفض وجود سلطه ثنائيه في إنجلترا، واحـــتفظ بحقه في تعيين الأساقفة وكبير الأساقفة ليتأكد من ولائهم وطاعتهم له، وإن ترك تنفيذ كل ذلك في يد لانفرانك رجله الأمين، وكان وليم يريد أن يؤسس كنيسة وطنية مستقلة، واستطاع إخراج الكنيسة الإنجليزيـــة من مياهها الآسنة الراكدة والعودة بها إلى الحياة الجارية من حولهـــا مرة أخرى[(٢)].

=عن عزله، وعزل أخوه أسقف ايجلون وفر جليرك من المهام - Agelmar of Elmham- وأجليرك -Ageleic- أســقف سلســي -Selesey- وفــر إجلوين -Egelwin- وبقـــي ولســـتان أســـقف وركســـت - Wulstan of -Worcester-. انظر في ذلك :

- William of New brugh, vol. ,1 ,p.21;Petit58; Sayles,op. cit; p.254. Davis ,op. cit; p.

- زينب عبد المجيد : المرجع السابق، ص ٢٩ ، حاشية ٣.

(1) William of New brugh, vol. ,1 ,p.21.

(٢) ولد لانفرانك في سنة ١٠١٨م، وكان أصغر من وليم بحوالي عشرة أعوام، وأصبحا صديقين ولم يكن فارق السن أو التدريب عائقـــا بينهمـــا، وأصـــبح=

وقد وضع وليم يده في يد لانفرانك، وأصبحت أيديهما في قفاز واحد للعمل سويا من أجل إصلاح الكنيسه، وبدأ وليم بقوانين الكنيسة وأولى هذه الخطوات قيامه بفصل المحاكم الكنسية عن المحاكم المدنية مثلما هو الحال في نورماندي، وفي هذه المحاكم كان يسمح فقط للقضايا بأن يتم التعامل فيها من منطلق القوانين الكنسية وقرارات ومراسم الأساقفة في مجالسهم، ولقد كانت المجالس الكنسية إحدى السمات الخاصة بالحكم الكنسي، لذلك تم إعادتها وتنظيمها مرة أخرى في إنجلترا، باعتبار أن وليم الحاكم ولديه حق الاعتراض على جميع تشريعاتهم، وليس هناك أدنى شك في أن رغبه وليم ورئيس أساقفته في إصلا ح الكنيسة كانت حقيقية، كما أن رغبته في إبقاء سيطرته على الكنيسه كانت أصدق وأقوى[١].

وبسبب موقع لانفرانك ككبير للأساقفة، فإن مجالس الكنيسة الإنجليزية بشكل عام اجتمعت في مجلس واحد مما ساعد على الوحدة، كما أن التشريعات التي تم تحريرها لم تكن جديدة أو مضادة لقانون الكنيسة كما كان في نورماندي، مما سمح لها بدرجة من السلطة كان معتاد عليها، وكل شيء كان تقليديا ويسير كالمعتاد، لذلك كان على لانفرانك أن يذهب إلى روما لتلقي تعليمات البابا فيما يخص الكنيسة،

=صديقه الحميم ومستشاره في المشاكل المعقدة بين الدولة والكنيسة، واشتهر بخصوماته مع بيرنجا المحموم -The Heretic Berngar- وكان أيضا محاميا ماهرا ورجل دولة عبقري، وقد تولى منصب دير بك في نورماندى سنة ١٠٤٥م ثم منصب رئيس الأساقفة في كانتربري سنة ١٠٧٠.

انظر في ذلك :

- William of New brugh, vol. ,1 ,p.21.; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.496 ; Brook, Saxon and Norman, p.158p; Davis,op. cit; pp.48-49; Mitchell,op. cit; p.46; Brook,op. cit; p.136.

(1) Lioyd,op. cit; p.152. ; Mowat,op. cit; p.53.

وخضع وليم لهذا الأمر ولم يمنع لانفرانك من الذهاب إلى روما، وكان وليم يأمل في تأييد البابوية الكنيسة الإنجليزية.

وشجع هذا الهدوء الذي يسبق العاصفة لانفرانك على العناية بشئون الكنائس والأديرة، وتم إحياء وإقامة المجالس الكنسية، وتم التشديد على النظم الكنسية السائدة، وشجع على الدراسة والتعليم في الكنائس، وأصبحت القوانين الكاتدرائية تعمل على مراقبة التبتل، ومراقبة مقار الأسقفيات التي توجد في القرى مثل دور شيستر وسلسي، ثم انتقالها إلى مدن آهله بالسكان، وقام لانفرانك ببناء كنائس رائعة التشديد في كانتربري[1].

ويذكر "دوجلز" أن عدد الكنائس في إنجلترا في عهد الفاتح كانت تتراوح بين تسعمائة وخمسين كنيسة إلى ألف وخمسين كنيسة، وزاد لانفرانك في تشييد الكنائس[2]، وأصبح في حكم المؤكد أن سياسة الملك وصاحبه لانفرانك لا تتفق مع مبادئ البابا جريجوري السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م)، والتي نادى فيها بتحرير الكنيسة ورجال الدين من تبعية الدولة، وتطبيق نظرية السمو البابوي على العلماني[3] ليلغي بذلك ممارسات كانت قائمة على مدى ما يقرب من خمسين عاماً.

***

الخلاف بين وليم والبابوية بسبب المراسيم البابوية :

وأثارت مراسيم البابا جريجوري السابع ضد السيمونية* وزواج رجال الدين والتقليد العلماني ردود فعل سيئة في أوروبا عامة

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.516.

(2) Douglas ,op. cit; p.343.

(3) Thatcher (O.g) & Ncneal (E.H.), 'Asource Book for Medieval History, New Yourk 1905, p.134.

* تنسب السيمونية إلى سيمون الساحر الذي ورد عنه في العهد الجديد: "ولما رأى سيمون أنه يضع يده في أيدي الرسل ويعطي الروح القدس وقدم لهم دراهم قائلا إعطياني أنا أيضا هذا السلطان حتى من وضعت عليه يدي يقبله"

وإنجلترا خاصة، مما زاد من حدة النزاع، وعقد البابا جريجوري السابع مجمعًا في روما عام ١٠٧٤م لمناقشة السيمونية، وتضمن أن أي منصب حصل عليه الشخص عن طريق السيمونية "دفع المال" يطرد من رحمة الكنيسة، ومن يدخل الكنيسة عن طريق المال يجرد فورا من منصبه، لذلك قررنا نحن الآباء المقدسين: "أنه على الرعية أن يرفضوا الذهاب إلى أديرتهم وذلك من أجل حب الرب"(١).

وعقد البابا جريجوري السابع مجمعا آخر في نفس العام سنة ١٠٧٤م ذكر فيه: "أما عن رجال الكنيسة من الأساقفة المتزوجون، والذين أغضبوا الرب، واعترضوا سلطة القديس بطرس، نحن قد منعناهم من دخول الكنيسة، وممارسة أعمالهم، وإلقاء القداس والموعظة، ويُمنع الاستماع إليهم"(٢).

وفي المقابل كان وليم أكثر ملوك أوروبا قوة، فحرص على منع أي اتصال مع البابوية لا يتفق مع رغباته، ويذكر "أيدمار" الذي كتب سيرة لانفرانك: "أن وليم لم يسمح لأحد أن يتلقى خطابات من البابا دون أن تمر عليه شخصيا، كما أنه لم يسمح لأحد أن يذهب إلى روما دون موافقته المسبقة، وعلى من يذهب إلى روما أن يكون سفيرًا خاصًا لوليم نفسه". وكتب جريجوري السابع في ضيق شديد سنة ١٠٧٩م أنه لا يوجد ملك عادل أو وثني عمل ضد البابوية مثلما عمل وليم دون حرج، ولم يرى وليم أي مشينة في ملسع القساوسة من

"الروح القدس، فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن مواهب الرب تقتنى بدراهم (سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثامن، ١٨-٢٠).
انظر في ذلك:
- سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ؛ ص ٣٤٢.
- Davis, Documents Europe, p. 32.

(1) Thatcher & Nceal,op. cit; p. 134 ; Sayles,op. cit; p.251.

(2) Thatcher & Nceal,op. cit; p. 134 ; Sayles,op. cit; p.251.

الوصول للبابوية، وكان وليم يصم أذنيه عن أوامر ورجاء البابا، وتخوف وليم من ذهابهم إلى روما ويعودوا بمراسيم تضع السلطة الملكية في خطر[1].

وقام لانفرانك بزيارة إلى روما بناء على موافقة وليم، وفشلت هذه الزيارة بسبب رغبة جريجوري السابع وطاقته المتوقده في مواجهه وليم الذي كان يتحدث عنه الجميع كحاكم منفرد بين حكام عصره.

ومن منطلق رغبة البابا في الشعور بأن لديه كنيسة موحدة تسانده، قام باستدعاء اثنين من الأساقفة من المقاطعات النورمانية والإنجليزية لحضور الاجتماع الكهنوتي الذي سيعقد سنة ١٠٨٠م لإعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد الإمبراطور الألماني، ولكن دعوته لم تلق استجابة، فقد جاء الرفض الإنجليزي من منطلق رفض وليم تقديم قسم الولاء والطاعة للبابا، وكان وليم ينظر بعين الشك والكراهية إلى ما فعله البابا مع حاكم ألمانيا –هنري الرابع–[2].

وصلت الأزمة بين البابا والملك إلى زروتها في سنة ١٠٧٩م عندما قام البابا بتعيين كبير للأساقفة في ليون كرئيس على المقاطعات في كل من ليون –lyons– وتورز –Tours– وسين –Sens–

---

(1) Brook,op. cit; pp. 137-138.

(٢) وعقب إعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد الامبراطور هنري الرابع، استطاعت البابوية أن تتبوأ المكانة العليا في غرب أوروبا، وحانت تلك اللحظة الكبيرة في حياة جريجوري السابع، عندما أعلن خلع هنري وتعيين منافسه رودلف محله، ولقد طمع في أن يسير قدما بإدعائه في إنجلترا، وفي حالة قبول السلطة البابوية ينبغي إعطاء الولاء لمملكته.

انظر في ذلك :

- Brook ,op. cit; p.139; Cma. Med. Hist,. vol. v, p. ; ,op. cit; p.516; Davis ,op. cit; p.52.

وريون -Rouen-، ولقي ذلك معارضة من دوق نورماندي -ولسيم- وكذلك من ملك فرنسا.

وفي المقابل أثار البابا الاعتراضات على تعيين وليم بونا إينما -Bona of Anima- ككبير للأساقفة والتخلي عن تعيين أسقف وكس لي مانز، وأعطى تعليماته إلى المفوضين بأن يحضروا اثنين من الأساقفة عن كل إقطاعية في إنجلترا ونورماندي لحضور المجامع الكنسية[1].

والتجديدات التي حدثت في ريون والاجتماعات التي حدثت في روما كان يمكن لوليم أن يتجاهلها ويجعل موظفيه يتجاهلونها، إلا أن الخلل الواضح في ريون ولي مانز قضية لا يمكن إنكارها من الناحية الدينية، واعترف للبابا بكبير الأساقفة وليم بونان، وألغى البابا بناءا على طلب وليم قراره بطرد أسقف لي مانز، مع العلم أن نجاح ولسيم هو الأكثر اكتمالا لأنه من السهل عليه أن يحتفظ بالسواحل الإنجليزية محصنة بعيدا البابوية[2].

وأرسل البابا جريجوري السابع خطابًا للملك ولسيم في سنة ١٠٨٠م، وكان هذا الخطاب يتضمن الابتسامة الشهيرة "للقمر والشمس" ويقصد بذلك التبعية الإقطاعية من الملكيه الإنجليزية إلى البابا وهذا نص الخطاب[3]:

---

(1) Brook, op. cit; p.139.

(2) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.516 ; Brook,op. cit; p.140.

(٣) يقصد بالابتسامة الشهيرة للقمر والشمس أن القمر تابع للشمس لأن القمر يدور في فلك الشمس وبناء عليه فأن الملك يتبع البابا.
انظر في ذلك:

- Barrow,op. cit; p.165.

رسالة من جريجوري السابع إلى وليم الفاتح سنة ١٠٨٠م :

"من الأسقف جريجوري خادم خدام الرب الذي يرسل تحياته إلى ابنه ملك الإنجليز :

إنه من المعروف لك مقدار الحب الذي أكنه لك يا ابني المؤمن العزيز، وحتي قبل أن أصل إلى هذا المنصب الرفيع من البابوية، ويا له من إهتمام كبير الذي أوضحته في قضاياك، وأكثر من ذلك الحماس الذي اجتهدت من أجله وهو أن تصل إلى شرف الملك، ولكنني عانيت كثيرا من الخزي خلال ابتهالي لإخوانك في الدين، ولجهودي للتأثير على الناس لصالحك، واعلم أن الرب كان شاهدًا عليّ، وقد فعلت ذلك بنية طيبة ولثقتي في فضل الرب ورحمته وليس طمعا في فضل أو ميزة منك، والذي به ارتفعت إلى السلطة من قبل الرب في خدمة الكنيسة المقدسة".

وكتب في النهاية يحث وليم على إنجاز وعده بتقديم فروض الطاعة والولاء للبابا، ويستمر الخطاب في مطالبة البابا بدعم وليم له والطاعه له في كل الأحوال، وتم تسليم الخطاب في إنجلترا سنة ١٠٨٠م في الرابع والعشرون من أبريل"[(١)].

وأرسل البابا جريجوري السابع مندوب من قبله يدعى هبرت -Hubrt- برسالة إلى الملك وليم في سنة ١٠٨٠م، وهذا رد الملك على الرسالة السابقة :

"من وليم الملك المتوج بفضل الرب، ملك إنجلترا ودوق النورمان الشهير، يرسل تحياته إلى البابا جريجوري السابع أكثر القساوسة المقدسين إجلالا، وإلى معظم الأساقفة المعروفين في الكنيسة الرومانية المقدسة، لقد جاء إليّ مندوبكم هبرت يا أبي المقدس، ووجهني لأقسم لك يمين للولاء والإخلاص لك ولخلفائك من بعدك - تقديم فروض الولاء والطاعة للبابا - وأن أرسل الإتاوة السنوية التي

(1) Barrow & Edward,op. cit; pp.165-166.

إعتاد أسلافنا أن يرسلوها والتي عرفت باسم بنس القديس بطرس إلى الكنيسة الرومانية، أما عن الاقتراح الأول؛ فإنني أرفض تقديم الــولاء والطاعة، لأنني لم أعط وعدا بذلك أبدا، ولأنني لم أجـد أحـدا مــن أسلافي أدى قسم الولاء هذا وأصبح تابعا لكم، أما عن الاقتراح الثاني: بالنسبة للمال المرسل لكم فإنني أعتذر عن التأخير نظــرا لوجــودي خارج حدود المملكة أثناء الثلاث سنوات الماضية، وبعــد أن عــدت بفضل الرب إلى مملكتي، فقد تم جمع المال اللازم وسيرسل إليكم مع مندوبكم –هبرت– وسوف ننتظم في إرساله عندما تسنح الفرصة عن طريق كانتربري".

وفي النهاية طلب وليم من البابا جريجوري السابع: "ادعوا الرب لنا بالرخاء لمملكتنا، لأننا اعتنينا بأتباعك عناية عظيمة، وإنها لرغبتنا في أن نرسل لك احترامنا وتقديرنا"[(١)].

ونتيجة لرفض وليم الاعتراف بالخضــوع للســيادة البابويــة، وبرفض تقديم قسم الولاء والطاعه للبابا كتب البابا إليه قائلا: "إذا كان عليّ أن أمثل أمام المحكمه المخيفة للقاضي العادل الــذي لا يخــدع وخالق كل شيء، فتأمل واعتبر ما إذا كان حقا لي أو ممكنا ألا أكون مهتما إلى أقصى الحدود بمشكله خلاص روحي، وما إذا كــان مــن الصحيح والممكن بالنسبة لك ألا تطيعني حتى تضمن خلاصك لنفسك وتستولي على أراضي الأحياء".

ولم تفلح هذه النبرة في إثناء وليم عن سياسته بضرورة خضوع الكنيسة في مملكته لسلطان الدولة أو إخضاع الملكية لسلطان البابوية، ولكن بدون أدنى توانٍ عن سياسته الإصلاحية في الكنيسة[(٢)].

---

(1) Henry Bettenson, Documents of Christian Church, London, 1944, p. 217.; Freemam,op. cit; p.122. Barrow & Edward ,op. cit; p.166.

(٢) زينب عبد المجيد : المرجع السابق ، ص ٣٣–٣٤.

ونتيجة لرفض وليم الاعتراف بالخضوع للسيادة البابوية أعلن السيادة الملكية –The Rayl Supranacy– وذكر الملك وليم هذه السيادة في ثلاث قوانين :

١– أنا لن أسمح لأي من المقيمين في مملكتي، والأجزاء الممتدة تحت سلطاني، وكذلك إلى كبير الأساقفة والأساقفة بالذهاب إلى روما إلا بأمر منا نحن شخصيا، وخاصة بتسلم أو تسليم معلومات خاصة بالكنيسة ٠

٢ – أن يقوم وليم بترأس مجمع الأساقفة بشكل عام، وعدم السماح لأي فرد مهما كان أن يصدر أي تحريم بدون موافقته عليه في المقام الأول ٠

٣– ولن نسمح لأي فرد حتى ولو كان كبير الأساقفة أن يأمر بدعوة إلى اجتماع بدون موافقة وليم، أو اصدار قرار حرمان كنسي كذلك أو إصدار أي مرسوم يعاقب فيه أحد باروناته الذين يتهمون بالزنا، أو أي جريمة أخرى يكون عقوبتها الموت، فهذا حقه وحده[١] ٠

وبسبب رفض الملك وليم تقديم فروض الولاء والطاعة، فقد أدى ذلك إلى توتر العلاقة بين البابا جريجوري السابع والملك، إلا أن لانفرانك أعلن من جانبه أن البابا يمتلك السلطة على الكنيسة لتهدئة الموقف[٢]، ولكن وليم بالغ في رفضه لتدخل البابا، فخلال فترة حكمه لم يقم فقط بتعيين الأساقفه والشماسين، ولكنه أيضا قلدهم مهامهم الروحية ليؤكد بذلك أنه السيد الأوحد، وذهب وليم إلى أبعد من ذلك فأصر على أن البابا لا يتم الاعتراف به في إنجلترا دون رغبته، ولا تكون لأي خطابات بابوية القوة في مناطق نفوذه، وأن يوافق وليم عليها بنفسه، ولا يخضع أحد من أتباعه إلى استجواب دون موافقته،

= - Douglas,op. cit; p.340.

(1) Henty Bettenson,op. cit; pp. 217-218.

(2) Davis,op. cit; p.54 ; Freeman,op. cit; p.120.

وزاد ذلك من توتر العلاقة بينهم، وبدأ بينهم صراعا مفتوحا وظاهريا[1].

ولقد اتخذ البابا في البداية موقفا غير متشدد، ففي سنة ١٠٨١م كتب البابا إلى وفده ورسله في فرنسا بأن يبلغوا قرار الإيقاف الذي فرضوه على أساقفة نورماندي، بسبب إهمالهم في عدم الحضور إلى مراكزهم الكنسية، والتي يجب أن يجتمعوا فيها فقد قال: " لا يجب أن نقوم بعمل يضايق وليم، فالشخص الذي قدم الإصلاح وسار فيه يجب أن نعامله بلين أكبر" وذلك على الرغم من فشله في إثناء وليم عن موقفه من البابوية، وكان البابا لين العريكه مع وليم، ويتحدث معه بعبارات أقل حدة من أي ملك آخر، لذلك عرف وليم طريقته واحتفظ بكل ما هو تقليدي، وعارض الجديد في الكنيسة[2].

واقتنص وليم الفرصة التي سنحت له من خلال ظهور منافس لجريجوري السابع في شخص أيبرت من رافنا – Wibent of Ravenna– البابا الغير شرعي كليمنت الثالث (١٠٨٠–١١٠٠م) Clement III– وذلك لتهديد وضع البابا الشرعي، وقد ألغى هذا الأمر مؤقتا قضية السلطة البابوية، لذلك حاول جريجوري السابع إرضاء وليم لتأييده في السلطة[3].

ولقد وبخ وليم أحد مساندي البابا غير الشرعي كليمنت الثالث الذي كتب بعنف ضد البابا جريجوري السابع، وقال بأن إنجلترا لم تحسم موقفها بعد، وفي نفس الوقت تلقى وليم ثلاث خطابات من البابا غير الشرعي، وتم إدخالها جميعا في نهاية الكتاب الخاص بالقانون الكنسي، ومازال المخطوط موجودا في معهد الثالوث في كمبريدج، والإحتمال أن ذلك قد تم بناء على توجيهاته أو على الأقل بموافقته،

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.516.

(2) Brook,op. cit; p.144.

(3) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.517.

وربما يكون وليم ولانفرانك فضلوا انتصار البابا الذي يتبع حاكماً دنيوياً، ولكنهم في نفس الوقت ظلوا على الحياد منتظرين النتيجة[1].

وكان وليم من البداية يريد أن يلغي السلطة البابوية، ويجعل من الملك مركز السلطة العليا في دوقيته في نورماندي، ومملكته في إنجلترا، ويستدل على ذلك من خطاب أرسله لانفرانك إلى البابا غير الشرعي كيلمنت مشيرا إلى عدم دخول إنجلترا في هذا النزاع بدون إذن الملك وليم، ولقد تورط الملوك المعاصرين مع البابوية، فهنري الرابع كان يريد إستعادة مكانة والده هنري الثالث، وكذلك كان فيليب الأول ملك فرنسا في نفس الوضع ولكنهم كانوا يفتقرون إلى القوة التي تقاوم البابوية[2].

ولقد نجح وليم وفشل الآخرون، وكان نجاحه يرجع إلى ثلاثة أسباب، الأول: يتعلق بقوة موقفه كملك، فلقد كان السيد الآمر الذي لا ترد له كلمة في إنجلترا، بينما كان فيليب ضعيفا في فرنسا، وكان هنري الرابع متورطاً بشكل مستمر في حروب أهلية بألمانيا .

والثاني: لم تكن هناك معارضة للسياسة الكنسية في إنجلترا، ولم يكن هناك حزب بابوي يحاول الحكام الآخرون إرضاءه، وعلى العكس من ذلك فقد تلقى وليم مساندة ودعم الكنيسة وعلى رأسها لانفرانك .

والثالث والأهم من كل ذلك: أن وليم كان مشجعا لإصلاح الكنيسة، وبناء على ذلك لم يكن وحيدا أو معرضا للهجوم[3]، وبسبب رغبة وليم في الإصلاح لم يتعرض للهجوم من قبل الكنيسة، وهكذا

---

(1) Brook, op. cit; p.145.
(2) Cma. Med. Hist,. vol. v, pp.594-595.
(3) Brook,op. cit; p.146.

بالتعاون مع لانفرانك أكد أنه رجل دولة سياسي أكثر من كونه رجلا كنسيا، يستمد سلطته من الرب، ويرعى حقوق الرب[1].

وهكذا تمكن وليم الفاتح من إرساء دعائم حكومة مركزية قوية يخضع لها جميع البارونات، وليس في استطاعة أي بارون محاربتها كما في ألمانيا، ليؤسس وليم الفاتح بذلك واحدة من أقوى الملكيات التي شهدتها أوروبا في أوائل القرن الثاني عشر[2].

وقبيل وفاة الملك وليم وتكفيرا عن ذنوبه وهب قصره في بيد فورد إلى كنيسة وستمنستر، وأعفاها من الضرائب وذلك تكفيرا لروحه، وذلك في التاسع من سبتمبر سنة ١٠٨٧م:

من وليم ملك الإنجليز إلى رالف الشريف وكل موظفي الدولة التابعين لي كافة: تحياتي، ولتعلموا أن ذلك من أجل تخليص روحي، فإنني أهب إلى الرب وإلى القديس بطرس، وإلى جيلبرت رئيس الدير ثمانية أجزاء من قصري ومزرعة في بيد فورد -Pydford- والتي في حوزتي بناحية وندسور كاملة ومعفاة من الضرائب الملكية، ومن أي ضرائب متعلقة بضريبة الدانجلد.

وتم ذلك بشهادة أسقف درهام وايفر -Lov- أسقف تليوز -Tailebis- وأسقف وستمنستر[3].

وفي التاسع من سبتمبر ١٠٨٧م توفي وليم الفاتح أثناء نزاعه مع ملك فرنسا حول مقاطعة فيكسن، ودفن في كنيسة ستيفن في جاين -Gaen-[4].

***

---

(1) Mitchel op. cit; pp.255-256 ; Cross,op. cit; p.79.
(2) Sayles,op. cit; p.313.
(3) Barrow & Edward,op. cit; p.147.
(4) Willam of New brugh, vol. I,op. cit; p.23.

ثانياً: القديس أنسليم وبروز الحزب البابوي عن الحزب الملكي

بعد موت وليم الفاتح سنة ١٠٨٧م توجه خليفته وليم رفوس إلى لانفرانك كبير الأساقفة لتتويجه ملكاً على إنجلترا، وتم تتويجه في السادس والعشرين من سبتمبر سنة ١٠٨٧م على يد كبير الأساقفة لانفرانك.

وعلى الرغم من أن الفاتح الأكبر لم يكن ليطلق يد لانفرانك للتصرف في شئون الكنيسة بحرية تامة، ولكنه أعطاه مقدار ضئيل من تلك السلطة[1]، وعندما جاء رفوس إلى السلطة كان قد انتهج سياسة تشبه إلى حد كبير سياسة أبيه من ناحية الكنيسة لاسيما فيما يتعلق بالتعيينات الكنسية، وعند وفاة رئيس الأساقفة، وعند أي تغيير في منصب من المناصب الشاغرة يقوم الملك بتعيين شخص ما في الحال ليتولى المنصب الكنسي الشاغر[2].

وعند وفاة لانفرانك في الرابع والعشرين من مايو سنة ١٠٨٩م، وبدلا من تعيين شخص آخر مكانه تركت أسقفية كانتربري شاغرة لمدة أربع سنوات (١٠٨٩-١٠٩٣م) لكي يتمتع بإيراداتها[3].

وفجأة سقط وليم رفوس في سنة ١٠٩٣م فريسة لمرض خطير، ولم يتوقع الجميع أن يشفى منه، وهو على فراش الموت وخلال نوبة تقوى مفاجئة، أبدى شعوره بالندم على سياسته التعسفية مع الكنيسة ورجالها، وذلك بعد أن أسدى إليه رجال الدين نصيحة، هي أن روحه سوف تتعرض للهلاك، لذلك عليه أن يكفر عن ذنوبه[4]، فأعطي

---

(1) Freeman,op. cit; p.122.

(2) Davis,op. cit; p.88.

(3) Willam of New brugh, vol. 1,op. cit; p.24.

(٤) ولد أنسليم في سنة ١٠٣٣م، وكان من الجيل الذي يتلو جيل لانفرانك، ومسقط رأسه من الشمال، التي كانت بعيدة عن مسقط رأس لانفرانك،

بعض الوعود الطيبة، وكان أهمها تعيين رئيس أساقفة كانتربري، ولهذا بعث في الحال إلى أنسليم رئيس دير بك لارتقاء منصب رئيس أساقفة كانتربري، ووافق أنسليم مرغما على قبول هذا المنصب، استجابة لطلب الكنيسة والعلمانيين على حد سواء، ولكنه اقترح ثلاثة شروط محددة يجب موافقة الملك عليها قبل ترسيمه هي:

أولا: استعداد الملك للموافقة بدون تردد على أن يكون رئيس الأساقفة بمثابة المستشار الرئيسي للملك في الأمور الدينية.

ثانيا: عودة جميع الأراضي التابعة لأسقفية كانتربري عند وفاة لانفرانك سنة ١٠٨٩م، وأن تكون جميع الإجراءات التي اتخذها الملك أثناء خلو المنصب لاغية وباطلة .

ثالثا : استمرار أنسليم في طاعة البابا أوربان الثاني الذي اعترف به أنسليم في نورماندي، ولكن يبدو أن هذه الشروط لم تكن تحظى بقبول الملك الإنجليزي، فلم تكن لديه الرغبة سواء في الوقوف إلى جانب أي من البابوين المتنازعين البابا الشرعي أوربان الثاني، والبابا غير الشرعي كلمنت الثالث، أو الاستعداد بشأن تعديل ما اشترطه أبيه بعدم اعتراف الكنيسة الإنجليزية بأي منهما دون موافقة الملك[1].

ولم يعترض رفوس على الشرط الأول والثاني، فقد كان للفاتح الأكبر قد عين لانفرانك مستشارا دينيا له، والشرط الثاني كان بمنح

=وقضى فترة طويلة في إيطاليا في بلدة أوستا كقس في كنيسة بيوه حوالى خمسة عشر عاما، وتتلمذ على يد لانفرانك، إلا أن أنسليم نفسه لم يكن يرغب في هذا التعيين، ولكنها كانت رغبة المفوضين والملك فوافق في النهاية.

انظر في ذلك:

- Willam of New brugh, vol. 1,op. cit; p.25. ; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.525 ; Brook ,op. cit; p.147.

(١) زينب عبد المجيد : المرجع السابق ، ص ٤١ .

- Brook,op. cit; p.152

الكنيسة هبات كثيرة فلا يضر رفوس أن يعيد منا للكنيسة، وكان الاعتراض على الشرط الثالث الذي اعتبره رفوس بمثابة إنذار له بشأن سياسته في المستقبل، فقد كان الفاتح يمنع الذهاب إلى روما بدون إذن منه، وفي النهاية تم تتويج أنسليم في الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٠٩٣م رئيساً لأساقفة كانتربري[١].

ولكن بمجرد أن عادت له صحته ثانية نسي توبته، ولم يكتف فقط باستعادة معظم أملاك الأسقفية، وطالب أنسلم بمطالب ثقيلة ورفض أن يسمح له في البداية بالاصلاحات الكنسية[٢].

***

الصدام بين الملك ورئيس أساقفته :

ومما يسترعي الاهتمام هنا أن النزاع بين البابوية والإمبراطورية بصدد التقليد العلماني لم يكن قد بدأ بعد في إنجلترا، وحتى هذه اللحظة لم يكن هنالك أدنى اعتراض من جانب أي أحد بشأن حق الملك في منح وتقليد المناصب الكنسية في المملكة حسب مشيئته، وقد وافق أنسليم على استلام رسامته من الملك، وبدون إبداء أي ملاحظة واعترف بعلاقته الإقطاعية بالملك، وأقسم قسم الولاء والطاعة، واستعد لتقديم التزامات الخدمة الإقطاعية للملك، والقيام بجميع مسئوليات التبعية، وبالنسبة للملك فقد كان تعيين رئيس الأساقفة تقليداً علمانياً لفصل إقطاعي جديد، ولعل أبرز دليل على ذلك مطالبة الملك رئيس الأساقفة بمبلغ خمسمائة جنيه فضة، ويروى بأن الملك رفض هذا المبلغ بازدراء مما دفع أنسليم بتوزيع المبلغ على الفقراء، فقد حان الوقت على ما يبدو للصدام بين الملك ورئيس أساقفته، عندما طلب أنسليم من الملك السماح له بالذهاب إلى روما لإقرار رسامته من البابا.

---

(1) Adamas, op. cit; p.95.

(2) Willam of New brugh, vol. 1,op. cit; p.25. ; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.536.

وهنا تساءل الملك غاضبا "أي بابا؟" فأجاب أنسليم البابا أوربان الثاني، وتمثل رد فعل وليم الثاني في إطار الحوار القائم بينهما بقوله: "إن لانفرانك لم يتجرأ أبدا على استخدام هذه الجرأة مع أبيه" ولاسيما في السنوات الأخيرة من حياة لانفرانك على الأقل في سنة ١٠٨٤م، ولم يتم الاعتراف رسميا بأي بابا في إنجلترا، ورفض الملك تبرير موقف أنسليم بأن استلام رسامته من البابا لا يعني المساس بسيطرة الملك على الكنيسة، في حين اعتبره الملك هجوما على سيادته كملك[١].

وقام الملك بعرض الأمر كله أمام مجمع عقد في روكنجهام –Rochingham– في الخامس والعشرين من فبراير سنة ١٠٥٩م، وذكر أنسليم في دفاعه: في الأمور الخاصة بالرب أقدم الطاعة والولاء لراعي كنيسة المسيح "البابا" وفي الأمور المرتبطة بالملك أقدم النصح والمشورة[٢].

وناشد أنسليم كذلك البابوية في روما قائلا: "إنه كرئيس لأساقفة كانتربري لا يمكن أن يُحكم عليه في محكمة دنيوية"[٣].

وكان الهدف الرئيسي للملك من عقد مجمع روكنجهام هو إدانة رئيس الأساقفة أنسليم وحرمانه من منصبه الأسقفي، وفشلت محاولات الملك، وكان رد فعل الأساقفة هو الوقوف بجانب رئيس الأساقفة المبجل، وعبروا عن انزعاجهم، وقالوا إن الملك ذبح الكنيسة في أمور تبدوا تافهة بالنسبة لهم[٤]، وأسفرت نتيجة هذا المجمع عن عدم إدانة رئيس الأساقفة المبجل، وقد نفد صبر هؤلاء الأساقفة والقساوسة،

---

(١) زينب عبد المجيد: المرجع السابق، ص ٤٢.
- Brook ; op. cit; pp.152-153.

(2) Brook ;op. cit; p.153.

(3) Kenneth;op. cit; p.131.

(4) Brook;op. cit; pp. 151-152.

عندما وجدوا أن العقيدة تهاجم في شخص أنسـليم حـامي الكنيسـة، واعتمد كذلك أنسليم في هذه الحرب ضد الملك على تأييد البارونـات والنبلاء في إنجلترا، وأرسل لهم بعض الخطابات لأنهم كانوا يريدون الانتقام من الملك، وحانت لهم هذه الفرصة لتأييد أنسـليم فـي هـذا المجمع الكنسي[1].

وفي خطاب أنسليم إلى النبلاء الإنجليـز، كـان يتحـدث عـن ضرورة الطاعة لمراسيم وأوامر البابا، فمعصية القديس بطرس مـن معصية الرب، وكان هذا هو الخلاف بين أنسليم ووليم الثاني، الـذي كان قد اغتصب أملاك الكنيسة، وقضايا المساعدات والخـدمات هـي التي أثارت الاحتكاك بينهما، ولكن القضية الحيوية أثيرت إثر طاعـة أنسليم لقانون الكنيسة، وأرسل أنسليم خطابًا إلى كبير الأسـاقفة فـي ليون ويُدعى هوف يخبره أن وليم يعمل ضد إرادة القـانون الإلهـي، وأن تصرفاته كلها خرقًا للقانون الكنسي، حتى أن وليم يرفض السماح بعقد المجالس الكنسية بالإضافة إلى اغتصابه لأملاك الكنيسة[2]. وكان من الممكن أن يكون وليم الثاني على اتفاق مع رئيس الأساقفة أنسليم، ولكن في النقطتين الأكثر أهمية وجد أنسليم وليم الثاني علـى نفـس صرامة وقسوة وليم الأول.

والنقطة الأولى وهي تتعلق بالاعتراف بأوربان الثـاني كبابـا شرعي، وهذه هي القضية التي اعتبرها وليم الثاني وركز عليها مسألة متعلقة بقراره وحده، فمن وجهة نظر أنسليم أنه لا يمكن أن يترك هذا الأمر للحكم من قبل حاكم دنيوي، ولقد تقرر هذا العمل مـن خـلال قانون للكنيسة عن طريق مرسوم الانتخاب، وبذلك لا يكـون هنـاك مجال للشك في أن البابا القانوني والشرعي هو أوربان الثاني، وهاجم

---

(1) Brook; op. cit; p.152.
(2) Davis;op. cit; pp. 95-96 ; Adams;op. cit; pp. 96-97.

أنسليم البابا غير الشرعي كليمنت الثالث، وهاجم كذلك أنسليم الملك وليم الثاني الذي لم يساند البابا الشرعي أوربان.

وطلب أنسليم من الملك وليم الثاني الإذن له بأن يقوم بزيارة إحتفالية إلى روما، لكي يعلن إيمانه وتأييده للبابا أوربان الثاني، وقد اشتكى أنسليم إلى كبير أساقفة ليون، وقال له إنه مر عام كامل بعد تنصيبه ولم يقم بواجبه كرئيس أساقفة كانتربري ، ولم تنفذ أوامره، لذلك أصبحت رتبة الكنسية في خطر، وأشار أنسليم إلى زيارة لانفرانك إلى روما لهذا الغرض، وإن كانت هذه الزيارة هي آخر ما يريده وليم الثاني، واعتبر الملك هذه الزيارة خطرا بالغا على الملكية الإنجليزية، وقد استطاع الملك وليم الثاني إعاقة هذه الزيارة، ولكن في مقابل الاعتراف بباباوية أوربان الثاني، وأن يسمح لرسل البابا بالدخول إلى مملكته(١).

ولقد لاقى أنسليم نجاحا مماثلا في النقطة الثانية، وهي حقه في السماح له بزيارة روما لكي يستعطف البابا، وكان مجرد الطلب بالقيام بهذه الزيارة كفيلا بأن يثير غضب وليم الثاني، ولقد واجه أنسليم معارضة أقوى من تلك التي حدثت في روكنجهام، وإزدراء جميع الأساقفة وأيده البارونات وتعاطفوا معه، ويبدو أن الأساقفة صدموا برغبة أنسليم في انتهاك التقاليد وامتيازات الملك، ولكن وليم الثاني فيما يتعلق بهذه النقطة انتهج نهج والده، ولكنه وقع في خطأ تكتيكي، فلقد خير أنسليم في أن يطلب عفو الملك أو أن يترك إنجلترا، وقد أقنع الملك أنسليم بالبقاء في إنجلترا كهدنة(٢).

وأثناء بقاء أنسليم في إنجلترا، قام الملك بإيفاد اثنين من قساوسته سرا للتودد باسم الملك للبابا، وهذا المبعوثان هما وليم ورلمست

---

(1) Sayles;op. cit; p. ; Henery Bettenson; op. cit; pp. 119-120.
(2) Brook;op. cit; p.153.

-William Warelwast- وجيرارد -Ferard-، وأصبح بعد ذلك رئيسًا لأساقفة يورك، واقترح الاثنان عزل أنسليم بتفويض من البابا جيرارد، مقابل اعتراف الملك بشرعية أوربان الثاني في إنجلترا، ولكن البابا أشار في اجتماعه معهما بعدم استطاعته الحكم بإدانة كاهن إنجليزي حتى يتم الاعتراف بصلاحيته من جميع الأطراف، وفي الحال أرسل البابا إلى إنجلترا مبعوثه كاردينال أسقف البانو -Gardinal Bishop of Albano- مع سفراء الملك وليم الثاني بتعليمات بأخذ الاعتراف الإنجليزي رسميا من البابا أوربان الثاني، وسماع التهم الموجه ضد أنسليم، ولكن بدون التخلي عن المبدأ الأساسي في نزاع أنسليم مع الملك -السابق ذكره- وهو الأمر الذي حققه المبعوث البابوي بمهارة ودبلوماسية ناجحة تماما[١].

وأنصت المبعوث البابوي لشكوى الملك، وتحاشى منذ البداية إجراء أي اتصال مع أنسليم ومؤيديه لحين إعلان الملك رسميا الاعتراف بالبابا أوربان الثاني، وهذا هو ما تحقق بالفعل حيث أعلن الملك الاعتراف بطاعة البابا في جميع المناطق التابعة لسيادته، ولم يتحقق الهدف من خطة الملك بعزل أنسليم بتفويض من البابا، أو حقه في منح رسامة رئيس الأساقفة وتنازل عن مآربه[٢].

---

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.536 ; Davis,op. cit; p.98.

(٢) تجدر الإشارة هنا إلى مساندة أنسليم البابا أوربان الثاني الذي عقد مجمعا في مدينة راي سنة ١٠٩٨م بصدد مسألة الانبثاق، وكان المدافع الأول عن عقيدة الغرب أنسليم الذي كان البابا يدعوه "أبي وسيدي ومعلمي"، وبناء على رأيه رأى أن البابا نفسه على حق في حرمانه للذين لايعتقدون في هذه العقيدة المتضمنة الإضافة، ليكن هذا المجمع أول مجمع نطق بالحرمان ضد الكنيسة الشرقية لكونها لا تعتقد بانبثاق الروح القدس من الأب والابن.

انظر في ذلك:

- زينب عبد المجيد: المرجع السابق، ص ٤٣، حاشية ٢-

وفي معظم نقاط الخلاف بين الباوية والملكية نجد أنه بخصوص النزاع مع رئيس الأساقفة، فقد انتصرت البابوية، وخاصة بعد الاعتراف بأوربان الثاني في إنجلترا، وكذلك إقرار أنسليم رسامته من البابا شخصيا، وتمكن أنسليم بعناده من رفع راية الاستقلال التدريجي الكنيسة الإنجليزية، وإفساح المجال لبدء الصراع بين الملكية والكنيسة في إنجلترا من جديد.

وبعد هذا الصراع بين أنسليم والملك وليم الذي لم يظهر أي طاعة للبابا أو مراسيمه أو طاعة القانون الكنسي إلا مرغما، وإن كان العائق دائما أمام هذه الطاعة من قبل الملك هو الحاجز الذي وضعه وليم الفاتح الذي يمنع تدخل البابا في إنجلترا الذي أصبح أمرا فعليا. واستطاع وليم الثاني في بداية حكمه استبقاء المراسيم البابوية خارج إنجلترا، وبذلك لم يكن هناك معارضة للأعمال الدنيوية، حتى أن أنسليم نفسه لم يعترض في البداية على من يقلده السلطة، وأهم ما حافظ عليه الملك أن يظل القساوسة الإنجليز بعيدين عن زيارة روما وخوفا من طاعتهم للبابا، أو أن يأتوا معهم بمراسيم تكون خطرا على الملكية، واستطاع البابا أوربان الثاني ورئيس الأساقفة أنسليم الحد من قوة الملك الإنجليزي وخضوعه للبابوية[١].

وليؤكد البابا أوربان الثاني زعامته، دعا إلى عقد مجمع في كليرمونت لمناقشة الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م، وكان يريد فرض سيادته على الملكيات، وخاصة الملكية الإنجليزية مثلما فعل جريجوري السابع مع الملكية الألمانية، وأن يصبح زعيما للعالم، ووجد نفسه في هذه الحملات، وحث الممالك على التنفيذ المباشر لهذا المرسوم بالدعوة للحروب الصليبية، وإن لم يكن هناك أدنى اهتمام بتطبيق ذلك في إنجلترا[٢].

= -Davis,op. cit; p.99.

(1) Brook,op. cit; p.153.

(2) Brook,op. cit; p.153.

ففي سنة ١٠٩٦م تم تعيين اثنين من الأساقفة الإنجليز بالأسلوب التقليدي، وبدون أدنى اعتراض سواء من أنسليم الذي أقر رسامتهما، أو من أي كاهن آخر في المملكة، وحتى عندما أعيد إقرار هذا المرسوم في مجامع راي واللاتيران، وفي حضور أنسليم شخصيا لم يبدي اعتراضه بشأن التقليد العلماني، ولم يشغل البابا نفسه بهذه الخلافات فكل ما يشغله هو إخراج الحملات الصليبية لإثبات زعامته في الغرب الأوربي[١].

وفي سنة ١٠٩٧م تجدد النزاع ثانية بين الملك ورئيس أساقفته، وذلك عندما استعد الملك للقيام بحملة لقمع تمرد اندلع في ويلز، وطلب من رئيس الأساقفة المساعدة عن طريق إمداده بفرقة مناسبة من الفرسان والمال، واكتفى أنسليم بإرسال عدد ضئيل من المحاربين مما أدي لإثارة واستياء الملك، واستولى على ممتلكات أسقفيته في كانتربري، ورفض أنسليم الاعتراف بالتقاليد التي وضعها الفاتح لتنظيم الكنيسة، وحصل رئيس الأساقفة على إذن من الملك بمغادرة المملكة في أوائل نوفمبر سنة ١٠٩٧م، ولم يعد أنسليم لإنجلترا طيلة الفترة الباقية من حكم وليم الثاني[٢].

وقد تغير الموقف تماما وتبدلت السياسة عندما كان أنسليم في روما، وفي حضور البابا أوربان الثاني والذي قام بعقد آخر مجالسه الكنسية الكبيرة في كنيسة القديس بطرس التي تم فيها إصدار المراسيم الرئيسية للبابوية، وذكر "إيدمار" كشاهد عيان على المجلس المراسيم التي حرمت التقليد العلماني، وأكد أنسليم هذا الكلام وعلق على هذا البند بقوله: "إن الملك ليس لديه خيار في أن يطيعه".

(1) Davis,op. cit; pp.101-102 ; William of New brugh, vol. ,1 , p.25.

(2) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.256.

وبسبب تلك المراسيم بدأ أنسليم فورا في صراع مع الملك الجديد هنري الأول، لتبدأ من جديد صفحة أخرى من النزاع بين الملكية والبابوية لفرض السيادة[1].

وفجأة مات وليم رفوس في أول أغسطس سنة ١١٠٠م دون أن يترك وريث يخلفه على عرش البلاد، وتوج أخوه هنري الأول ملكا في الخامس من أغسطس في كنيسة وستمنستر على يد موريس أسقف لندن، لأن أنسليم كان في منفاه في روما[2].

وتجدد النزاع ثانية بين الملك الجديد هنري الأول والبابوية، وكان الملك هنري حريص على عودة أنسليم رئيس الأساقفة، وبعث إليه برسالة وهو موجود في أحد الأديرة في مدينة ليون الفرنسية مناشدا إياه العودة للملكية[3].

وأرسل الملك هنري خطابا إلى الأب أنسليم سنة ١١٠٠م يدعوه للعودة لإنجلترا وهذا نص الخطاب:

"من هنري الذي هو بفضل الرب ملك الإنجليز، وإلى كل رجال الكنيسة وعلى رأسهم الأب أنسليم والأساقفة في كانتربري، نحبكم كنموذج للصداقة والمودة، أبي العزيز، تعلم أن أخي الملك ولـيم قد مات، وأنني قد توليت الحكم من بعده بفضل الرب، ولقد انتخبت عن طريق رجال الدين المسيحي، وكذلك عامة الشعب الإنجليزي، ولقد عقدت لجنة لتوضيح الأمر للشعب الإنجليزي والأساقفة، واسألهم في ذلك لتوضيح الأمر لك، وأنا سوف أقود شعبي إلى مملكة عظيمة في إنجلترا، وأتوسل إليك ألا تثير غضبي عند تسلمي المملكة المباركة بدونك، ولكنني سوف أتسلمها منكم عن طيب خاطر، ولقد أحاط الأعداء بي من كل جانب بسببك، حتى الشعب الذي أحكمه والبارونات

---

(1) Brook,op. cit; p.154.

(2) William of New brugh, vol. ,1 ,p.26.

(3) William of New brugh, vol. ,1 ,p.26. ;Davis ,op. cit; p.122.

ثاروا ضد سياستي، وجميعهم تمنوا ألا تطول فترة غياب رئيس الأساقفة المبجل، وسوف أرسل بعض رجالي المخلصين لك ومعهم المال اللازم لرحلتك، وأخي وليم قد مات وأنا سوف أنشد الأمان في المملكة ثانية، وبناء على نصيحتك ألا تأتي عن طريق وايتسوند –Witsand– وليس كذلك عن طريق نورماندي، وسوف أطلب من باروناتي في دوفر أن يقابلوك ويعطوك المال اللازم لرحلتك، وسوف ترد أي ديون داخلية لك، وعلاوة على ذلك نرجو من الأب المقدس أن يعجل بالعودة إلى الكنيسة الأم في كانتربري، إذ عانت البلاد في غيابكم حالة من الفوضى والخراب، الشهود:

جيرارد أسقف يورك، وليم ورلست أسقف ونشستر، والإيرل هنري، وروبرت فيتز هامون، وكل الأساقفة والبارونات.

وداعا[1].

***

تمسك أنسليم بالسمو البابوي:

وعند عودة أنسليم من منفاه، رفض أنسليم فجأة أن يقدم للملك فروض الطاعة والتقديس، أو أن يجري أي اتصال مع أي أسقف أو الرهبان الذين تلقوا القلادات من الملك، ولكنه أقلع عن منح القلادات في مقابل وعد من أنسليم بألا يسحب التنصيب من هؤلاء الذين أجلوا وقدسوا الملك، وكان هذا التنازل قد وافق عليه البابا بسكال الثاني (١٠٩٩–١١١٨م) كمحاوله مؤقته لإثناء الملك عن تمسكه، رغم حرص الملك على السيطرة على عملية التعيينات الكنسية[2].

---

(1) Henry Bettenson ,op. cit; pp. 218-219.

(٢) كان هنري يريد استخدام الطرق التي جعلت من والده واحدًا من أعظم ملوك أوروباء وكان من بين هذه الطرق هو حفاظه على التناسب بين الدولة والكنيسة، ولكي يطور ذلك قام هنري بعمل تعيينات خاصة بمقار الأسقفيات والكنائس والتي ظلت شاغرة أيام رفوس، وعند عودة أنسليم من المنفى–

وقد يتساءل القارئ هنا لماذا حدث هذا التحول في موقف أنسليم آن ذاك بصدد التقليد العلماني، ورفضه تقديم فروض الطاعة والولاء الملك؟! فقد وافق أنسليم من قبل على تقليده لمنصبه من الملك وليم الثاني بدون تردد، ولم يبد اعراضا بشأن التعينات الكنسية للملك. ويعتقد هنا أن بقاء أنسليم في منفاه في ليون وبتأثير من صديقه الحميم هوف –Hugh– رئيس أساقفه ليون، والمؤيد المتشدد للمطالب البابويه كان هو السبب وراء إصرار أنسليم على انتزاع حق التقليد العلماني من الملك[1].

وأمام إصرار أنسليم على طاعة البابا والمراسيم البابوية، والتي لم تسمع أو تراعى حتى الآن في إنجلترا، والحقيقة أن هذه القضية ليست مهمة بالنسبة لأنسليم، ولم يكن حريصا عليها شخصيا، ولكن ظاهريا يبدو أن البابا هو الذي يأمره بذلك وعلى رئيس الأساقفة أن يطيع أوامر البابا، ولقد كانت الانتصارات المتلاحقة لأنسليم لها آثارها المتراكمة على زيادة سلطة البابا في إنجلترا، ليس فقط بالنسبة للقانون القديم، ولكن للمراسيم الجديدة التي قررتها روما وتم تنفيذها في إنجلترا، وكان أول انتهاك للحاجز الملكي الذي حاول الفاتح الأكبر بناءه[2].

–وبرغبة صارمة وجد ضرورة تطبيق المراسيم البابوية ضد التقليد العلماني، وكانت الأسقفية في كلوني قد أطاعت هذه الأوضاع، ولكن بمجرد أن قابل هنري أنسليم حتي أظهرت تصرفاتهما أن السلام بينهما لايمكن توقعه.

انظر في ذلك :

- Cma. Med. Hist,. vol. v, p.529 ; Brook,op. cit; p.154.

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.528 ; ,op. cit; p.192.

– زينب عبد المجيد : المرجع السابق ، ص٤٧.

(2) Brook,op. cit; p. 155.

ووضع أنسليم في مقدمة واجباته الكنسية طاعة البابا، والعمل على الإصلاح بشجاعة واقتناع وبدون خوف، لإدخال السلطة البابويه في إنجلترا، وأصر الملك على مقاومه ذلك، وكان لديه القوة لتحقيق ذلك عن طريق الحصول على المساندة من داخل البلاد، لأنه يعلم أن البابا لو وضع قدمه في إنجلترا لن يتركها بسهولة، والذي ساعد الملك هنري في حربه مع البابوية أنه لم توجد أي إشارة لحزب بابوي معارض في إنجلترا[1].

ولقد كان لانفرانك رئيس الأساقفة السابق، والذي لم تنقصه الشجاعة قد وقف إلى جانب الملك تماما، ولم يظهر القساوسة أي إشارة للتردد في اتباع قائدهم ورئيسهم، كان هذا عن قناعة شخصية، ولم يكن عن إجبار من الملك أو رئيس أساقفته، واختيروا من جانب وليم نفسه الذي أحكم السيطرة على التعيينات الكنسية التي كانت في مجملها ثمانية عشر تعيين في الخمسة عشر أسقفية إنجليزية، ويمكن استثناء كانتربري من الحساب وكذلك روشيستر التي تتبع كانتربري، وكان الاختيار يقوم به لانفرانك رئيس الأساقفة بنفسه في إنجلترا ونورماندي، وكان يمكن لأنسليم أن يسير على نهج لانفرانك، ولكنه أقحم الملك هنري الأول في نزاع مع البابويه لصالح البابوية[2].

وقد كان هناك بالفعل بعض رجال الدين الذين لم يقبلوا السيطرة الملكية، ولكنهم كانوا مستعدين لتبرير هذه السيطرة الملكية، لذلك كلف الملك هنري أبرز مؤيديه الكنسيين، وهو كبير أساقفة يورك جيرارد بإحياء تقاليد الملكية الأنجلو-سكسونية دفاعا عن الحق الملكي في تعيين رجال الكنيسه.

ومقالات مؤلف يورك المجهول -Anonymus of York-، والتي كانت نتاجا لهذا الصراع، ومبعث بهجة وسرور للدارسين

---

(1) Brook,op. cit; p.155.
(2) Sayles,op. cit; p.255.

المهتمين بالنظريه السياسية في العصور الوسطى الباكرة، ولكنها لم تنقل لنا بأي شكل من الأشكال نمط الملكية الأنجلو – نورمانية التي جعلت أساس الملكية هي الأداة البيروقراطية القانونية والإدارية بدلا من الأيدلوجية الدينية التي لم تعد توافق حاجات العصر، وعلى أية حال كان هنري يريد محو تقاليد الملكية الثيوقراطية البالية، والتي يمكن أن تكون ذات فائدة في حالة نشوب صراع طويل الأمد ضد البابوية[١].

والذي توصل إلى مؤلفات يورك المجهول هو بوهيمر – Bohmer– وجمعها في ثلاثين كراسة، وهذا المخطوط الفريد محفوظ في مكتبة كوربوس كريستي كوليج – Library of Corpus Christi College– في كمبريدج، وقد تعرضت هذه الكراسات في محتواها إلى فرض سؤال وهو أيهما أسمى من الآخر السلطة الملكيه أم السلطة البابوية؟! وأظهرت في ذلك أن القوة الملكية تعلو على القوة المقدسة، فقد كان المسيح ملكا وقديسا، وهو كملك كان مساويا للأب، وهو كقديس كان مساويا للسلطة الإلهية، والأكثر من ذلك هجومهم على البابوية، وانكارهم نظرية التدين قائلين أنه لم يعط الرب القديس بطرس سلطة أكبر من التي أعطيت للقديسين الآخرين، وقد أثاروا الإعراض ليس فقط بسبب تفوق ليون على ريمون في فرنسا أو كانتربري على يورك في إنجلترا، ولكن بسبب تفوق أي كنيسة حتى كنيسة روما على أية كنيسة أخرى، فكل أسقف يعد حاكما مستقلا للكنيسة، ويجب طاعة المراسم والقوانين، وأخيرا كان هناك دفاع قوي عن الزواج الكنسي، وتنصيب الأساقفة في هذه الكراسات[٢].

وعن المشكلة الثالثة التي واجهت الكنيسة إلى جانب مشكلتي التقليد العلماني، والسيمونية– وهي مشكلة زواج رجال الدين، حيث

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٣٨٦–٣٨٧.
(2) Brook,op. cit; p.155; Freeman,op. cit; p.136.

يرجع ذلك إلى عدم وجود قانون كنسي يقضي بعدم زواج رجال الدين وهو المعروف بالعزوبية -Celibacy-، وإن كانت هناك بعض التشريعات التي اعتبرت العزوبية عادة ديرية حاولت الكنيسة تعميمها بهدف تطهير النفس، والانصراف إلى الشئون الدينية، وكانت اصلاحات هلدبراند السبب دائما في تطور النزاع بين الملكية الإنجليزية القوية والبابوية، وإن كانت الملكية تستجيب بفتور لهذه الإصلاحات، وتطور النزاع بين الاثنين ليأخذ شكل السيادة العالمية للملكية أم للبابوية[١].

ودخل الطرفان مرة أخرى في دور جديد من النزاع بسبب زواج الملك هنري الأول، واقترح الملك على أنسليم بعرض الموضوع برمته أمام البابا باسكال الثاني، وأثناء هذه الأحداث عاد الدوق روبرت سنه ١١٠١م من الأراضي المقدسة، وكان هنري لايخشى من البارونات في تأييدهم لروبرت، ولكن كل ما كان يخشاه هو تأييد ومساندة أنسليم لروبرت ضد الملك هنري، ورغم مخاوف هنري نجد أنه لم يقدم أي تنازلات ملكية من جانبه إلى أنسليم، وفي أوائل سنه ١١٠١م أصبح موقف أنسليم معرضًا للخطر من هنري الملك الرسمي للبلاد، وأخيه روبرت المستحق للعرش، لذلك كتب للبابا ملوحا بعدم استطاعته تقديم أي تنازلات قائلا:

" إن قوانين وتقاليد المملكة لن تتلاشى أبدا طيلة حياتي، وحتى إذا ما أخضعت نفسي لهذا الإذلال فإن الرب يمنعني من ذلك، ولا يسمح بارونات وشعب المملكة بذلك"[٢].

---

(1) Thather & Ncneal,op. cit; pp. 134-135.

(٢) في الوقت الذي وافق أنسليم على إقتراح هنري الأول بإحالة النزاع إلى البابا، لم يلبث أن اضطر هنري إلى الاستعانة بسلطة أنسليم لتذليل العقبات الخاصه بإتمام زواجه من الأميرة أديث -Edith- ابنة مالكلوم كانمور ملك إسكتلندا ومرجريت سليلة أحد البيوتات الملكيه القديمه في وسكس،=

تمسك الملك بالتقليد العلماني :

وعلى الرغم من ذلك قام الملك ورئيس أساقفته بإيفاد مبعوثيهم إلى البابا باسكال الثاني، وعاد سفراء الملك حاملين الرفض البابوي المطلق على مطالب الملك بشأن التقليد العلماني لرجال الدين [1] ، وليس هناك ثمة غرابة في رد البابا باسكال الثاني باعتباره واحداً من أشد المتحمسين لأفكار البابا جريجوري السابع، وخاصة بعد وفاة البابا الغير شرعي كليمنت الثالث (١٠٨٠-١١٠٠م)، وبدأ باسكال في تطبيق أفكاره الإصلاحية في روما وفي كل الكنائس [2] .

-وجاءت الأميرة إلى إنجلترا غداة وفاة أبيها وانخرطت في سلك الرهبنة، ونظراً لضرورة توخي الحذر وعدم إثارة الإستياء الديني والشكوك حول شرعية الزواج من راهبة.

وعرض الملك الأمر على رئيس الأساقفة الذي دعا بدوره لاجتماع الكهنة ونبلاء المملكة، حيث أثبتت إديث بأنها أرغمت على دخول الرهبنة لمجرد الحماية فقط ، وفراراً من الفجور المفزع آن ذاك، وإلحاح المتقدمين للزواج منها وليس بهدف الانخراط في الرهبنة، وكان هذا المسلك تفاديا لوحشية النورمان، مما دفع لانفرانك لسن قانون كنسي خاص لحماية هؤلاء وإعفائهن من الالتزامات المرتبطة بالرهبنة، وباعتراف إديث وتدخل أنسليم تم إزاحة هذه العقبة وإتمام الزواج الملكي بمباركة أنسليم في الحادي عشر من نوفمبر سنة ١١٠١م، وتتويجها ملكة واتخذت اسم ماتيلدا .

انظر في ذلك :

- زينب عبد المجيد : المرجع السابق، ص ٤٩.

- Williamson, op. cit; p.32.

(1) Adams; op. cit; p.120; William of New brugh, vol.,1 ,p .26.

(٢) باسكال الثاني (١٠٩٩-١١١٨م) هو أحد المصلحين الأربعة، وهو الوحيد من الراديكاليين الجريجوريين الذي تولى العرش البابوي -بعد جريجوري السابع- وكان راهبا في دير فوملامبروسا -Vollambrosa- في أحد الأديرة التقشفية، ودخل في خدمة البابوية، وتتلمذ على يد جريجوري-

ولم تنجح حجج البابا ورئيس الأساقفة في إثناء الملك للتنازل عن حقه في التقليد العلماني، وإن اكتسب أنسليم تأييد الأساقفة، وبدأ الحاجز الذي وضعه الملك هنري في التداعي، وعرف أنسليم أخيرا أن هذا الحاجز الذي شيده الملك لا يمكن تقويض أركانه إلا بالإختراق من الداخل، ويعني هذا مساندة الأساقفة الإنجليز له وليس من الخارج، وكذلك إنشاء نواة لحزب بابوي جديد في إنجلترا، وبذلك حصلت البابوية على موضع قدم لها في إنجلترا[1]٠

وجاء رفض البابوية حق التقليد العلماني وقال البابا: "إن ذلك يعتبر نوعا من الزنا الروحي مع الكنيسة"٠

وذكر أن الملك أخفى الخطاب المتضمن للرد البابوي، وأقنع أساقفته الثلاثة العائدين من روما بالإدعاء أن البابا أكد لهم نواياه الطيبة تجاه هنري، وعدم ممارسة أي ضغوط على حقه في منح التقليد العلماني٠

وقام الملك بشغل المناصب الكنسية الشاغره في أسقفتي هيرفورد وسالزبوري، وسمح لأنسليم بعقد مجمع ديني للكنيسة في وستمنستر في التاسع والعشرين من سبتمبر سنة ١١٠٢م بهدف تدعيم حركة الإصلاح الكنسي فيما يتعلق بعزوبية رجال الدين، وفي الوقت نفسه أكد سفراء أنسليم من الرهبان استحالة أن يكون لمزاعم الملك بصدد ما ذكره البابا أي أساس من الصحة، مما دفع أنسليم للذهاب إلى روما سنة ١١٠٣م، حيث تأكد من مزاعم الملك وسفرائه، ويتفاقم

= السابع، وخدم كمبعوث بابوي في أسبانيا، وتولى العرش البابوي سنة ١٠٩٩م ٠

انظر في ذلك :

- نورمان ف٠ كانتور : المرجع السابق، ص ٣٥٧٠

- Kenneth,op. cit; p.134.

(1) Brook ,op. cit; p.163 ; William of New brugh, vol. ,1 ,p.27.

النزاع باستيلاء هنري على إيرادات أسقفية كانتربري، الأمر الذي دفع البابا سنة ١١٠٥م لإعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضـــد مستشـــاري الملك باعتبارهم أداة لتنفيذ سياسته، وهؤلاء تقلدوا مناصبهم بواسطته، والتهديد بحرمان الملك نفسه إذا لم يتراجع عن سياسته[١].

وأثار هذا النزاع شقيقة الملـك الإنجليـزي أديـلا –Adela– كونتيسة بلوا والتي اشتهرت بتقواها، والتقت بأنسليم أثناء زيارته لهـا فور علمه بمرضها، وأقنعت أنسـليم بإفسـاح المجـال للمفاوضـات وأثمرت جهودها عن إلتقاء الملك وأنسليم وساعد في ذلك أفـو شارتر –Lvo of Charter– تلميذ لانفرانك، وتم عقد الاجتماع لتسوية الخلاف وذلك بموافقة البابا باسكال الثاني[٢].

وفي أول أغسطس سنة ١١٠٧م تم عقد الاجتماع بحضور الملك وأنسليم رئيس الأساقفة والرهبان والنبلاء، وعقد الاجتماع في قصـر الملك في لندن واستمر انعقاده ثلاثة أيام متتالية، واحتدم النزاع بـين الملك والأساقفة الذين كانوا يطالبون بإنتخابـات كنسـية وألا يكـون الاختيار عن طريق الملك، وذكر الملك أنه لم يتبـع معهـم أسـلوب القسوة مثلما فعل أخوه رفوس، ولكنه يريد أن يقدموا فروض الـولاء والطاعة بصفتهم الدنيوية كما فعلوا مع والده الفاتح الأكبر[٣].

وعلى الجانب الآخر، كان أنسليم مصرا علـى المبـادئ التـي أرساها البابا أوربان الثاني في تقليد المناصب الكنسية التي هي حـق من حقوق الكنيسة، ولم يكتسب بذلك الملك هنري حق التقليد العلماني، ويعني ذلك أن كل الأساقفة ورؤساء الأديرة يجب أن يـتم انتخـابهم كنسيا من خلال المجالس الكاتدرائية أو الديرية، ولا يجب أن يكـون

---

(١) زينب عبد المجيد : المرجع السابق ، ص ٥٢.
- Cma. Med. Hist,. vol. v, p.532 ; Trevelyan,op. cit; p.12.
(2) Adams,op. cit; p.141 ; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.532.
(3) Henry, op. cit; p. 119.

تقليد مناصبهم بأيدي علمانية، ويتم الانتخاب في حضور الملك، وهؤلاء الذين يتم انتخابهم عليهم تقديم فروض الولاء والطاعة بصفتهم الدنيوية.

ويقوم البارونات الذين عُينوا عن طريق الملك في ممتلكاتهم بتقديم الولاء والطاعة كأفصال تابعين للملك، وتم موافقة الملك ورئيس أساقفته والبابا باسكال الثاني والنبلاء في المملكة وذلك سنة ١١٠٧م[١].

وكانت التسوية التي تم التوصل إليها مع الكنيسة قد أدت في النهاية إلى احتفاظ هنري بكل ما يريده ، فقد أبقى هذا الاجتماع على الأعباء الإقطاعية على رجال الدين، وكذلك أشرف الملك على الانتخابات مما ساعد على فوز مرشحيه، أما أنسليم فقد أرغم الملك على التفاوض مع البابا، والذي يتيح للبابوية أن تتدخل في شئون الكنيسة الإنجليزية[٢]. وبمقتضى معاهدة لندن سنة ١١٠٧م أعلن هنري خضوعه الرمزي لروما بأن يتخلى عن التقليد العلماني، ولكنه احتفظ لنفسه بالسلطة الكاملة على الأساقفة ومقدمي الأديرة في إنجلترا بفضل التبعية الإقطاعية التي فرضها على الكنيسة[٣].

وتوفي أنسليم في الحادي والعشرين من أبريل سنة ١١٠٩م، واحتفظ الملك هنري الأول بأسقفية كانتربري شاغرة لمدة خمسة سنوات كاملة (١١٠٩-١١١٤م)، ولكنه فقد اختصاص هام في الحرب الضارية للدعاية التي صاحبت التنافس حول تقليد المنصب، حيث إن مؤيدي جريجوري السابع أصروا على أن الملك كان رجلا علمانيا، وإنه أقل شأنا بالنسبة لكل القساوسة، لأن القساوسة يتعاملون مع الروح أما الملك فيتعامل مع الجسد[٤].

---

(1) Henry Bettenson,op. cit; pp. 119-120.

(2) William of New brugh, vol. ,1 ,p.28.

(٣) نورمان ف. كانتور : المرجع السابق ، ص ٣٨٧.

(4) Kenneth,op. cit; p.134.

ثالثا: هنري الأول والعودة للسيطرة الملكية (١١٠٠-١١٣٥م)

رأينا أن النجاح الذي حققه وليم الأول مقارنة بفشل معاصريه على الرغم من تشابه سياستهما يرجع إلى ثلاثة أسباب: تقويه موقفه السياسي وغياب المعارضة الكنسيه داخل البلاد، والرغبه في اصلاح الكنيسة، مما جعله أقل عرضه لهجوم الكنيسة عليه، وكانت الميزة الثالثه قد ألقيت بعيدا عن طريق خليفته وليم رفوس، فقد كان حكمه أنانيا للغاية وفي صالحه كملك وليس في مصلحة الكنيسة، ولم يعبأ بالإصلاح وقد صادر أملاك الكنيسة، وترك المواقع الكنسية شاغرة.

وعلى الجانب الروحي أصبح رفوس معرضا للهجوم من غيره، ولقد عرض نفسه كما فعل فيليب الأول وهنري الرابع للنقد حيث أن الحكم المدني يعني علمانية الكنيسة، ولقد عادى كل الذين عملوا من أجل الإصلاح وساقتهم هذه المعاداة للذهاب إلى المعسكر البابوي، وقدم بذلك للبابوية هدفا لكي يصوبو نحوه، ولقد كان والده مزدوج التسليح من الناحية الدينية والسياسية، ولكن رفوس اعتمد على القوة لكي يحافظ على موقعه، وإن اختلف عن والده في أن البابوية لن تعير انتباهها إلى إنجلترا، ولم تدخل في نزاع مع الملكية إلا في عهده وعهد الملك هنري الأول[١].

وكان هنري الأول قد تتبع خطى والده على الرغم من أن ذلك كان لأسباب سياسية وليس عن اقتناع، ولم تقف إنجلترا وخاصة الكنيسة خلف الملك مثلما فعل لانفرانك في دعمه للفاتح[٢].

وبدأت البابوية تحاول تأكيد قوتها وفرض سلطتها على إنجلترا كما فعلت في فرنسا في القرن الحادي عشر عندما كانت الملكية

(1) Brook, op. cit; pp. 164-165.

(2) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.529.

الفرنسية ضعيفة، وبشكل مشابه كان الضعف السياسي هو المسئول عن التسليم الكامل لجون(١١٩٩- ١٢١٦م) ملك إنجلترا في القرن الثالث عشر[١].

وكان الملك هو الأكثر إعتمادا على السلطة السياسية، ومحاولة جمع النبلاء والأمراء حوله لتأييد سياسته، لأنه لم يكن مطمئنا إلى الإجماع الكنسي لتأييده، وكان هناك أصحاب الضمائر الحية الذين يعارضون سياسته، وكان هذا التغيير قد بدأ مع مجموعة قليلة من المؤيدين لسياسة أتسليم، وكانت فترة حكم ستيفن بداية لظهور حزب بابوي قوي يجمع في صفوفه قادة الكنيسة بكل رتبها· ويذكر -بروك-: على الرغم من أنهم كانوا أقلية فيما بعد تحت قيادة بيكت -Becket- فليس هناك شك في أن الحياة الكنسية كان لها دور بالغ في فرض سيادتها على الإمبراطورية، إلا أن هينريتش بوهمر -Heinrich Bohmer- يذكر أنه ليس غير مستحد لمنحهما دورا هاما، لأن بعض الكنائس استسلمت للسلطة المدنية، وفضلت بعضها الانضمام إلى مؤيدي السلطة البابوية[٢].

ومنذ قدوم الغزو النورماني لإنجلترا، كانت جميع مجموعات القوانين الكنسية الكاملة أو المختصرة قد اشتملت على الدعاوى الخاصة بالسلطة البابوية، والتي كانت سارية في روما، وكان هناك عدد محدد من الرهبان قد درس تلك القوانين واعتادوا عليهما، ولقد أدخل لانفرانك أول هذه المجموعات القانونية إلى إنجلترا ووزعت على نطاق واسع وشجع على دراستها، وازدادت هذه المجموعات عن طريق إضافات جديدة ومستمرة على نفس الطريق، وأعطى لانفرانك

---

(١) س· ورن هلستر: أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الأنجلو المصرية، ١٩٨٨، ص١٧٩·

(2) Brook,op. cit; pp. 165-166.

إلى كبير الأساقفة ثيوبالد دفعة جديدة لدراسة القانون الكنسي، والـذي أصبح أمرا أكثر عمومية[1].

ولم يمر النزاع حول التقليد العلماني –في المرحلة السابقة– دون نتائج إذ أن هنري تنبأ إلى الأخطار الكامنة في طيات التحـالف بـين الملكية الإنجليزية والكنيسة وهـو التحـالف الـذي يهـدده المـدخل البابوي[2]، كما أن النزاع شجع هنري الأول على تنمية قوته العلمانية الخالصة من خلال مواصلة بناء البيروقراطية الإدارية، وبعد النـزاع حول التقليد العلماني تخلى هنري عن سياسة آبائه في استخدام العلماء الديريين في الجهاز الإداري، لأن الرهبان أثبتوا أنهـم أكثـر تـأثرا بالأفكار الجريجورية، وأكثر خضوعا لروما، واستخدم بدلا منهم كتبة من رجال الكنيسة، لأنه لم يكن هناك متعلمون من غير رجال الكنيسة في إنجلترا آن ذاك، والـذين يرعـون مصـالح الملـك باعتبـارهم بيروقراطيين محترفين ومخلصين. ومثل أولئك الموظفين الذين جمعوا بين الغلظة والقسوة من جهة، والمقدرة الفائقة من جهة أخرى، وهـم الذين كافأهم الملك بتعيينهم في الوظائف الأسقفية ذات العائد الكبير[3].

وكان الملك هنري الأول قد كلف أبرز مؤيديه الكنسـيين وهـو كبير أساقفة يورك جيرارد بإحياء التقاليد الملكية القديمة دفاعـا عـن الحق الملكي في تعيين رجال الكنيسة، وكان الملك يرغب في جعـل أساس الملكية أداة البيروقراطية والقانونيـة والإداريـة، بـدلا مـن الأيدلوجية الدينية[4].

(1) Brook,op. cit; p.166.
(2) Davis ,op. cit; p.132.

(٣) نورمان ف. كانتور ؛ المرجع السابق ، ص ٣٨٧.

(٤) كان جيرارد من أبرز رجال الكنيسة المؤيدين لمطالب الإمبراطورية، وقد تم تعينه رئيس لأساقفة يورك في الثاني عشر من مايو سنة ١١٠٨ من قبـل الملك هنري الأول، وذكر في تأييده للملك أن البابوية تأسست بمقتضـى–

ولم تكن فترة حكم هنري الأول الباقية إلا تغيرات ضئيلة، واضطر هنري إلى الإذعان فيما يتعلق بمشكلة التقليد العلماني، وعلى الجانب الآخر حافظ على سيطرته على الانتخابات الأسقفية، وكانت تفاصيل الانتخابات الأسقفية في عصر هنري الأول هي التي سار عليها هنري الثاني في دستور كلاريندون –Clarendon–، ولقد كان هنري الأول مصرا بنفس الدرجة على الحفاظ على سلطته في موضوعات أخرى، وخاصة الحفاظ على الحاجز الذي وضعه والده بين إنجلترا وروما، فليس هناك سفراء بابويون يدخلون إنجلترا بدون علمه أو ذهاب سفراء من إنجلترا إلى روما بدون علمه كذلك، ولم يسمح لأي خطابات أن تدخل البلاد دون المرور عليه، ومنع التوسلات إلى روما، ووضع المجامع الكنسية تحت إشرافه المباشر(١).

وفيما يتعلق بمسألة الإصلاحات الكنسية التي قام بها هنري الأول فهذا الأمر مشكوك فيه، لأن الملك اهتم بجمع المال أكثر من اهتمامه بالإصلاح والدليل على ذلك أنه بعد موت أنسليم ترك أسقفية كانتربري شاغرة لمدة خمس سنوات وكسب أموال طائلة، وكذلك معارضته الصارمة للزواج الكنسي، وكان الدافع وراء ذلك ليس شعوره الديني، ولكن لرغبته في الحصول على الغرامات من المتهمين(٢)، لذلك كانت البابوية هي الأكثر حرصا على السير قدما في

=مرسوم إنساني وأن لقب أم الكنائس ينطبق أكثر على بيت المقدس أكثر من روما، وإن مزاعم البابا بأنه مصدر للعقيدة لامبرر لها، وإن السلطات التي يمارسها بلاط روما الآن أكبر من تلك التي يتمتع بها المسيح والرسل وليس هناك ضرورة ليفسر لنا البابا أنها إرادة ومشيئة الرب، فهل لا نملك الكتاب المقدس لنعلم ذلك؟! وذكر أن للملوك تم رسامتهم بحكم الدولة والكنيسة معا، انظر في ذلك:

- Davis,op. cit; p.126 ; William of New brugh, vol. ,1 ,p28.

(1) Brook,op. cit; p.167.

(2) Kennth,op. cit; p.134.

الإصلاح الكنسي في إنجلترا وكان الملك دائمـا علـى حـذره مـن البابوية[1].

وعادت المشاكل من جديد بين الملك هنري الأول والبابوية مـع انتخاب الراهب رالف أسقف روشستر في السادس والعشـرين مـن أبريل سنة ١١١٤م رئيسا لأسقفية كانتربري، والذي تطلب العودة إلى روما من أجل الموافقة من البابوية، ولقد رفض البابا أن يعترف بهـذا الانتخاب الذي أقره الملك، لأن القانون الكنسي يقضي بأن يوافق البابا أولا ثم الملك[2]. ومن أجل الموافقة على تنصيب رالف رئيسا لأساقفة كانتبري، توسط القديس سانتا سابا -Santa Saba- في روما وهـو ابن شقيق أنسليم العظيم عند البابا باسكال الثاني، ولقد أرسل بالفعـل البابا باسكال الموافقة على تنصيبه على أسقفية كانتربري، وأرسل معه بعض الخطابات إلى الملك هنري يحث الملك فيها على إلغاء الحـاجز الذي وضعه والده بين روما وإنجلترا، وهذا ما وضـع هنـري فـي موقف صعب، عندما أرسل البابا له رسولا في سنة ١١١٦م، ورفض الملك دخوله إلى إنجلترا، وظل لمدة ثلاث سـنوات فـي نورمانـدي كضيف شرف، ولكن بلا فائدة[3].

وفي سنه ١١١٩م أجرى الملك هنري الأول مقابلة مـع البابـا الجديد كالكسـتس الثـاني (١١١٩-١١٢٤م) -Calixtus II- فـي جسورز -Gisors- وأكد البابا للملك بأنه لن تكون هناك أي وصاية أو سلطة تمارس ضد إنجلترا إلا بموافقه الملك عليها، وفـي المقابـل وعد الملك بحل بعض المشاكل والخصومات الخاصة بين الأسـقفيات في إنجلترا، والتي لا يمكن حلها بدون السلطة الملكية.

(1) Sayles, op. cit; p.251.
(2) William of New brugh, vol. ,1 ,p. 28.
(3) Brook, op. cit; p. 168.

ولم يستغن كالكستس الثاني عن إرسال مبعوثيه وسمح الملك هنري لأحدهم بالدخول إلى إنجلترا، وهو بيتر بيرليون Peter –Pieileone– وذلك في سنه ١١٢١م في إطار العلاقات الكنسية بين البابوية والملك، ولم يقم المندوب البابوي بأي عمل كنسي[١]، لذلك فمن المدهش أنه في سنه ١١٢٥م سمح الملك هنري للكاردينال جون من كريما –Crdinal of Johm of Crema– بالدخول إلى إنجلترا وعقد مجلسا كنسيا في الكنيسة الإنجليزية في وستمنستر، وقرارات ذلك المجلس لم تقدم جديدا، فقد كانت موضوعة أساسا للإصلاح الكنسي على المستوى الأدنى الخاص بتنفيذ عزوبية وتبتل الرهبان[٢].

ولكن انعقاد مجلس كنسي بحضور مبعوث البابا كان يمثل أمرا جديدا للغاية، فمثل هذا الأمر لم يحدث في عهد وليم الفاتح في البداية، ولكن بسبب التغييرات الكنسية التي رغب فيها هنري حيث طلب حضور المبعوثين البابويين رغم عدم فاعليتهم وبناء على طلب منه شخصيا ولم يفرض عليه من قبل البابا[٣].

وعلى الرغم من رفض هنري دخول المبعوثين البابويين إلى الملكية الإنجليزية وذلك في سنة ١١١٦م، إلا أنه عاد ثانية في سنة ١١٢٥م وسمح بدخولهم إلى المملكة وعقد المجالس الكنسية القانونية، وذلك لمناقشة برامج الإصلاح الكنسي في إنجلترا[٤].

وتوصل الطرفان إلى حل وسط في سنة ١١٢٦م، فقد وافق البابا هنريوس الثاني (١١٢٤-١١٣٠م) –Honorius II– على هذا الحل، فقد حصل البابا على وجود مبعوث بابوي قائم له في إنجلترا، حيث يرسل إليه خطاباته وتعليماته ليؤكد بذلك أن الإصلاح تحت توجيهه،

(1) Brook,op. cit; p.164.
(2) Davis,op. cit; p.146.
(3) Brook,op. cit; pp. 169-170.
(4) Sayles,op. cit; p.103.

وفي المقابل حصل الملك من البابوية على أن من يـرأس المجالس الكنسية هو رئيس أساقفة كانتربري كمـا كـان لانفرانـك وأنسـليم، وحصل من البابا على تأكيد لكبار الأسـاقفة فـي المسـتقبل بـأنهم يستطيعون رئاسة المجالس الكنسية[١].

وعقد الملك هنري مجلسا كنسيا في سنة ١١٢٧م يرأسـه هـو ورئيس أساقفته، وأصدر في ذلـك المجلـس عـددا مـن القـوانين الإصلاحية، وكان الاتفاق السابق يقضي بحضور مبعوث بابوي واحد، وأصبح هذا الاتفاق بلا معنى بعد وفاة البابا الذي أصدره، ولقد كـان تنازلا مؤقتا من الملك لم يلزم البابا القادم بالتمسك به، إلا أنه كـان ذا قيمة كبيرة للملك لأنه أطاح بمبعوثي البابا القادمين من روما، ويؤكـد بذلك أن رئيس الأساقفة هو الذي يقوم بإصدار القوانين بموافقة الملك، وحد ذلك الكنيسة الإنجليزية وخفف من مشاعر الأساقفة التي جرحت جرح عميقا إثر مشكلة الحصول على السيادة في يورك، ولقـد كـان الأمر يتطلب حلا مؤقتا ليس فقط لمسألة مبعوثي البابا، ولكن لقضـية السيادة بين أسقفية كانتربري وأسقفية يورك[٢].

وهذا الصراع الطويل الذي جاء في صالح يورك يهمنا هنا فقط بشكل غير مباشر، فلقد ساند الملك هنري الأول رالف لفترة طويلـة، ورفض تدخل كبير أساقفة يورك ثيرستان –Thurstan– والذي تولى منصبه في أسقفية يورك في التاسع من أكتوبر سنة ١١١٩م، وكان أحد أعوان الملك، إلا أنه حصل على تنصيبه من البابـا وتجنـب تقـديم فروض الولاء والطاعة للملك، والتي يتطلبها منصب كبيـر أسـاقفة كانتربري[٣].

(1) Brook,op. cit; p.170.
(2) Davis,op. cit; p.146.
(3) William of New brugh, vol. ,1 ,p. 29.

ولقد كان الملك بشكل طبيعي في جانب وحـدة الكنيسـة، وأن يكون لها رئيس واحد أفضل من رئيسين، لأن ذلـك يسـهل فـرض سلطته على الكنيسة، على الرغم من أن الملك حاول أن يقلل من قدرة المحكمة البابوية، إلا أنه لم ينكر أبدا قدرتها على تسوية القضية، وهذا مثال طيب للاعتراف من جانب الملك بقوة البابوية، والذي كان علـى علم بأن المحاكم الإنجليزية والكنسية لم تتمكن وحدها أن تفصل فـي مثل هذه القضية الخاصة، ومن هذا المنطلق تدخلت البابويـة وبقيـت قضيه قانونية وشرعية، وكان البابوات يعارضون توحيد الكنيسة فـي إنجلترا، ويفضلون أن يكون هناك كنيستان متعارضتان في كانتربري ويورك بنفس القوة، حتى تستطيع البابوية التدخل للصلح بينهم، وكان هذا الدافع هو الذي جعل البابوية تؤيد يورك في هذا النزاع[١].

وعلى الجانب الآخر كان حق الأفضليات ومعرفة أيهما أفضـل كانتربري أم يورك سمة من سـمات السياسـة المركزيـة للبابويـة، وخاصة في عهد البابوات الذين استطاعوا فرض السلطة البابوية مثل جريجوري السابع وحتى أوربان الثاني[٢]، ففي عهد البابـا أوربـان الثاني منح الأفضلية للكنيسة في أسبانيا وإلـى كبيـر أساقفـة توليدو

---

(1) Brook,op. cit; p.171.

(٢) كانت الكنيسة الإنجليزية أكثر صرامة من أي كنيسة أخرى فهي إبنة كنيسة روما، لقد كانت دائما تحافظ على توقير والديها، ولكن الكنيسة الإنجليزيـة كانت ذا استقلال أعظم من الكنائس الغربية الأخرى، وملوكها لـم يتخلـوا عن سلطتهم في الأمور الكنسية، وكانت الدولة والكنيسة شيء واحد، ولكن مع بداية الغزو أصبح للبابوات أكثر قوة وسلطة على إنجلترا لـذلك فـتح البابوات لكنيسة إنجلترا أفضليات عديدة عن الكنائس الأخرى.
انظر في ذلك :

- Framan,op. cit; p.136

-Toledo- كرد حق قديم، ولم تعد أسبانيا مملكة منفردة بل عاد لها حقها في الوجود في دائرة مسلط عليها الضوء[1].

أما القضية التي تهمنا هنا في إنجلترا، هل حق الأفضلية حق قديم مرتبط بأسقفية كانتربري، ولقد أعاده البابا الكسندر الثاني للوصول إلى حقيقة الأمر، ولقد استطاع لانفرانك أن يقنع ولیم والمجلس الكنسي عن طريق بلاغته ودلائله بأن الأفضلية لكانتربري دون غيرها.

ويبدو أن البابا ألكسندر الثاني قد قبل ورضي بما قدمه لانفرانك من دليل، ولم يأتي تأكيد على ذلك من ناحية روما، ولم يرضى أسقف يورك بذلك، ثم أثيرت هذه القضية مرة أخرى في عهد أنسليم، وأضافت عبئا جديدا على رئيس الأساقفة، ولم يكن يتوقع قوة الخلاف حول قضية من هذا النوع[2].

وكان رهبان كانتربري مصرين على الرد الخاص بهجوم أقرانهم من يورك، وإن كان الأمر خلال قيادة أنسليم للأسقفية غير عادي، حيث كان الملك عدوانيا وقد سانده البابا مقابل ولاء الملك للبابوية، ولكن بعد موت البابا عاد الملك إلى جانب كانتربري، وبدأ البابا الجديد الاستماع إلى محاورات حزب يورك، ولقد كان لديهم دليلا قيما في خطابات جريجوري الأول[3].

---

(1) Brook,op. cit; p.136.

(2) Sayles, op. cit; p.262.

(٣) تشهد رسائل البابا جريجوري الأول (٥٩٠- ٦٠٤) والتي دونت في نهاية القرن السادس على مدى ثقة هذا البابا وكفاءته الإدارية، وذلك لأن هذه الرسائل تمدنا بالمعلومات البالغة الأهمية على كيفية إدارة جريجوري الأول للأملاك البابوية، وعن جهوده في تنمية مواردها والإشراف إشرافا دقيقا على إيراداتها ومصروفاتها.

انظر في ذلك :=

ولم تستطع بلاغة الأسقف رالف أن تفند تلك الدلائل التي عرضتها يورك، عندما جاءت الخطابات البابوية بدلائلها عن طريق رئيس أساقفة كانتربري وعرضت على أنها مزورة، فبدأ الاتهام يتحول ضد رئيس أساقفة كانتربري، وقد تلقى كبير الأساقفة قرارًا من البابا بتنفيذه وإكسابه الشرعية، لذلك استدعى رئيس الأساقفة وعينه كقاضي شرعي للحكم على الكنائس[1].

وليس هناك سبب للاعتقاد بأن البابوية كانت تتصرف على أسس غير قضائية في تسوية هذه القضية، ولكن الظروف أعطتهم الفرصة التي استغلوها لكي يفرضوا سلطتهم على الكنيسة الإنجليزية التي كانت ضعيفة، وطوال فترة الخلاف حول مبدأ الأفضلية الأسقفية أصر البابا على الحصول على القرارات التي يريدها، فقد أجبر البابا الملك على أن يسمح للأساقفة بزيارة روما، حتى أن ممثلي الملك ذهبوا لزيارة روما، حيث تواجد الأساقفة الإنجليز في المجالس الكنسية في ريمس -Rheims- وأماكن أخرى يترأسها البابا[2].

وتوفي هنري الأول بعد فترة حكم طويلة دامت حوالي خمسة وثلاثين عاما، ففاجئه الموت وهو يقوم بالصيد في فكسن -Vexin- وتوفي في الأول من ديسمبر سنة ١١٣٥م في ليون فوريت - Lyons -Foret- ، وقام الأساقفة في ليون بالاهتمام بجسمان الملك، ودفن بعد أن أحضروه إلى ليون وحضر النبلاء والأساقفة لتوديع الملك في الأول من ديسمبر[3].

- سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، ص ١٦٥.
- Whtelok, the Beginnig of English Society. The Anglo-saxan period, penguin. 1959; pp. 148-149.

(1) William of New brugh, vol. ,1 ,p.29.

(2) Brook,op. cit; p.173.

(3) Brook,op. cit; p.173.

وكان موت الملك هنري الأول يمثل نهاية فترة مهمة في تاريخ الكنيسة الإنجليزية، ولقد كان الموقف في إنجلترا تحت حكم الملوك النورمانيين، يمكن أن يتكرر فيما بعد بشكل دقيق[١].

***

رابعاً: ستيفن وعصر الفوضى الكنسية (١١٣٥-١١٥٤)

لقد احتفظت اليد القوية للملوك النورمانديين بالكنيسة الإنجليزية، وأزعن العديد من رجال الدين للسيطرة الملكية، ولكن عدد كبير منهم ومن بينهم أفضل رجال الدين كانوا يشعرون أن سيطرة الملك هنري الأول نوع من الطغيان، وكانوا يتوقون للتخلص منها،وعلى الرغم من أن هذا كان واضحا من قبل فإنه أصبح شديد الوضوح بعد وفاته[٢].

ولقد ظهر ذلك واضحا بعد أن اعتلى ستيفن حكم إنجلترا، فلقد انهارت المبادئ التي تقوم عليها الملكية كنظام ملكي ونظام سياسي بوجه عام، وظهرت على الساحة القوى الكنسية، تلك القوى التي أعاقت الوحدة السياسية وترسيخ وتوطيد قوة القانون والنظام، واستعراض قوتها على الساحة السياسية[٣].

وتوج ستيفن ملكا على إنجلترا يوم الأحد الثاني والعشرين من ديسمبر سنة ١١٣٥م، وذلك في حضور ثلاثة من الأساقفة وهم رئيس أساقفة كانتربري وأسقف وينشستر وأسقف سالسبوري وعدد من النبلاء، ولم يحضر الرهبان عملية التتويج[٤].

---

(1) Brook, op. cit; p.174.
(2) Brook,op. cit; p.175.
(3) Sayles,op. cit; p.313.
(4) William of Malmesmury, Historia Novella, p. 16; Kenneth, op. cit; p.138.

وأعقب تتويج ستيفن حالة من الفوضى السياسية نتيجة للمطالب المتصارعة على العرش بين ماتيلدا ابنة هنري وصاحبة الحق الشرعي في التاج، وما ترتب على ذلك من حرب أهلية استمرت من (١١٣٥-١١٥٤م)، وبالرغم من اغتصاب ستيفن العرش من صاحب الحق الشرعي ماتيلدا، وصادف ذلك اعترافا من البابا أنوسنت الثاني (١١٣٠ - ١١٤٣م) بشرعية حكم ستيفن كملك، وجاء هذا التأييد البابوى مقابل وعد ستيفن بتأكيد حرية الكنيسة وطاعة الأوامر البابوية، والاعتراف بسلطة مبعوثي البابا، ولقد منحهم هذه الفرصة وجود حاكم ضعيف فسمح بذلك لسلطة أوسع للكنيسة الإنجليزية، ولا يعني ذلك أن الكنيسة الإنجليزية قد حصلت على حريتها بشكل كامل في فترة النزاع، ويعلق أحد المؤرخين على هذه الفترة بقوله: "ليس هناك ثمة شك في أن مراسيم السمو البابوي لها جذور الآن في إنجلترا، وأن سلطة الكنيسة أصبحت أعظم مما كانت عليه من قبل"[1].

وكانت الكنيسة تطمع في الحصول على حريتها من خلال تركيزها على قضية الشرعية، ومن هو أحق بالعرش ستيفن أم ماتيلدا؟! وكان في استطاعة ستيفن الحصول على تأييد ومساندة الكنيسة، لذلك كان لزاما عليه أن يزيل عائق القسم الذي أقسمه على نفسه بمبايعة ماتيلدا وإن كانت الكنيسة هي الجهة الوحيدة التي يمكنها تتويجه، وكان من حسن حظه أن كان له أخ هو هنري بلوا أسقف وينشستر، كما كان عضوا بارزا في الدوائر الكنسية الإكليريكية، حتى أنه كان قادرًا على أن يقنع زملاءه بأن يقفوا بجانب ستيفن وعلى رأسهم رئيس أساقفة كانتربري نفسه[2].

ولم يكن هنري مستعدا فقط لكي يتجاهل قسمه وولائه للإمبراطورة، ولكن أيضا كان تواقا لكي يقدم مساعدته بإقناع الآخرين

(1) Brook,op. cit; p.175 ; Poole,op. cit; p.133.

(2) Sayles,op. cit; p.315 ; Kennth,op. cit; p. 138.

بأحقية ستيفن وخاصة وليم صاحب كوربيل –Corbil– وأسقف كانتربري وأن يفعل مثلما فعل هو، ولقد كان الأسقف مليئا بالمخاوف، ولكنه في النهاية وافق بأن يقبل ستيفن في مقابل وعد بأنه سوف يستعيد للكنيسة حريتها، كذلك كان أسقف سالزبوري وياوره وليم دي بونت –Depint– الذي قام بوضع الخزانة الملكية وقصر ونشستر تحت أمر ستيفن[1].

وساعد ستيفن كذلك في الوصول إلى السلطة عصبة من الرهبان من سافينجي –Savigny– في كل من فيرينس –Furness– وكذلك في مقاطعة لانكاشير –Lanvashire–، ليقدم بذلك نظاما رهبانيا جديدا في إنجلترا ساعده في الوصول إلى السلطة[2].

وعلى الجانب الآخر عمل الحزب الكنسي جاهدا على تأكيد حرية الكنيسة من خلال النزاع القائم بين ستيفن وماتيلدا، والحرية تعني تحرر الكنيسة من سيطرة الدولة ومن حكم الملك والتأكيد على قيام كنيسة وطنية، وهذا ما فعله توماس في القرن الثاني عشر وجعل الجميع ينظرون إليه كبطل قومي، لذلك نجده في ميثاق الملك هنري الأول يبدأه بقوله أن الكنيسة يجب أن تتحرر، بمعنى أن الملك –هنري– يجب ألا يضع يده على ممتلكات الكنائس في فترة خلو المنصب الأسقفي لأي أسقفية، ولقد وعد بإعطاء الكنيسة حريتها التي تمتعت بها خلال حكم وليم الفاتح، ولكنه لم يف بوعده، ولكن الرغبة العامة من أجل التغييرات التي كانت عارمة، وخاصة أن التأثير جاء من روما حيث كان أكثر فاعلية[3].

وبعد تتويج ستيفن أعلن قيامه ببعض الإصلاحات في الكنيسة، ولم يعد المطلوب هو إجراء بسيط بصرف النظر عن السلطة التي

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.133.

(2) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.542.

(3) Brook, op. cit; p.170.

تقوم بتنفيذه، فقد أعلنت الكنيسة صرختها للتحرر من السيطرة العلمانية، ولم يكن ستيفن هو الرجل الذي يقاوم أو يصمد أمام ضغوطها، وحُدد الميثاق الذي منحه الملك للكنيسة في سنة ١١٣٦م في بداية حكمه مباشرة[١].

ويذكر وليم مالسبوري ما جاء في هذا الميثاق بقوله :

" أنا ستيفن المتوج بفضل الرب، أكن كل إحترام وتقدير إلى رجال الدين المسيحي، وإلى الشعب الإنجليزي كله الذين ساندوني واختاروني ملكاً لإنجلترا، وخاصة عن طريق دعم الكنيسة الإنجليزية وعلى رأسها رئيس الأساقفة في كانتربري، والقائمين على الكنيسة الرومانية المقدسة وعلى رأسهم البابا أنوسنت الثاني (١١٣٠-١١٤٣م) الحبر الأعظم في روما، ومن منطلق حبنا للرب فقد قررنا منح حرية الكنيسة، وأن العدالة والسلطة التي تتحكم في أشخاص الكنيسة وفي كل رجال الدين ومتعلقاتهم وأمتعتهم يجب أن تكون من داخل الكنيسة، وأملاك الكنيسة يجب أن تكون في أيدي الأساقفة[٢].

بالإضافة إلى أن العلمانيين لابد وأن يخضعوا للسلطة الكنسية والمدنية، وعندما صرح وليم الفاتح بتأسيس محاكم كنسية منفصلة أصدر مرسوما بأن هذه المحاكم يجب أن تفصل فقط في القضايا الكنسية، ولم يكن يقصد التخلي عن رجال الأكليروس الذين ارتكبوا إساءة مثل القتل والسرقة فيجب محاكمة هؤلاء أمام محاكم علمانية مدنية[٣].

***

الملك ستيفن يهاجم الكنيسة :

وعندما اعتلى ستيفن العرش أصبح الأمر مختلفاً، وأصبحت الكنيسة مؤسسة مستقلة بذاتها، ومن حقها أن تطبق قوانينها وأنظمتها

---

(1) Sayles ,op. cit; p.319.

(2) William of Malmesnury, Historia Novella, pp.18-19.

(3) William of Malmesnury, Historia Novella, p.19.

على العاملين بها، وجاهدت في سبيل أن يكون لها السيطرة القانونية والشرعية، ليس فقط على القضايا الدينية، ولكن أيضا على رجال الدين وعلى أملاك الكنيسة دون الأخذ في الاعتبار المنازعات والمعارضات التي ربما تحدث، وخفت قبضة الملك على الكنيسة، ووصل غرور وكبرياء الكنيسة إلى أعلى درجاته في إنجلترا.

ولقد أخطأ ستيفن عندما هاجم الكنيسة بعدما وصلت إليه من حرية، وطرح موضوع تأييدها له جانبا وهي التي بذلت كل ما في وسعها لتتويجه ملكا على البلاد، وكانت الكنيسة حتى ذلك الحين هي المؤيد والمدعم والسند القوى للملكية، لأنها كانت دائما تحاول التأكيد على النظام الملكي، ولم يتضح أي شيء في إنجلترا يدل على الاقتناع بحركة الاصلاح وقوته مثل حقيقة أن الكنيسة كانت في فترة من الفترات على استعداد أن تتجاهل التقاليد العميقة الجذور في التعاون بينها وبين النظام الملكي، وأن تكون متحيزة في رأيها دون سبب ظاهر لمؤسسة أرستقراطية إقطاعية تؤيد الملك[1].

والحقيقة أن البابوات كانوا يتلقون من إنجلترا شيئا أكثر من الطاعة العادية التي يطلبونها من الكنيسة ككل، وذلك لسببين: الأول هو أن الكنيسة الإنجليزية تدين بتأسيسها وتنظيمها للكنيسة الرومانية، حيث كان البابا جريجوري الكبير هو الذي أدخل المسيحية لإنجلترا ووجه الإدارة الكنسية الجديدة[2]، وهذه التبعية لكنيسة روما لم تتعرض

---

(1) Sayles,op. cit; p.319.

(٢) يذكر في هذا الصدد أن البابا جريجوري قد شاهد في سوق روما عبيدا من الصبية الإنجليز الصغار ذوي الشعر الجميل والعيون الزرقاء يعرضون للبيع، فأعجب بهم وسأل عن جنسهم فقيل له إنهم إنجليز وثنيون، فأرسل على الفور إلى بريطانيا بعثة مكونة من أربعين راهبا بقيادة أوغسطين.
انظر في ذلك:
- نظير سعداوي: المرجع السابق، ص ٤٠-٤١.

للنسيان أو الإنكار، لأن كنيسة روما هي أم الكنائس لذلك فهي أم لكنيسة إنجلترا، والسبب الثاني: اعتراف الكنيسة الإنجليزية بالتزام غير عادي نحو كنيسة روما، وهي الجزية السنوية التي أقرتها كنيسة إنجلترا لروما، وهي عبارة عن ثلثمائة مارك إلا مارك واحد كل عام، وقد أطلقت عليها البابوية الجزية الإقطاعية مقابل الحماية الدينية[١].

ولقد اهتم الملك ستيفن بجمع الأموال وإخماد الثورات التي قامت ضده، وترك للكنيسة الحرية الكاملة في تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة، ويبدو أن الأساقفة الجدد حلفوا فقط يمين الولاء والطاعة، بينما كانت أعمالهم لا تنم عن أي طاعة أو ولاء، وكانت المجالس الكنسية تعقد بدون إشراف مندوبي الملك، علاوة على أن البابا كان يعين رجال الكنيسة في الوظائف الشاغرة، وكان يعين مبعوثيه وسفراءه الذين يختارهم بنفسه ولا دخل للملك في تعيينهم، وسيطر البابا سيطرة كاملة على الكنيسة، وكان يرحب بالأساقفة الإنجليز في روما، وهذا التطور وما تبعه يشير إلى أن الأحوال السياسية في البلاد كانت تخضع مباشرة إلى نفوذه، وهذا الأمر الجديد ترك بلا رادع، وسوف يسبب أخطاء شديدة للملكية، وكما لاحظنا من قبل فقد وضع ستيفن مطالبه في العرش أمام البابا كي يحصل على الصفح والغفران والأيمان التي أقسم عليها في قضية ماتيلدا[٢].

= - Brook , op, cit, p.178.

(١) كان الأساقفة هم المسئولون عن جمع الجزية الخاصة ببنس القديس بطرس لإرسالها إلى روما، وقاموا بجمع أموال زائدة لأنفسهم، واشتكى من ذلك أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م)، وإن كانت تلك الضرائب لم تجمع بشكل منتظم من قبل الملك، ولكن البابا أجبر الملك على دفع هذه الضرائب.
انظر في ذلك:

- Brook,op. cit; p.178.

(2) Saylas , op. cit; p.319.

وعلى الرغم من أن الاعتراف بستيفن كان عاماً تقريباً في إنجلترا فقد كان قلقاً لأن البابا وحده يمكن أن يمنح الغفران العام، وأن يحله من اليمين الذي قطعه على نفسه إلى ماتيلدا في حياة أبيها الملك هنري الأول.

وتلقى ستيفن تأكيداً بابوياً بالفعل حيث أعلن وعده بتحرير الكنيسة الإنجليزية، وكانت البابوية قادرة على العمل من جانبها دون إشراك الملك، ولقد كان هناك بالفعل موفد بابوي من إنجلترا نفسها وهو رئيس الأساقفة وليم حيث عمل كمندوب بابوي من قبل أنوسنت الثاني (١١٣٠–١١٤٣م)، وبعد وفاته في سنة ١١٣٦م أرسل موفد بابوي من روما وهو الكاردينال ألبريك –Alberic– وقام بزيارات منتظمة لمعظم الكنائس والأديرة في إنجلترا[1].

وفي سنة ١١٣٧م قبض ستيفن على ثلاثة من الأساقفة المهمين والمؤثرين في الخدمة المدنية، وكان على رأسهم روجر سالسبوري –Roger of Salisbury– وكل هذه الأحداث ساعدت هنري بلوا شقيق الملك ستيفن أن ينادي بأن الحريات الكنسية قد انتهكت[2].

وفي سنة ١١٣٨م عُقد اجتماع كنسي هام في إنجلترا، وكانت التوصيات الصادرة عن هذا الاجتماع قد ناقشت الإصلاحات الكنسية، ولكن بصورة أكثر حسماً من قبل، وكانت هناك توصيتان جديرتان بالإشارة، ذكرهما البابا وركز عليها المجتمعون، ذلك أنه إذا وضع أي شخص يده على راهب أو مسئول كنسي لا يمكن أن يحصل على الغفران إلا من البابا وحده.

---

(1) Brook,op. cit; p.180.

(2) Kenneth,op. cit; p.138 ; William of Malmesnury, Historia Novella, p.21.

وأعطى ألبريك –موفد البابا من روما– موافقته على إنتخاب ثيوبالد، وقام بنفسه بتنصيبه رسميا ككبير لأساقفة كانتربري[١]، ووافق ستيفن مضطرا على تعيين كبير أساقفة كانتربري الجديد، وأخيه هنري بلوا أسقف في ونشستر[٢].

ويبدو أن هناك سببا قويا جعل هنري يطلب نقله من ونشستر إلى عرش رئاسة أساقفة كانتربري سنة ١١٣٩م، ولكن ستيفن عرقل هذا النقل بسبب حقده على هنري لإزدياد نفوذه، وطلب هنري الحصول على وظيفة رئيس دير بك خلفا لثيوبالد –رئيس الأساقفة– ولقد فشلت مساعي هنري لإقناع البابا بذلك.

وفي النهاية حصل هنري على سلطة موفد البابا سنة ١١٣٩م التي وضعته فوق رئيس أساقفة كانتربرى الذي أصبح تابعا له ومنحته قيادة كنيسة إنجلترا[٣].

ولقد كان من الأفضل ألا يتواجد موفد بابوي ثابت، ذلك أن الموفد البابوي لم يكن لديه القدرة بشكل ثابت ومنتظم، ولم تكن لديه قدرة التأثير التي امتلكها هنري بلوا ومارسها بقوة على الكنيسة[٤].

---

(1) Brook, op. cit; p.180.

(٢) هنري بلوا كان من نسل الأمراء، فقد تعلم في دير كلوني، وكان مقتنعا تماما بآراء ومعتقدات المصلحين السابقين، تلك المعتقدات التي توضح بأنه لا يمكن أن يتحقق الإنقاذ والخلاص للدولة إلا إذا تم تعظيم وتمجيد الكنيسة، وأن تفرض قوانينها الخاصة ونظمها على الجميع لذلك فإنه لم يتردد في أن يكون مرتبطا بالشئون الدينية ويلعب دورا في السياسة الكنسية، وعندما أراد أن يفعل ذلك فإنه كان مسيطرا تماما من خلال طموحه الشخصي لكي يصبح واحدا من الأمراء القياديين في الكنيسة · انظر في ذلك :

– Saylas,op. cit; p.320 ;William of Malmesnury, Historia Novella, p.25.

(3) Sales,op. cit; p.320 ; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.545.

(4) Sales,op. cit; p.320 ; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.545.

ولقد كان هنري بلوا رجلا طموحا، ولا يستبعد منه أن يعمل طبقا للرغبة الملكية، فقد قام بنفسه بوضع ماتيلدا على العرش، ثم عاد وساعد ستيفن للوصول إلى الحكم، كما كان في الوقت نفسه مطيعا للبابا، حيث يستمد قوته وسلطته من البابا نفسه، وقد استخدم هذه السلطة حتى النهاية، وأثناء الأربع سنوات التي قضاها في بعثته كرئيس للكنيسة الإنجليزية عقد المجالس الكنسية، وقام بزيارة الكنائس للإشراف عليها بنفسه، وقام بالإصلاحات الكنسية برغبة عارمة، والأكثر من ذلك أنه أشرف على تعيين الأساقفة في الكنائس والأديرة حتى إنه عمل مكان رئيس الأساقفة عن طريق القيام بنفسه بالوظائف الخاصة بالامتحانات والتنصيب، على الرغم من أن هنري قد خدم بتفان الأغراض البابوية، إلا أن طموحه ربما ينظر إليه بعين الشك في روما، وكان القديس برنارد يقف ضده بشكل مؤكد [١].

---

(١) سان برنارد –St. Bernard– مقدم دير كليرفو –Clairvaux– والذي جعل من نفسه ضمير للكنيسة في القرن الثاني عشر، وكان يحظى بتبجيل كبير، وصُور كنموذج للقديس الملائكي نظرا لإيمانه الراسخ، وكان يحظى بقبول لدى الكتاب المحدثين، والترجمة الوحيدة التي كتبت في صالحه في القرن العشرين تلك التي نشرت في مناسبة الذكرى الثمانمائة لوفاته سنة ١١٥٣م وكتبها الرهبان السترشيان، ومن أقواله: "أن الوباء الذي يجتاح الكنيسة وباء داخلي لا يمكن الشفاء منه" فرجال الكنيسة في زمانه قد خانوا الرب، وحازوا شرف قدومهم بفضل خيرات الرب، والأساقفة الكبار هم وزراء المسيح الدجال، وهو الذي ابتلع كل أنهار وسيول الأقوياء، والعصر النهائي الذي يتحقق منه سفر الرؤيا هو فقط الذي سوف يشهد قضاء المسيح على المسيح الدجال، بفضل الضياء المنبعث قدمه.
انظر في ذلك:
– نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٥٥ – ٤٦١.
- Brook,op. cit; p.182.

وبموت البابا أنوسنت الثاني سنة ١١٤٢م انتهت فتـرة ولايـة هنري بلوا -كوافد بابوي- على الرغم من ذهابه إلى روما يلـتمس لنفسه العذر ويدافع عن قضيته، ورفض تابعو أنوسنت تجديد تعيينـه، وأرسل البابا الجديد لكيـوس الثـاني -Lucius II- سـنة (١١٤٥-١١٥٣م)، قرارًا بتعيين أسقف كانتربري ثيوبالد موفد بابوي دائم في سنة ١١٥٠م، وجدد تعيينه تلقائيا حتى وفاته سنة ١١٦١م[1].

***

صدام الملك مع الأساقفة بسبب أسرة لي بوير :

دخل الملك في نزاع مع الأساقفة في المملكـة سـنة ١١٣٩م، ويرجع ذلك إلى إساءة ستيفن لأسرة لي بوير -Lepore-، والتي كان منها الأسقف روجر أسقف سالسبوري، وابن أخيه ينجل أسقف آلاي، وابن أخيه الكسندر أسقف لنكولن، وسجنهم الملك وأزلهـم دون داع، لذلك وقفت الكنيسة بجوارهم على اعتبار أنهم أساقفة يجب حمـايتهم، وكان هذا غباء سياسي من ستيفن الذي تخلص مـن أركـان الدولـة والكنيسة التي يرتكز عليها حكمه في إنجلترا[2].

وكانت امتيازات هذه الأسرة هي السبب فـي أن يعلـن الملـك ستيفن هجومه على الكنيسة، لذلك نجدهم أسرعوا يوجهون إليه الدعوة للمثول أمام المجلس الكنسي الذي عقدوه في ونشستر سـنة ١١٣٩م، وتوصل المجمع إلى قرارات كثيرة على رأسها تهديد الملك بـالعزل من الكنيسة، وحرمانه من إنتمائه إليها إذا لـم يكـف عـن مواجهـة الكنيسة، ولذلك نجد أن أسقف آلاي على سبيل المثال سينضـم إلـى

---

(1) Brook, op. cit; p.182.

(2) Davis,op. cit; pp.161-162 ; William of Malmesbury, Historia Novella, p.25 ; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.545.

أعداء الملك في الحرب الأهلية القادمة، وستكون قلعة آلاي كلها ضده[1].

وفي خريف سنة ١١٣٩م قامت الإمبراطورة وإيرل جلوستر بالقدوم إلى إنجلترا، ووصلوا إلى أروندال -Arundel- وبدت ماتيلدا في قبضة ستيف، إلا أنه تركها لتنضم إلى أخيها روبرت في برستول، ولكن عاد ستيفن وقبض على الإمبراطورة وسجنها[2].

إزاء تلك الفوضى الناشئة كان يجب على الكنيسة أن تقوم بعمل إجراء ما وأن تركز اهتمامها على ذلك، وظلت ماتيلدا وجلوستر يترقبان الفرصة للاستيلاء على النصف الغربي من البلاد بتأييد من الكنيسة[3].

وأرسل ستيفن إلى جلوستر يطلب منه المساعدة، واستغل جلوستر الفرصة ووضع قدمه في المقاطعات الشرقية في الثاني من فبراير سنة١١٤١م. وحدثت معركة لنكولن والتي انهزم فيها ستيفن وأخذ أسيرا وتم إيداعه في سجن برستول، وتدهورت أحوال البلاد وعمت الفوضى[4]!!

وانهارت بذلك الحالة السياسية بصورة مخزية في البلاد، وعمت الفوضى أرجاء المملكة، بيد أن الكنيسة ظلت قادرة على أن تخاطب البلاد بأكملها عن طريق مجالسها الكنسية، وكانت الكنيسة في مركز يسمح لها بإيجاد التوازن بين الأطراف المتنافسة، وإن لم يكن في مقدورها أن تدير الأمور وتعالجها بنجاح وتسيطر على مثل هذه القوى السياسية[5].

---

(1) Sa;yles,op. cit; p.318; Davis ,op. cit; p.162-163 ; William of Malmesnury, Historia Novella, p.27.

(2) Kenneth,op. cit; p.139 ; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.545 ; Davis,op. cit; p.127.

(3) Sayles ,op. cit; p.318.

(4) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.457.

(5) Salyes ,op. cit; p.321.

ورأى هنري بلو أن ينتهز الفرصة ويقوم بنفسه بالعمل كوسيط، وقام باستدعاء مجلس كنسي في ونشستر في التاسع والعشرين من أغسطس سنة ١١٤١م، وذلك بعد هزيمة ستيفن، وحضر هذا المجمع هنري أسقف ونشستر وثيوبالد كبير أسقفة كانتربري، وغائب عن المجلس ثرستان أسقف يورك لمرضه الشديد، وأعلن هذا المجلس على رءوس الأشهاد قطع الصلة بين ستيفن والكنيسة، وبذلك خسر الملك الولاء من رجال الكنيسة، وانتخبت ماتيلدا لتحل محله على العرش الإنجليزي، وهذا الإجراء لم يكن له مثيل من قبل على الإطلاق[١].

ومن المسلم به أن الملك لا يكون ملكا إلا إذا تم تتويجه عن طريق الكنيسة، وكان لها حق الاعتراض والانتخاب، ولم تكن ماتيلدا أقوى أو أكثر حكمة من ستيفن، فقد كانت شخصيتها رذيلة وغير محبوبة من الشعب الإنجليزي، وتجاهلت مشورة جلوستر وهنري بلواء واتبعت طريقا لا كياسة فيه، لذلك طردها أهالي لندن ومعها هنري بلوا[٢].

وبحلول ديسمبر من سنة ١١٤١م دعا الأسقف هنري بلوا مجلسا كنسيا بابويا في وستمنستر، حيث أدان ماتيلدا لعدم وفائها بوعودها للكنيسة، كما عاد وحث على قبول ستيفن ثانية كملك شرعي للبلاد، كما حرم كل من ظل على ولائه لمنافسته -ماتيلدا- من عضويه الكنيسة، ومنذ ذلك الوقت رأى هنري أن نفوذه يضمحل، وزملاءه لم يظلوا يثقون به، لأنه شخص يرتد عن معتقداته، فقد أيد ستيفن في البداية ثم عاد وأيد ماتيلدا ثم أيد ستيفن ثانية، كما أن للبابا الجديد الذي جاء إلى كرسي البابوية في سنة ١١٤٣م كالكستس الثاني (١١٤٣-١١٤٤م) لم يحدد سلطاته، لذلك أصبح الوضع في سنة ١١٣٩م هو أن

(1) William of Malmesnury, Historia Novella, pp. 28-29; Cma. Med. Hist,. vol. v, p.547.

(2) Sayles,op. cit; p.321 ; Kenneth,op. cit; p.139.

كل من الطرفين يطالب بحكم البلاد والسيطرة عليها، ووجد كلاهما أن حزبه يضعف ويتداعى عاما بعد عام[١].

ولقد خرجت تعيينات الأسقفيات والأديرة من يد الملك، فقد كان ثيوبالد له الحق في اختيار أساقفة كانتربري، ولكن البابا قد أعطى منصب ممثل البابا إلى أسقف ونشستر مع منصب مندوب شرعي في إنجلترا عنه شخصيا[٢].

***

شرعية الانتخابات الكنسية في إنجلترا :

وقد ثبتت ماتيلدا روبرت دي سيجيلو –Robert De Sigillo– أسقفا للندن في سنة ١١٤١م، لأن السلطة الملكية كانت غير مؤثرة على الوضع في إنجلترا، فقد سيطر هنري صاحب ونشستر بشكل عملي على الانتخابات أثناء السنوات الأربع التي تولى فيها المهمة، وبعد سنة ١١٤٣م انتهت مدة خدمته، حيث كانت السمة المميزة في الانتخابات هي الحرية بمفهومها القانوني، وبذلك قام كبار الأساقفة في أسقفياتهم باختيار الرهبان والقساوسة، ووضع الإشراف العام في يد كبير أساقفة كانتربري الذي أكد على مبدأ الانتخاب وفقا للقانون الكنسي والانتخاب القانوني، الذي لم يكن ليحدث دون مشاكل وصعوبات، لذلك كان يحول الإلتماس إلى البابا في روما في عدد من القضايا، وكانت السلطة البابوية هي المحك الآخر الذي يقر الانتخاب، مثلما حدث في انتخاب ريتشارد بليمي –Richard Belmeis– أسقف لندن في سنة ١١٥٢م، والذي كتب عن جيلبرت فولوا – Gilbert Foliot–* عبارات على الغثيان للبابا، ولكن البابويه تدخلت بشكل

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.548 ;Sayles ,op. cit; p.322.

(1) William of Malmesnury, Historia Novella, p.29.

* جيلبرت فولوا وهو أحد البارونات الأقوياء في إنجلترا، وكان يتدخل في تعيين الأساقفة وخاصة في مدينة لندن، حيث كان يمتلك بها عدد كبير من المقاطعات .

حاسم لمنع التدخل من جانب البارونات، والتي كانت أكثر خطورة من تدخل الملك. ولقد كان تأكيد الملك للانتخاب ما هو إلا عمل رسـمي، ولم يكن هناك دليل كاف لتوضيح ما إذا كان الأسقف المنتخب قد أدى فروض الولاء والطاعه للملك أم لا[(١)].

وقد أصر ستيفن على ضرورة الرخصة الملكيـة للانتخابـات، ولكن كان هذا الأمر مختلف عن الممارسة الخاصة بسلطته، ويبدو أنه كان يريد الحصول على مزايا مالية كبيرة، حيـث كانـت الرخصـة الواحدة تتكلف حوالي خمسمائة مارك، لذلك كان علينا أن نقدر -حنا سالسبوري John of Salisbury- الذي اقتطف بعض الأمثلة على ذلك في انتخاب ريشارد بليمي لأسقفية لندن، وكذلك انتخاب سيلفستر -Silvester- لدير القديس أوجستين في كانتربري، وهـذا إذا كـان حقيقيا فقد عرض ستيفن إلى تهمه بيع الوظائف الكنسية -السيمونية- وانتهاكه ميثاق حرية الكنيسة[(٢)].

وبناء عليه حصلت البابوية على موضع قـدم لهـا بقـوة فـي إنجلترا، لتشرف على الانتخابات خوفا من تعرضها للرشـوة، ولقـد كانت الأديرة دائما تميل نحو البابوية، وكانت الأديرة حريصة علـى تأمين وحماية البابوية والتأكيد على ممتلكاتهم، بحيث يدفعون جزيـة ملكية قليلة القيمة في مقابل ذلك، وبعض الأديرة حصلت على إعفـاء من السيطرة الكنسية ودفع الجزية، وهي الحالة التي دعت إلى تأسيس الكولونيين -Cluniac- والسترشيان -Cistercian-[(٣)].

= انظر في ذلك :

- Brook,op. cit; p.183.

(1) Brook,op. cit; pp.183-184.

(2) Brook,op. cit; p.184.

(٣) قام الراهب روبير مقدم دير موليم -Moleme- ببرجانديا -Burgandy- ومعه طائفة من الرهبان تملؤهم الرغبة في العودة بالقاعدة البندكتيـة إلـى =

ونتيجة للفوضى والحروب الأهلية فى إنجلترا والتي قللت من هيبة واحترام الملك ستيفن، عاد النزاع من جديد بين الملك والكنيسة، وذلك عندما أثار تعيين الملك الغير مناسب لأسقف يورك اعتراض رئيس الأساقفة ثيوبالد، وهذا الموضوع جر على الملك سخط واستنكار القديس العظيم سان برنار في دير كليرفو -Clairvan- وأجبر البابا على أن يلغي ويبطل التعيين الملكي في سنة١١٤٧م.

وفي العام نفسه سنة ١١٤٧م كان ستيفن قد تقدم به العمر ليقترب من سن الستين عاما، ولكن فيما يتعلق بالأمور الدينية لا يحتاج الأمر إلى قتال وكانت إرادته قوية، حيث أدت به إلى عراك خطير مع البابا إيوجنيوس الثالث (١١٤٥-١١٥٣م) حول شغل المكان الخالي في أسقفية يورك والدخول في محاوله طائشة من قبل الملك لمنع أسقف كانتربري حضور الاجتماع الذي يعقده البابا في ريمس -Rhaims- سنة ١١٤٨م، واعتبرت الكنيسة أن أفعاله حنثت بوعوده للكنيسة بأن تبقى حرة، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح كل من البابا وثيوبالد هما العدوين المعلنين للملك[١].

-بساطتها الأولى وانضباطها بتأسيس دير جديد فى سيتو -Citeaux- أو سترشيوم -Cistercium- ومن هذا الدير اشتقت الطائفة السترشية اسمها التي عرفت به وهو -Ciserciаnorder- وكان لأفراد هذه الطائفة الذين حازوا شهرة فائقة، وهذه الطائفة قصدت الهروب من المجتمع على عكس طائفة الرهبان الأوغسطنيين المعاصرة لهم، والتي كان أفرادها يسعون إلى خدمة المجتمع الذين يعيشون في كنفه، وقد وضعها القديس بندكت.

انظر فى ذلك :

- دورمان ت. كانتور : المرجع السابق، ص ٥٠٣-٥١٠.

- Brook,op. cit; p.184.

(1) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.550.

واجتمع رجال الدين في مارس سنه ١١٤٨م وعقدوا المجلس الكنسي في ريمس، وكان على ستيفن أن يتحلى بالجرأه وذلك لطرد ثيوبالد رئيس الأساقفة، وكانت العقبة التي أمامه هي الحرمان الكنسي من البابا، ولكن ستيفن طرد ثيوبالد لعقابه على حضوره المجلس البابوي وطاعته للبابا، ويعد ذلك تحديا للملك، وغادر ثيوبالد البلاد ليتجنب الخلاف مع الملك، وأصبح من الواضح أن الدولة لم يعد مقدرا لها أن تسيطر على الكنيسة كما كانت تفعل في الماضي، وقد واجهت السلطة البابوية اعتراضات كبيرة، إلا أن الملك اعترف بها في نهايه الأمر وتشكل لأول مره حزب بابوي داخل الحدود الإنجليزية في مواجهه الملكية[١].

***

ازدياد سلطة الكنيسة الإنجليزية :

وفي سنه ١١٥١م رغب ستيفن في تتويج ابنه أيوستاس وإعلانه رسميا ليصبح خليفة، ورفض البابا وكبير الأساقفة السماح لأي قس أن يحضر أو يؤدي مراسم الاحتفال بالتتويج.

وعلى الرغم من أن ستيفن يعد نهائيا عن مشاكل أسقفية يورك، وعلى الرغم من الخطر الذي يحدق به من كل مكان، وبعد فترة قصيرة عاد ستيفن وجدد طلب التتويج ثانية، ولم يكف عن طلبه حتى مات ابنه أيوستاس في إدموندس[٢].

واستمرت الفوضى والحروب الأهلية بدون توقف، وأصبحت تلك هي القاعدة في حكم ستيفن، بأن يلجأ القادة الكنسيون إلى رئاسة الكنيسة في روما لحمايتهم طالما لم يصبح الحاكم المدني قادرا على حمايتهم، والأكثر أهمية من ذلك أن الحياة الرهبانية أصبحت تزداد تأثيرا في الكنيسة الإنجليزية، فقد ازداد عدد الأديرة بشكل كبير، ولقد

(1) Sayles,op. cit; p.320 ; Davis,op. cit; p.177.

(2) Cma. Med. Hist,. vol. v, p.551.

وضع الملوك النورمانديون المثل الذي اتبعه النبلاء في تأسيس ووقف الأديرة، ثم عملية إدخال النظم الجديدة في هذه الأديـرة، والانتشـار السريع بالنظم السترشيانية· وكان هذا التزايد العددي يصـحبه زيـادة التأثير بسبب سرعة حركة الإصلاح، والذي ساعد فيها القادمون الجدد من الرهبان، وأصبح لهم وجود مهم في الكنيسة الإنجليزية، وأصبحت الأبرشيات والكاتدرائيات تحت السيطرة الرهبانية، وقد أعطـى هـذا نتائج أفضل عن طريق الإصلاح، وبسبب مجهودات كبـار الأسـاقفة والمفوضين البابويين وقرارت المجالس، وكل ذلك أدى إلـى جـذب التقاليد الإنجليزية وانصهارها مع غيرها من التقاليد الأخرى[1]·

ولقد ركز المصلحون جهودهم في هذه الأديرة بشكل خاص ضد الزواج الكنسي، والسيطرة على الكنيسة من خلال المـدنيين، ولكـن كانت النتائج قليلة، فقد استمر الكنسيون في الزواج[2]·

ولقد كان الكنسيون يورثون رتبهم للكنسية ذات الدخل لأبنـائهم، حيث يتعاملون مع الكنيسة لأنها من أملاكهم الخاصـة تـورث كمـا يورث الملك، وحملوا الكنيسة الأعباء الثقيلة للملكية، فإن الملك ينتظر أن يكون مرشحه مؤهلا في حقيقة الواقع، وكان علـى الأسـاقفة أن يخوضوا حربا شرسة للحصول على الاعتراف بهم وبحقهـم عنـدما يقومون بالتحقق من أهلية المرشح، وأن تبدل الكنسـيين بالأشـخاص المدنيين، فكان ذلك خطوة كبيرة للخروج عن تقاليد الكنيسـة، وكـان الأساقفة ككل لا يشجعوا على تلك التحولات[3]·

وعلى أية حال يذكر البروفيسور "ستنتون" في القرن الثـاني عشر أن مئات الكنائس الأبرشية في إنجلترا قد انتقلت إلـى السـلطة الكنسية، وهذا قد ساهم بشكل كبير في تحسن أوضـاع الكنيسـة، ولا

---

(1) Brook,op. cit; p. 186.

(2) Thatcher & Nceal,op. cit; p.135.

(3) Brook,op. cit; p.187.

يمكن أن ننكر أنها كانت ذا تأثير مباشر في وضع الأخيرة، والأكثر أهمية في حياة لكنسية بحيث تزداد في كل من التأثير الديني والدخل المادى، ويعني ذلك أمتداد البابوية[1].

***

تقييم عهد ستيفن :

وكان الملك يزعن إلى الفقدان التدريجي لسيطرته على الكنيسة، وعلى الصعيد السياسيى كان عليه أن يزعن كذلك في المسائل السياسية لتعليمات الكنيسة، فالأساقفه الذين أصبحوا على علاقة وثيقة بالبابوية، يمكنهم أن يتدخلوا في المسائل السياسية بشكل حاسم، وذلك نتيجة ضعف السلطة الملكية، والملك هو الذى أعطى لهم تلك الفرصة لكي يستغلوها لصالحهم[2]، ولم يستطع ستيفن أن يتخذ أي إجراء ضد الأساقفة الذين كانوا يمثلون خطورة سياسية على المملكة، ولقد كان هجوم الملك ستيفن على روجر أسقف سالسبوري وابن أخيه ألكسندر أسقف لنكولن هو الذي أدى إلى الصيحة بأن حرية الكنيسة قد انتهكت، وضاقت الكنائس كذلك بوجود هنري بلوا شقيق الملك على رأسها، وعدم تأييد الكنيسة للملك، كل ذلك أدى إلى هزيمة الملك[3].

إذا فقد تحققت حرية الكنيسة وفشل ستيفن تماما في المحافظة على الوضع الذي أقامه أسلافه، فقد دخل موفد البابا إلى المملكة بحرية تامة، وأصبح عقد المجامع الكنسية والانتخابات الكنسية خارج سيطرة الملك، وذلك على الرغم من منع الملك لذلك، لكن الأساقفة أطاعوا الاجتماعات البابوية، وأخذت الالتماسات والدعوات القضائية إلى روما دون الرجوع إليه، وانتهك الحق الخاص بالملك، فعلى أي شخص يعمل في السلك الملكي أن يقدم التماسه إلى البابا كأحد المبادئ

(1) Stenton , English Feudalism (1066-1166), Oxford, press, 1932 p.125.
(2) Davis,op. cit; p.177 ; Brook,op. cit; p.188.
(3) William of Malmesnury, Historia Novella, p.15.

الكاردينالية في جميع مجموعات القانون الكنسي، ولقد وضحت تلك الخطابات الأولى لجيلبرت فولوا، ولقد كانت أغلبية الحالات يتم تسويتها في المحاكم الإنجليزية، ولكنها قد ثبتت بحيث تستمر بدون إعاقة خلال السنوات الأولى من حكم الملك هنري الثاني الأنجو، وفي الحقيقة فإن موت كبير الأساقفة ثيوبالد، ويعتبر هذا الرجل -ثيوبالد- هو الذي حقق للبابوية انتصارات عديدة في إنجلترا، ورفع من شأنها في بلاده، وأصبحت الأوامر البابوية معترف بها، وكذلك الاعتراف به وبسلطته كمبعوث للبابا[1].

ولقد كان ثيوبالد ذا أهمية عظيمة في تاريخ الكنيسة الإنجليزية حتى أن التاريخ الهام بالنسبة للكنيسة الإنجليزية ليس موت الملك ستيفن، ولكن موت ثيوبالد كبير أساقفة كانتربري، ولقد كان هنري الثاني مدينا بحق للكنيسة الإنجليزية لتسهيلها وتأمينها لمن يأتي بعده، إلا أنها كانت سياسة أكبر من كونها لمسة وفاء، مما تسبب في أن ينتظر حتى وفاة ثيوبالد، ولقد بدا على رئيس الأساقفة أنه رجل هادئ، وبدون طموح شخصي، وخادم مطيع للبابا الذي أطاعه طاعة عمياء، وعرف منه تعاليم القوانين الكنسية[2].

والكنيسة الإنجليزية حصلت على حريتها من خلال فترة الفوضى السياسية، ويعلق أحد المؤرخين المعاصرين على هذه الفترة بقوله: "ليس هناك شك في أن مراسيم السموي البابوي أصبحت لها جذور في إنجلترا، وأن سلطة الكنيسة أصبحت أعظم مما كانت عليه من قبل، وركزت المراسيم البابوية على السموي البابوي، والسيمونية، وكذلك زواج رجال الدين"[3].

---

(1) Davis,op. cit; p.177.

(2) Brook ,op. cit; p.189.

(٣) كان يعتقد الكثير من المؤرخين المعاصرين إلى وقت قريب أن جريجوري السابع هو الذي كتب المراسيم البابوية سنة ١٠٩٠م، ولكنها كانت تختلف في الأمل، ففي سنة ١٠٨٧م قام الكاردنال ديزديدت -Deusdedit- بجمع

وفي سنه ١١٥١م مات الكونت جموفري الأنجو وتنازل لابنــه هنري عن لقب دوق نورماندي، ولم يعد صــغيرا، وأصــبح حــرا ويمكن أن يرعى شئون دوقيتة في فرنسا وكذلك مملكته في إنجلتــرا، وعاد إلى إنجلترا لكي ينتزع حقوقه فيها، وأجبر الملك ســتيفن علــى الموافقة على معاهدة ولنجفورد في سنه ١١٥٣م[١].

وأتاح هذا الاتفاق لستيفن أن يقضي بقية حياته في المملكة، وأن تعمل المملكه وفق مشورة هنري الأنجو، والذى كان من المقــرر أن يخلف ستيفن على عرش المملكة، وخاصه بعد موت ابنه ايوســتاس، ولم يعد هناك من يخلفه علــى العــرش الإنجليــزي ســوى هنــري الأنجو[٢].

ولم تهدأ حالة الفوضى السياسية إلا باعتلاء هــنري بلانتاجنت -Henry Plantagenet- (١١٥٤-١١٩٨) - ابن جيوفري الأنجــو وماتيلدا- عرش إنجلترا باسم هنري الثاني بمساندة وتأييد البابوية التي منعت الأساقفة من قبل منح التاج إلى ابن ستيفن ايوســتاس، والــذي توفي سنة ١١٥٣م وأبرمت المعاهدة السابقة، واعترف فيهــا ســتيفن بخلافة هنري له[٣].

وتوفي ستيفن سنة ١١٥٤م لينتهي بذلك آخر سلالة الفاتح، وإن كانت فترة حكمه وعلاقته بالكنيسة هى أضعف الفترات السابقة مــن منطلق إعطاء الكنيسة حريتها[٤].

-المجامع العديدة بشكل عام والتي عقدتها البابوية، وكتــب عليهــا المراســيم البابوية وإن كانت مستمدة من مبادئ وأقوال جريجوري السابع.

انظر في ذلك :

- Thatcher & Nceal,op. cit; p.135

(1) Davis,op. cit; p.179.

(2) Sayles,op. cit; p.322.

(3) Wiliamson,op. cit; p.41.

(4) William of New brugh, vol. ,1 ,p.31.

وتولى العرش الإنجليزي بعده هنري الثاني والذي دخل في نزاع مباشر في بداية حكمه مع البابا أدريان الرابع (١١٥٤-١١٥٩م) وارتكزت سياسة هنري على استعادة السلطة الملكية المطلقة كما حددها أسلافه[1].

□ □ □

---

(١) البابا أدريان الرابع (١١٥٤-١١٥٩م) هو البابا الوحيد الذي اعتلى عرش القديس بطرس، وهو ابن شماس فقير، وتسلق السلم درجة درجة عندما التحق بدير سانت رفوس بالقرب من فالنس في رون، ثم أصبح رئيسًا له، وكان اسمه الأصلي نيقولاس بريكسبير، وكان أسلوب حكمه ممقوتًا للكثيرين فاشتكوه للبابا يوجينوس الثالث فاستدعى انتباهه ورقاه إلى رتبة أسقف البانو في سنة ١١٤٦م، ثم بعث به في مهمة إلى إسكندنافيا، فحرر الكنيسة الاسكندنافية من اعتمادها على ألمانيا وأسس أسقفية تروندهيم، وفور عودته انتخب بابا، وكان رجلا ذا شخصية قوية وعلم غزير، وكان يفخر بمنصبه قائلاً: "إن تاج البابا عظيم لأنه متوهج توهج النيران"

انظر في ذلك:

- Cma. Med. Hist,. vol. v, p.514.

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في إنجلترا النورماندية

أولا : الزراعــــــــــــــــة

ثانيا : الإقطــــــــــــــاع

ثالثا : الصناعـــــــــــــة

رابعا : التجـــــــــــــارة

خامسا : مسح دومزدي ١٠٨٦م

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في إنجلترا النورمانية

يذكر آرثر أن التاريخ الاقتصادي يعني باختصار توضيح التقدم المادي بشكل أساسي[1]. والتنظيمات الاقتصادية وتطورها في التاريخ الإنجليزي وهي التي يقوم بها الأفراد في الدولة، وإن كان التاريخ الاقتصادي نافع ومفيد لكل شعب، وذلك للحصول على مورد الرزق، والارتقاء بالمجتمع لأفضل معيشة ممكنة، وإن كان هذا النشاط والفاعلية بدأ ببداية التاريخ، ولم يكن التدخل بشكل فردي ومستقل، ولكن كان العمل الاقتصادي عملاً جماعيا بكل أشكاله[2].

والحياة الاقتصادية في إنجلترا كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام وهي: الزراعة والصناعة والتجارة، ومن الناحية الزراعية استطاع وليم الفاتح إدخال تحسينات عديدة في هذا المجال، وعلى رأس هذه التحسينات ادخال نظام الأقاليم الزراعية في إنجلترا كنظام جديد[3].

والحقيقة أن إنجلترا كانت تتمتع وحدها في أوروبا بحكومة مركزية قوية مكنتها من فرض سيطرتها على كل أطراف القطر الإنجليزي، وبدون مواجهة عقبة كبار الإقطاعيين، وتمتعت بنظام اقتصادي عال بالنسبة لكل ولايات القارة الأوربية، ولكن صناعتها

---

(1) Arthur, An Economic History of the British isles, New York, 1957, p. 1.

(2) William Ashlay, the Economic organization of England, London, p. 1.

(3) Lipson (E..), the Economic History of the England the Middle Ages, vol. 1., London, 1937, p. 1.

وكذلك تجارتها لم تستفد من هذه الظروف السابقة، وحتى منتصف القرن الرابع عشر ظلت قطرا زراعيا رئيسيا باستثناء مدينة لندن التي تردد على مينائها تجار من القارة الأوروبية[1].

***

أولا : الزراعة

تطور الزراعة ونمو الأقاليم:

تطورت الزراعة في أوروبا خلال العصور الوسطى، فازداد الإنتاج الزراعي ازديادا ملموسا، كما حلت العلاقات الإقطاعية مكان العلاقات العبودية التي كانت سائدة في العصور القديمة، وهذا الانقلاب الاقتصادي والاجتماعي أفضى إلى زيادة الإنتاج الزراعي، فالفلاح الذي يستثمر أرض الإقطاعي مقابل حصوله على حصة من إنتاجها، صار يضاعف جهده من أجل زيادة الإنتاج، إذ كلما ازداد الإنتاج ازدادت معه حصته الخاصة[2].

أما العبد الذي يشتغل في أرض المالك الكبير في العصور القديمة مقابل حصوله على قوت يومي ضئيل، فلم تكن له مصلحة شخصية في زيادة الإنتاج، لذا كان يهمل عمله عندما تبتعد عنه أعين المراقبين، بالإضافة إلى تبدل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، فقد ازدادت مساحة الأراضي الزراعية في أوروبا نتيجة استصلاح الغابات والمروج والأراضي البور من جهة، وتطور الأدوات الزراعية من جهة أخرى[3].

---

(١) هنري بيرين : المرجع السابق، ص ١٤٦.

- Sayles, op. cit., p. 313.

(2) Esme, op. cit., p. 125.

(3) Lipson, op. cit. p. 19; Arthur, op. cit., p. 47.

والزراعة في إنجلترا في عهد النورمانديين كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام في الشمال، والوسط، والجنوب، وأخصبها على الإطلاق في الجنوب والوسط، أما الشمال فلم يكن يصلح للزراعة[١].

نظام الدورة الزراعية في إنجلترا:

وجرت العادة في القرن الحادي عشر والثاني عشر على أن تقسم الحقول الزراعية في البلاد كل عام إلى نصفين يترك أحد النصفين بور ويزرع النصف الآخر، وفي العام التالي تزرع الأرض البور، والأرض المنزرعة تترك بورا وهكذا، ولكن النظام السائد في إنجلترا النورماندية هو أن يترك ثلث الأرض بدون زراعة كل عام ويزرع ثلثها قمحا، والثلث الآخر شعير.

ونظام "الحقول الثلاثة" يرجع إلى النورمانديين، لأن النظام السائد الأول في إنجلترا كان هو نظام الدورتين الزراعيتين، وأدخل عليها النورمان نظام الحقول الثلاثة، وفي منطقة الأراضي الوسطى والجنوبية عند خط ويتلينج -Watling- كان يتبع نظام الحقلين، أما في الشمال كان نظام الحقول الثلاثة هو المتبع[٢].

---

(١) دخلت الأقاليم إنجلترا عن طريق الفتح النورماندي، والذي أدخلها هو وليم الفاتح في أنظمته الاقتصادية الجديدة في إنجلترا ويعني ذلك أنها لم تكن موجودة من قبل في إنجلترا، ولم يكن معمول بها في نورمانديا، ويعتبر النورمان أول من فكر فيها وأدخلها إلى إنجلترا، على الرغم من أن تفكير القارة الأوربية فيها كان متأخرا، وعلى كل حال فقد دار جدل من المؤرخين حول هوية الأقاليم.

انظر في ذلك:

- Lipson, op. cit., p. 1; William Ashlay, op. cit., p. 8.

(2) Arthur, op. cit., p. 48; Mowat, op. cit., p. 52.

وهذا الجدول يبين بوضوح الدورات الزراعية(١).

المسلسل	عدد الدورات	الحقل الأول	الحقل الثاني	الحقل الثالث
١	الدورة الأولى	قمح	أرض متروكة	شعير
٢	الدورة الثانية	شعير	قمح	أرض متروكة
٣	الدورة الثالثة	أرض متروكة*	شعير	قمح

وكانت توجد في إنجلترا محاصيل رئيسية نمت في الأقاليم الزراعية ومنها القمح، والشعير، والحنطة، والبازلاء، والجاودار (لوبيا – فاصوليا – فول)، والبيقة – نبات علف للمواشي، والمحاصيل الجزرية مثل اللفت البلدي واللفت الأصفر لتغذية المواشي(٢).

ونظراً لأن الأراضي الزراعية في إنجلترا عبارة عن شرائح رفيعة وطويلة، فكان على الفلاحين أن يتعاونوا معا عن طريق ضم الأراضي بعضها إلى بعض، وكانوا يستخدمون محراث واحد وثيران واحدة في العمل، وبعد حرثها يتركون ثلثها بورا ويزرعون الثلثين الباقيين معا، ويقومون بعد ذلك بتقسيم الأرض ووضع الحدود كما

(1) Arthur, op. cit., p. 47; Esme, op. cit., p. 126.

* الأرض المتروكة هي الأرض التي تحرث ثم تترك موسما كاملا بدون زراعة لراحتها لكي تزرع في العام التالي وهكذا.

(2) Arthur, op. cit., p. 48.

كانت، ثم يقومون ببذر الحبوب في الأرض معا ويعملون بهــا ســويا حتى الحصاد[1].

والحيوانات التي كانوا يعتمدون عليها بشــكل أساســي هــي الثيران، والتي كانت تقوم بمجهود كبير للفلاح فــي حــرث الأرض، بالإضافة إلى الأغنام والخنازير، والتي كانــت تعتبــر غــذاء هامــا للسكان، وكانوا يعتمدون بشكل كبير على الخيــول، وعنــدما يمــوت الحصان أو يمرض كان نشاط الرجل الإنجليــزي يتوقــف، وكانــت حيوانات الفلاح من ثور وخنزير وماشية يتبعون الفلاح في الحقــول حيث المروج الخضراء والمراعي، وكان يحصل منهم علــى الغــذاء حيث كانت الخنازير والأبقار والماشية هي مصدر اللحوم، والماشــية يأخذ منها منتجات الألبان وكذلك الأصواف، أما لحم الخنزيــر فهــو غذاء السادة من الطبقة الأولى في إنجلترا[2].

وكانت الأقاليم الواسعة تخص كبار الإقطاعيين، في حين كــان الفلاحون يحصلون على أراضي من الإقليم عن طريق الإيجار، مــع العلم أن هذه الأقاليم كانت ملك خاص للملك، وهو الذي قام بتوزيعهــا على اللوردات وقام اللوردات بتوزيعها على كبار المستأجرين الــذين قاموا بتأجيرها إلى الفلاح، وكانت هذه الأقاليم متحــدة مــن الناحيــة الإدارية في البلاد ويذكر " أشلاي " أن اثنين من أقارب وليم الفــاتح كانوا قد حصلوا على أكثر من أربعمائة إقليم، وإن كان هناك شك في هذا العدد الضخم من الأقاليم[3].

---

(1) Mowat, op. cit., p. 52; Coulton, op. cit., p. 282.

(2) Arthur, op. cit., p. 50.

(3) William Ashloy, op. cit., p. 8; Mowat, op. cit., p. 53.

ظهور الإقطاع :

كان ملاك الأراضي يؤجرون مساحات واسعة من ممتلكاتهم إلى الفلاحين، وأصبح هؤلاء الفلاحون مستأجرين من الباطن، لأن الأرض ملك للملك، وكانوا في أسفل الطبقات الاجتماعية، حيث أن البارونات الأقوياء أعطوا هذه الأقاليم للفرسان مقابل الخدمة العسكرية، وأعطى الفرسان بدورهم هذه الأراضي للمستأجرين، والذين بلغ عددهم حوالي ثمانية آلاف مستأجر من الباطن، ومع تطور هذه العملية أصبح المستأجرون يعملون كجنود لمدة أربعين يوما ويقدمون الخدمات إلى سيدهم اللورد(١).

وقد تنوعت الطبقات الزراعية في مسح دومزدي وشمل المسح المستأجرين في الأقاليم، ووردت هذه الطبقات في المسح سنة ١٠٨٦م مع بيان علاقاتها بالمجتمع الإنجليزي في القرن الحادي عشر، وكانت تلك الطبقات كالتالي(٢):

المسلسل	الطبقات	الإجمالي	النسبة المئوية
١	أقاليم اللوردات	٩٠٢٧١	٣٫٥%
٢	المستأجرون الأحرار	٣٥٠٥١٣	١٢%
٣	الفلاحين النصف أحرار	١٠٨٠٤٥٦	٣٨%

(1) Jounson, op. cit., pp. 34 – 35; Keith (F.), Ahistory of England, London, 950, p. 99

(2) Arthur, op. cit., p. 53.

المسلسل	الطبقات	الإجمالي	النسبة المئوية
٤	الفلاحين الذين يسكنون الأكواخ	٨٨٠٩٥٢	%٣١٠٥
٥	العبيد	٢٦٠٣٦٢	%٩
٦	مواطني المدن	٦٠٩٦٨	%٣٠٢٥
٧	المجموعة الباقية	٥٠٢٩٦	%١٠٧٥
الإجمالي		٢٨١٠٨١٨ [١]	

وكانت الإقطاعية في إنجلترا العصور الوسطى أساس النظام الاقتصادي[٢].

وكان يعمل بالإقطاعية الواحدة ثلاثة موظفين زراعيين رئيسيين، وكانت اليد اليمنى للسيد المالك هو وكيل أعماله أو نائبه، والذي كان يتصدر الجلسة في محكمة السيد الإقطاعي، ولم يكن يقل عن كبير القضاة – Preepoitus – الذي ينتخب سنويا باعتباره ممثلا رسميا عن المستأجرين، ولكن هذا الممثل كان في الواقع يحاول المحافظة على مصالح السيد مثلما يفعل وكيل أعماله، أما الموظف الثاني فهو موظف الإبرشية – Hayward – والذي يحفظ الدريس ويقوم بمنع الحيوانات من التسلل بين السياج إلى حقل الدريس أو

(١) إجمالي السكان كما ذكرها مسح دومزدي سنة ١٠٨٦م كان يبلغ تقريبا حوالي ١,٧٥ مليون نسمة.

- Lioyd, op. cit., p. 117.

(2) Arthur, op. cit., p. 48.

الحبوب أو إلى غابة أي شخص آخر، ويسوق أي ماشية شاردة إلى حظيرة القرية، أما الموظف الأخير فهو كبير الفلاحين الذي كان من شروط تعيينه في وظيفته "أن يحمل عصاه رافعا إياها فوق رؤوس عمال الحصاد"[(١)].

وكان القائمون على الزراعة في إنجلترا يضعون خطة لتقسيم الأرض إلى مساحات في المدن الإنجليزية، وقامت المدن بدورها بتقسيم الأرض حسب منزلة اللوردات، واللوردات يوزعون هذه الأراضي على المستأجرين[(٢)].

تقسيم الأراضي الزراعية في المدن والمقاطعات الإنجليزية:

وكان تقسيم الأراضي في المدن أو المقاطعات على النحو التالي:

مقاطعة إيوبيبنورام – Eorpeburnam – وكانت تمتلك من الأرض حوالي ٣٢٤ فدان، وشستر ١٥٠٠ فدان، وبور تشيستر ٥٠٠ فدان، وثوسها مبتون –Sothampton– ١٥٠ فدان وبالمثل شافتيسبري، وتوتيلهام –Twyneham– ٥٠٠ فدان، ووارهام –Wareham– ١٦٠٠ فدان، وبريدبورت – Bridport – ٧٦٠ فدان، وإكستر ٧٣٤ فدان، وهال ول ٣٠٠ فدان، وليدفورد – Lidford – ١٥٠ فدان، وبيتون – Piton – ٤٠٠ فدان، ووإتشت – Watchet – ٥١٣ فدان وإكسبريدج – Axbridge – ٤٠٠ فدان، ولينج – Lyng – ١٠٠ فدان ولانجبورت – Langport – ٦٠٠ فدان، وباث – Bath – ١٠٠٠ فدان، ومالمسبوري Malmesbury

(١) كولتون : المرجع السابق، ص ٥٠.

(2) Arthur, op. cit., p. 50; Esme, op. cit., p. 128; Mowat, op. cit., p. 53.

١٢٠٠ فدان، وكريكلاد – cricklade – ١٤٠٠ فـدان، وإكسـفورد ١٥٠٠ فدان، وولنجفورد ٢٤٠٠ فـدان، وبكنجهـام ١٦٠٠ فـدان، وساشـيز – Sashes – ١٠٠٠ فـدان، وإيشـينج – Eashing –، وسوثورك ١٨٠٠ فدان[١].

ومن أجل صيانة والدفاع عن عرض فدان واحد تم تحديد رجل واحد له للدفاع عنه وصيانته، ومن أجـل صـيانة والـدفاع عـن ٢ فورلونج* تم طلب ٣٢٠ فدان، ومن أجل صيانة ٣ تـم طلـب ٤٨٠ فدان، ومن أجل صيانة ٤ تم طلب ٦٤٠ فدان، ومن أجل صيانة ٦ تم طلب ٩٦٠ فدان، ومن أجل صيانة ٧ تم طلب ١١٢٠ فدان، ومن أجل صيانة محيط ٨ فورلونج تم طلب ١٢٨٠ فدان، ومن أجل صـيانة ٩ فورلونج تم طلب ١٤٤٠ فدان، ومن أجل صيانة ١٠ فورلـونج تـم طلب ١٦٠٠ فدان، ومن أجل صيانة ١١ فورلونج تـم طلـب ١٧٦٠ فدان، ومن أجل صيانة ١٢ فورلونج تم طلب ١٩٢٠ فدان، وإذا كـان المحيط أكبر فإن الكمية الإضافية يمكن بسهولة أن نستنتجها من هـذا الحساب[٢].

---

(1) Barrow & Edward, op. cit., pp. 157 – 158.

* - فورلونج Furling : وحدة قياس تساوي ٢٢٠ ياردة مربعة.
- الهايد Hide : هو مقياس للأرض الزراعية يساوي ١٢٠ فدان.
- الأكرا Acre : مقياس للأرض يساوي ٤٨٤٠ ياردة مربعة.
- بول Pole : وحدة قياس تساوي ٥,٥ ياردة مربعة.

انظر في ذلك:

- Barrow & Edward, op. cit., p. 157.

(٢) من أجل صيانة والدفاع عن ١ فورلونج تم طلب ١٦٠ فدان، يعني ذلك أن كل ٢٢٠ ياردة تم تخصيص ١٦٠ فدان لها للإنفاق من دخلهم على عمليات الصيانة والدفاع.

انظر في ذلك : =

جمع الضرائب:

كانت الضريبة التي تفرض على الفدان ضريبة ثقيلة على المواطنين، وقام الملك وليم بزيادة تلك الضريبة في سنة ١٠٨٤م وأصبحت قيمتها ٦ شلنات كاملة في السنة، وكان ذلك عبئا على المواطنين وتم زيادتها بعد المسح إلى ١٢ شلنا كاملة، علما بأن ثمن الثور في ذلك الوقت كان شلنان فقط، وكان المبلغ المجموع من هذه الضريبة قبل مجيء وليم أيام الدانيين حوالي ثلاثين ألف جنيه إنجليزي في العام[1].

وكانت إنجلترا مقسمة إلى أقاليم أو مقاطعات، ويكون توزيع الضرائب الخاصة بالتاج على هذا الأساس.

وذكر كتاب يوم القيامة الخطوط المميزة لدافعي الضرائب، فقد كان الفلاحون النصف أحرار في النظام الإقطاعي يدفعون ضريبة الدانجلد إلى السيد اللورد، وكان اللورد مسئولا مسئولية كاملة أمام التاج عن دفع هذه الضريبة، بينما كان الأحرار الذين يتمتعون بحق

- Barrow & Edward, op. cit., p. 158.

(١) كانت ضريبة الدانجلد التي فرضها الدانيين على الشعب الإنجليزي لمواجهة نفقات البلاد، والأقاليم الزراعية، والدفاع، حيث كانت تصدر وتجمع بمرسوم ملكي لخدمة الأغراض المتنوعة في البلاد وأوردتها الحوليات الأنجلو – السكسونية التالية:

١- في عام ١٩٩١م ١٠٠٠٠ جنيه   ٢- في عام ١٩٩٤م ١٦٠٠٠ جنيه
٣- في عام ١٠٠٢م ٢٤٠٠٠ جنيه   ٤- في عام ١٠٠٧م ٣٠٠٠٠ جنيه
٥- في عام ١٠١٢م ٤٨٠٠٠ جنيه   ٦- في عام ١٠١٤م ٦١٠٠٠ جنيه
٧- في عام ١٠١٨م ٨٢٠٠٠ جنيه

ووضعها الملك كانوت بدقة.

انظر في ذلك:

- Lipson. op. cit., pp. 15 – 16; Freeman, op. cit., p. 126.

إقامة العدل والقضاء بين المواطنين في إنجلترا يدفعون هذه الضريبة إلى الملك مباشرة[(١)]. وكان الفلاحون النصف أحرار يدفعون غرامات تصل قيمتها إلى أربعين شلنا وذلك في عهد الملك هنري الأول، وذلك عن طريق محاكم الأقاليم، وهي خاصة باللوردات في أقاليمهم يوقعون الغرامات حسب مشيئتهم[(٢)].

وكانت هناك ضريبة العشر –Tithes– وكانت خاصة بالدولة والكنيسة معا، فالدولة تفرض العشر على ما تخرجه الأرض من زراعة، والعشر على الماشية، وكانت ضريبة ثقيلة على المزارعين وكذلك ضريبة جزء من العشر – Tenthe part –، أما الكنيسة فيبدو أن العشور في إنجلترا كانت تذهب إلى القس إن لم يكن للكنيسة نفسها، وكان أداء هذه العشور هو أساس دخل الكنيسة، وكان السادة اللوردات يختلسون نصيبهم من تلك العشور، وإن كانت الكنيسة قوية بسبب حماية وليم الفاتح وخلفائه لها، وكانت هذه الضريبة ثقيلة على الفلاحين الأحرار والفلاحين النصف أحرار[(٣)].

وفرض الملك وليم ضرائب خاصة على الحرفيين نظراً لإزدياد دخلهم عن الفلاحين النصف أحرار في النظام الإقطاعي، فالمرأة التي تعمل في حانة خمر تدفع ضريبة مقدارها ١٠ سنتات، والحداد الذي يقوم بعمل ١٢٠ قطعة حديد مثل حدوة الفرس يدفع ضريبة ٣ سنت، وكذلك سكاكين العملة وكان منهم واحد خاصا بالأساقفة، وكانوا يحصلون على ١٨ سنت عن وفاة أحدهم، ولكن في جمع الضريبة تحصل الدولة منهم على ٢٠ سنتا، وكذلك الهجوم على لجان مرسلة من قبل الملك تفرض غرامة تصل إلى ١٠٠ سنتا، والفرنسيون

(1) Lipson, op. cit., p. 17; Brial & Blakeley, op. cit., p. 36.
(2) Mowat, op. cit., p. 53.
(3) Lipson, op. cit., p. 18.

البرجوازيون كانوا يدفعون ١٢ سنتا، ومصادرة أموالهم كان شيئا متوقعا لو أخلوا بالنظام العام[١].

والحقيقة أن الضرائب التي كان يفرضها الملوك على أصحاب الحرف كانت تقديرية وليست ثابتة؛ مثل ضرائب الفلاحين النصف أحرار التي كانت عبارة عن ٦ شلنات، فحين نجد أنه على سبيل المثال في مدينة ليمنستر، والتي كان يقيم بها الملك وليم والملكة إديث، كانت هذه المدينة تملك حوالي ٨٠ هايد، وإيجار ٣٠ محراث للأرض، و ٨ مناطق ريفية، و ٨ شمامسة، ٨ فرسان، و ٢٣٨ قرية، ٧٥٢ من أفراد الحاشية، ٨٢ عبد وجارية، وكل محاريث القرية ٢٣٠ محراث. وأرض اللوردات مساحتها ١٤٠ أكرا، وزراعة الحبوب هي الحرفة الأساسية لهم ويدفعون ١١ جليها و ٥٢ بنس، والفرسان يدفعون ١٤ بنس ضرائب، وصائدي الأسماك وكذلك ضرائب الغابات يدفعون ١٤ بنس كذلك. والأقاليم الخاصة بالملك تبلغ ٦٠ هايد، ومحاريثه ٢٩ محراث، و ٦ من الكهنة، ٢٢٤ قرية وعدد كبير من الماشية، ٢٥ عبد وأمة ن وكانوا يدفعون ٧ دنيهات، و ٨ بنسات، وتدفع منهم صائدي الأسماك ٨ بنسات، وتدفع الطاحونة كذلك ٨ بنسات ويدفعون ٥ شلنات لشراء الأخشاب في دريتش – Droitwich – وكل قرية تمتلك ١٠ خنازير تعطي خنزيرا واحدا إلى أرض الغابة الملكية[٢].

تدهور حالة الفلاح الاقتصادية:

إننا بأقل مجهود ندرك دورة النظام الزراعي القديم ونعرف المحاصيل الزراعية التي كان يزرعها ملاك الأرض أو دورهم في

---

(1) Brial * Blakeley, op. cit., p. 38; Prter (B.) & Brian (s.), Regional History of England the South East from A. D. 1000, London, 1988, p. 32.

(2) Bial & Blakeley, op. cit., p. 39.

تحسين الأدوات الزراعية، وذلك مع تقديرنا لكفاءتهم المحتملة، فإن الأرض الزراعية الرئيسية التي كانت تحت أمر الكنيسة والنبلاء لا تورد أكثر من عائد طفيف، وسوف يكون من المهم رغم أنه مستحيل أن نكشف قدر المال الذي ادخره الفلاحون من عملهم في هذه الإقطاعيات التي لا يزرعها مستأجروها من أجل الربح، وبعد العمل لعام كامل لمدة من يوم إلى ثلاثة أيام في الأسبوع على عقار السيد، وبعد دفع الضرائب الاعتيادية بشكل أرهق أرضهم، لابد وأن يكون هذا المال قليلا إذا كان هناك مال أصلا[١].

وكان هذا المال القليل يكفي الطبقتين الأخريين، حيث كان المجتمع الإنجليزي مقسم إلى ثلاث طبقات؛ المحاربون الذين يدافعون عن البلاد، ورجال الدين المسيحي الذين يصلون من أجل إرضاء الرب، والطبقة الأخيرة وهم الفلاحون الذين يعملون من أجل إطعام رجال الدين والمحاربين، وإن كانت طبقتهم في الدرك الاجتماعي الأسفل في المجتمع الإنجليزي[٢].

وفي القرن الثاني عشر لم يكن هناك تناسب بين عدد السكان، وذلك لزيادة عدد المواليد عن الوفيات، ولقد أجبر تزايد عدد السكان على ترك الأرض المستأجرة والبحث عن وسائل للمعاش، وعلى الخصوص فإن صغار النبلاء الذين ورثوا الإقطاعيات عن أجدادهم الذين ناءوا بحمل الأعباء، مثل الذين رافقوا الدوق وليم الفاتح في حملته على إنجلترا، وتكفل بمطالبهم الإقطاعية وازدادت الهجرة من الريف إلى المدن الناشئة، وظهرت طبقة التجار والصناع الجدد التي قامت دون زيادة ملحوظة في عدد السكان، ولم تلفت النظر إلا في

---

(١) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(2) Lipson, op. cit., p. 22.

نهاية القرن الثالث عشر، ونتج عن ظهورها البحث عن مستعمرات وأقاليم جديدة للعيش[(١)].

وكان العمل في هذه الأقاليم متماسكا وأكثر انتظاما في الحياة المحلية التي أظهرها النورمان في إنجلترا، وطبقت في دقة تحت إشراف وكلاء الملك، ولم يكن الفتح النورماني مثيرا ومفاجئا فحسب، ولكن كانت حياته قصيرة وحوادثه مترابطة في التاريخ الإنجليزي، وأظهر ذلك تطور الأقاليم الزراعية في إنجلترا[(٢)].

ولقد بدا أن طرق الزراعة ظلت ثابتة، وأن استخدام السماد كان غير معروف ما عدا الأراضي القليلة في المناطق المتميزة، وظل الناس في كل مكان يلتزمون تماما بنظام المناوبة في الزراعة التقليدية. ومع أن كثيرا من عبودية الأرض قد استحدثت، فإن المزارع ظل تابعا للتنظيم الكنسي وللعشور وللنبلاء، وخضع الفلاح للتعسف والقهر والذل ولم تستطيع الحكومة حمايته، وكل ما يوضع في الإعتبار هو أن جمهور الريف الذي يمثل الأغلبية في الناحية السكانية، قد لعب دورا سلبيا خالصا في هذا الخصوص، ولم يعد للفلاحين المقهورين مكان في التسلسل الاجتماعي الطبقي[(٣)].

---

(١) بعض هذه الأقاليم كانت قد وجدت صعوبة في إطعام سكانها، فمن المعروف أن الفلمنك قد جند منهم مجموعة في حملة وليم الفاتح، وذلك في سنة ١٠٦٦م لغزو إنجلترا، وعندما انتهت الحملة بقوا في إنجلترا حيث تبعهم هناك فريق من أقوامهم خلال مائة عام، وبعد قليل زود هذا الإقليم الحملة الصليبية الأولى بأحد أقوى جيوشه، وجند منهم عدد كبير من المرتزقة الذين لعبوا دورا عسكريا هاما في القرنين الحادي عشر والثاني عشر تحت إسم – Geldugi - انظر في ذلك:

- هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٧١ – ٧٧.

(2) Lipson, op. cit., p. 26.

(٣) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٨٦.=

ثانيا : الإقطاع في إنجلترا النورماندية

لم يكن العصر الإقطاعي عصرا منفصلا عما سبقه أو لحقه من العصور، ويذكر "ميتشول" أنه من الخطأ القول أن وليم الفاتح هو الذي أدخل النظام الإقطاعي إلى نورماندي أو إنجلترا، لأنه كان معروفا للقارة الأوروبية من قبل ذلك، ولكن هذا النظام دخل المرحلة المثالية في عهده، فقد أدخل تطورات جذرية أصبح بمقتضاها وليم الفاتح هو المالك الوحيد لكل الأراضي الإنجليزية[1].

وبعد أن ظفر وليم الفاتح بإنجلترا، وأخضعها تماما لسلطته، أعلن وليم عن طريق الفتح أن كل أراضي القطر الإنجليزي تخصه وحده، وإن كان الشعب الإنجليزي قبل الفتح ينظر إلى هذه الأراضي على اعتبارها من ممتلكاتهم الخاصة[2].

وقام وليم الفاتح بوضع يده على جميع الأراضي تقريبا، فيما عدا بعض الإقطاعيات التي تملكها الكنائس والمعابد، واستطاع أن يكافئ الذين اصطحبوه في عمليات الفتح بتقسيم الأراضي عليهم، ثم قسموا هذه الأراضي بدورهم على أتباعهم على هيئة إقطاعيات صغيرة نظرا لما قدمه الفرسان لسادتهم؛ وكان وليم قد احتفظ لنفسه بالأراضي الأفضل والأكثر دخلا مما كان يتمتع بها أي ملك إنجليزي من قبل[3].

وقبل الاسترسال في الحديث عن النظام الإقطاعي، كان لابد أن نوضح من الناحية السياسية والقانونية أن دوق نورماندي كان فصلا

= - Mitchell, op. cit., pp. 84 – 85.

(1) Mitchell, op. cit., p. 31; Williamson, op. cit., p. 12.

(2) Williamson, op. cit., p. 12.

(3) Dietz, op. cit., p. 35; Peter & Brian, op. cit., p. 34.

إقطاعيا للملك الفرنسي، وتربطه به الالتزامات المتعلقة بالخدمة الإقطاعية والنابعة من دوق نورماندي، والذي يرتبط بقسم الولاء للملك الفرنسي، وتحمل تناقضات خطيرة بين ما هو نظري وما هو واقع فعلي، فقد كان ملك فرنسا في القرنين العاشر والحادي عشر سيدا على كبار الأمراء الإقطاعيين، بيد أنه لم يكن يتمتع بأي سلطان حقيقي على أفصاله من الدوقات والكونتات، لأنه لم يكن هو السيد الأعلى على أفصالهم الصغار، ولم تكن له أي سيطرة حقيقية عليهم على الرغم من أنهما يتبعانه من الناحية الاسمية، وغدت مسألة الخضوع والتبعية مسألة شكلية إلى حد بعيد حينذاك، ووضع وليم وهو دوق أكثر قوة من ملك فرنسا نفسه، كما أن الفرسان النورمان لم يعترفوا إطلاقا بأن الملك الفرنسي هو سيدهم الأعلى.

ومن الناحية العملية لم يكن ملك فرنسا –سواء كان من الكارولنجيين أو من أسرة كابيه بعد سنة ٩٨٧م هو الآخر– أكثر من مجرد دوق باريس[١].

وأصبح هذا الدوق ملكا لأعظم وأقوى دولة في أوروبا وخاصة في الغرب، وأحكمت إنجلترا سيطرتها على معظم موارد القارة الأوروبية[٢].

وقام الملك وليم بعقد اجتماع عظيم في سالسبوري في أغسطس سنة ١٠٨٦م ودعا إليه كل ملاك الأراضي – Landowners – والأمراء وألزم وليم الفاتح الجميع بأداء يمين الولاء المباشر له دون

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٢٨٢، محمد محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٤٥ – ٢٤٦.

(2) Davis, Documents Europe, op. cit., p. 31.

واسطة "قسم سالسبوري" The Oathe Salisbury – وهـذه مسـابقة وميزة تميزت بها الملكية الإنجليزية دون سواها في الأقطار الأوربية الأخرى في العصور الوسطى[١].

وذكر بعض المؤرخين أن هذا القسم كان مقدمة لدخول النظام الإقطاعي لإنجلترا على يد وليم الفاتح وأتباعه، وكان ذلك تأكيدا على هيمنة وليم على الملكية وتأكيد للنظام الإقطاعي رغم المشـاكل التـي كانت تواجهها المملكة، ويمكن القول أن وليم أراد للنظام الإقطاعي أن يكون نظاما ملكيا[٢].

حتى أن المؤرخ – جدوين سمث – ذكر أن وليم قسم الأراضي الإنجليزية بعد الفتح كالتالي: خمـس الأراضـي الإنجليزيـة تحـت سيطرته، وربع الأراضي لأتباعه المقربين مـن النورمـان، وربـع الأراضي للكنيسة الإنجليزية، والجزء الباقي للبارونـات الفرنسـيين والذين قاموا بعملية الفتح معه، فكان ذلك مكافأة لهم، وترك وليم القليل من الفتات للعائلات الإنجلترية، وهذه العائلات الصغيرة حافظت على أراضيهم وثقافتهم في القارة الأوربية[٣].

وازدادت نفوذ هذه الطبقات في القرن الثالث عشر مثل أسـر نوفيـــل –Nevilles– كرومويـــل –Cromwells– بيركلـــي –Berkeleys– كرستكي – Creystokes – ليملـــي – Lumleys – فيتزوليم – Fitzwilliams – أوديلي – Audleys – وكـان أصـل هذه العائلات من الأنجلو – سكسون وبقيت أسماؤهم كذلك[٤].

---

(1) Freeman, op. cit., p. 26; Lioyd, op. cit., p. 127.

(2) Petit Dutailis, op. cit., p. 62.

(3) Gdwin Smith, op. cit., p. 61.

(4) Gdwin Smith, op. cit., p. 61.

سيطرة الملك على الأراضي:

وكل من قاوم الملك من البارونات الإنجليز قام الملك بمصادرة أراضيهم وأملاكهم وتوزيعها على أتباعه من النورمان على هيئة منحة من الملك، وكان وليم رجلا ذكيا، فقد راعى في توزيع الإقطاعيات عدم تمركز هذه الإقطاعيات في منطقة واحدة خوفا من نفوذ أصحابها[١].

وجعل وليم حق التملك للإقطاعيات في إنجلترا –كما في نورماندي– من حقوق التاج مباشرة مقابل الخدمة في الجيش الملكي كي تظل كلمة الملك هي العليا، وكي لا تصبح شئون الحكم في الدولة وقفا وعلى الإقطاعيين يوما من الأيام، واستند في ذلك كله إلى حق الفتح، والذي أصبح الملك فيه مصدر السلطات جميعا[٢].

والحقيقة أنه في القرن الحادي عشر والثاني عشر نرى أن الحكومات المركزية في غرب أوروبا عامة وإنجلترا خاصة صارت في حكم المعدوم، وأصبح ولاء الجماعات للأشخاص دون الحكومات، فأصبح الملك وليم مالكا للأراضي والحكم معا، فنشأت من هنا علاقة السيد بالمسود، وقوامها عدد من تعهدات مشتركة والتزامات متبادلة بين الطرفين، حتى أصبحت تلك العلاقة هي القاعدة السائدة التي تسير على مقتضاها أمور الحكم والأمن التي تتطلبها البلاد[٣].

---

(1) Cam. Med. Hist., Vol. v, p. 506.

(2) Travalyan, op. cit., p. 34.

(٣) كان التابع يذهب إلى السيد وهو أعزل حاسر الرأس، ويركع أمام الملك ويضع يده على السيف ويقسم يمين الإخلاص والولاء لسيده، ومن الآن وصاعدا أصبح يخدم سيده ويفديه بحياته ويحمي شرفه، ثم يقوم بعد ذلك بتقبيل يد سيده، أما النبلاء فكانوا يركعون حاسري الرأس ويقبلون خد الملك دليلا منهم على الخضوع والولاء والطاعة.=

ومما تجب ملاحظته أن حكومة إقطاعية نموذجية لم توجد في دولة من الدول إطلاقا في العصور الوسطى، وأن كل ما لدينا من ذلك لا يعدو جملة من الأمثلة العملية الدالة على خصائص الحكم الإقطاعي فحسب، مع العلم بأن النظام الإقطاعي بدأ في ألوان مختلفة باختلاف البلاد والأحوال التي نشأ فيها، إذ طبعته أيدي النورمان القوية بطابع خاص(١).

ولم يكن يوجد في ذلك العصر جيش قومي، وعندما كان يحتاج الملك إلى جيش كان يرسل في استدعاء البارونات، وكل واحد منهم يعمل على تسليح عدد معين من الفرسان، ويجعلهم في خدمة سيدهم وهو على رأسهم، ويلاحظ أن هذا الجيش الضخم الذي كان يتكون للملك من هؤلاء الرجال، كان يعد لهم أفضل الخيول حتى يستطيعوا خوض المعارك، وكل بارون يخرج للحرب كان يمتلك قطعة من الأرض، والملك هو المسئول الأول عن توزيع هذه الأرض(٢).

ولم تكن طبقة البارونات الإقطاعيين سوى نسبة عددية ضئيلة من المجتمع الإقطاعي الذي انحدر معظم أهله من ذراري طبقات الأتباع، ففي أثناء القرون التي استغرقتها مرحلة النمو الإقطاعي جرى كثير من الانخفاض والارتفاع بين تلك الطبقات، حتى أصبح معظم أهل الريف في القرنين الحادي عشر والثاني عشر يعيشون في حالة انتقالية بين الحرية والرق، وهي الحال التي عرفت باسم القنية –Sorfdom– فالقن على وجه العموم فلاح قراري يعيش على قطعة

= انظر في ذلك:

- Williamson, op. cit., p. 13; Canter (N. F.), op. cit., p. 167; Davis, Documents Europe, op. cit., p. 17.

(١) و. كوبلاند – ب. فينوجرادوف: المرجع السابق. ص ٢٤.

- Esme, op. cit., p. 124.

(2) Williamson, op. cit., p. 13; Mowat, op. cit., p. 45.

من الأرض يمنحها إياه سيده متملك الدومين، وهو مربوط إلى هذه القطعة من الأرض، فلا يملك الحرية في الانتقال عنها، وليس له أن يؤدي واجبات تبعية بالخدمة في أرض هذا المتبوع وتقديم جزء من غلته له، بالإضافة إلى أنه ظل يباع ويشتري ويبدل بغيره حسبما يشاء ممتلك الدومين، ولم يسمح السيد للقن أن يترك أرضه كذلك، ولم يرغب القن في تركها لأنها المورد الوحيد لمعيشته[1].

ويذكر – بيرين – أن حقوق السيد تقيد نشاط القن، ولا يستطيع الأقنان المزعومون إلى حد بعيد الزواج دون دفع ضريبة، وليس للعبد أن يتزوج من إمرأة خارج ممتلكات سيده دون إذنه، وعند موت العبد يتسلم السيد كل ميراثه ويئول إليه – Corimedisheroit – ولقد أثقل عناه الخدمة والأعباء كاهل المستأجرين أو بمعنى أصح كل الإجراءات.

وقد تحولت هذه الأعباء من تكاليف استثنائية إلى تكاليف حقيقية، وفي هذه العلاقة يصبح هناك فصائل مختلفة وواضحة بصدد الإجراء – Mansi – فبعضهم كان من الأحرار – Ingenuiles – وبعضهم من الأذلاء – Serviles – والبعض الآخر كان بلا فراش أو غطاء – Lidiles – واختلفت التزاماتهم تبعا إذا ما كانوا أصلا قد وقعوا في العبودية بواسطة "رهن الأبدان" عبودية كاملة، أو نصف عبودية، أو كانوا أحرارا، أو كانت الضريبة التي يحتاجها السيد من رجاله وقت الحاجة[2].

---

(١) و. كويلاند – ب. فينوجرادوف: المرجع السابق، ص ٢٤.

- Cross, op. Cit., p. 84; White, op. Cit., p. 32; Bland & Tawney, op. cit., p. 5.

(٢) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٦٩ – ٧٠.

وكان السيد اللورد يجبر الفلاح على طحن الغلال التي تخصهم في طاحونته، حتى ولو كانت هذه الطاحونة بعيدة عنهم[1].

أما عن المكوس – مقدار ما تخرجه الأرض – المفروضة على الفلاحين وكانت تجمع عن طريق الكنيسة، ولم تدخله الكنيسة في أراضيها إلا بعد إكراه، على أن المكس ظل بيد جهات كثيرة حتى صار يشترى ويباع، ويقسم إلى أجزاء وأنصاف أجزاء، وأصبح من الضروري تنظيم حسابه وتحصيله في سجلات مضبوطة بواقع واحد عن كل عشر وحدات من المحاصيل الزراعية، ولذا غدت "عربة العشر" من الأشياء المعتادة التي تشق طريقها بين الحقول وقت الحصاد[2].

وترتب على ذلك سوء حالة الفلاح، لأن الفلاح في الحكومة ليس له نصيب في اختيارها، وما فرضت عليه الحكومة من أعمال شاقة تجاه سيده، وما فرضت عليه من مكوس يؤديها لسيده، حتى طحن الغلال في طاحونة سيده، وعصر النبيذ في معصرة سيده، وشراء العيش من فرن سيده، فكانت حياته مرتبطة بسيده اللورد ولا يملك سوى الولاء والطاعة[3].

إمتلاك الملك للإقطاع:

وكان الملك هو الذي يمتلك الإقطاع ويقوم بدوره بتوزيعه على أتباعه، وكان على التابع أن يحضر إلى سيده الذي يمنحه الإقطاع، وربما يكون السيد نبيلا أو تابعا إقطاعيا عليه بدوره أن يؤدي يمين الولاء للملك، ويقسم التابع على الولاء والطاعة، ويتعهد الملك أو

---

(1) Stenton, English Feudalism, op. Cit., p. 117.

(٢) و. كوبلاند – ب. فينوجرادوف: المرجع السابق. ص ٤٩.

- Lipson, op. cit., p. 18.

(3) Jounson, op. cit., p. 34; Esme, op. cit., p. 126.

اللورد بحمايته، ويقدم التابع الخدمات لسيده في مواجهة أعدائه الآخرين، وكان من حق السيد الذي يمتلك تابعه أن يحوله من عبد لسيد آخر بخلاف القن[١].

حتى أن الملك وليم – في علاقته مع الكنيسة – كان يفرض واجبات إقطاعية على رؤساء الأديرة مثال ذلك: فقد أرسل الملك وليم إلى أيثيلوج – Aethelwig – رئيس دير إفشام – Efesham – سنة ١٠٧٢م يطلب منه كتابع إلى سيده الملك أن يقوم باستدعاء كل الفرسان التابعين لمنطقة نفوذه وفي نطاق سلطته الإقطاعية، والذين يدينون للملك بالولاء والطاعة في مقاطعة كلاريندون –Clarendon– لمدة إسبوع، ويكون بنفسه مع الفرسان الخمسة التابعين له كرئيس للدير[٢].

وكان على السيد الإقطاعي أن يوفر قدر كبير من الحماية لأتباعه، لأن الحماية الإقطاعية التي تبسطها الدولة بصفة عامة على كافة الطبقات لم تكن كافية لتوفير الأمن.

وساعد الفتح النورماني على قيام ملكية قوية وكذلك سادة أقوياء، وتعهد هؤلاء السادة الأقوياء من الإقطاعيين على توفير الأمن والاستقرار وتوفير الحماية لأتباعه[٣].

وإذا كان السيد الإقطاعي يوفر الحماية لتابعه، لذلك كان على التابع واجبات تجاه سيده، أي: أن السيد يتعهد بالإخلاص لتابعه، مثلما يتعهد التابع بذلك لسيده، فهناك أولا واجب الولاء، وهو الطاعة الخالصة التي يدين بها جميع أتباع السيد دون فارق بين تابع وآخر.

(1) Davis, Documents Durope, op. cit., p. 17.
(2) Brrow & Edward, op. cit., pp. 148 – 149.
(3) Cross, op. cit., p. 84; Mitchell, op. cit., p. 31.

والمناسبات الشخصية لم تكن إلا في مناسبات معينة مثل حفل تتويج الملك، حيث يقوم كبار الإقطاعيين بتقديم الأطعمة والأشربة أو قيادة الخيول الملكية، أو حراسة للملك، غير أن الواجب الأساسي للتابع هو الخدمة الحربية لمدة معينة من السنة وهي أربعون يوماً، أو بدل مالي يؤديه التابع في حالة عجزه عن القيام بهذه الخدمة، وتتنوع هذه الخدمة تنوعاً يتدرج حتى يصل إلى ما يجمعه للخدمات الحربية الخاصة، ومنها الروابط الإقطاعية مثل الخدمة في فرق الرماة أو الخدمات المنزلية كجزء من هذه الروابط الإقطاعية[١].

وكان على التابع أن يؤيد سيده في حروبه ضد أعدائه، ويكون أحد الفرسان تحت قيادته، وعليه أن يقدم له النصح والمساعدة – Consilium – لسيده الإقطاعي، وأن يتعهد ألا يشن عليه غارة أو يفشي سره وكان ذلك من أخطر الجرائم الإقطاعية في العصور الوسطى، والتي ترتب عليها نظام المحاكم الإقطاعية[٢].

المحكمة الإقطاعية:

فقد كان لكل سيد إقطاعي محكمته الخاصة، وعلى التابع حضور محكمة سيده.

وقسمت المحاكم إلى محاكم عليا، ومحاكم دنيا، وهي متعلقة بالقضايا الجنائية، أما المحاكم الإقطاعية فهي للنظر في القضايا المتعلقة بالأرض فقط، والوضع الثاني الذي يهمنا هو أن السيد الإقطاعي ووكيله هو القاضي الوحيد، ولم يكن استدعاء السيد سوى لمسائل استشارية فقط، وأحكام المحكمة كانت معبرة عن القانون الإنجليزي، وتختلف محاكم السادة الإقطاعيين في إنجلترا، حيث تختلط

---

(١) و. كوبلاند – ب. فينوجرادوف: المرجع السابق. ص ٧١ - ٧٢.

(2) Arthur, op. cit., p. 41.

في تكوينها عناصر حرة وغير حرة، وتختلف فيها الأحكام الصادرة ضد الأحرار والأقنان، إذ أن القن يذهب إلى محكمة السيد في كل ما يتعلق به، لذلك لقي ظلم كبير حيث لجأ إليه في حالات الضرب والسب والزنا، فكان لا يحصل على حقوقه كاملة، أما السيد الإقطاعي فإنه يلجأ إلى محكمة الملك التي تنصفه دائما[1].

وكان هناك حالات استثناء في القضايا الإقطاعية، ففي إنجلترا في أوائل حكم الملك وليم الفاتح جرت إعادة النظر في الأحكام بواسطة محاكم أعلى عن طريق محكمة الملك، مع العلم بأن ذلك لم يخل من معارضة البارونات• ويتضح ذلك مثلا في قضية قامت في إنجلترا زمن الفاتح بسبب نزاع بين جندولف الأسقف لمدينة روتشيستر وبيكوت الوكيل الملكي في مقاطعة كمبريدج حول أرض قضت المحكمة بشأنها في مصلحة الوكيل الملكي، غير أن تدخل أودو أخو الملك وليم وأسقف مدينة بايو أدى إلى دعوة اثني عشر رجلا من عدول المقاطعة للتصديق على الحكم بتأدية اليمين في محكمة الملك، ثم تحدى هذا اليمين راهب كان وكيلا لأسقف ورتشيستر في الأرض المتنازع عليها، فتحتم على العدول المساكين أن يقبلوا إمتحان النار، أو أن ينكروا اليمين الذي أقسموه، ومن الطريقة الغير مباشرة التي جرى بها التدخل للسلطات العليا في هذه القضية ما يدل على أنواع الصعوبات التقليدية التي حالت دائما دون إعادة النظر صراحة في حكم من الأحكام[2].

---

(1) Tryvalyan, op. cit., p. 123; Esme, op. cit., p. 129.; Keith Feiling, op. cit., p. 99.

(٢) و. كوبلاند ـ ب. فينوجرادوف: المرجع السابق. ص ٩٦ ـ ٩٧.

أما من ناحية التشريع الإقطاعي، فمن المعروف أن البارون من الناحية النظرية سيد في إقطاعه، فلا يخضع إلى أي إرادة سوى إرادته، لذا عمل بمبدأ: "للبارون جميع الحقوق القضائية في إقطاعه، ولا يستطيع الملك أن يعلن سلطته في الإقطاع بدون موافقة البارون، كما لا يستطيع البارون بدوره أن يعلن سلطته في أرض تابع من أتباعه دون موافقة هذا التابع".

وإستنادا إلى هذا المبدأ العام نشأت جميع التشريعات الإقطاعية الخارجة عن صميم سلطة التابع في إقطاعه في صورة قانون صادر من محكمة السيد الأعلى بموافقة أتباعه صراحة أو ضمنا، مثال ذلك قانون أصدره الكونت ثوار سنة ١٠٩٩ م بأن لا يدفع له الأتباع مالا سنويا، إذ يختتم هذا القانون بإشارة إلى سلطة البارونات التابعين لي وإرادتهم.

ويظهر هذا المبدأ مرة أخرى في قوانين أصدرها سادة أعظم سلطانا أمثال دوقات نورماندي، حيث أصدر وليم الفاتح سنة ١٠٦٤م قانونا بشأن "الأمن العام"[١]، وكانت معظم التشريعات القانونية في صالح البارونات، وإن كانت جديدة على النظام الإقطاعي في إنجلترا بصفة عامة، ودخلت هذه التشريعات في نظام الأراضي كذلك[٢].

الضيعة الإنجليزية الإقطاعية:

كانت الضيعة الإنجليزية هي أهم الوحدات الإقطاعية في إنجلترا، فقد كانت الضيعة الكبرى هي الوحدة الاقتصادية النمطية التي جمعت ما بين الإعتماد على الذات أو الزراعة الإكتفائية، وهي عبارة عن مزرعة أو عدة مزارع وعلى رأسها مالك الأرض الذي يتحكم في النظام كله، أو أحد رؤساء الأديرة أو أحد السادة النبلاء.

---

(١) و. كوبلاند – ب. فينوجرادوف: المرجع السابق، ص ٩٨ - ٩٩.

(2) Arthur, op. cit., p. 43; Cross, op. cit., p. 87.

وكانت أرض الضيعة مقسمة إلى قسمين أحدهما وهو الأصغر يخصص لحاجات المالك، والقسم الآخر يخصص إلى المستأجرين، وكان عليهم أن يقوموا بتقديم قسم الولاء والطاعة، ويرجع المؤرخون أن الغرض من هذا التقسيم هو الإقامة في هذه الأراضي للحفاظ عليها[1].

أما عن عائد المستأجرين الذين يعيشون في هذه الضيعة، فلم يكن نقديا في معظم الأحوال نظرا لقلة النقود، فقد كانت تدفع لهم الأجرة عينية إلى جانب أنهم يعملون في هذه الأرض، لأن المجتمع الإنجليزي كان يعتمد على الزراعة مثله مثل المجتمع الأوربي، وكان الفلاحون يعيشون في أكواخ صغيرة من الطين ومسقوفة بالقش، وتحتوي على زريبة للمواشي ومرعى للظباء وموقد للطبخ، وتقسم البيوت في الضيعة إلى جزئين: المستأجرون في جزء، والعائلة صاحبة الضيعة في الجزء الآخر منها[2].

وقام صاحب الضيعة في المجتمع القروي بتقسيم الأراضي إلى حصص بين العائلات، حتى المراعي قسمت بين الفلاحين، وهذه القواعد مرجعها إلى حق الأسرة بالإنتفاع بالأرض والمراعي، فمثلا الحصة البالغة خمسة عشر فدانا لها الحق في رعي بقرة واحدة وأربعة أغنام وهكذا، وأعطى لهم حق استغلال الأخشاب والأحطاب للوقود، أما توزيع الأراضي الزراعية إلى حصص فلم تنتقل من يد إلى أخرى على هذا النسق بل ظلت حصصها وراثية تنتقل حقوقها من سالف إلى خالف[3].

---

(1) Jounson, op. cit., p. 36; Trevlyan, op. cit., p. 131.

(2) Jounson, op. cit., p. 37; Bland & Tawney, op. cit., p. 6.

(٣) و. كوبلاند – ب. فينوجرادوف: المرجع السابق، ص ١٠٥ – ١٠٦.

- White, op. cit., p. 33.

أما وقت الحصاد في الضيعة، فقد كانت مدة العمل فـي أرض المزرعة الخاصة بالضيعة تصل إلى يومين أو ثلاثة أيام في الإسبوع وأحيانا تصل إلى أربعة أو خمسة أيام، وهؤلاء يساعدون في الحصاد بعد ذلك، ويقومون بأعمال الحرث في أرض السيد، وكان يحضر إلى الأرض ومعه محراثه وثيرانه، وكان العمل جماعيا في ضيعة السـيد الإقطاعي، وأحيانا كانت الزراعة تتم بالجهد المشترك علـى أسـاس تبادلي غاية في البساطة لجمع المحصولات، ففي سـنة يـتم حـرث الأرض وزراعتها، ثم تستريح للعام التالي وهكذا[١].

ومن الخطأ أن نصور العلاقة بين السيد والمستأجر بالذي يأخذ والذي يعطي، فقد كانت الضيعة وحدة اجتماعية متكاملة بيـنهم، فقـد كان يحصل المستأجر على كل ما يلزمه من الغذاء له ولحيواناته مـن أرض المزرعة، وكان دائما ما يتزوج من داخل الضيعة نفسها.

والحقيقة أنه كلما تقدمت العصور الوسـطى ازدادت رفاهيـة الفلاحين في الإقطاعيات الإنجليزية[٢].

أما عن أعوان السيد الإقطاعي في إدارة الإقطاع فقد اشـتملت هـذه الطائفـة علـى معـاونيين ووكـلاء لهـم – Stewards & Seneschals – يقومون بالإشراف العام ورئاسة القرية، واشـتملت على مشرفين – Reeves –، وكان عملهم التوفيـق بـين القـرويين والسيد، والنقباء –Radmen– الذين يبلغـون التعليمـات للحـراس –Warders– مثل حارس التـبن – Hayward – وحـارس الغابـة – Wood Ward – المكلف بحراسة المراعي وباذر الحب –Sower– والدارس – Thresher – وحارس المستنقعات والسدود –Graves–، وهم المكلفون بالإشراف علـى القنـوات والخنـادق والمصـارف،

(1) Arthur, op. cit., p. 48; Jounson, op. cit., p. 37.

(2) Jounson, op. cit., p. 37.

والحراثون والرعـــاة – Ploughmen & Herdsmen – المكلفــون بتنظيم واستخدام ثيران السيد وقطعانه، واستطاعت إنجلترا أن تسـبق جاراتها في النظام الإقطاعي بفضل نظـــام الضيعة المستمدة مــن العرف[1].

***

ثالثا : الصناعة

لم تكن الصناعة بمعزل عن الزراعة في الحقبة الأولــى مــن العصور الوسطى، حيث كان على كل بلد أو مدينة أو قرية أن تكمـل بعضها البعض من أجل تواصل الحياة الاجتماعية؛ لذلك كــان أهـل البلاد يصنعون ما يحتاجون إليه من الأدوات الزراعية مثل المحراث الخشبي والفأس والمعول... إلخ، وأصبح هناك من يصـنع الأحذيـة والأدوات للاستخدام المنزلي، وتطورت الأدوات الصــناعية بمـرور الوقت، وذلك لتطور الآلات من ناحية ومن الناحية الأخرى الحاجـة للمصنعات، وأخذت فئة من الفلاحين تتخصص فــي صــنع الأدوات اللازمة للقرية مثل النجار والحداد والحذاء وغيرهم مـن أصـحاب الحرف الصناعية، وإن أصبح الصانع في غنى عن العمل الزراعــي، وإن كان ظهور المدن بشكل أساسي هو الذي طور عملية الصـناعة والتجارة، وكذلك أصبحت للقرى أهمية ومميزات عظيمة في الإنتــاج الصناعي الذي يعتمد على الزراعة وإن كانت الصناعة هي عنصـر الحياة في المدن[2].

والحقيقة، يمكن القول أن مدن العصور الوسطى كانت مسـقط الرأسمالية، لأنه بمرور الوقت اتجهت المدن إلى أن تصــبح مراكـز

---

(١) و. كوبلاند – ب. فيلوجرادوف: المرجع السابق، ص ١٢٧.

(2) Arthur, op. cit., p. 34.

للصناعات والتجارة أيضاً، إذ تبع التصنيع خطوات التجارة، وبرغم من أن معظم الإنتاج الصناعي حدث في المحلات الصغيرة وليس في المصانع الكبرى، فإن بعض رجال الأعمال المغامرين استخدموا أعداد هائلة من العمال لإنتاج السلع، ففي العادة كانت صناعات النسيج على نطاق واسع.

ومن الطبيعي ألا يعمل هؤلاء العمال في المصنع، وإنما في محلاتهم التي يمتلكونها أو في منازلهم، ونظراً لأن الملتزم الصناعي كان يرسل مواده الخام إلى عماله بدلاً من إحضار العمال إلى المكان الذي به المواد الخام، لذلك أطلق على هذا الإسلوب في الإنتاج "نظام الإنتاج المنتشر" Putting – Out – System – وكمرحلة سابقة على نظام المصنع مباشرة، فإنها كانت مرحلة حاسمة في تاريخ الرأسمالية الباكرة[١].

وفي كل مكان بإنجلترا أصبحت الصناعة متحررة وآمنة، وأصبح لكل صانع الحق في أن يبدع كيفما يشاء، وتوفرت الأسواق لتسويق منتجاتهم، وإن كانت الحياة الاجتماعية ما تزال تؤثر في طبيعة المجتمع حيث يعمل كل صاحب حرفة مع الآخر ليكملوا بعضهم البعض. وكان يوجد مراقبة وإشراف على تنظيم الصناعات خوفاً من الغش ومن أجل تحسين الإنتاج، ولم يكن هناك ميزان قوي وعلاقات دولية لتحكم الإنتاج الصناعي بمدلول هذا العصر، وكان مكان العمل عبارة عن ورش صغيرة يعمل بها من صانع واحد إلى أربعة حيث مازالت الآلات بدائية[٢].

---

(١) س. ورن – هلستر : المرجع السابق، ص ١٦٥.

- Williamson, op. cit., p. 48.

(2) William Ashley, op. cit., p. 34.

الحرفيون في إنجلترا:

ومن المعروف أن لكل مدينة كبرت أم صغرت عددا ونوعية من الحرفيين متناسبة مع حجمها، حيث لا يستطيع سكان المدن العمل دون تواجد أدوات الصناعة.

ورغم أن الحرفيين الأثرياء يتواجدون فقط في الأماكن الكبيرة المكدسة بالسكان، فإن الحرفة ضرورية ولازمة للحياة اليومية، فمنهم الخبازون والجزارون والحائكون واللحاسون والنجارون والحذائون وغيرهم، وهم يتواجدون في كل مكان.

وكما أن الولايات الكبرى في فترة العصور الوسطى الزراعية قد اضطرت لإنتاج كل أنواع الغلال، حتى توفر كل مدينة لسكانها وللأقاليم المجاورة لها حاجتها الضرورية منها ورتبت بيع إنتاجها للمناطق التي جردت من طعامها.

ولقد أخذ المزارعون الذين زودوا هذا المدن باحتياجاتها من الطعام في المقابل منها منتجات صناعية، وبذلك استدرج زبائن الورش الصغيرة في المدن كلا من عامة البرجوازيين ومن سكان الريف المجاور(١).

وكان على الصانع أو السيد في العصور الوسطى أن يعمل لحسابه الخاص في محله الذي يملكه، ويقوم بتصنيع السلع المطلوبة ويحدد ثمنها ثم يبيعها إلى الجمهور.

وفي القرن الحادي عشر ظهرت التنظيمات الحرفية، حيث يقوم الصانع بتدريب الصبية في حرف صناعية متنوعة، ويستغرق هذا التدريب سبع سنوات وهذه العادة كانت في لندن العاصمة، وإن كانت

---

(١) هنري بيرين : المرجع السابق، ص ١٦٩.

- Brial & Blakeley, op. cit., p. 39.

تختص بها إنجلترا دون غيرها، وعندما ينتهي الصبي من التعليم يصبح بعدها صانعا ماهرا، وإن واتاه الحظ وكان ميسورا يمكن أن يفتح ورشة لزيادة دخله، وإن كان ذلك صعب عليه يمكن أن يبقى عاملا بأجر في ورشة للصانع[(١)].

ولقد كان أصل الطوائف الحرفية مازال محل جدل كبير، ولقد اعتقد في بادئ الأمر بعض العلماء أنه في نهاية القرن الحادي عشر أن الحرفيين يشكلون جماعات منظمة على أساس حرفهم، فلقد تميزت الجماعات الأولى للحرفيين بتدينها وميولها للخير، لكنها في نفس الوقت أنجزت حاجتهم من الحماية الاقتصادية، ولقد أحسوا بحاجتهم الملحة لوقوفهم إلى جانب بعضهم البعض لمقاومة منافسة القادمين الجدد، منذ بداية الحياة الصناعية.

وعندما بدأ الصناع يرتحلون إلى المدن الناشئة كان رؤساء البلديات أو العمد الذين أقاموا هناك يحتاجونهم بالطبع ليخضعوا لسلطتهم.

ومنذ النصف الأول للقرن الحادي عشر، اكتسبوا بعض الحقوق للهيمنة على السلع وعلى ممارسة كل الحرف.

وهكذا فإن هذا الإتجاه التلقائي هو الذي ألجأ الصناع إلى النقابات لحمايتهم[(٢)].

إنشاء نقابات للمدن:

والمثال على ذلك في إنجلترا في بداية القرن الثاني عشر أن شكل دابغو الجلود رابطة لهم، كان يُسجل بها كل من يرغب في

---

(1) William Ashley, op. cit., p. 38.

(٢) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ١٧٠ – ١٧١.

- William Ashley, op. cit., p. 39.

مزاولة هذه الحرفة، وفي إنجلترا وُجدت الروابط الحرفية في عهد الملك هنري الأول في أكسفورد وهنتيجتون –Huntington– ونشستر ولندن ولنكولن وسرعان ما انتشرت في كل المدن[١].

وفي القرن الحادي عشر فصاعدا قامت السلطات العامة بتنظيم المدن، ومنح الملوك بعض المدن امتيازات صناعية مثل تلك التي خولها الملك هنري الأول سنة ١١٢٥م إلى هيرفي – Hervey – أسقف إيلاي، وكذلك منحت بعض الإمتيازات إلى مقاطعة كمبريدج، وبدأ الأعضاء في تنظيم حرفهم، وكونوا شركات احتكرت صناعات في إنجلترا عرفت باسم –Gild–[٢].

تنظيم الصناعات:

وليس هناك شك في أن تلك التنظيمات الصارمة للصناع كانت موضوعة أساسا لصالح العمال أنفسهم، ولحماية المستهلك من الغش والتزيف، وكانت تكتفي بتنظيم الجماعات الصناعية ومراقبة البيع.

ولقد كان الاحتكار الحرفي الذي تمتعت به هذه الروابط كان بالأحرى خطرا على المشترين الذين كانوا تحت رحمتهم تماما، ولكنها بالنسبة للمنتجين قد قدمت لهم فوائد لا حصر لها بتحريرها من المنافسة، ولقد كانت دون شك رخصة تحت أيديهم قدمتها السلطات الشرعية لهم، ولكن هذه الروابط التطوعية التي كونها الصناع في نهاية القرن الحادي عشر لم تمتلك بالطبع حقا شرعيا يسمح لها أن تمنع غيرها من العمل في الصناعة، وكانت سلاحهم الوحيد ضد أولئك الذين لم يكونوا ينتسبون إليهم وهو سلاح المقاطعة، ولكنه سلاح غير

---

(١) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ١٧٢.

(2) Coulton (M . A), Medieval Panarma The English Scance From Canquest To Refmation, Vol. 1., Press, 1949, p. 284.

ثابت وغير واف بالغرض، ولذلك فكرت هذه الجماعات في وقت مبكر أن يكون لها الحق في إلزام كل صانع بأن يقف في صفهم أو يغلقوا دكاكينهم.

ولم تجد السلطات أي صعوبة في الاستجابة إلى طلبهم، الذي كان في صالح الأمن العام؛ ويعمل على تسهيل انضباط الصناعة، وغالبا ما كانت الحرف عرضة لفرض المكوس عليها من قبل الحكومة مقابل هذه الرخصة، وفي إنجلترا دفعوا للتاج ضريبة سنوية نظير الاحتكار الذي تمتعوا به[١].

وكان نظام العمل الصناعي في إنجلترا في تلك الفترة يعتبر مقسم إلى أقسام هي العمل المنزلي الذي يقوم به مجموعة كبيرة من الحرفيين داخل المنزل "نظام تصنيع الذهب" ويدخل في نظام الحرف اليدوية التي كانت تقوم على صناعة الذهب في الورش، وهو النظام المحلي أو العمل في المنازل، وبعد ذلك يأتي نظام العمل في المصانع التي يقوم عليها مجموعة كبيرة من الحرفيين ومن الصناع المهرة حتى العامل البسيط في المصنع، وإن كان نظام الذهب من التنظيمات التي يتجمع فيها العديد من الحرفيين للعمل فيها وكانوا دائما يعملون في المدن، وكونوا اتحاداتهم الحرفية في المدن[٢].

ومن الصناعات التي اشتهرت بها إنجلترا على الإطلاق هي صناعة الغزل والنسيج، فالغزل بطبعه حرفة منزلية عرفها الإنسان منذ بداية التاريخ، ونجدها حيثما نجد الأصواف في كل الأقطار، وكل ما تحتاجه هذه الحرفة هو تحريك إنتاجها وإتقان صنعها حتى تصبح صناعة حقيقية؛ ولم يكن هذا الأمر سهلا ولم يماثل وادي الشيلد في

---

(١) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ١٧٢.

- William Ashley, op. cit., p. 35.

(2) William Ashley, op. cit., p. 36.

تقدم صناعة ملابسه إقليم آخر خلال العصور الوسطى، وهو يذكرنا بما كانت عليه إنجلترا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكن ليس هناك مجال للمقارنة بين الحالين في الموازنة بينهم من حيث التشطيب والمرونة ونعومة الألوان لهذه المشغولات(١).

أما الملابس الصوفية فكانت ذات شهرة واسعة في إنجلترا، ووجدت صناعة الملابس لها أسواقا رائجة، وإن كان القائمون عليها في البداية هم الملاحون الفريزيون، ويحملون الملابس الصوفية المصنعة في إقليم الفلاندرز عبر أنهار الأراضي المنخفضة تحت إسم طيالسة الفريزين – Pallia Fresonica –، وتسببت جودة هذه المابوسات في ازدياد الطلب عليها على طول السواحل العديدة التي ترد عليها ملاحوا الشمال لتلبية هذه المطالب، وازداد إنتاج هذه الملبوسات إلى نسبة لم تبلغها حتى الآن، ومن الملاحظ تقريبا أن إنتاج الصوف المحلي في نهاية القرن العاشر كان غير كاف ولا يلبي الاحتياجات، وصار الصوف يصدر من إنجلترا في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر، ولقد زادت شهرة الصوف الإنجليزي من ثمن الملبوسات المنتجة والمصنعة منه.

وفي خلال القرن الثاني عشر صار عدد النساجون وصانعوا الأقمشة الصوفية كبير جدا وقد كانت صناعة الملابس –ومازالت تشتهر بها هذه البلاد حتى الآن– محصورة في المدن التجارية(٢).

ولقد اختلف العمال العاملون في صناعات التصدير في خاصية أساسية وحيدة تختلف عن العاملين بالأجر في أيامنا هذه، فبدلا من

---

(١) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٤٠.

- Williamson, op. cit., p. 48.

(٢) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٣٩.

- William Ashley, op. cit., p. 35.

تجمعهم في مصانع كبيرة فلقد وزعوا على عدد من الورش الصغيرة، ولقد كان معلم النساجين أو المقصرين للملابس سواء أكان مالكا للأدوات التي يستعملها أم كان مستأجرا لها، فقد عاملا أهليا يعمل لحساب رأسمالية تجارية كبرى.

ولقد كان الإشراف المفروض من قبل السلطة البلدية على الصناعة يعطي حماية أقل للعمال، طالما كانت السلطة في يد كبار البرجوازيين الذين من بينهم تجند سلطات المدينة(١).

***

رابعا : التجارة

ازدهرت التجارة الإنجليزية في القرن العاشر والحادي عشر في بحر البلطيق وبحر الشمال، وذلك عن طريق الدانيين الذين جاءوا إلى إنجلترا عن طريق غزواتهم البحرية، وسرعان ما توطدت التجارة في إنجلترا والغرب الأوربي وأجزاء من أيرلندا وأسلنداء بينما التجارة كانت قديما بين إنجلترا وأراضي البحر المتوسط(٢).

ولقد امتد النشاط التجاري إلى موانى بحر الشمال، وصار معروفا لبحارة الشمال الذين كانوا قد خربوا المنطقة الداخلية الخلفية منذ زمن بعيد، ولقد أصبحت موانى هامبورج على الألب وتييل على الوال، ففي القرن العاشر ظلت إنجلترا تستقبل عددا كبيرا منهم، وعادت عليهم التجارة المحملة على يد الدانيين بالثروة التي لم يستطع الأنجلو – سكسون مقاومتها، والتي وصلت إلى قمتها حين وحد الملك

---

(١) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ١٧٨.

- William Ashley, op. cit., p. 35.

(2) William Ashley, op. cit., p. 36.

كانوت الأعظم (١٠١٧ ١٠٣٥م) إنجلترا والنرويج والدانمرك في إمبراطورية واحدة لم تعمر طويلا.

ولقد أكد اكتشاف عملات إنجليزية في أحواض البلطيق وبحر الشمال قيام هذه التجارة من منابع التايمز والراين، وأثبت الأنجلو سكسون بطولات رائعة في هذه الرحلات.

وقد أثبت الشعب النورماني في ذلك الوقت نشاطهم وروح الإقدام والجرأة التي تذكرنا بالإغريق في العصر الهومري[١].

ومن المؤكد أنه في نهاية القرن العاشر كانت تجارة الإسكندنافيين قد ظلت على علاقات وثيقة مع بحر الشمال وإقليم بحر البلطيق، ولقد ظلت تجارة إنجلترا نشطة، وأن تعريفة لندن الجمركية ما بين (١٩٩١ – ١٠٠٢ م) ذكرت أن الفيلمنج كانوا ضمن الأجانب الذين تاجروا مع المدينة، وكان تردد السفن على القنال الإنجليزي أقل من ترددها على بحر الشمال، ولكن كانت هنالك تجارة منتظمة بين النورمان والسواحل الشمالية[٢].

وكانت هذه التعريفة الجمركية للدوق النورماندي حق واضح فيها، وذكرت هذه التعريفة الحقوق التي كانت للدوق النورماندي أثناء

---

(١) كان الدانيون من مهرة التجار، ويرجع إليهم الفضل في عودة الحياة إلى المدن الرومانية في شمال إنجلترا، وتزويد التجار بمدينة لندن بكثير من النشاط، وكانوا أكثر حرية واستقلالا من السكسون، فاشتمل إقليمهم الأول بشرق الجزيرة على كثير من المدنيين الأحرار، ولم يوجد به عدد كبير من العبيد بعكس الحال في الجنوب والغرب، وقد كان عنصرهم أهم عنصر من العناصر التي دخلت محيط الشعب الإنجليزي. انظر في ذلك:

- أ. رواس: المرجع السابق، ص ٣١.
- هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٢) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٣٨.

ولايته وتضمنت الفقرة المتعلقة بالتحصين بما فيها القلاع والحصون التي تم تدوينها، وأشارت كذلك إلى المفاهيم التفصيلية فيما يتعلق بسلام الدوق وأمنه، وحفظ القانون والأوامر واحتكار الدوق لضرب العملة، وهي الحقوق التي حصل عليها الدوق في نورماندي، وهي نفسها التي حصل عليها في إنجلترا بعد الفتح؛ ولقد كتب روبرت النورماندي ووليم الثاني ملك إنجلترا في اجتماعاتهما مع مجلس الأساقفة والبارونات، وذكرت هذه التعريفة في الثامن من يوليو سنة ١٠٩١م لحماية حقوق الملك والدوقات التجارية في إنجلترا[١].

جهود الملوك النورمانديين في تنمية حركة التجارة:

بذل الملوك النورمانديين جهودًا عظيمة في تنمية حركة التجارة في البلاد، فقد قام وليم الفاتح بإلغاء المكوس المفروضة على طرق التجارة الرئيسية، مثلما قام وليم وفعل مع بورجوازيو سانت أومير – Omier – سنة ١١٢٧م، وحصلوا من وليم النورماندي على وعد بأخذ إعفاءات لهم من ملك إنجلترا[٢].

وأصبح بناء الجسور في إنجلترا مهمة الملوك كذلك، ولقي اهتماما أكثر من صيانة الطرق نفسها، وهذه الجسور كانت أحيانا تقام على نفقة البرجوازيين، أمثال ذلك جسر لندن على نهر التايمز، والعديد من الجسور التي تربط بين القلاع والمدن مثل قلعة رتشمند فوق نهر سويل، ومثال آخر هو مدينة كمبريدج حيث كان يربطها جسر بالمدن الأخرى، لأنه من المستحيل عبور النهر في ذلك الوقت، وكمبريدج كانت تعتبر ميناءًا هاما على البحر حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وكانت المدن مركزًا هاما للتجارة في إنجلترا[٣].

---

(1) Barrov & Edward, Document, op. cit., pp. 152 - 153.

(٢) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٩٠.

(3) Coulton, Mediev of Panarma, op. cit., p. 284.

وكانت وسائل المواصلات موافقة لحالة الطرق السيئة آنـــذاك، فلقد كانت تستخدم العربة الخفيفة ذات العجلتـين فـــي العـادة لنقـــل البضائع، ولكن البضائع ذات الأهمية البالغة كانت تحمل على ظهـــور الخيل، ولإرسال سلع ثقيلة بالبر في تلك الأيام فإنه كان من الضروري أن تقسم حمولتها بين عدد من العربات أو الحيوانات، وبالتأكيد فـــإن العربات الثقيلة ذات الأربع عجلات كانت مستخدمة، لكن اســتعمالها اقتصر على الطرق غير الممهدة، ولم يؤت التقدم في استخدام الخيول في جر العربات في القرن العاشر بالنتائج المرجوة طالما أن وســـائل النقل ظلت قليلة. وهذا القصور والعجز في النقل البري للتجارة جعل النقل النهري اكثر استخداما، برغم الحرارة في الصيف، والصقيع في الشتاء، وبرغم أن فيضانات الربيع والخريف كانت في الغالب تمنـــع الملاحة فيها، لكن الأنهار ورغم ذلك كانـت الأداة الكبـــرى للتبـــادل التجاري والتصدير[1].

واهتم الإنجليز اهتماما كبيرا بالطرق ووسائل المواصلات بين المدن لتشجيع التجارة، وأصبحت الطرق ممهدة وإن كان الأنجلـــو ـ سكسون قبل النورمانديين كانوا يستخدمون هذه الطرق، وأضاف لهـــا النورمان إصلاحات عديدة، وإن كانت مواصلات الإنجلو ـ نورمـــان باستثناء الفقراء الذين كانوا يسافرون على أقدامهم تتم علـــى ظهـــور الخيل، وتحمل الخيول بضائعهم وتطـــورت التجـــارة فـــي إنجلتـــرا، وظهرت أنواع عديدة من السلع كان يجب عليهم أن يحصلوا عليها من مدن أخرى لذلك اهتمت المدن بتشجيع التجارة والتجار[2].

---

(١) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٩١.

- Coulton, Mediev of Panarma, op. cit., p. 283.

(2) Cunningham (F. B. A) English In Fluence on The unites stes, Cambridge, 1916, pp. 56; Arthur, op. cit., p. 94.

دور النقابة في التجارة:

كان أهم ما يميز التجار هو تكوين نقابة لهم تتألف من التجار الأحرار، ونمت تلك النقابات التجارية في المدن، وكونوا اتحادات مثل اتحاد حرفة الحياكة واتحاد السروجيين وهكذا، وكانت تلك النقابات متجردة من الرحمة حيال منافسيها، فقد كان الصوف أو الجلد الخام يورد للمدينة لبيعه، فإنه إذا وضع أحد أعضاء النقابة يده على الصنف وعرض سعرا له، لا يجرؤ أحد من خارج أعضاء النقابة على بيعه له بأغلى من السعر الذي عرضه، وكان الربح الناتج من البيع لا يعود لصالح المدينة، وإنما لصالح أولئك الذين ينتمون إلى النقابة سالفة الذكر، ومثل هذه المسائل كانت تساهم إلى حد كبير في إلحاق الضرر والظلم والفقر بالشعب، أما الوجه الخير للنقابة في إنجلترا زمن الحرب هو شراء الغلال بكميات ضخمة وتوزيعها على الأهالي بأقل الأسعار[1].

وعكفت هذه النقابات على المطالبة بشروط تتضمن استثمار الأموال عن طريق التجارة والصناعة في شيء من الاطمئنان كالسماح بتضمين ما هو مقر من ضرائب المدينة --Firmaburgi-- نظير مبلغ معلوم، والأذن بتشريع ما يلزمها من قوانين محلية لتنظيم المعاملات والأعضاء من السخرات الإقطاعية الثقيلة، وتلك كانت خلاصة للحريات والامتيازات التي امتلأت بها عهود المد وبراءتها الإعفائية -- Charters -- في القرن الثاني عشر مثل مدينة لندن التي حصلت على ذلك عن طريق الشراء[2].

---

(١) ج . ج . كولتون : المرجع السابق ، ص ١٥١ – ١٥٢.

(٢) فشر : المرجع السابق، ص ٢٢١ – ٢٢٢.

حماية الدولة للقوافل التجارية والأسواق:

وكانت تتعرض القوافل التجارية للخطر المتعدد الذي يهدد التجار، لذلك كانوا يسافرون في عصبة مسلحة في قوافل كبيرة، ولقد سمحت لنا المصادر أن نكوّن صورة واضحة لاصبعة لمجموعات التجار وفرقهم، والذين نراهم بأعداد كبيرة وزائدة في غرب أوروبا منذ القرن العاشر فصاعدا.

ولقد أحاطت بهم أعداد مسلحة بالأقواس والسيوف وبالخيول والعربات المحملة بالأجولة والذكائب والحقائب والبراميل، وفي المقدمة يمشي حامل الراية – Schildrake – والقائد – Sovyen – يمارس سلطته على الجماعة التي تتكون من إخوة يربطهم قسم الإخلاص والولاء، ولقد أحيت روح للتضامن والتماسك في كل المجموعة، والبضائع التي كانت تباع وتشترى مشاعا مشتركا وتقسم الأرباح بعد ذلك وفق نصيب كل رجل منهم[١].

وكانت الأسواق التجارية أكثر المعالم اللافتة للنظر في التنظيم الاقتصادي في العصور الوسطى، بسبب الدور المهم الذي لعبته هذه الأسواق، وبرغم أن الأسواق كانت تابعة للأسواق المحلية – Markets – فإنها لم ترتبط بأي حلقة، وكان هدف الأسواق المحلية هو تزويد السكان بالمؤن الضرورية، أما الأسواق التجارية فكانت موسمية للتجار الحرفيين، ومركزا للتبادل خصوصا البيع بالجملة، وأقيمت لجذب أكبر عدد من الناس والبضائع التي أصبحت محررة من أي قيود محلية، وكل سلعة تجارية يمكن أن تباع وتشترى في هذه الأسواق.

---

(١) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٩٥.

- Coulton, Medieval Panarma, op. cit., p. 284.

وكان الشيء المهم من الناحية النظرية أن كل الأسواق كانت مفتوحة للتجارة، وكان كل ميناء بحري يُفتح للسفن، ولم يكن الاختلاف بين الأسواق التجارية والأسواق العادية المحلية فقط في الحجم ولكن الاختلاف أيضا كان في النوع، وإن جاءت أهمية الأسواق التجارية من كونها مستقلة عن المكان الذي تعقد فيه، ويفهم ذلك بسهولة طالما أن الأسواق التجارية لم تكن أكثر من اجتماعات موسمية للقريب والداني، وزاد عدد الأسواق بصورة كبيرة في القرن الثاني عشر.

ولقد أعطى القانون للأسواق التجارية وضعا مميزا، فلقد كانت الأرض التي يعقد عليها الأسواق مكفولا لها الأمان والحماية التامة[1].

***

خامسا: مسح دومزدي ١٠٨٦م

من أهم إنجازات وليم الفاتح قيامه بإجراء مسح شامل لموارد إنجلترا البشرية والاقتصادية في كتاب دومزدي – Domesday Book – ، وهذا المسح الذي قام به وليم الفاتح هو الأساس للتنظيمات الإدارية التي وضعها الملوك النورمانديين؛ والحقيقة أنه مفخرة من مفاخر إنجلترا في العصور الوسطى؛ فقد ورد فيه تقدير لموارد إنجلترا المالية وإحصاء سكانها وما يملكون من أراضي زراعية وإنتاج تلك الأراضي، وما لديهم من حيوانات كما كان فيه تقدير لما يدفعه الناس من ضرائب قبل مجيء النورمانديين وما يدفعونه بعد

---

(١) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٩٨ - ٩٩.

- William Ashley, op. cit., p. 36; Brial & Blakeley, op. cit., p.38.

الفتح، ويقول المؤرخ وايت – White – إن كتاب الروك النورمـــالي يعتبر أعظم سجل وصفي في أوروبا العصور الوسطى[(١)].

الملك وليم يأمر أتباعه بعملية المسح:

أمر الملك وليم الفاتح بعقد اجتماع عظيم في المملكة في ســنة ١٠٨٥م، وأمر أتباعه بالقيام بمسح شامل لكل موارد المملكة، وذلـك لحاجته الشديدة للمال بسبب حروبه وغزواته فــي الشــمال، وكــان غرضه كذلك التوسع في عمليات الفــتح وخصوصــا التحقـق مــن الضرائب المفروضة وعملية تقسيم الممتلكات التي قام بها وليم بعـد الفتح، والمدونات الأنجلو – سكسونية تشهد على صدق هــذا الكــلام بصفتها شاهد عيان على عملية المسح[(٢)].

وأرسل وليم الفاتح مجموعة مختلفة مــن الوســطاء يجوبــون الأراضي الشاسعة ويجتمعــون بمــلاك الأرض، ويحصــلون علــى

(١) تم إنجاز كتاب الروك بمسح الأراضي سنة ١٠٨٦، وكان الغرض منه تنظيم ضريبة الدانيين – Danegeld – وتفصيل ذلك أن مملكة وسكس الأنجلو – سكسونية لجأت في القرن العاشر إلى شراء الدانيين بالمال بعد أن تجددت غاراتهم على إنجلترا حتى تتقي شرهم، وفرضوا ضرائب باهظة على الإنجليز وتعرف بمال الدانيين، وأصبح الفلاح أقرب إلى العبودية بسببها، ويدل كتاب الروك النورمالي الذي وضع أساسا لتنظيم الضريبة وعلى مدى الدقة التي بذلها عمال المالية في البلاد للكشف عن موارد البلاد، ولهذا يعتبر هذا السجل ذا أهمية قيمة في إنجلترا العصور الوسطى.

انظر في ذلك :

- Brial & Blakeleiey, op. cit., p. 36; Williamson, op. cit., p. 48p Ordericus, v., op. cit., p. 7; Peter & Brian, op. cit., p. 31; Cross, op. cit., p. 81; White, op. cit., p. 30; Mowat, op. cit., p. 52.

(2) Brial & Blakeley, op. cit., p. 36; Cross, op. cit., p. 18.

معلوماتهم من القضاة المحليين التي تشمل كلا من النورمان والإنجليز، وكانت الإجابات التي خرجت في كتاب دومزدي عن كل قطاع وإقطاعية عبارة عن إجابات واضحة لجدول محدد من الأسئلة التي وضعت أمام المحكمة، والتي كانت مُشكّلة لكي تحصل على عدد الممتلكات المختلفة أو الأقاليم كما يسميها النورمانديون، وكان بين كل مائة في عصر الملك إدوارد المعترف عدد كبير لأتباعه من النورمان، وتم حساب درجة إمداد هذه الأقاليم للفلاحين وأدوات الفلاحة، ومقدار الإنتاج لهذه الأقاليم لكي يكونوا القيمة السنوية للمتملكين، كل ذلك سُجل عن طريق أتباع الملك وليم الفاتح(١).

أما ما لدينا من هذا المخطوط "مسح دومزدي" عبارة عن مجلدين، الأول هو الأكبر حيث يحتوي على إحصائية لكل إقليم في إنجلترا وذلك في جنوب تيز –Tees– وقطاعات من ويستمورلاند –Westmorland– ماعدا نورفولك وسوفلك واسكس، وهذه المقاطعات الشرقية الثلاث التي اشتمل عليها سجل دومزدي الأصغر وهو المجلد الثاني، وهو ليس صغيرا في الحجم، ولكنه يختلف في الطرق التي يتضمنها حيث يشتمل على تفاصيل أكثر في مقدماته. ووصف هذه التناقضات هو أن دومزدي الصغير في الحقيقة قام بجمعه مندوبو المقاطعات الثلاث الذين أرسلوا إلى ونشتر، حيث كان الكتاب قد تم وضعه بالفعل. ولكن لم يدخل أو يختصر كالبقية الموجودة في المجلد الرئيسي بسبب موت الملك وليم الفاتح في سبتمبر سنة ١٠٨٧م، ولم يكن الإحصاء قد اكتمل تماما والحقيقة أنه كان مثالا رائعا في أبعاده ومحتوياته الملكية الشخصية(٢).

---

(1) Cam. Med. Hlk ist., Vol. v, p. 505; Williamson, op. cit., p. 14; Douglas, op. cit., p. 350; Jounson, op. cit., p. 39.

(2) Barrow & Edward, op. cit., p.149; Douglas, op. cit., p. 350.

وذكر البروفيسر – ستنتون – "إن مسح دومزدي يعتبر إنجازًا إداريًا ليس له مثيل في تاريخ القرون الوسطى، ولم يتم إضافة شيء مماثل له في إنجلترا قبل القرن التاسع عشر"[1].

وفي أواخر القرن الحادي عشر كان قد تم الانتهاء من إحصاء كل موارد إنجلترا البشرية والاقتصادية، وكانت عبارة عن مجموعة مختارات إرشادية، فهي أيضا مرتبطة بعبارات فنية بعضها مازال غير مفهوم بالنسبة للاستنتاجات التالية، فأول شيء هو قائمة كبار المستأجرين من سوفولك وإحصاء رؤوس كل مقاطعة.

وسجل دومزدي قد تم وصفه كسجل رسمي مكتوب لمقدمة الإقطاع وامتلاك الأرض لذلك، وبناء عليه أدى ذلك إلى قانون إقطاعي في إنجلترا في كل مقاطعة، وتدخلت سندات الملك المالية ورؤساء المستأجرين، ثم تم تغطية كل الأراضي من أجل مبدأ إطلاق الأرض بدون سيد[2].

وكتاب يوم القيامة ليس فقط مليئا بأجزاء معينة من امتلاك الأراضي وأنظمتها ولكنه يشمل كذلك فرض وجباية الضرائب، وتضمن هذا الكتاب الاتفاقات الطارئة والتزود بالمعلومات التي تخص حتى مناجم الذهب الموجودة في البلاد[3].

وكتاب دومزدي الأصغر يوضح التفاصيل الإحصائية الدقيقة، ويعتبر أعظم في مقدمته من كتاب دومزدي الأول، فلم يترك ثور واحد أو بقرة واحدة أو خنزير واحد إلا وقام بإحصائه، وكان الغرض الأساسي من المسح تسجيل الأراضي الزراعية وملاكها وأي شيء

---

(1) Stenton, Anglo – Saxan England, press, 1943, p. 610.

(2) Barrow & Edward, op. cit., p. 150.

(3) Brial & Blakeley, op. cit., p. 36.

آخر يعتبر ثانوي مثل إحصاء الكنائس والقلاع والمقاطعات، ومن أجل ذلك فإن لدينا مرجع ثانوي واحد شاهد على أن مدينة هوكسن –Hoxne– قد عاني سوق الأساقفة فيها من منافسة السوق الجديدة الموجودة في قلعة آي –Eye– المجاورة، واقتبس من المجلد الأول الحرف وعادات بيركشير، وهي التي أمدتنا بمعلومات ثانوية عن النظام الإنجليزي العسكري القديم[1]، وكتاب دومزدي الأكبر والأصغر تم طباعته في إنجلترا وهو السجل الوحيد الذي تمت ترجمته لمعظم البلاد، ووجد في المجلدات التي ترجع إلى تاريخ مقاطعة فيكتوريا – Victoria –[2].

وكتاب يوم القيامة الأصلي كان محفوظا في الخزانة الملكية في ونشتر وموجود الآن بشكل عام في مكتب لندن، والطبعة الموجودة هي الطبعة المحلية المسجلة بواسطة لجنة خاصة تحت رقم ١٧٨٣[3].

وكتاب الروك جعل الدكتور سافين – Dr. Savine – المؤرخ الروسي الشهير يذكر أن تاريخ الإدارة الإنجليزية لا يقل تفردا عن تاريخ الدستور الإنجليزي مع ما لهذا الدستور من شهرة واسعة.

والواقع أن كتاب الروك هو السجل الأول الذي قامت على أسسه سجلات النظم الإدارية بإنجلترا والأصل الذي تسلسلت منه تلك الحلقات المتصلة من تقاليد الإدارة بها[4].

نسبة عدد العبيد والأحرار في دومزدي:

وفي القرن الحادي عشر كانت الأقاليم والأراضي قد اتسعت بشكل كبير، وكونت الأقاليم تجمعات واتحادات نتج عنها المقاطعات،

(1) Barrow & Edward, op. cit., p. 150.

(2) Barrow & Edward, op. cit., p. 150.

(3) Brial & Blakeley, op. cit., p. 37; Derry, op. cit., p. 72.

(٤) ا.ل. رواس : المرجع السابق، ص ٤١.

وكانت تحتوي هذه الأقاليم على كنيسة بشكل رئيسي وقصر السيد اللورد وحاشيته وبجواره منازل الفلاحين من المزارعين وأقنان الأرض[1].

ويتضح لنا إلى أي حد كانت نسبة المواطنين الذين كانوا عبيدًا بالفعل، كما يوضح عدد أفراد طبقة العبيد وأنصاف العبيد، وقد زادت أعداد هذه الطبقة المتوسطة بسبب ما حدث من نقصان في طبقات العبيد من جهة، وفي الرجال الأحرار من جهة أخرى.

ويكشف هذا الكتاب عن طائفة من العبيد هبط عددهم في إقطاعية واحدة من اثنين وثمانين إلى خمسة وعشرين في السنوات العشر الأخيرة[2].

واستخلص السيد وليم هدسون – William Hudson – الذي قام بحفائر أثرية عظيمة الأهمية، ولم يكن يبغي من ورائها مصلحة شخصية بل قام بها بصبر يدعو إلى الإعجاب. واستخلص سلسلة من المعلومات المأخوذة من سجلات مقاطعة نورفولك – Norfolk – الإنجليزية في حقول نورفولك، ويلاحظ في كتاب الروك أن نسبة الأضرار هناك كانت كبيرة كما كان الحال في المقاطعات التي تأثرت إلى حد كبير بالغزوات الدانية، فالفلاحون كانوا من سلالة الفاتحين الدانيين، وكان ثمة ثمانية وسبعون من الأحرار في مقابل سبعة من رقيق الأرض؛ ولكن أساقفة نورنتش النورمان والذين ذهب إليهم صاحب الأرض قد أنزلوا خمسة وستين من الثمانية والسبعين من الأحرار إلى مرتبة العبيد؛ وكذلك في مقاطعة كمبريدج أيضا تسعمائة

---

(1) Peter & Brian, op. cit., p. 32.

(٢) ج. ج. كولتون: المرجع السابق، ص ٣٩.

- Keith Feiling, op. cit., p. 99.

من الأحرار عند الغزو، وقد هبط عددهم بعد عشرين عاما من ذلك التاريخ إلى مائتين وثلاثة عشر حرا فقط(١).

وقد تم معرفة أوضاع الفلاحين بأقسامهم وتوزيع الغابات والمراعي وكمية الضرائب التي تفرض على كل إقطاعية، ولسوء الحظ أن الموظفين الذين قاموا بجمع السجل في شكله النهائي في ونشستر، قد قاموا بإعداد الترتيب عن الإقطاعيات بدلا من نظام المئات القديم والقرى التي يتم توجيهها بحيث تلخص المعلومات التي تجمعت حول كل إقطاعية، وبذلك لا يحتوي السجل على إجماليات الأراضي أو القيمة الإقطاعية المختلفة التي يمكن مقارنة كل منهما بالآخر، إلا أنهم بالصبر والأناه يمكن الحصول على مثل تلك الإجماليات، كما يمكن الحصول على إحصائيات كافية لكي توضح قدر الأرض التي احتفظ بها وليم لنفسه وأتباعه(٢).

دخل إقطاعيات كبار الإقطاعيين:

وقام المؤرخ بالقيام ببعض التعليقات على كتاب يوم القيامة، بعمل مقابلة بين ٧٩٣ إقطاعية مخصصة للكونت مورتان – Mortain – و ٤٣٩ إقطاعية مخصصة للأسقف بايو، و ١٦١ إقطاعية مخصصة لوليم بيفريل – Pevrel –، وتختلف هذه الإقطاعيات بين مزارع جدباء لا تساوي بضع شلينات في العام بعملة تلك الأيام، وبين الإقطاعيات الكبرى للوردات المميزين عبر عشرات القرى التي تعطي عائدًا يبلغ ١٠٠ جنيها في العام أو أكثر، حتى أن الإقطاعيات المتجاورة ذات المساحة المتشابهة يمكن أن تختلف بشكل كبير في القيمة، بحيث تتناسب مع درجة إمدادها بالمواشي والعمال

(١) ج. ج. كولتون: المرجع السابق، ص ٤٠.

- Keith Feiling, op. cit., pp. 99 – 100.

(2) Cam. Med. Hist., Vol. V, p. 506.

في مجال الفلاحة، وفي بعض أجزاء إنجلترا ظلت مقاطعـــات كاملـــة طوال فترة حكم وليم مهملة بشكل سيء للغاية، بحيث أصبحت عبئـــا على ما يقوم عليها نظرا إلى المصروفات الباهظة لإعادتهـــا لحالتهـــا الأصلية[١].

ولنأخذ مثالاً بارزًا لذلك وهاف كونت إفرانشيز خصـــص لـــه تقريبا مقاطعة شيشاير كاملة بالإضافة لحصوله علـــى إيـــرل لهـــذه المقاطعة، وهي عبارة عن أرض شاسعة أضيفت إلى أحفاده بعد ذلك، ولكن في زمن هاف (١٠٧١ – ١١٠١م) كان الدخل الـــذي اســـتطاع الحصول عليه في كل هذه الإقطاعية في شيشاير يقدر بما لا يقل عن ٢٠٠ جنيها في العام، وفي ميدلسكس – Middlesex – على الجانب الآخر كانت الإقطاعية الوحيدة في إسلورث – Isleworth – تقـــدر بما يوازي ٧٢ جنيها في العام ١٠٨٦م، وإقطاعية فولهام – Fulham – ٤٠ جنيها وإقطاعية هاور ٥٦ جنيها في العام، ولا توجد إقطاعيات مثل تلك الأكثر قيمة، وظهرت في الأماكن الأكثر خصبا وسكانا فـــي إنجلترا، ويبدو واضحا أن كونت أفرنشيز لم يحصـــل علـــى أهميتـــه وسلطته في إنجلترا من خلال إقطاعية شيشاير، ولكن حصـــل علـــى هذه السلطة عندما أمده وليم بإقطاعيات أكثر أهميـــة ومجهـــزة مثـــل إقطاعيات لنكولن شاير وبلغ دخلها في العام ٢٧٢ جنيها، وفي سافوك كان دخلها يبلغ ١١٥ جنيها، وكذلك كان دخل مقاطعة أكسفورد يبلـــغ ٧٠ جنيها ومناطق أخرى تدر عائدًا جيدًا[٢].

ولنأخذ مثالاً آخر في قرية بتيـــل – Battle – فـــي الجنـــوب الشرقي في إنجلترا فقد كان يوجد بها ٢١ رجلا من الفلاحين – صغار الفلاحين – كانوا يعيشون في القرية واستقروا فيها، ثم خربت ودمرت

(1) Cam. Med. Hist., Vol. V, p. 507.

(2) Cam. Med. Hist., Vol. V, p. 507.

بعد ذلك عن طريق جيوش الإنجليز والنورمان على حد سواء، وطلبوا من جيرانهم مساكن ليسكونها، وفي عام ١١١٠م كانوا يقيمون في ١٠٩ من منازلهم وتوسعوا في بناء الكنائس الضخمة، وزاد عداد الكهنة وتوسعت الأسواق نتيجة للفتح النورماني، واندمجت الأسماء حتى في نفس القرية وكانت تحتوي على ٧٨ إسم إنجليزي، ١٩ إسم أنجلو – نورماني، ٢١ إسم نورماني.

والحقيقة أن أسماء الأنجلو – نورمان كانت منتشرة بين الإنجليز واتسعت هذه الطبقات في القرية[١].

وفي مدينة هرفورد – Hereford – في عهد الملك إدوارد المعترف كان يوجد بها ١٠٣ رجلا، وينتمي هؤلاء الرجال إلى سكان المدينة وتملوا لو تركوها وذهبوا إلى الريف، ويدفع مقابل ذلك ثلاثة بنسات كضرائب على هذه الهجرة من ثمن المنزل، أما الذي يريد الهجرة ولم يستطع أن يفي بالمال اللازم بسبب فقره يقضي يوما في العمل بالقش والتبن، وعلى أية حال هذا ما كان يريده الشريف[٢].

وكان إجمالي الدخل القادم من المدن يمكن أن يقدر بحوالي ٧٣٠٠٠ جنيها في العام. وإلى هذا المبلغ الإجمالي ساهمت العشر مناطق لسكس جنوب نهر التايمز بحوالي ٣٢٠٠٠ جنيها في العام، والثلاث مناطق في شرق إنجليا حوالي ١٢٩٥٠ جنيها في العام، والثمان مناطق غرب مرشيا ١١٠٠٠ جنيها في العام، والخمس مناطق جنوب دانلووو بين الويلاند وهامبر حوالي ٦٤٥٠ جنيها في العام، وفي النهاية الأراضي الضعيفة في يركشاير ولانكاشير حوالي

---

(1) Peter & Brian, op. cit., p. 31; Kenneth, op. Cit., p. 22.

(2) Brial & Blakeley, op. cit., p. 36; peter & Brian, op. cit., pp.32 – 33.

١٢٠٠ جنيها في العام وهذه الأرقام ربما تكون أقل بكثير، ولكن وجود العائدات كان كبيراً، وهذا ما أورده كتاب دومزدي، والتي تعطي القيم الموجودة عند تلقي وإستلام الأراضي، وإنها قيم مبعثرة بحيث لا نستطيع أن نكون المعلومات المطلوبة بدقة لحساب الإجماليات العامة، ومن أجل الوصول إلى أرقام إجمالية من هذه المتوسطات، وكل ما يمكن عمله بالنسبة للتاريخ الثابت يكون غير مرضي، فإن بعض القيم الخاصة بعام ١٠٨٣، ربما تكون أكثر بالنسبة للمقاطعات الإنجليزية، لأنها تعطي مؤشراً جيداً لقدرات الدخل التي يتطلع إليها أصحاب الأراضي الجدد في سنة ١٠٧٠م في المدن، وفي ذلك الوقت افتقر الريف بسبب القتال الذي حدث في السنوات السابقة[١].

وأعطى – ميتلاند – وصف دقيق إلى كتاب يوم القيامة والأساقفة الذين يقيمون في فيرنهام – Farnham –، حيث وهب لهم الملك ٢٥٠٠٠ من الإكرات في الأراضي الزراعية، وأقاليم الأساقفة في الجنوب التي امتدت عبر غابة وسكس إلى كنت خارج لوسي –Lewes–، وكان هناك العديد من الأجزاء في الجنوب الشرقي لم تظهر في المسح الذي أقامه الفاتح، وكان يوجد في قرية لوسي حوالي ٤٠٠ فلاح من الفلاحين النصف أحرار في النظام الإقطاعي، وباقي الفلاحين الآخرين كان إجمالي السكان حوالي من ١٥٠٠ – ٢٠٠٠ مواطن، ويوجد كذلك ٦ من طواحين الهواء، ١٧٣ محراثاً، وعدد من الكنائس والغابات التي كانت تحتوي على حوالي ٢٠٠٠ من الخنازير، واشتمل كذلك على حوادث القتل وأعمال التخريب في المدن والأقاليم والموارد الطبيعية المختلفة من الثروة[٢].

(1) Cam. Med. Hist., Vol. V, p. 507.

(2) Peter & Brian, op. cit., pp. 32 – 33.

إلا أن الدخل المأخوذ من الأرض الذي كان تحت يـد المحتل –وليم الفاتح– ويخلو من الإيجارات والعوائد الأخرى للبلـديات كـان حوالي ٧٣٠٠٠ جنيه في العام، وعندما نقوم بتحليل كتاب يوم القيامة بشكل واضح فكان يوزع هذا المبلغ عن طريق هبـات مـن الملـك لأغراض خمسة وهي كالتالي:[١]

أ– ١٧٦٥٠ جنيها في العام من أجل البيت الملكـي، ويشـمل هـذا التقسيم الملك نفسه والملكة وأخويه غير الأشقاء وأرملة الملك إدوارد المعترف.

ب– ١٨٠٠٠ جنيها في العام من أجل مكافأة أتباعــه، والأشـخاص الذين عرفوا فيما بعد بجنود الملك المتطوعين.

ج– ١٩٢٠٠ جنيها في العام من أجل تـدعيم الكنيسـة والهيئـات الدينية.

د – ١٤٠٠ جنيها في العام لمساعدة بعض العشـرات مـن مـلاك الأراضي البارزين لما قدموه للملك في عمليات الغزو ومـنهم على سـبيل المثـال –رالـف سـتالر – Ralf Staller – وروبـرت ويمرس – Rebert Wimars – من مارلبوروف – Marlbotaugh – وكولسويجين – Colswegen – مـن لنكولن والذين حفظوا جميله.

هـ– ٣٣٥٠ جنيها في العام من أجل إمداد وتموين ١٧٠ باروليـة بعضها ضخم والآخر صغير للقادة البارزين مـن النورمـان والفرنسيين والبريتانيين والفلمنجيين وتابعيهم الـذين خـاطروا بحياتهم وثرواتهم في المغامرة الكبرى لغزو إنجلترا[٢].

(1) Cam. Med. Hist., Vol. V, p. 509.
(2) Cam. Med. Hist., Vol. V, p. 509.

والأرقام المعطاة سابقا على الرغم من أنها تقريبية لدرجة الدقة إلا أن لها أهمية كبيرة، حيث نكتشف أن وليم احتفظ لنفسه تقريبا بربع دخل المملكة من الأراضي الإنجليزية، وخصص خمسين من إجمالي الأراضي من أجل مكافأة كبار العائلات الكبرى الذين حاربوا في جيشه، وكان وليم الفاتح قد خصص لأخويه غير الأشقاء كمكافأة لهما إقطاعيتان يصل دخلهما إلى ٥٠٥٠ جنيها في العام الواحد، وهم الأسقف أودو وكونت مورتان، وأشار إلى نصيب البارون وليس نصيب العرض وأن الدخل المخصص للإقطاعيات البارونية يجب أن ننظر إليه على أنه أقل من نصف الدخل الإجمالي لإقطاعيات المملكة، وإذا قمنا بطرح هاتين الإقطاعيتين فإن نصيب العرش يمكن أن يصل إلى ١٢٦٠٠ جنيها في العام، ولكن حوالي ١٦٠٠ جنيها من هذا المبلغ كانت مخصصة للملكة أديث ولتابعيها طوال حياتها، فيصبح دخل وليم وماتيلدا الحقيقي من خلال إقطاعياتهم قبل سنة ١٠٧٦م حوالي ١١٠٠٠ جنيها في العام، ومع أن هذا المبلغ أصغر من المبلغ السابق، إلا أنه يبلغ ضعف دخل العرش في عصر الملك إدوارد كما قدره محكمي كتاب يوم القيامة[١].

والإقطاعيات التي احتفظ بها وليم أيضا من أجل العرش وزعت توزيعا عادلا أفضل مما كانت عليه أيام الملك إدوارد، لذلك ازدادت قوته في العديد من المقاطعات في الأيام الأخيرة من حكمه لذلك تجد أن الأسقف أودو لم يمتلك أراضي في مقاطعات في ميدليكس وهرتفورد وأسكس ولنكولن وروتلاند شيشاير أو كورنول بشكل نسبي، أو حتى في نورفولك وسافولك ويوركشاير، وفي عهد وليم تبدل الحال وأصبح له فيها جميعا[٢].

---

(1) Cam. Med. Hist., Vol. V, p. 508.

(2) Peter & Brian, op. cit., p. 34.

وكان لوليم نصيب ملموس في كل مقاطعة ماعدا منطقة أسكس والثلاث مقاطعات الواقعة بطول الحدود مع ويلز، وفيها يقسم دخل المقاطعات للأغراض العسكرية والدفاع عن البلاد، إلا أن الزيادة النهائية في دخل العرش من الأرض لم يكن يرجع فقط إلى الاحتفاظ بعدد كبير من الإقطاعيات للاستخدام الملكي، ولكن يرجع ذلك في جزء منه إلى ارتفاع الإيجارات التي يدفعها العمد ورجال القرى لكي يتم السماح لهم بزراعة تلك الإقطاعيات(١).

توزيع دخل الكنيسة حسب كتاب دومزدي:

وإذا تركنا دخل العرش، وقمنا بتحليل دخل الكنيسة الذي كان يقدر بـ ١٩٢٠٠ جنيها في العام والذي خصص من أجل تدعيم الطبقات المختلفة للجهاز الكنسي، وأن هذا المبلغ الكبير كان يتكون من أربعة أجزاء حسب ما جاء في كتاب دومزدي كالتالي:

أ- ٨٠٠٠ جنيها في العام مخصصة لتدعيم الكنيسة العلمانية بمعنى أن من بين الخمسة عشر أسقفية والديار الخاصة بالقوانين الكنسية العلمانية يوجد حوالي ٣٠ فقرة مخصصة تماما لأوقاف الكنيسة الإبرشية.

ب- ٩٢٠٠ جنيها في العام مخصصة لحوالي ٤٠ دارا لعبادة الرجال.

ج- ١٢٠٠ جنيها في العام مخصصة لحوالي ٢٠ دارا لرهبنة النساء.

د- ٨٠٠ جنيها في العام مخصصة هدية لوليم من دير العبادة النورماندية والأديرة الأجنبية(٢).

---

(1) Mowat, op. cit., p. 52.

(2) Cam, Med. Hist, Vol. V, p. 509.

ويمكننا القول بالنظر إلى أبعاد ما سبق أن قليلا جدا من الدخل قد خصص إلى الكنيسة عن طريق وليم، ذلك أن النسبة الكبرى من الإقطاعيات التي أنتجتها قد تم تكريسها للأغراض الدينية، إلا أن وليم كجزء من عملية سياسية عمل بمبدأ أن الهبات القديمة الممنوحة للكنيسة غير سارية دون أن يعيد هو التأكيد عليها، ونتيجة لذلك عانت الكنيسة من خسائر ليست قليلة، ولكنها عوضت عن طريق عدد من الهبات ذات القيمة العظيمة(١).

وجعل الملك وليم بناء الكنائس في المدن وليس كما كانت في الريف، مع العلم أن الفاتحين كانوا يقومون بأعمال غير أخلاقية، ووجدنا الأساقفة من السكسون يعيشون مثل الفلاحين، وذهبوا للحياة في القرى والجلوس على المناضد في مجلس المقاطعة، مع أن مناصبهم كانت عظيمة وتمتلك محاكما كانت تتوسع جزئيا إلى رئاسة المناصب الدينية(٢).

وجاء أيضا في كتاب يوم القيامة الأسقفيات التي حصلت على مقاطعات وكذلك دخل الكنائس، فمقر أسقفية كانتربري كما هو متوقع كانت تتمتع بأغنى الإقطاعيات من حيث الدخل فكان دخلها يزيد عن ١٧٥٠ جنيه في العام، ومقر أسقفية وينشتر جاءت في المركز الثاني بدخل قدره ١٠٠٠ جنيه في العام، إلا أنه بشكل عام فقد سيطرت الكنائس الكبرى على إقطاعيات أكبر من الأسقفيات الأصغر منها بالتالي أصبحت تتمتع بدخل أفضل من الأسقفيات الصغيرة كالتالي:

أسقفية جلاستنابري – Glastonbury – ١٤٠٠ جنيها، القديس أدموندز –St. Edmunds– ٦٥٥ جنيها، أسقفية إيلاي –Ely– ٧٩٠ جنيها، و٦٥٣ جنيها كنيسة القديس العجوز في وينشستر،

(1) Brook, The English Chutch. op. cit., p. 139.

(2) White, op. cit., p. 30; Peter Bradam op. cit., p. 38.

و ٦٤٠ جنيها كنيسة المسيح في كـانتربري، و ٦٣٥ جنيهـا كنيسـة القديس أجسطين، و ٦٣٥ جنيها كنيسة ويستمنستر، وقد تـم توزيـع دخل قدره ما يقرب من ٤٨٠٠ جنيها فيما بينهم في العام[١].

بينما الأسقفيات العشر الأكثر فقرا أخذت أقل من ٣٠٠٠ جنيها في العام قسمت فيما بينهم وعلى سبيل المثال مقـر أسـقفية سيلسـي Selsey – دخلها في عام ١٠٨٦م فقط ١٣٨ جنيها، ومقـر أسـقفية شيستر – Chester – أقل من ذلك، والحقيقـة أن الجهـاز الكنسـي الدنيوي لديه أفضل مصادر للدخل القادم من الإقطاعيات، إلا أنه على الرغم من ذلك فقد ظلت إحدى سمات المجتمع البارزة في ذلك الوقت، أن الراهبين والراهبات الذين يصل عددهم إلى ألف فرد كـان لـديهم السيطرة على مثل هذا القدر الكبير مـن الأراضـي المـؤجرة فـي إنجلترا[٢].

ووفر وليم لنفسه ولأخويه غير الشقيقين دخل كبير، وظل دخله يزيد عن ٣٤٠٠٠ جنيها في العام مـن الأراضـي الواقعـة تحـت سيطرته، ووهب الملك وليم حوالي ٤٠٠٠ جنيها في العام إلى بعـض الإنجليز وتابعيهم، إلا أن هذه الإعانات كانت على مسـتوى ضـئيل للغاية بحيث لا تؤثر على الشكل العام لاستقرار الاحـتلال، لـذلك لا يحتاج هذا المبلغ إلى توضيح، إلا أنه مـن الممكـن أن نلاحـظ أن الأسقف وستيجاند احتل مكانا هاما في هذه الفئة ذات الدخل كما جـاء في كتاب دومزدي، بأنه ظل حتى وفاته يحتفظ بالأوقاف بالإضافة إلى

(1) Com. Med. Hist., Vol. V., pp. 509 – 510; Retef Brian, op. cit., p. 40.

(2) Com. Med. Hist., Vol. V., p. 510; Michell, op. cit., pp.56-57.

مخصصاته الواسعة في الكنيسة، وبذلك اعتبر أحد ملاك الأرض البارزين في إنجلترا، وكان يعد ضمن أغنى أغنياء البارونات[1].

توزيع الإقطاعيات على الإقطاعيين:

ويمكننا من خلال كتاب يوم القيامة تحليل ومقارنة جميع الإقطاعيات، ويوضح أنه كان هناك على الأقل ١٧٠ إقطاعية، دون أن يوضع في هذا الحصر الإقطاعيات الصغيرة التي تتبع العرش مباشرة ذات الدخل الذي يقل عن ١٠ جنيهات في العام، والتي كانت عديدة ولكنها ذات أهمية ثانوية، وأن أول شيء يجب أن نضعه في إعتبارنا ونحن نفحص هذه الإقطاعيات العسكرية، والحقيقة أن الإقطاعيات العسكرية تشمل إقطاعيات من جميع الدرجات تبدأ من الإقطاعيات المتواضعة ذات الدخل المحدود الذي يصل إلى ١٥ جنيه في العام، في حين كانت إقطاعيات عسكرية يصل دخلها إلى ١٧٥٠ جنيها في العام[2].

ولا يوجد مؤشر بأن وليم وزع مكافآته طبقا لخطة مرتبة ومسبقة إلا أنه يمكن الحصول على فكرة واضحة لطبيعة التوزيع السابق عن طريق محاولة الوصول لبعض التبويب والترتيب، ولذلك يحسن بنا أن نقسم الإقطاعيات بشكل رئيسي إلى خمس مجموعات:

أ- وتشمل الإقطاعيات التي تقدر قيمتها بـ ٧٥٠ جنيها في العام.

ب- وتشمل الإقطاعيات التي تقدر قيمتها ما بين ٤٠٠ جنيها - ٦٥٠ جنيها في العام.

---

(1) Com. Med. Hist., Vol. V., p. 510; Gdwin smith, op. cit., p.64.

(2) Brial & Blakeley, op. cit., p. 38.

جـ- وتشمل البارونيات التي يقدر دخلها ما بين ٢٠٠ جنيها - ٤٠٠ جنيه في العام.

د - وتشمل الإقطاعيات التي يقدر دخلها ما بين ١٠٠ جنيها - ٢٠٠ جنيها في العام.

هـ- وتشمل الإقطاعيات التي يقل دخلها عن ١٠٠ جنيه في العام.

ومن خلال كتاب دومزدي وزعت الإقطاعيات بالدخل كالتالي:

أ- يوجد ثمان إقطاعيات يصل دخلها الإجمالي إلى ٩٠٠ جنيه في العام.

ب- عشر بارونيات يصل دخلها الإجمالي حوالي ٧٠٠ جنيه في العام.

جـ- يوجد ٢٤ بارونية يصل دخلها الإجمالي إلى ٥٠٠ جنيه في العام.

د - يوجد ٣٦ إقطاع دخلها ما بين ٩٠ إلى ١٠٠ جنيه في العام.

وكان دخل الإقطاعيات أحد العناصر الرئيسية التي تتحكم في موارد الحكومة، وكانت حصة التاج في النظام الإقطاعي هي أهم حصة، ثم بعد ذلك حصة البارونات الإنجليز ودخل إقطاعياتهم، وكل حسب مركزه(١).

وتم تقسيم الإقطاعيات الأعلى دخلا بين البارونات على حسب منزلتهم كالتالي:

---

(1) Cam. Med., Hist., vol. v., p. 510.

أ – الإقطاعيتان الأكثر غنى خصصتا إلى وليم فيتز أسبورن وروجر مونتجمري – Roger of Montgomery – ويأتي بعدهما في الترتيب خمس إقطاعيات مخصصة بالترتيب إلى وليم وارين – Warenne – وهو في أفرانشير – Hughavranches – وأستاس من بولونيا – Eustace – وريتشارد كلير – Richard of Clare – وجيفري أسقف كاوتانسز – Coutances – وجيفري دي مانديفيل.

ب – والإقطاعيات التي تليها من حيث الدخل وهي المخصصة إلى روبرت ماليت – Malet – ، والعديد من الأسماء المشهورة الأخرى توجد في هذه الطبقة مثل فيرارسي بيجود – Ferrers – Bigod – وجيفارد برايوس – Giffard Braioce – وجريسبين – Grispin –.

جـ – والطبقة الثالثة وتصل فيها إلى أسماء متساوية في الشهرة مثل بريفيرل – Perverel – ولاسي مونتفرانت – Lacy – Montafarant – وتويني – Toeni – ومورتمر – Mortimer – وفيري – Vere – وعند باقي الطبقة الثالثة نجد بيومونت – Beaumont – وبيوشامب – Beauchamp –، ويبقى أن نذكر إذا أضفنا الأسماء الإنجليزية المتبقية في تلك الطبقات نجد أن رالف ستالر – Ralfsteller – من الطبقة الأولى، وإيرل وليثوف – Waltheof – في الطبقة الثانية، وروبرت ويمارك – Wimarc – من الطبقة الثالثة وهم إنجليز(1).

وجاء كذلك في كتاب دومزدي دخل الأسقفيات بالترتيب، فجاء أن أسقفيتي كانتربري ووينشستر وهما اللتان يمتلكهما وسيتجاند رئيس أسقفية لندن في المركز الأول بدخل قدره ٦١٥ جنيها في العام، ودور شيستر – Dorchester – ٦٠٠ جنيه في العام، وسالسبوري ٦٠٠

---

(1) Cam. Med., Hist., vol. v., p. 510; Dietz, op. cit., p. 42.

جنيه في العام، وورشيستر – Worchester – وتقع فـــي الطبقـــة الثانية؛ أما في الطبقة الثالثة فتقع – أسقفيات إوكســتر – Exeter – بدخل قدره ٣٦٠ جنيها في العام، وويلز ٣٢٥ جنيها في العام ويورك ٣٧٠ جنيها في العام، وهيريفورد ٢٨٠ جنيها في العام، وروشيستـــر – Rochester – ٢٢٠ جنيها في العام، ودور هام ٢٠٥ جنيها فـــي العام، وتشتستر – Chichester – ١٣٨ جنيها في العام؛ وفي الطبقة الرابعة شستر – Chester – ٨٥ جنيها فـــي العـــام، إلا أن يـــورك ودرهام لم يتم وصفهم بشكل كامل في حساب كتـــاب يـــوم القيامـــة، وكذلك نعتقد أنهم في مصاف إقطاعيات ذات الطبقة الثانية، وبعـــد أن عرضنا كيف يتم توزيع الغنائم، علينا أن نقوم فيما يلي بالتعرف على الظروف الخاصة بانتقال هذه الأرض للإقطاعيين(١).

وفيما يتعلق بهذه النقطة يتضح أن كتاب دومزدي لسوء الحـــظ لا يتكلم فيها، ولا توجد أسئلة متعلقة بعمليقة انتقـــال الأرض، ولقـــد وضعت أمام هيئة المحكمين، ولذلك علينا أن نعود إلى الخلف للتعرف على بعض الاستنتاجات عن ظروف انتقال الأرض للإقطاعيين التـــي نجدها بقوة في إنجلترا فيما بعد ذلك بجيل أو جيلين لنتفقـــدها بعـــض الإشارات الغامضة القليلة في بعض كتب التاريخ الدينية، وأصر وليم من البداية أن الإقطاعيات ينبغي أن تقام على نفس الشروط الخاصـــة بنقل الأرض للإقطاعيين الجدد في نورماندي(٢)، كما أن البارونات لم يرغبوا في شروط غير تلك التي اعتادوا عليها وفهموها، وهذا يعنـــي أن الطرق الإنجليزية لنقل الأرض للسيد الإقطاعي لم يتم اســـتخدامها بشكل قانوني، وأن البارونات حصـــلوا علـــى إقطاعيـــاتهم بشـــروط أربعـــة:

---

(1) Cam. Med. Hist., vol. v., p. 511.

(2) Arthur, op. cit., p. 52p Derry, op. cit., pp. 70 – 71; Brial & Blakeley, p. 40.

١- إبداء الطاعة والولاء للملك والقسم على الإخلاص له.

٢- تقديم حصص محددة من الفرسان المدججين بالسلاح والعتاد إذا طلب تجمعهم من قبل الملك للخدمة في جيشه لمدة أربعين يوما في العام على حسابهم الخاص.

٣- حضور بلاط الملك عند اجتماعه لإسداء النصائح والمشورة للملك ومساندته في تقدير القضايا الهامة.

٤- مساعدة الملك بالمال عند حدوث بعض الأحداث مثل الغزو وغير ذلك، وإذا لم يتم الإلتزام بهذه الالتزامات فإن من حق الملك أن يصادر هذه الإقطاعيات[١].

وفيما يتعلق بمسألة الوراثة حسب كتاب دومزدي فإنه يحظر على أي بارون أن تكون لديه القدرة على نقل إقطاعيته أو جزء منها إلى أي شخص عن طريق الوصية، وإذا كان هناك ورثة من الذكور فإنها تؤدى إليهم بعد أن يدفعوا رسما للملك خاصا بذلك، ولكن كان هناك ميل من الملك لكي يدعي بأن الإقطاعيات غير قابلة للتقسيم ويركز على إدخال قاعدة حق الابن البكر في الوراثة، وإذا كان الورثة قصر فإن الملك لديه حق الوصاية وفي حال الإناث لديه الحق في تزويجهن[٢].

وكان هناك سؤال يدور حوله نقاش بين العديد من المؤرخين وهو كيف يتم تثبيت حصص الفرسان المطلوبة؟! فيجب أن يتحمل علامة ثابتة بحجم أو قيمة الإقطاعية، إلا أن الدلائل تميل إلى إثبات أنه في هذه الحالة ليس هناك عدم تناسق، ويبدو أنه من المحتمل أن

---

(1) Cam. Med. Hist., V. v, o 511; White, op. cit., pp. 32 – 33; Bland & Tawney, op. cit., p. 25.

(2) Diety, op. cit., p. 38; Terence Wise, op. cit., pp. 105 – 106.

الملك لم يكن قادرا على تثبيت معايير الخدمة العسكرية عندما أنشأ الإقطاعيات الجديدة، وربما فقط طبقا لتقديراته الشخصية لمزايا البارونات على مختلف نفوذهم، ونتيجة لذلك فإن الحصص التي فرضها كانت لجميع الإقطاعيات بين أعداد الفرسان من ٥ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٤٠ ، ٦٠ ، وهكذا حيث أن الجيوش الإقطاعية يتم تنظيمها على أساس مجموعات من الفرسان تتكون من عشر فرسان، ولقد تم وضع حصص تتكون من ٤٠ ، ٦٠ فارسا على معظم الإقطاعيات التي يصل دخلها السنوي إلى ٢٠٠ جنيها، والحصص التي ما بين ٢٠ ، ٤٠ فارسا على معظم البارونيات التي يصل دخلها السنوي إلى ما بين ١٠٠ ، ٢٠٠ جنيها[١].

ويبدو أن العديد من الإقطاعيات الأكثر فقرا اضطر أصحابها لإيجاد حصص كبيرة نسبيا لتتحمل عبء خدمة الفرسان، ومن الواضح أن وليم كان راضيا بهذه الحصص الصغيرة، حيث أن النظام الذي وضعه صمم لوضع قوة من ٤٢٥ فارس، ولقد تم تكوين قوة كبرى حتى وصلت إلى ٥٠٠ فارس بغرض نقل خدمة الأرض للفرسان في جميع الإقطاعيات[٢].

وكان الاعتقاد الشائع أن هناك قصرا على رأس كل إقطاعية، وإن اختلف ذلك في عهد الملك وليم، ولم يتم بناء هذه القصور، ولكنها كانت موجودة في ضيعاته الخاصة به، حيث تم بنائها عن طريق فيتز أسبورن، وروجر مونتجمري، وهوف أفرانشيز، والثلاثة من البارونات ذوي السلطات الخاصة والذين يتحملون مسئولية ويلز،

(1) Cam. Med., Hist., VoI. v, p. 512.

(2) Cam. Med., Hist., VoI. v, p. 512.

ولكن في مناطق أخرى ركز وليم على أنه لا ينبغي بناء قصـور أو قلاع بدون ترخيص من الملك وليم شخصيا[1].

وبذلك اشتمل كتاب يوم القيامة على كـل النـواحي السياسـية والاقتصادية والدينية والاجتماعيـة والثقافيـة والقانونيـة، وأعطـى معلومات وفيرة عن تاريخ إنجلترا، واستحق بذلك أن يكـون أعظـم سجل وصفي في التاريخ الأوربي على الإطلاق.

□ □ □

(1) Mitchell, op. cit., p. 34p Derry, op. cit., p. 70, Jounson, op. cit., p. 33.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية في إنجلترا في عهد النورمان

أولاً : ضعف النظام الإنجليزي القديم وبقاء العادات السكسونية

ثانياً : الحياة الاجتماعية في القرية

ثالثاً : حيازة الأرض مقابل الخدمات

رابعاً : تطور الحياة في المدن

خامساً : القلاع والحصون

سادساً : مظاهر الحياة العامة



الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية في إنجلترا النورماندية

يحدد الغزو النورماندي بداية أكبر ثورة تركت أثرها في الحياة الاجتماعية الإنجليزية، فقد جلب معه أرستقراطية غريبة على إنجلترا ومعها أفكار عن النظام الاجتماعي مختلفة أشد الاختلاف عما كان يعتنقه سادة البلاد الأولون، كما كان من نتائج هذا الفتح أن نشأت علاقات وثيقة مع أقرب أجزاء أوروبا إلى إنجلترا، حتى لقد أصبحت القنال الإنجليزية إلى حد ما عاملا على توحيد فرنسا وإنجلترا أكثر منها فاصلا بينهم، وعن طريق هذا الغزو تحول اهتمام الإنجليز من الشمال الإسكندنافي إلى الجنوب الرومانسي، وأصبحت إنجلترا عن طريقه عضوا أساسيا بمرور الوقت في مجموعة الشعوب التي تتكلم الفرنسية، وهي المجموعة التي طبعت حروبها ومحالفاتها وتفاعلها فيما بينها بتاريخ أوروبا الغربية في القرن الثاني عشر بطابعها الخاص؛ وكان الغزو النورماندي نذيرا بالخروج عن التقاليد في معظم ألوان النشاط الاجتماعي، وظهور قوى جديدة وأفكار جديدة وبداية مجتمع جديد(١).

وليس معنى ذلك أن الفرق بين إنجلترا قبل الغزو وبعده كالفرق بين المدينة والفوضى، ولا يمكن لنا أن نقلل من شأن ما قامت به الدولة الإنجليزية من أعمال، وأخرجت ملوك من أشهر ملوك أوروبا مثل ألفرد العظيم، الذي استطاع أن يبني نظاما قويا للدفاع عن البلاد، واستطاع إدخال نظام الخدمة الإجبارية في إنجلترا، وحرر وسكس من

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٦٣.

- Kenneth, op. cit., p. 122.

سيطرة الدانيين، ووحد الممالك السبع تحت قيادته، وكان بحق أسطورة عصره في تشجيع الأدب والثقافة في إنجلترا[١].

وأخرجت علماء بارزين مثل إلفريك رئيس دير إينشام وهو رجل إنساني النزعة، وسبق عصره كما أخرجت قديسين مثل وولف أسقف ونشستر، والذي رفعه الإنجليز والفرنسيين معا إلى مرتبة التقديس في أخريات حياته الطويلة، وكان إيلدرد آخر من تولى أسقفية يورك من أهلها، وكان على الأقل مساويا لمعاصريه في فرنسا وإنجلترا[٢].

وكانت إنجلترا قد أنشأت نظاما ماليا قوميا قبل الغزو، فقد فرض الأنجلو–سكسون في القرن العاشر ضريبة تدفع للغزاه الدانيين في عهد الملك أثلرد الثاني وذلك لمواجهة النفقات، على أن النظام في البيت الإنجليزي المالك ظل وحتى بعد النورمان أنفسهم متأثرًا بالنظام الأنجلو – سكسوني[٣].

وفي عهد الملك إدوارد المعترف ورغم ضعفه عسكريا وسياسيا إلا أنه اهتم كثيرًا ببناء الكنائس المزخرفة في العصور الوسطى، وظهر الفن الإنجليزي الذي كان مميزا عن باقي الفنون الأخرى في الجزء الثاني من القنال، وأن عظمة إنجلترا ومميزاتها الأساسية قد ظهرت قبل الفتح النورماندي[٤].

وانتهى عهد الدولة الإنجليزية القديمة بقهر أكبر حكام الشمال السكندناوي الملك هارولد لتدخل الدولة الإنجليزية مرحلة جديدة من التنظيم.

---

(1) White, op. cit., p. 19; Melkle john, op. cit., p. 6.

(٢) ستنتون: المرجع السابق ص ٦٣.

- William of New burgh, vol. 1, op. cit., p. 20.

(3) Brook, the Saxon and Norman, op. cit., p. 134.

(4) Hernshaw, op. cit., p. 80.

أولاً: ضعف النظام الإنجليزي القديم وبقاء العادات السكسونية

كان ضعف الدولة الإنجليزية القديمة في نواحي عديدة أهمها ضعف الملك إدوارد نفسه، فقد ذكر راهب يوركشاير الذي قام بزيارة إلى كانتربري، أنه لم يدهش كثيرا حين وجد جمعا كبيرا من الناس بينهم الملك إدوارد المعترف، وكان إدوارد رجلا تقيا وقديسا إلى أبعد الحدود على الرغم من أنه كان مثل كل القديسين الجالسين على العرش ضعيفا وعاجزا، ولاحظ الراهب نظرات الاحتقار والإزدراء في عيون النبلاء الإنجليز وهم ينظرون إلى مليكهم العاجز عن القيام بوظيفته كملك كما يراها الجرمان، أي أن يكون قائدا حربيا، وحين واصل رحلته جنوبا لاحظ الفوضى المستشرية في البلاد والحروب المستعرة بين النبلاء الإنجليز، مما يدل على أن المملكة كانت على شفا حفرة من التدهور والإنحلال(١).

وكانت الثورات التي قام بها الإيرالات ضد بعضهم البعض هي التي أضعفت من قوتهم، وقد وقف الإيرالات الثلاثة وهم: جدوين إيرل وسكس وليفراك إيرل مرسيا وسيورد إيرل نورثيمبريا ضد الملك إدوارد المعترف، وكانوا يرتكزون على قاعدة صلبة وهي أملاكهم الواسعة، وتسببت هذه الثورات في ضعف النظام الإنجليزي القديم(٢).

ولقد كان في الدولة الإنجليزية القديمة رجال ذوو كفاءات ممتازة، ولكنهم كانوا جميعا إذا استثنينا منهم قلة، يصرفون هذه

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٣٢٩.

- White, op. cit., p. 25., Derry, op. cit., p. 55.

(2) Hernshaw, op. cit., p. 81; Derry, op. cit., p. 57.

الكفاءات في تحقيق غاياتهم الشخصية، ومع أننا لا نستطيع أن نأخذ بعين الاعتبار تحامل المؤرخين النورمان على تبرئة رجل مثل: جدوين إيرل وسكس ووستيجاند رئيس أساقفة كانتربري من أنهم كانوا يركزون جهودهم في البحث وراء منافعهم الشخصية، وليس ثمة جدوى في أن نلومهم لأن الذين حرموا من ميزة عراقة المنبت فلما كانوا في القرن الحادي عشر يرقون إلى مراكز السلطة بأي وسيلة أخرى، أما الخطر الذي حاق بالدولة وقت نشوء المنافسة المريرة، التي كانوا يثيرونها والانتهازية التي اتسم بها نجاحهم، فإيرل جدوين إذا دعاه الداعي لم يكن يتورع على القيام في وجهة الملك، وستيجاند يقبل أسقفية أخلاها سلفه بعد أن اضطره أصدقاء وستيجاند إلى الفرار، ولم يبدو على أي منهما في أي مناسبة أن يدرك ما عسى أن يكون لتصرفاته من أثر في الرأي العام في أوروبا، أو الخطر الذي يحيق بالدولة نتيجة لعدم إكتراثه بالنظام العام، فقد لا يكون هناك مفر من أن يهدف هارولد بن جدوين أن يخلف الملك إدوارد الذي لم يكن له ولد يخلفه على العرش، ولكن الغريب أنه لم يبدو سوى تقدير ضئيل للخطر الذي يتعرض له بعدئذ من منافسيه وراء البحر، وما كانوا ليقبلوا في الغالب اعتراف كبار الأمراء الإنجليز به ملكا عليهم لأن في جلوسه على العرش ضربة قاضية لأطماع هؤلاء المنافسين[١].

وكانت إنجلترا مجالا لتنافس وتنازع الإيرلات نظرا لخلو العرش من حاكم قوي مثل الملك ألفرد العظيم، فقد تنافس على العرش ثلاثة من المتنافسين وهم: سوين الإبن الثاني لكانوت ويبلغ من العمر عشرين عاما، والثاني أثلرد بن أدمون وكان في منتصف العشرين، وأثلرد نفسه الذي حكم إنجلترا فترة طويلة ويبلغ من العمر أكثر من

---

(١) ستنتون: المرجع السابق ص ٦٤.

- Orderic's, v., Ecclesiastical history, p. 51.

خمسين عاماء وظهور هؤلاء المتنافسين ودخولهم في نزاعات حادة على العرش أضعفت من النظم الإنجليزية، التي أصبحت غير مستقرة، أما في فترة حكم الملك كانوت على سبيل المثال (١٠١٦-١٠٣٥م) فقد استقرت النظم والقوانين ونفذت بدقة[١].

وكان هناك شيء أكثر خطورة من المنافسات الفردية، وهي الاختلاف في العنصر والعادات المحلية في النظام الاجتماعي الذي يتميز به كل جزء في إنجلترا عن غيره، ففي أقصى الشمال كان وضع المنطقة التي يتكون منها الآن مقاطعات نورثمبلاند ودرهام وكمبرلاند وستمورلاند لايزال موضع جدل، وهل تتبع مملكة أسكتلندا أو مملكة الإنجليز؟! ففي القرن السابق انضمت لوثيان إلى مملكة أسكتلندا، ولم يكن نهر التويد بالحاجز الذي لا يمكن عبوره، وبين تيزوويلاند كانت تقع دينلو الشمالية التي كان يقطنها جنس إنجليزي أسكندناوي غيور على عاداته القديمة، وكان يقبل سلطة ملوك إنجلترا القدماء طالما ترك متمتعا باستقلال يكاد يكون كاملا، وفي الغرب في ميدلاند الغربية، كان الناس لا يزالون يذكرون أن هذه المناطق كانت يوما ما جزءا من المملكة المرسيانية وهي مملكة قديمة قدم مملكة وسكس نفسها، وكانت المحافظة على الوحدة الإنجليزية في كل جزء من البلاد التي تعتمد في الواقع على ولاء سيد الإقليم ونفوذه على تابعيه في إقليمه[٢].

والحقيقة أن هذه الجنسيات المختلفة كانت من بلاد مختلفة في النظم والسياسة، حتى أن إنجلترا دخلت في حروب أو معاهدات سلام مع أسر وعشائر في أراضي أسكندنافية أو ألمانية أو فلاندية، ثم بدأت

---

(1) Brook, The Saxon and Norman, op. cit., p. 134; Barrow & Edward, op. cit., p. 149.

(٢) ستنتون: المرجع السابق ص ٦٤.

تتعامل مع ثقافة مغايرة لها، فبدأت تعاملها مع المتحدثين باللاتينية في نورماندي ثم فرنسا، وإن كانت البداية العظمى هي التزاوج الذي حدث بين أثلرد وإيما ونتج عن هذا التزاوج ابنا لهما وهو إدوارد المعترف الذي حكم إنجلترا، وإن كان نورمانيا أكثر من كونه إنجليزيـــا، ومـــع بداية حكمه بدأ نزوح النورمان على الشعب الإنجليـــزي، فقـــد نـــزح النورمان بنظمهم وقوانينهم وثقافتهم إلى إنجلترا مما ساعد على ضعف النظم الأنجلو – سكسونية القديمة[1].

وكانت الميزة الأساسية التي ظل الملوك الإنجليز محتفظين بها هي عراقة الأسرة التي كان ينتمي إليها، فإدوارد التقي أيا كان قصوره في ميدان العمل كان أكبر رأس لأسرة حكمت بـــدون انقطـــاع فـــي الغرب، أسرة ظلت باقية بعد اندثار جميع الأسر الحاكمة الإنجليزيـــة، وكان تاريخها يمتد قرونا قبل أن يعتلي هيو كابت عرش فرنسا، ولولا هذه العراقة في الأصل التي لا نزاع فيها لكان من المتعذر أن نتصور كيف يمكن الاحتفاظ بالوحدة الإنجليزية تحت حكم ملوك ضعاف مثل إيثرل غير المستعد وإدوارد المعترف؛ فقد كانت الملكية فـــي نظـــر الناس في ذلك العهد ضرورة لا جـــدال فيهـــا، فرجـــال المقاطعـــات الشمالية قلما كانوا يتطلعون إلى أبعد من سيد الإقليم حاكمهم المباشر، ولكنهم كانوا يحسون أن فوق الحاكم الذي يعرفونه يوجد الملك الذي لم يروه إلا نادرا أو لم يروه مطلقا، ولكنهم لم يفكروا أبـــداً فـــي إنكـــار سلطته[2].

---

(1) Freeman, op. cit., p. 135; Derry, op. cit., p. 55; Brook, Saxon and Norman, op. cit., p. 135.

(٢) ستنتون: المرجع السابق ص ٦٥.

- Haskins, History of Europe, p. 65.

وكانت مسألة العراقة وأصل المنبت هي موطن الضعف الوحيد في عهد الملك وليم الفاتح، ومما لاشك فيه أن شخصية وليم الفاتح نفسه كان لها تأثير عظيم على التاريخ الإنجليزي كله، ورأى أنه لابد من عمل تغيرات قوية في القانون والنظم السياسية القديمة والحصول لنفسه على سلطة كبيرة كيفما يشاء، ولكنه في بداية حكمه لاقى معارضة متزايدة وقامت ثورات ضده، وكان موقف وليم كملك قانوني وشرعي للإنجليز يخضع ويحكم طبقا للقانون الإنجليزي، ولكن رجلا أقل من وليم كان من الصعب عليه أن يكون قادرا على أن يبقى على هذا الموقف، وفي نفس الوقت يكون قادرًا على أن يتصرف في كل الأمور بشكل متكامل، كما يعتقد أن التغيير البعيد عن العنف يرجع إلى شخصيته وحكمه، فلم يحدث تحطم سريع في النظم العامة، وسمح للنظم بالتغير خطوة خطوة عند الحاجة[١].

والذي قضى على سلطة الملك هارولد، رغم كونه رجلا محنكا، ومقربا من إدوارد المعترف، وقد استطاع أن يقوي هارولد مركزه من الناحية العسكرية، وشجاعته الحربية هي التي عملت على تزكيته لإعتلاء العرش مادام لم يظهر من هو أقوى منه، لكنه لم يرتكز على ما هو أهم لأنه ليس من الأسرة الإنجليزية الحاكمة لذلك لأن يفتقد إلى عراقة الأصل التي كان يتميز بها الملوك الإنجليز الذين سبقوه رغم كونهم ضعاف وسلطتهم أقل منه[٢].

وإن عدم شرعية نسب وليم لم تكن في حد ذاتها عقبة في سبيل اعتراف رجال الشمال به ملكا، ذلك أن تقاليد الزواج لدى أنفسهم كانت شاذة من وجهة نظر النظام الكنسي، ولم يكن يهمهم البحث بدقة

---

(1) Freeman, op. cit., pp. 140 – 141; Haskins, Norman History, pp. 52 – 53.

(2) Hemshaw, op. cit., p. 84; Orderic, v., op. cit., p. 70.

في العلاقة التي قامت بين الدوق روبرت وأرلتا الفاليزية، ولكن كانت العقبة الخطيرة تتمثل في أن أدواق نورماندي لم يكونوا أصلا سوى قواد الجيش الذي غزا فرنساء وأنهم هم أنفسهم لم يكونوا أعرق نسبا من قواد العصابات التي استقرت في الشمال وكونت المقاطعات الشمالية – الدنيلو – عندما كان ألفرد ملكا على وسكس.

ويفسر لنا هذا النقص بعض ما يسترعي الإنتباه في تصرفات وليم، فهو يفسر مثلا إصراره على قيام تلك القرابة البعيدة التي تربطه بالبيت المالك الإنجليزي القديم، وإدعاءه بأن آخر ملوك إنجلترا – إدوارد المعترف – اختاره للعرش، ويصبح سهلا علينا أن نفهم عن طريق هذه النظرية ما دعاه إلى تدمير الشمال الأنجلو – إسكندنافي في شتاء سنة ١٠٦٩م، ولقد كان سبب هذا التخريب أن رجال الشمال ظهروا بثوراتهم المتكررة، لم يعترفوا بحقه الوراثي في الحكم، وأنهم كانوا يرون أنفسهم أحرارا في إختيار من يرونه ملكا عليهم. سواء كان أنجار النبيل وريث الأسرة الحاكمة الإنجليزية القديمة، أو سوين الدانمركي وريث بيت الملك كانوت، ومن أجل هذا فإن وليم حين أخذ يخرب الشمال لم يكن يخمد ثورة فحسب، ولكنه كان يفرض أسرة مالكة جديدة على شعب غير راضٍ عنها[١].

وكان الشعب الإنجليزي في ثورته ضد الملك وليم الفاتح في الشمال نابعة من رفض الشعب الإنجليزي للملكية الجديدة القادمة من فرنسا، فكانت مركز الثورات في الشمال الإنجليزي، وكانوا يحصلون على مساعداتهم من جيرانهم الأسكتلنديين[٢].

---

(١) ستنتون: المرجع السابق ص ٣٩.

- White, op. cit., p. 52; Derry, op. cit., p. 58.

(2) Davis, op. cit., p. 19.

وكان حصول وليم على اعتراف بقية إنجلترا به أكثر سهولة، وسبب ذلك أنه لم يكن في الجنوب – جنوب ويلاند على الأقل – مقاطعات كبيرة متماسكة ذات تقاليد في الاستقلال، ولهذا فإن الثورات التي اندلعت في الجنوب والغرب في السنوات الأولى من حكم وليم كانت متفرقة ومن السهل إخمادها، كما أنه استعاد في هذه الأصقاع المطالبة بالعرش الذي تعترف به الكنيسة(١).

وكانت حملة وليم قد نالت رضا البابوية، وكان نفوذ الكنيسة في نورثمبريا في الشمال ضعيف إلى حد كبير، وكان أكبر رجال الدين هناك هو الأسقف أيلدرد كبير أساقفة يورك هو الذي قام بتتويج الملك وليم الفاتح ملكاً على إنجلترا(٢).

بقاء العادات السكسونية:

أما بقاء العادات السكسونية فنرى أن الملك وليم النورماني وخلفاءه من بعده اتخذوا ما وجدوا في إنجلترا من قديم التقاليد، فأبقى الملك وليم على مجلس الواتان الإنجليزي، والذي يتكون معظمه من رجال الدين، وهذا المجلس هو الذي قام بتتويج وليم ملكا على إنجلترا كما هي العادة في إنجلترا(٣).

وتمكن وليم بفضل مهارته السياسية المتميزة في الإبقاء على ما كان يمكن استمراره من المؤسسات الأنجلو – سكسونية، فقد أبقى على المقاطعة المحلية – Shire – والمحاكم المائة، كما أبقى على المكاتبات الأنجلو – سكسونية، وهي الاتصالات المكتوبة التي كان

---

(١) ستنتون: المرجع السابق ص ٧٠.

- Poole, op. cit., p. 97.

(2) William of New brugh, vol. 1, op. cit., p. 20.

(3) William of New brugh, vol. 1, op. cit., p. 20.

المجلس الاستشاري الملكي يطلبها من نوابه المحليين، بيد أن هذه الأيدلوجية لم تكن سوى أيدلوجية هامشية[1].

واستخدم وليم المحاكم الجزئية والكلية القديمة التي وضعها الأنجلو – سكسون، وكانت هذه المحاكم تساعد على فرض قوته وسيطرته على البلاد، وكان عليها شريف من قبل الملك يعتبر نائبًا الملك، ولم يجعل مناصبهم وراثية، وأصبح هذا النائب مسئولا أمام الملك عما يرتكب من مخالفات، وأخضع الملك كل البارونات في المقاطعات تحت القانون الإقطاعي، وأخضعهم تحت سلطة المحاكم المختلفة في إنجلترا، وحول وليم هذه المحاكم إلى محاكم إقطاعية[2]، وأبقى الملك وليم على الوضع المالي – وإن طوره إلى الأفضل – فنجد أن ضريبة الدانجلد وهي ضريبة فرضها الملوك الأنجلو – سكسون لتمويل الجزية التي كانوا يدفعونها للغزاة الدانمركيين زمن إثلرد الثاني، واستمرار وليم في فرضها لمواجهة النفقات[3].

ولقد أبقى وليم الفاتح كذلك على القوانين القديمة، ولم يسن قوانين جديدة في بداية حكمه، أما القوانين التي استحدثها كانت تتعلق بالقوانين الكنسية، والتي قام بتغيير كثير من هذه القوانين لتتواءم مع علاقته بالبابوية والكنيسة الإنجليزية[4].

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٣٨٠.

- Derry, op. cit., p. 73.

(2) Dietz, op. cit., pp. 38 – 39.

(٣) كانت الضريبة التي تفرض على الأرض هي ستة شلنات عن كل هايد، وتعتبر ضريبة ثقيلة إلى حد ما على الفلاحين، ونشبت الحرائق في البلاد وكثرت المجاعات وسادت الفوضى والخراب.انظر في ذلك:

- Freeman, op. cit., p. 126.

(4) Barrow & Edward, op. cit., pp. 47 – 48; Freeman, op. cit., pp. 119 - 120.

ودلل وليم بذلك كله على أن ما اشتهر به من قسوة وصرامة ليس إلا ناحية واحدة من شخصية ذات سجايا ومواهب سياسية عظيمة، إذ رأى ما بقواعد المواطنة التي درج عليها الأنجلو - سكسونيين من فائدة لهم، فسار على مقتضاها سيرا حرفيا، مثل الدعوة العامة إلى حضور المحاكم، والمشاركة في البحث عن المجرمين، والخدمة في النفير العام، والإسهام في تعمير القناطر والجسور والحصون.

والواقع أن إنجلترا احتاجت إلى معاونة الأنجلو - سكسونيين أهل البلاد في شئون الحكم، وكان مما سهل قيام الحكومة المركزية في إنجلترا أنها بلد صغير المساحة، وأن الغال وأسكتلندا وأيرلندا لم تدخل ضمن ممتلكات وليم، وكذلك نورثمبريا التي خربت تماما ولم تعد مصدرا لأي خطر، ولذلك استطاع نواب الحكم من النورمان أن يقوموا بتنفيذ مشيئة الملكية الصغيرة أحسن قيام، وأن يجدوا من قرب المسافات بين بلادها وسيلة لتوكيد للسلام العام[1].

***

ثانيا : الحياة الاجتماعية في القرية

ظلت القرية طوال العهد النورماندي - كما كانت قبله وبعده بقرون- هي الأساس الذي تقوم عليه الحياة الاجتماعية الإنجليزية؛ ذلك لأن القرى الإنجليزية كانت قبل أن يطأ الغازي بقدمه أرض البلاد قد أخذت وضعها الجغرافي الدائم، وكان اختفاء القرية في العصور الوسطى حدثا استثنائيا، كما كان ظهورها حدثا جديدا واستثنائيا أكثر من الأول.

---

(١) فشر: المرجع السابق، ص ١٦٤.

وتدل كل الشواهد على أن المجتمعات المختلفة، أي: القرية والدسكرة – الكفر – والعزبة المنعزلة، وما يتبعها من أكواخ كما هي اليوم كانت موجودة في العهد النورماندي؛ فقد كان قيام مجتمع بعينه دون غيره من المجتمعات يتوقف على اختلاف نوع القرية أكثر من أي إعتبار تاريخي معين، وإن أبرز سمات الحياة الريفية هو استمرارها[1].

وكانت القرية هي الوحدة السياسية والدينية، بينما قامت الوحدة الزراعية على الإقطاعية، وغالبا ما كانت القرية وإقطاعيات السيد الإقطاعي متلازمين، ولكن كثيرا ما يحدث أن تضم قرية واحدة إقطاعيتين أو أكثر؛ وإذا بحثت عن قريتك في تاريخ المقاطعة أو سألت أحد رجال الآثار المحليين فلربما وقعت على أسماء مختلف الإقطاعيات، وهي تحمل عادة أسماء بعض الملاك السابقين على غرار الأسماء التي لا تزال تطلق حتى وقتنا الحالي على كثير من المزارع والحقول[2].

والقرية في العهد النورماندي كانت تتمتع بالحرية إلى حد كبير والتي لم يستطع اللورد أن يجعلها من أملاكه الخاصة، فمثلا في جرانتشستر – Grantchester – بالقرب من مقاطعة كمبريدج والتي كانت تحتوي على خمسين رجلا قرويا، والذين كانوا جميعهم أحرارًا، وكانوا على خلاف دائم مع اللوردات، لأن هذه القرى ملك للدولة ويشرف عليها اللوردات، وكان العمل بشكل أساسي متروك على

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٤٨.

- Vinogrdoff, f., Villainage in England, essays in English Mediaeval History, oxford, press, 1892, p. 7.

(٢) ج . ج . كولتون : المرجع السابق، ص ٤١.

- Jounson, op. cit., p. 37.

عاتق الأقنان، وهذا الوصف في قرية جرانتشستر كان مساويا وملائما للعديد من القرى في مقاطعة كمبريدج والقرى الأخرى(١).

والقرية الإنجليزية أصبحت مميزاتها الأساسية واضحة مع بداية الفتح النورماني لإنجلترا، حيث كانت القرية مليئة بمساكن القرويين، ومن حولها الأراضي الواسعة القابلة للزراعة وهي الحرفة الأساسية التي كان يمارسها القرويين، وكان نظامهم في زراعة الأراضي في القرن الحادي عشر والثاني عشر أن يترك نصف هذه الحقول بورا بدون زراعة كل عام، ويزرع ثلثها قمحا، والثلث الثاني بقولا، ويترك الثلث الآخر بدون زراعة لإراحته وهذا هو نظام الحقول الثلاثة(٢).

فعلى الرغم من أن نصيب الفلاح العادي قد ظل موزعا بالتساوي تقريبا على الأقسام الرئيسية التي يتكون منها زمام القرية، فإنه لم يكتشف وجود تتابع معين في توزيع الشقات – شرائح – في حقل ما في القرن الثاني عشر إلا فيما ندر، وكان جائزا أن يملك الفلاح أربعة أو أكثر من هذه الشقات قطعة واحدة، غير أن الذي لاريب فيه أن الشعور السائد كان وجوب تحديد نصيب الشخص من الأراضي الزراعية في كل بلدة بمعنى أنه إذا كانت الظروف المحلية مثلا تقضي بأنه أكثر ربحا للفلاح العادي أن يكون نصيبه ثلاثين فدانا إنجليزيا، فيجب العمل على رفع أكبر عدد ممكن من الأنصبة إلى هذا الحد(٣).

---

(1) Lipson, op. cit., pp. 11 – 12.

(2) Arthur, op. cit., p. 48.

(٣) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٥.

- Coulton, Medieval Panarma, op. cit., p. 282.

وكان تحديد الأنصبة تيسير لتقسيم الخدمات الواجبة لسير الأرض والضرائب الواجبة للملك، ولذا ظهر في وقت مبكر اتجاه إلى جعل الأنصبة التي تقل عن المتوسط توازي نسبة بسيطة لــه، فكــان يوجد بجانب النصيب الكامل المكون من ثلاثين فدانا إنجليزيا نصف النصيب المكون من خمسة عشر فدانا، ولم يُهمل هــذا النــوع مــن التحديد إلا في مناطق ذات وضــع اســتثنائي مثــل أيســت أنجليــا ومستنقعات لنكولنشير، وطبيعي أن هذه الأنصبة القديمة كانت تتجــه نحو التفتيت على مر الزمن، فقد كانت الأرض تُباع وتُشترى حتى في القرن الثاني عشر، وكان القروي الثري يضم أنصبة جديدة إلى نصيبه وأفدنة أخرى إلى أفدنته؛ إلا أنه على الرغم من ذلك ظل النظام القديم محتفظا بالشيء الكثير من قوته طوال العصور الوسطى، واستمر باقيا في أماكن كثيرة حتى القرن الثامن عشر[١].

ومع كل ذلك فالنظام الإقطاعي الذي وضعه وليم الفاتح كــان متأخرا عن معظم الدول الأوربية التي سبقت إنجلترا، ولكن وليم عمل على تطويره، وإن كان لا يخدم القرية في بعض عناصره، فقد كــان اللورد هو السيد المتحكم في الأرض، لذلك أسرع وليم بتنظيم المحاكم الإقطاعية؛ وذلك لكي يحمي أصحاب الأراضي الضعفاء من بطــش السيد اللورد بالأحرار والعبيد على حد سواء[٢].

وذكر كتاب يوم القيامة عددا كبيرا من الفلاحين الأحرار الذين يتملكون الأرض في القرية، وذكر عددا من الأقنان كذلك، وذكر أنهم بالنسبة للورد شيء هام، فقد كان القن هو مصدر رزق الســيد مــن ناحية ارتباط القن بالأرض والعمل بها لإطعام السيد.

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٥.

(2) Vinogradoff, op. cit., p. 9.

وعلى كل حال لم يكن للقن الحق في تغيير سادته إلا بقتلهم أو اقتراف جريمة ما أو الهرب منه أو تكديس المال لشراء حريته وهذا مستحيل، فقد كان القن مرتبط بالأرض والأرض مرتبطة به، فلم يكن للورد الحق في طرده منها إلا إذا رفض واجباته القانونية نحو سيده اللورد، وإن أصبحت قرى السادة اللوردات مستقلة وحرة في إمتلاك الأرض وبقيت على حالتها بصفة عامة حتى القرن الثالث عشر[1].

وكان السيد اللورد في قريته يمتلك مزرعته الخاصة التي يعيش عليها داخل قصره، والذين يعملون في المزرعة كانوا من الأقنان ولم يكن له دخل سوى ما يلتقطه من الأرض بعرقه، وقد حدد "ليبسون" الأسباب التي آلت بالرجل الحر أن يصبح قن وذلك لثلاثة أسباب:

- النظام المالي: يعني احتياج الرجل الحر إلى المال فيطلبه من سيده اللورد "أعطني مقدارًا وأكن تابعك".
- مطالب الحكومة: وتشمل أن يهب نفسه للكنيسة، أو يفشل في الدفاع عن نفسه فيسلم نفسه إلى اللورد ليحميه ويكون تابعه.
- المطالب الحربية يمكن أن يكون قد طُلب للخدمة فرفض، وعُوقب بإنزاله إلى مرتبة القونية[2].

ونستطيع أن نصور القرية في العصور الوسطى بالمقارنة بمثيلاتها في العصور الحديثة، إذ أن الأرض هي الأرض لم تتغير ماعدا الحواجز التي تفصل الحقول عن بعضها البعض في الريف الإنجليزي في العصر الحاضر، فقد طمست معالم الحقول السابقة؛ فالكنيسة والدوار Manor house – ودكاكين أرباب الحرف اللازمة لمجتمع متكفل بحاجاته، وكانت المحاصيل وبيوت الفلاحين في بقعة

(1) Lipson, op. cit., p. 13.

(2) Lipson, op. cit., p. 13; Terence wise, op. cit., p. 103.

واحدة تحيط بها الأرض الزراعية التي لا تزال على حالتها حتى الآن، وما عدا ذلك من أرض القرية فهو للخلاء المشاع لرعاة الماشية في الشتاء؛ وكل هذه الأجزاء بقيت في أغلب الأحيان في حوزة السيد البارون صاحب الإقطاع، وظل الفلاح الذي يعيش في مثل تلك القرية من طبقة صغار المزارعين ومأواه بيت حقير البناء؛ بدليل ما بدا في تلك العصور من شيوع الجريمة وإحراق البيوت انتقاما من أصحابها، واحتوى ذلك البيت الحقير على ما يناسبه من أفقر أنواع الأثاث، بحيث كان أغلى ما فيه من الحديد[(١)].

وكان العمل اليومي لسكان القرية هو زراعة حصتهم من الأرض الزراعية، حيث كانت الأراضي قطع متفرقة، وكان على الفلاحين العمل سويا في الأرض، لأنه كان من الصعب على الفلاح أن يقوم بمفرده بحرث شريحة واحدة، وكانوا يضمون كل الشرائح معا ويستخدمون الثيران في حراثتها ثم تقام عليها الحدود مرة ثانية، وكذلك في موسم الحصاد كانوا يقومون بالحصاد سويا، وأهم ما يزرعونه في قراهم ليستعينوا به في قوتهم اليومي الخضروات والبقوليات[(٢)].

وظلت طرق الزراعة في القرية على حالتها لم تتغير طوال العصور الوسطى، واقتصر إصلاح الأرض على التجيير بالتراب الحراري وتقليب الأرض بالمحراث Ploughing – لخلط التربة بجذور الزرع وجذاماتها Stubble – وإطلاق المواشي في الأرض للرعي بعد الحصاد، وكانت المحاصيل تكفي أهل القرية[(٣)].

---

(١) و. كويلاند – ب فينوجرادوف: المرجع السابق، ص ٤١ – ٤٢.

- Jounson, op. cit., p. 37.

(2) Coulton, Medieaval Panarma, op. cit., p. 282; Mowuat, op. cit., p. 52.

(٣) و كويلاند – ب. فيوجرادوف: المرجع السابق، ص ٤٣.

وكانت المروج الشائعة أقل أهمية لمجتمع القرية من الأراضي الزراعية، وكان أهل القرية يقتسمون هذه المروج عادة كل بنسبة نصيبه من الأرض الزراعية، وكثيرا ما كانت تزرع بطريقة القرعة كل عام، وينطبق المبدأ أيضا على حقوق الرعي التي كان القرويون يتمتعون بها في الأراضي البور؛ ولم يكن يسمح لمن لا يملكون أنصبة في أرض القرية الزراعية بالرعي، وكانوا على أي الأحوال قلة بالإشتراك في رعي الأرض البور إلا إذا كان المرعى كافيا لكل ما يمكن أن يحتاجه ذوو الأنصبة، وهو لم يكن يحدث إلا نادرا.

ويكشف كتاب دومزدي بوضوح عن طبقة كبيرة من سكان الأكواخ يختلفون تماما عن أصحاب الأنصبة في الحقول المفتوحة العادية، وقد أضحى هؤلاء طبقة لها أهمية في مستقبل القرية، فمنها ظهر العامل الزراعي المستقل، ولكن جرت العادة في القرن الحادي عشر أن يكون لسكان الأكواخ نصيب يقدر عادة بمتوسط خمسة أفدنة إنجليزية، ولم يكن حصول صاحب هذا النصيب على حق الاشتراك في رعي الأراضي البور لينقضه بأي شكل المبدأ الأساسي الذي يقضي بأن الأرض البور لا حق فيها إلا لمن يملكون أنصبة في الأراضي الزراعية[1].

ومثل هذا الوضع في حاجة إلى تنظيم متفق عليه من الجميع، فقد كانت الزراعة في عهد الملوك النورمانديين وبعد هذا العهد بمدة طويلة عملا تعاونيا في أساسه، فالطاقم الكبير الذي يجر المحراث والذي يبدو أنه يتكون عادة من ثمانية ثيران، كان يشترك فيه عدد من القرويين، وكانت مصالح القروي مرتبطة بمصالح جيرانه ارتباطا وثيقا لا يدع مجالا لخلاف، كذلك كان اختلاف الطقس في الفصول

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٤٦.

- Williamson, op. cit., p. 48.

بين سنة وأخرى، والعمل الجماعي الذي لابد منه في بعض الأحيان، كإنشاء مصرف مثلا يقتضي من أهل القرية الوصول إلى تفاهم مشترك بين الحين والحين، ومعنى هذا أن الاجتماعات الدورية للقرويين والتي نستطيع أن نطلق عليها مجالس بلدية ظهرت في عصر مبكر بسبب ضرورات الطريقة البدائية في الزراعة التي كانت سائدة في إنجلترا في العهد النورماندي، ونحن لا نعرف إلا القليل مما كان يدور في هذه الإقطاعيات لأن هذه المجالس لم تكن لها سجلات، كما أن الذين كانوا يسجلون قرارات المجالس الملكية قلما كانوا يعيرونها انتباها، ومع ذلك فإن هذه الاجتماعات غير المسجلة التي كان يعقدها القرويون جديرة بأن نتذكرها إلى جانب المجالس المئوية، وأصبحت مجالس المقاطعات تقوم بمهام قد تبدو غريبة لأهل القرن الثاني عشر، ولكن اللوائح الفرعية الحديثة يرجع أصلها إلى القواعد التي وضعها أهل القرى الإنجليزية في العهد النورماندي وتنظيم شئونهم المشتركة في الزراعة[١].

أما عن المحاكم القروية التي كانت توجد بالقرية فهي تشمل البارون حتى القن، فقد كان البارون بالقياس إلى سيدة الإقطاعي الأعلى فصل من الأفصال، فنرى أنه يستغل إقطاعا من الأراضي يمنحها إياه سيده صاحب الإقطاع وذلك مقابل قسم إقطاعي يقسمه البارون ويتعهد فيه المثول أمام المحكمة البارونية الخاصة بالنظر في قضايا التابعين، وكان يمكن للسيد المانح أن يسترد الإقطاع متى شاء[٢].

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٦.

- Arthur, op. cit., p. 30.

(2) Esme (W. S.), op. cit., p. 128.

- Deitz, op. cit., p. 38.

وأشرفت المحاكم برئاسة وكيل السيد الإقطاعي في القرية على تنفيذ الالتزامات والفصل في القضايا المختلفة، فهي التي تفصل فيما يقع من مخالفات للعادات المرعية، وهي التي تقضي بين أهل القرية على مقتضى تلك العادات التي خففت ما هناك من ظلم وجور، إلى درجة أبعد مما يتبادر غالبا للأذهان، ومن ذلك يتضح أن الفلاح في العصور الوسطى لم يفكر إلا في شئونه الخاصة، فإذا اعتدى جاره على خط أو خطين من أرضه فاق اهتمامه لذلك عن اهتمامه بأمر من الأمور العامة، إذ أن القرية هي الدولة والحكومة عنده، وشئونها هي وحدها التي تمس حياته ومعيشته وكيانه[1].

وبالنسبة للأسواق في القرية فقد كانت ذات أهمية كبرى، إذ أن عددها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر قد تزايد بشكل ملحوظ، وكان هناك أسواق أسبوعية هدفها تزويد السكان بالمؤن الضرورية لحياتهم اليومية ويحصر نشاطها في البيع القطاعي للمؤن بخلاف الأسواق التجارية التي كانت موسمية[2].

وكان لكل قرية في إنجلترا حرفي تعتمد عليه في الضرورة، فمن المفروض أن يكون لكل قرية حدادها، فإن لم ترع القرية ذلك طواعية أرغمت عليه قسرا، لأن وجود الحداد كان ضرورة ملحة، كذلك يتحتم وجود نجار في القرية، أما الترزي فحاجة القرية إليه أقل بكثير من ذلك، أما صاحب الحانوت فلم يكن له وجود في القرية على الإطلاق فقد كان الطعام والشراب والكساء متوفر داخل القرية، من زراعة تنمو إلى كساء يصنع إلى شراب يعد حتى آخر كسرة من الطعام أو نقطة من الشراب أو غرزة من الخياطة، وما كان يتعذر

---

(١) و. كوبلاند – ب. فينوجرادوف: المرجع السابق، ص ٤٦.

- Vinogradoff, op. cit., p. 46.

(٢) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٩٨.

عمله في القرية كانوا يجلبونه من المتاجر والأسواق القائمة في أقرب مدينة منها[١].

ونحن لا نحتاج في الواقع إلى قدر من الجهد ليتسنى لنا تكوين فكرة عن طريقة الاكتفاء الذاتي، وبالتالي عن العزلة التي يعيش فيهما الريف في القرون الوسطى، وكان متوسط تعداد أفراد القرية في إنجلترا لا يزيد عن أربعمائة نسمة تقريبا، ويبلغ البالغين منهم حوالي مائتين وخمسين نسمة على الأكثر، ومائة وخمسين طفلاء وكان كل أولئك يقضون حياتهم عادة داخل القرية، دون أن يشاهدوا من الخلق إلا القليل فيما جاوز قريتهم، ففيما عدا المارة والزائرين المؤقتين كان أولئك الرجال والنسوة يعيشون في القرية من المهد إلى اللحد، حيث يرافقهم عدد من البالغين بقدر ما يكفي لملأ أربع عربات من لندن وكان يُعرف كل ما باسمه كما كانوا يرون كل واحد منهم ويتحدثون إليه يوميا[٢].

أما عن عادة دفن الأموات في القرية، فكان القرويون يحملون أمواتهم إلى قطعة من الأرض في نفس القرية، بشرط أن تكون مجاورة إلى منازلهم ويوارونهم التراب، وكانت أعداد المقابر كثيرة وليس لها مكان محدد، فهي عبارة عن مشاع لكل فرد من أفراد القرية وله الحق في دفن الميت الخاص به في أي مكان يخصه، وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر تم تعديل الوضع فأصبح لكل قرية في إنجلترا مقابر معروفة باسمها، وكانت الكنائس الموجودة في هذه القرى تشرف على دفن الموتى بتراتيم كنيسة معينة، ويعني ذلك أن

---

(١) ج. ج. كولتون: المرجع السابق، ص ٥١.

- Stenton, op. cit., p. 115.

(٢) ج. ج كولتون: المرجع السابق، ص ٥٤.

- Peter & Brian, op. cit., p. 32.

أصبح دفن الموتى تحت إشراف الكنائس ورجال الدين، وكان القائمون على الكنيسة من رجال الدين لهم مدافنهم الخاصة في الكنيسة نفسها[1].

***

ثالثا : حيازة الأرض مقابل الخدمات

أن أهم ما تركه الغزو النورماني في إنجلترا من آثار اجتماعية هو دول الأرستقراطية الأجنبية إلى إنجلترا، وقيام وليم الفاتح بتوزيع المكافآت عليهم لمساعدته في عملية الفتح، فوزع عليهم أراضي كثيرة على أن إعطائهم هذه الأراضي كان له مقابل[2] ، وكان المقابل الذي يهدفه وليم هو تقديم ثلاث خدمات؛ الأولى هي الخدمة العسكرية، والثانية هي الخدمة في الحاشية، والثالثة هي الخدمة في مقابل الحصول على الأراضي الزراعية.

(أ) الخدمة العسكرية:

لقد قام وليم الفاتح بفرض أعباء عسكرية محددة على أتباعه وذلك عندما يحتاج إليهم الملك، ولقد أصبح في مقدورنا الآن أن نعلم شيئا عن الظروف التي أحاطت بالطريقة التي كوفئ بها من ساعد وليم الفاتح في عملية الغزو، وذلك بفضل جهود المورخين المحدثين ودراسة سجلات العصور الوسطى في إنجلترا وهي سجلات لا تفوقها سجلات أخرى، وليس هناك شك في أن الملك وليم كان يعتبر جميع الأراضي في إنجلترا رهن تصرفه غير المحدود، باستثناء أملاك الكنيسة القديمة التي كان من الطبيعي أن يحترمها.

---

(1) Cunningham (F. B. A), English Influence on The United States, Cambridge, 1916, p. 7.

(2) Cross, op. cit., p. 76.

فقد كان الملك هو الذي يقرر مقدار ما يأخذه كل واحد من كبار أتباعه من الأرض، وهل يأخذ نصيبه قطعة واحدة مثل مقاطعة شيستر، أو يأخذها قطعا متفرقة في عدة مقاطعات مختلفة، كما كان الملك وحده يقر مقدار الخدمات التي تستحق مقابل الأرض، وكانت الخدمات تقدر عادة في جميع أنحاء البلاد بعدد الفرسان الذين يجب على كل سيد أن يقدمهم عندما يطلبهم الملك، ولم يكن هذا العدد يتحدد تبعا لقيمة الأرض الممنوحة أو لمدى اتساع رقعتها، بل كان الملك وحده هو الفيصل.

ويرجع نظام خدمة الفرسان العسكرية الذي كان قائما في إنجلترا النورماندية في آخر أمره إلى سلسلة من المفاوضات الشخصية بين الملك وليم وكبار أتباعه[١].

وبالغ المؤرخون في عدد الفرسان الذين دخلوا إنجلترا في عهد وليم الفاتح، فالأتباع الأساسيون من النورمان كان يتراوح عددهم بين مائة وسبعين إلى مائة وثمانين بارون، وكان هؤلاء الأتباع يقدم الواحد منهم حوالي ستين فارسا من رجاله إلى الملك في حالة طلب الملك، وكان هذا الرقم كبير بمقارنة عدد الفرسان الموجودين في إنجلترا، وكان يتراوح بين أربعة آلاف إلى خمسة آلاف فارس، وكان عدد الفرسان كثيرًا إذا علمنا أن التابع كان يجهز هؤلاء الفرسان ويمدهم بكل الأدوات الحربية[٢].

ولم يتم استقرار الفرسان الذين يتكون منهم الجيش، ويبدو أن أغلب اللوردات كانوا في الأيام الأولى للفتح يحتفظون بفرسانهم إلى جانبهم في حاشيتهم وكانوا مستعدين للخدمة فورا، ولكن التحرك بدأ

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٧٧.

- Ditez, op. cit., p. 45.

(2) Wood Ward: op. cit., p. 53; Jounson, op. cit., p. 35.

قبل موت الغازي بوقت طويل، وتحول على أساسه جزء كبير من مساحة إنجلترا إلى "جعول" الفرسان – Fess – أي: إلى ضياع كان يقصد بها في بادئ الأمر أن يعول كل منهما فارسا واحدا، ولم تكن هناك سنة أو قاعدة عامة تحدد (جعل الفارس) ولكن يمكن القول بصفة عامة أن جعل الفارس يتكون من قرية وزمامها من الأراضي، إلا أنه عند التطبيق العملي كانت هناك خلافات لا حصر لها لهذه القاعدة.

وليس هنالك شيء من شك في أن الفارس النورماندي هو الأصل الذي انحدر منه سيد الإقطاعية، وكثيرًا ما نجد أن الفرسان النورمانديين هم أسلاف سادة الإقطاعيات، ثم أخذت القرية وهي الوحدة الزراعية الإقطاعية وهي الوحدة القضائية الخاصة، وجعل الفارس هو وحدة الخدمة العسكرية، وأخذت هذه كلها تنزع بطبيعة الحال إلى أن تكون متطابقة[1].

وكانت الإقطاعية ومجلسها المختص الذي ينظم نشاط القرية. ومقر السيد الإقطاعي وما يلحق به من أراضي يقوم عليها النظام الجماعي الذي يتبعه القرويون في زراعة حقولهم، وكذلك المخصصة لسيدهم[2].

وكانت العادة أن السيد يوفر الحماية إلى فرسانه وكذلك المواطنين الذين يتبعونه، والفارس عليه أن يقدم الخدمات لسيده، وكانت دقة النظام الإقطاعي هي التي جعلته أساسا صالحا لقانون الأرض في تلك العصور، وهي دقة كانت ممكنة إلا في دولة مفتوحة حيث يمكن تطبيق الأفكار الجديدة دون تعقيد ناشئ عن التقاليد[3].

---

(١) ستيلتون: المرجع السابق، ص ٧٨.

(2) Arthur, op. cit., p. 42; Petit, op. cit., p. 65.

(3) Dietz, op. cit., p. 40; Cross, op. cit., p. 84.

وكانت هناك تغيرات طرأت على خدمة الفارس في إنجلترا خلال الجيلين اللذين أعقبا الغزو، وكانت خدمة الفارس في جوهرها هي تقديم فارس واحد كل عام كامل العدة للخدمة مدة أربعين يوما بأمر الملك، وكان تقدير هذا الالتزام المحدد بما يقابله نقدا من السهولة بمكان، وكان هذا ما يحدث فعلا قبل أن ينتهي القرن الحادي عشر، ويظهر لنا من السجلات التي أصبحت كثيرة خلال القرن التالي أن كثيرا من اللوردات أخذوا يفاوضون الملك في قيمة البدل التي كانت تختلف من آن إلى آخر، وكانت القيمة عادة عشرين شلنا نظير خدمة الفارس الواحد، وكان المبلغ الذي يؤدى في هذه الحالة يسمى "بدلا" وهي كلمة كانت تستعمل من قبل في السنين الأولى من حكم هنري الأول[١].

وكانت عملية البدل في صالح الملك، حيث مكنته هذه العملية من وضع الفرسان تحت تصرفه، ويعتبر هذا النظام مماثلا لنظام المرتزقة الذي شهدته العصور الوسطى، ووفر البدل على البارونات والفرسان الاضطرابات التي تحدث لتنفيذ أوامر الملك وأسيادهم كتابعين لهم[٢].

وواضح من الصيغة العسكرية للأرض التي كانت في حوزة الفارس أنها كانت إسمية بحتة، فكان مقابل الخدمة في أرض توازي جزءا من أربعين جزء من خدمة الفارس تعني أداء مبلغ من المال يوازي جزءا من أربعين جزءًا مما يساويه جعل الفارس، مقدرا على أساس ما كان يجبى من حين لآخر من "بدل"، يضاف إلى هذا المبلغ قدر من المال يوازي قيمة ما يتعرض له الفرسان الحائزين من حوادث وما يؤدون من رسوم، وإذا مات حائز الأرض وترك وريثا

---

(١) ستينتون: المرجع السابق، ص ٧٨.

(2) Jounson, op. cit., p. 35; Arthur, op. cit., p. 41 - 42.

قاصرًا فإن السيد الذي يتبعه يصبح وصيا عليه، وإذا كان للوريث بنتا فإن زواجها أمر يديره السيد نفسه.

وكان وريث الحائز مقابل الخدمة العسكرية في جميع الحالات يؤدي مبلغا من المال إلى السيد، ويرجع إلى هذا النظام في الحيازة الفضل في أن الإقطاع ظل قائما أمدا طويلا بعد أن زالت عنه صفته العسكرية الأصلية[١].

(ب) حيازة الأرض مقابل الخدمة في الحاشية:

أما عن حيازة الأرض مقابل الخدمة في الحاشية، فكثير من أبناء الفرسان كانوا على استعداد للحصول على الأرض مقابل خدمات ذات صبغة عسكرية كأن يعملوا وكلاء أملاك، أو رؤساء حجاب، أو أمناء، أو غير ذلك من الأعمال في حاشية السادة الذين يتبعونهم، وكانت حيازة الأرض مقابل هذه الخدمات هي خدمات لانهاية لتنوعها وتعرف بالحيازة مقابل الخدمة في الحاشية.

ولم يأخذ هذا النوع من الحيازة ما يستحقه من أهمية في النظام الإقطاعي حتى عهد قريب، فلم يتبين للناس إلا أخيرا أهمية الدور الذي يقوم به موظفوا الحاشية في إدارة المقاطعات وخاصة دورهم في إدارة المملكة نفسها، فقد كان موظف الحاشية ذا أهمية كبرى لأنه دائم الاتصال بسيده أكثر مما كان الحائز يتصل به مقابل خدمة عسكرية، ولقد كان هو المستشار الطبيعي لسيده، وكثيرا ما كان يدير ممتلكاته وغالبا يكون الصديق الشخصي لسيده[٢].

---

(١) ستينتون: المرجع السابق، ص ٧٩.

- Arthur, op. cit., p. 43.

(٢) ستينتون: المرجع السابق، ص ٧٩.

- Cam. Med. Hist, vol. v., p. 513.

(ج) حيازة الأرض مقابل الخدمة الزراعية:

أما عن حيازة الأرض عن طريق الخدمة الزراعية، فقد كان الفلاح له الحق في أن يحوز أرض مقابل الخدمة الزراعية التي يؤديها للسيد الإقطاعي، وكان لهذا أثره في العلاقات بين اللورد وطبقة الزراع، وكان الملك يعطي الأرض للبارونات وكان لهم الحرية الكاملة في أن يؤجروا أرضهم ليقوم بزراعتها مستأجرون غير عسكريين الذين يدفعون الإيجارات إما مالا أو محاصيل زراعية بالإضافة إلى بعض الخدمات الزراعية الخفيفة الأخرى.

ولقد وضح "إذن" أنه على الرغم من أن الإقطاعيات في مجملها يتم قياسها عن طريق خدمة الفرسان، فإن نسبة من الأراضي التي تتكون منها الإقطاعيات كانت إيجاراتها من الباطن، فيعطيها البارون إلى أقاربه أو تابعيه من الخارج وهؤلاء الرجال كانوا من أصل إنجليزي وتمسكوا بالأرض عن طريق الخدمة لحيازة الأرض[(١)].

ويبدو أن إنجلترا ونورماندیا بلغتا مستويين متشابهين في التطور الاقتصادي في أواخر القرن الحادي عشر، وقد كانت طبقة الفلاحين الأساسية في كلا البلدين من رجال يلزمون بأداء قدر من الخدمة المنظمة في أرض اللورد الذي يتبعونه مقابل ما في حيازتهم من أرض، وكانت خدماتهم تحت إشراف وتصرف اللورد لمدة أيام محدودة في كل أسبوع، ويقومون بالعمل فيها بما يعهد إليهم من أعمال، وكان يطلب إلى كل حائز من هذه الطبقة فضلاً عن هذه الخدمة المنتظمة وأن يقوم بمساعدة اللورد في المواسم التي تتطلب زيادة في الأيدي العاملة مثل وقت الحصاد وصنع الدريس، ودفع مبالغ مختلفة لسيده في مناسبات عديدة[(٢)].

---

(1) Com. Med. Hist., vol. v, p. 513.

(٢) ستيلتون: المرجع السابق، ص ٨٦.=

رابعًا : تطور الحياة في المدن الإنجليزية في عهد النورمانديين

لا يزال معظم تاريخ المدن الإنجليزية القديم يحيط به الغموض، وكل ما يمكن معرفته هو أنه أتى على هذه المدن وقت اضطلعت فيه حصونها بواجب هام في حماية البلاد من الغزاه الأسكندنابيين والبريطانيين، ولكن قيمتها العسكرية كانت قد أصبحت ضئيلة قبل الغزو، فعمليات الحصار التي ظهرت في تاريخ العهد النورماندي في إنجلترا كان أغلبها حصار قلاع وليس حصار مدن، وكان الفرق واضحا بين المدينة والقرية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وقد تنبه ملوك إنجلترا القدماء إلى ضرورة صيانة الطرق البرية التي تصل بين المدن، وكان الاعتداء على المسافرين المارين في هذه الطرق من أخطر الجرائم المعروفة في القانون العرفي في إنجلترا النورماندية[١].

وكانت التغيرات الفكرية والدينية العظمى التي حدثت في القرن الثاني عشر مصحوبة بظهور طبقة جديدة في المجتمع الأوربي وهي الطبقة البرجوازية أو سكان المدن، والتي كانت نتاجا للتوسع التجاري الذي بدأ في القرن الثاني عشر باستثناء شمال إيطاليا (بلجيكا وبولندا والكسمبورج) وكان لابد أن تمر قرون عديدة قبل أن تصبح القوة السياسية للبرجوازية مساوية لأهميتها الاقتصادية، ولكن في الحياة الثقافية والدينية لتلك الفترة كان تأثير نشأة المدن فيها واضحا تماما[٢].

= - Mowat, op. cit., p. 60.

(١) ستينتون: المرجع السابق، ص ٨٤.

(2) Cantor (N. F.), op. cit., p. 237.

وأصل معظم المدن الإنجليزية كان غير واضح، وعند حدوث الثورة البرجوازية بدأت هذه المدن تظهر على الساحة، برغم الصعوبات واختلافات الآراء التي كانت تدور حول النظام الاقتصادي لهذه المدن، وكذلك وضعها الاجتماعي الذي أصبح واضحا تماما، وجذبت هذه المدن السكان وبدأت كفاحها من أجل حصولها على الامتيازات، وترسيخ نظامها الإقطاعي، وأعطى الملوك بأنفسهم هذه المدن الإنجليزية الناشئة حقوقها كاملة[١]؛ وكانت حياة أهل المدن تسير في ظل طبقة الأرستقراطية التي جلبها الغزو النورماني لإنجلترا[٢].

ونستطيع أن نقول أن التغيير الذي طرأ على حياة أهل المدن كان في نواحيه أكبر من ذلك الذي طرأ على حياة أهل الريف، فقد تغيرت الحياة في المدن بسبب وجود العنصر الأجنبي، وقيام صلات بالقارة أوثق مما كانت عليه قبل الغزو، وبسبب الأفكار الجديدة التي جاءت من الخارج عن طريق حكومة المدن، فمجلس البلدية والاتحاد المكون من المواطنين الأحرار الذين تعاهدوا للدفاع عن حرياتهم، وظهر في لندن أيام حكم الملك ستيفن وهو بلا ريب محاكاة لنماذج أجنبية من نوعها.

وقامت الطوائف التجارية والمهنية التي جاءت عليها وقت كانت تسيطر فيه الحياة في المدن فظهرت في إنجلترا عدة مدن قبل موت هنري الأول، ولم تكن هذه الطوائف معروفة قبل الغزو، ويمكن القول دون أن نخطئ أن ظهورها كان نتيجة مثل أجنبية مماثلة من نوعها، أو نرى أن أحد كبار البارونات في بعض الجهات وخاصة ليستر ولور ثمبتون وهو سيد المقاطعات يصبح حاكما مباشرا لإحدى عواصم الأقاليم، ولكن التغيرات التي طرأت على حياة المدن والتي

---

(1) Mitchell, op. cit., p. 93.

(2) Orderic, v., op. cit., p. 42.

يمكن الجزم بأنها من آثار الغزو كانت على الرغم من ذلك أقل مما كان يمكن أن يتوقع[١].

ولكي نفهم وضع هذه المدن لابد من توضيح موقع هذه المدن ثم دخل كل مدينة، وحجم المجتمعات المدنية، وعندما تم تجميع المسح الخاص بكتاب دومزدي عام ١٠٨٦م كان هناك مائة بلدية على نفس أسلوب بناء البلديات، حيث كان فيها أهل المدن وأهل الحرف ويمكننا معرفة بعض الأمور الخاصة من خلال المسح حول النظم والعادات، ومن الصعوبة بمكان أن يتم شرحها وتفسيرها بسبب تبعثر عدد كبير من العائدات وعدم الإنسجام بين المدن[٢].

ولكي نتعرف على حكمة أهل المدن نقف غير مبالين بالعديد من الأنواع المختلفة لمراكز التجارة، بحيث تشمل مدن ذات شهرة قديمة مثل لندن وإكسفورد وستامفورد، وعلى الجانب الآخر من المدن الصغيرة التي قامت مؤخرا عن طريق البارونات النورمانيين بالقرب من مكان قصورهم مثل التي كانت في ويجمور – Wigmore – وردلن – Rhuddlan –[٣].

موقع المدن الحصين:

أما عن موقع المدن التي كانت تستمد رخاءها من موقعها الممتاز، فهي تقع إلى جانب جسر مثل كامبريدج أو جدول ماء مثل إكسفورد وبدفورد، أو تقع بجوار مصب نهر كبير كمدينة كينجـ ذلين، أو عند بوابة إحدى القلاع كقلعة رايزنج – Castle Rising –، وكان أهالي هذه المدن سعداء الحظ ينعمون بأكثر مما ينعم به القرويون

(١) ستينتون: المرجع السابق، ص ٨٣.

(2) Cam. Med. hist., vol. v, p. 537; Freeman, op. cit., p. 126.

(3) Cam. Med. hist., vol. v., p. 537.

المجاورون لهم، وبمرور الزمن استطاعوا أن يشتروا من سيدهم اللورد الامتيازات والحريات، فقد كان لهم بطبيعة الحال سيد شأنهم في ذلك شأن القرويين في إنجلترا[1].

وبعد الفتح النورماني لإنجلترا، أنشأ الغزاة العديد من المدن وجددوا موقعها حول القلاع والحصون ليسهل حمايتها والدفاع عنها، وكان قد تم تأسيس هذه المدن بعد سنة ١٠٩٦ م وزادت بعد ذلك، وكان الاهتمام ببناء هذه المدن في البداية هو الموقع المرتبط بالقلاع والحصون لتكون كذلك عون لإمداد هذه الحصون في وقت الحرب، وكانت تتمتع بكل مظاهر الحياة من كنائس وأسواق وحاميات عسكرية وضعها النورمان[2].

وكان إنشاء مدينة في ظل قلعة نتيجة للأفكار الجديدة التي كانت القلعة تمثلها، ففي القلعة حماية للمدينة، كما أن اللورد الذي تتبعه كان يستطيع أن يمنح أهل المدن إمتيازات تجارية، وكانوا يمدون اللورد بمنتجات الأسواق البعيدة، ويجيء ذكر هذه المجتمعات الجديدة من آن لآخر في كتاب دومزدي، فنراه يذكر جماعة من المواطنين جالسين أمام مدخل القلعة، وهذه المدن الخاصة كانت تنشأ دون سجل يرجع تاريخه إلى الوقت الذي تم فيه مسح الأراضي في عهد الفاتح.

ولعل أكثر هذه المدن استرعاء للاهتمام هي التي منحها اللوردات إمتيازات مثل مدينة بروتيل الفرنسية – التي تقع بالقرب من الحدود الفرنسية النورماندية – وهي نموذج للإمتيازات التي منحت للمدن في القرن الحادي عشر والثاني عشر[3].

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق، ص ٨٦.

(2) Peter, Brian, op. cit., p. 31.

- Coulton, Medieaval of Panarma, op. cit., p. 284.

(٣) ستفنون: المرجع السابق، ص ٨٣.=

وكانت لندن بقلعتها نموذج لذلك، فقلعة بلاتين – Palatine –Catal قلعة قوية جدا وضخمة ترتفع حوائطها عاليا، وهي على أساس عميق ومثبتة بصخور عولجت بدماء الحيوانات، وفي الغرب يوجد برجان محصنان تحصينا قويا، أما أسوار المدينة العالية الضخمة ففيها سبع بوابات مزدوجة وبها برجان بنفس الطريقة في الجهة الجنوبية، ويحيط بها نهر التايمز الغني بالأسماك من خلال المد والجزر، وكانت تصطدم المياه بهذه الأسوار، وقد هدمها بمرور الزمن، فإذا توغلنا غربا أيضا سنجد أن القصر الملكي يشرف أيضا على نهر التايمز، وهو مبنى لا يمكن مقارنته بأي مبنى آخر وله شرفات عديدة، وأماكن الجنود والمدافعين تبعد عن المدينة بمسافة ميلين ويتصل بها عن طريق ضاحية عامرة بالسكان[١].

أما المدن التي كانت تشيد غالباً عند ملتقى الطرق الهامة أو بجوار نهر صالح للملاحة، فقد قام نزاع بين المدن وخاصة المدن القديمة التي كانت قائمة قبل الغزو والمدن التي أقامها اللوردات الفرنسيين فيما بعد طوال العهد النورماندي، ومن ذلك أن مدينة تاتشام القديمة الواقعة على طريق الباث – Path – التي أنشأها بعض المواطنين الأحرار في إحدى الإقطاعيات الملكية، قضي عليها تماما ولم تفق من الضربة التي أصابتها إلا عندما أسس أحد البارونات من أبناء وليم الفاتح مركز الجالية من التجار مدينة جديدة على بعد ثلاثة أميال منها في نيوبري[٢].

دخل المدن الإنجليزية في عهد النورمانديين:

الحقيقة الأساسية التي يمكن أن نعرفها من خلال تلك الفترة أن معظم هذه المدن كانت زراعية في شخصيتها العامة، وكانت هناك

= - Mitchell, op. cit., p. 37.

(1) Cantor (N. F.); op. cit., p. 228.

(٢) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٣.

أمثلة كثيرة جدا عن عدد أهل المدن التي سجلها كتاب يـوم القيامـة تقرب من المائة مدينة[1]، حتى أن بلديات من درجة جلوستر وشستر لم تكن آهلة بالسكان أكثر من مدن صغيرة تحتوي علـى الأسـواق، وتختلف عن مدن هذا العصر التي يبلغ عدد سكانها بالملايين، ولكـن المدينة الكبرى في إنجلترا كانت تبلغ من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف، ومن وجهة النظر الإقليمية كانت الأرض والمنـازل الواقعـة داخـل النظام المدني في معظم البلديات يقوم عليها عـدد مـن اللـوردات، وعندما رتب وليم الفاتح توزيع الغنائم كان قد أخذ نصيب الأسد ولـم يكن فقط عبارة عن منازل كما كان الحال مع الملك أدوارد المعترف، ولكن أيضا تلك الإقطاعيات التي كانت تتبع الإيرادات، ربما نعتقد في الحقيقة أن حوالي سبعين من هذه المدن كانت من أملاك الملك، حيث أن الملك يمتلك أكبر نصيب من إيجارات المنازل، وكذلك كان موظفو الملك يسيطرون على الحكومة من خلال تلك الأملاك المدنية[2].

وقد تلقى العرش الإنجليزي أكبر نصيب من الـدخل الخـاص بهذه المدن، حيث كان يبلغ الدخل السنوي للمدن حوالي ٢٤٠٠ جنيـه في العام، وكانت المبالغ التي تم تسجيل مكاسبها في لندن وونشسـتر تدخل في الإنفاق على الزراعة، ولم تسجل في مكان آخر من قبـل، ولكن يورك ولنكولن ونورينش وهي البلديات التالية من حيث الأهمية، كانـت تـزرع مقابل ١٠٠ جنيـه فـي العام لكـل منها، وثيتفورد – Thetfoerd – وبرستول مقابل ٦٠ جنيهًا لكل منهما، وكانتر بري وويلتون – Wilton – وستامفورد مقابل ٥٠ جنيهًـا لكـل منهمـا، وإيبسويتش مقابل ٤٠ جنيهًا في العام، وكولشيستر – Colchester –

---

(1) Cam. Med. Hist., Vol. v, p. 537.
- Reter & BR.

(2) Cam. Med. Hist., Vol. v, p. 537.

وهانتجدون ونوتنجهام ومدن أخرى ٣٠ جنيها، وكذلك مدينة يارموث مقابل ٢٧ جنيهًا في العام، وهيرتفورد مقابل ٢٠ جنيهاً في العام، وباكنجهام – Buckinghom – مقابل ١٦ جنيهاً في العام؛ وكان هناك مبالغ كبيرة يتم إستلامها من الضرائب التي تفرض على المدن.

وكان القائمون على هذه المدن هم الذين يتحملون أيضًا مسئولية انعقاد المحاكم البلدية وحماية القانون والنظام، أما المدن التي لا توجد فيها النظم الملكية السابقة كانت في سنة ١٠٨٦م وهي: ساندويتش – Sandwich – وهايث – Hythe – ولوسي وشستر وبيري وسانت أدموندز ودانوتش – Dunwich – وشروسبري[١].

وعلى الرغم من تفاوت دخل المدن الإنجليزية إلا أنها كانت شديدة التمسك في المحافظة الدقيقة على التقاليد القانونية القديمة، وفي الإصرار على بقاء الإمتيازات التي يرجع أصلها إلى عهود موغلة في القدم، وفي الإحساس الحي بكرامة المواطن، وحتى في المدن الصغيرة مثل ردنج التي منحها هنري الأول بكاملها إلى أحد الأديرة،

---

(1) Cam. Med. Hist., Vol. v, p. 537.

- المقاطعات المدونة في الجنوب الشرقي للمملكة ثلاث، وتقسم المدن في المقاطعات إلى ثلاث هي: الأولى كنت – Kent – وتقسم إلى:

(Canterbury – Dover – Fardwich – Hythe – Rochester – Oldrom – Ney – Sealter – Sadwich)

- المقاطعة الثانية وسكس – Sussex – وتنقسم إلى:

(Arundel – Chichester – Histings – Lewes – Pwvensey – Rgesteyning – Winchelsa)

- المقاطعة الثالثة سيري – Surrey – وتنقسم إلى:

(Sorthwark – Guildford – Kingston)

انظر في ذلك:

-Peter & Brian, op. cit., p. 37.

نجد اللورد الكهنوتي الجديد يعامل باحترام "مواطني المدينة الأحـــرار المحترمين".

أما أعمق النتائج التي خلفها في تاريخ المدينة الإنجليزية، فقــد ظهر فيما أنشئ من مدن جديدة أكثر مما ظهر فـــي تعـــديل المـــدن القديمة، ففي بعض الأحيان كانت تنشأ مدينة فرنسية جديدة إلى جانب بلدة إنجليزية قديمة، مثل نورتش ونوتنجهام لهما تقاليـــدهما القانونيـــة وتراثها الخاص بها[1].

واتسعت كثير من المدن الخاصة الجديدة على مر الزمان حتى فاقت إلى حد كبير عواصم الأقاليم القديمة التي كانت قائمة في إنجلترا قبل الغزو، ولعل مانشيستر التي لا تحظى إلا بإشارة عابرة في كتاب دومزدي وهي المثل الأكبر لهذا التطور، إلا أن هذا التطور حدث في الفترة التي تلت العصور الوسطى فقد ظلت عواصم الأقاليم الإنجليزية القديمة هي المراكز التجارية الكبـــرى فـــي الـــبلاد طـــوال العهـــد النورماندي في إنجلترا، وكانت هذه المدن شديدة التمســـك بعاداتهـــا، ولكنها لا تمانع في استقبال مستوطنين فيها مـــن الأجانـــب بـــبعض الشروط، ولهذا فهي مزيج عجيب من النزعات المحافظة التقدمية، كما أنها كانت مجتمعات زراعية قبل كل شئ[2].

وخلال الخمسين سنة التالية لمسح دومزدي تم إنشاء عدد قليل من المدن الإنجليزية بواسطة البارونات الإقطاعيين، وقام هنري الأول بإنشاء مدينة واحدة وهي دانستابل – Dunstable – ولكن مرســـوم هنري الأول سنة ١١٣٠م يوضح أن الأهمية بالنسبة للمدن في مجملها لم تتغير بدرجة كبيرة إلا أن مدينتي وولنجفورد ويلنتورد قد ضـــعفتا

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٣.

(٢) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٤.

وخارجـا إلى حد ما، وتنازل الملك عن مصـالحه في ليسيستر ووريك – Warwick – بسبب ضعف موارده.

وليس هناك من شك أن معظم تلك المدن قد تطورت في عـدد السكان والتجارة في فترة حكم رفوس وهنري الأول، وتحملت المـدن عبء الضرائب الباهظة التي فرضت عليها، ولكنه من المسـتحيل أن نوضح أو نشير إلى أي إجراءات محددة قام بها هنـري مـن أجـل مصلحة هذه المدن بشكل كامل، اللهم إلا في حفاظـه الحـازم علـى السلام والنظام في المملكة[١].

وكما ذكرنا من قبل فقد كانت الزراعة هـي الحرفـة الغالبـة لسكان المدن في العهد النورماندي، والمزارع في المدينة كان يمتلـك نصيبا في الأراضي الصالحة للزراعة المحيطة بالمدينة، وحق الرعي في الأرض البور التي توجد وراء هذه الحقول. وكانت منازلهم داخل المدينة بيوتا ريفية تتكون من بيت وما يحيط به من أرض زراعيـة، ويرجع معظم الازدحام في الأبنية التي تميزت به المدن الإنجليزية في أواخر العصور الوسطى إلى تقسيم هذه البيوت الريفية ومـا حولهـا وبناء المنازل فيها، وكان يوجد بها حدائق وبساتين، وأفنية ملحقة بهذه البيوت.

ولم تبلغ النواحي التجارية والصناعية ما بلغتـه مـن أهميـة عظيمة إلا تدريجيا، فقد كان النشاط الزراعي بالمدينة هو الغالب فـي العهد النورماندي، ويأتي بعد ذلك بزمن طويل نشـاطها الصـناعي، ولكنه جاء في قوة مطردة الزيادة[٢].

---

(1) Cam. Med. Hist., Vol. v, p. 538; Keiith Feiling, op. cit., p.102.

(٢) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٤.

مراسيم الملوك الخاصة بالمدن الإنجليزية:

وطوال فترة حكم الملوك النورمانديين لإنجلترا أصدروا العديد من المراسيم الخاصة بهذه المدن، فمثلا تدين كمبريدج بوجودها كمدينة معترف بها إلى مرسوم هنري الأول في مستهل القرن الثاني عشر، وقد نص هذا المرسوم على إعتبار الملك حاكما على كمبريدج وإكسفورد، على أن كمبريدج مثل إكسفورد مدينة ملكية نمت وترعرعت فوق أراضي الملك الخاصة، وكان يمنح فلاحيه حق احتكار النقل النهري في المقاطعة.

وقد جاء في المرسوم المذكور أنه لا يجوز لأي إنسان في كافة أنحاء المقاطعة، فيما عدا وصيف كمبريدج الملكي أن يقوم بعمليات شحن السفن أو تفريغها، ولنا أن نعرف ما كان يدفعه أصحاب الشأن مقابل هذا الاحتكار الخاص، وبالنسبة لكمبريدج يجب أن نلاحظ أن الملك باع للقرويين مالم يكلفه شيئا، إذ ظفرت كمبريدج بهذا الاحتكار التجاري على حساب باقي المقاطعات[1].

أما المرسوم الذي أعطاه وليم الفاتح لمدينة لندن سنة ١٠٦٧م وأعلن فيه الملك لمدينة لندن أنها سوف تستمتع بكل الحقوق التي نالتها في عهد الملك أدوارد، بما في ذلك حق الميراث والذي سوف يدافع عن حريته في سنة ١٠٦٧م[2].

---

(١) ج. ج. كولتون: المرجع السابق، ص ٨٨.

- Coulton, Medieval Panarma, op. cit., p. 284.

(٢) هذا المخطوط الشهير مازال يُحفظ بين سجلات المدينة وبختمها، ويعود إلى السنوات الأولى من الغزو، وكتب باللغة العامية وبخط واضح بالإنجليزية القديمة.

انظر في ذلك:

- Barrow & Edward, op. cit., p. 140.

وهذا نص مرسوم الملك وليم الفاتح إلى مدينة لندن: "الملك وليم يرسل تحياته إلى وليم أسقف مدينة لندن وجيوفري رئيس بلدية بورتريف – Portreeve – وكل أهالي مدينة لندن سواء كانوا فرنسيين أو إنجليز على حد سواء، وأنا أعلن لكم إرادتي في أن يكون الأسقف ورئيس البلدية ممثلين للسلطة العلمانية والكنسية في المدينة، وسوف يخول لكم كافة الحقوق التي كنتم تستحقونها في عهد الملك إدوارد، كما أن كل طفل سوف يكون وريث والده بعد وفاته، ولن أسمح بتعرض أي إنسان إلى ظلم، حفظكم الرب"[1].

لندن كنموذج للمدن الإنجليزية:

كانت لندن من أشهر المدن الإنجليزية على الإطلاق، فهي من المدن النبيلة في العالم التي ذاعت شهرتها إحتفالا بمدينة لندن في مملكة الإنجليز، وهي العاصمة التي تفيض شهرتها على اتساع الآفاق، وهي التي ترسل إلى الوطن بكل ثرواتها وتجاراتها وترفع رأسها أعلى من المدن الإنجليزية الأخرى في مملكة الإنجليز[2].

---

(1) Barrow & Edward, op. cit., p. 146.

(٢) لندن في سنة ١٠٦٦م عند الغزو النورماني لإنجلترا ربما لم يكن عدد سكانها أكثر من خمسة وعشرين ألف نسمة، وما تزال أسوار المدينة من عهد الرومان باقية إلى الفتح، وتحتوي على ميدان واسع موجود إلى اليوم، وكان يوجد بها ثلاث ضواح صغيرة في سوثورك ويوجد بها العديد من الضواحي خارج الأسوار مثل:

- Bishopsgate, Cripplegate and L udgate.

وقبل الغزو كانت تحتوي على حامية عسكرية أكثر من ثلثمائة رجل، وعندما دخلها وليم الفاتح أثناء الغزو ترك فيها حامية عسكرية أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل داخل لندن.

انظر في ذلك: =

ففي كنيستها الكرسي الأسقفي للقديس بولس الرسول، الذي جعلها العاصمة الدينية، وإن لم يعد إليها لقب كبير الأساقفة في كانتربري، وقد أخذت المدينة الفضل والسبق في أن القديس بولس مدفون بها، فإن لندن ستتفوق عليها، ومع ذلك رفع القديس بولس شأن المدينتين؛ في مدينة لندن لأنه عاش فيها، وكانتربري لأنه مدفون فيها، والحقيقة أن كل من المدينتين يمكن أن تتفوق على الأخرى بمزاياها، وهناك أيضا فيما يخص زرع الديانة المسيحية في لندن وضواحيها حيث يوجد فيها اثنا عشر كنيسة كبيرة، وكنائس أبروشية تبلغ مائة وستة وعشرين كنيسة أبروشية تتبع مدينة لندن وحدها[١].

وفي خارج المنازل كان يقوم أهالي مدينة لندن بالتنزه في الضواحي عبر الحدائق الجديدة التي يمتلكها المواطنين، وزرعت الأشجار لتصل بين البيوت، ويوجد أيضا في الجزء الشمالي من إنجلترا مراعي ومروج خضراء والتي يتخللها مجرى الأنهار التي تقوم بغمر هذه الأراضي بالمياه، وطواحين الهواء التي يقوم صوتها ببعث البهجة في النفس، وتحتوي على كثير من الغابات القريبة والتي بدورها تحتوي على عشب الحيوانات سواء كانت حيوانات متوحشة أو حيوانات برية مستأنسة مثل الإبل والماشية، وكانوا يزرعون المحاصيل الجيدة، ويضعونها في صوامع الغلال للمحافظة عليها طوال العام، وتحسنت المحاصيل الزراعية كثيرا في مدينة لندن[٢].

= - Lemmon "The Campaign of 1066 "Leyon" the Norman conquest, London, 1969, p. 81; Peter and Brian; op. cit., p.38.

(1) Cantor (N. F), op. cit., p. 238.

(2) Cantor (N. F.) op. cit., p. 238.

ويوجد أيضا حول لندن في الجهة الشمالية عيون مائية ممتازة وحلوة ومتدفقة ومياهها صافية، وكانت تتفجر هذه المياه بين الصخور البراقة من البئر المقدس، وفيها بئر القديس كلاركن ST. Clercken– وبئر القديس كليمنتس ST. Clements – التي يزورها عدد كبير من الإنجليز، ويزورها عدد كبير من الشباب والعلماء في المدينة، وعندما كانوا يخرجون في نزهة في الهواء الطلق في الصيف معاً تكون المدينة رائعة وجيدة عندما يكون حاكمها جيداً[١].

وتبدو رغبة وليم الفاتح في المحافظة على استمرار الأوضاع القائمة في إنجلترا في العهد الذي منحه لها والمحفوظ في سجلات الجليد هول "إني أريد أن تكون مدينة جديرة بكل هذه القوانين التي كانت تتمتع بها في عهد الملك إدوارد المعترف، ولن أسمح لأي رجل أن يمسك بضر"[٢].

وشرفت هذه المدينة مواطنيها، وازدانت بأسلحتها واكتظت بالسكان، لدرجة أنه عند حدوث مذابح أو حروب سواء في داخل البلاد أو خارجها، ففي حالة الحرب كان يوجد في المدينة تحت حكم الملك ستيفن من الخارجين إلى الحرب حوالي عشرون ألف فارس وستون ألف محارب من الجنود المشاة يخرجون جميعا من إنجلترا كلها للحرب، بالإضافة إلى ذلك كان ينظر إلى المواطنين في لندن على أنهم مبجلين، ولم يكونوا ميئين، وكانوا في منتهى الأناقة في ملابسهم وطريقة كلامهم[٣].

أما عن التعليم والمدارس في لندن، فقد اشتهرت لندن بثلاث كنائس دينية كانت تمتاز بقدمها وعراقتها، وكانت من أشهر المدارس

---

(1) Cantor (N. F.) op. cit., p. 239.

(٢) ستنتون: المرجع السابق، ص ٦٤.

(3) Cantor (N. F.) op. cit., p. 238.

في العصور الوسطى، وكان المدرسون العاملون بها من الشخصيات البارزة والمشهورين في الفلسفة، وتوجد هناك مدارس شهيرة ويحصل الطلاب والمدرسين على أجازات.

وفي اليوم الأول من الدراسة كان المدرسون يقيمون المهرجانات في المدارس، وكان الطلاب يتجادلون مع بعضهم في المنطق، ويحاولون استعراض المشاكل للوصول إلى حلول لها، والحقيقة هي بغية الكمال، والفلاسفة الذين يتعمقون في الحكم يمكن أن نحكم عليهم بأنهم سعداء لهذا الفيض من الكلمات التي تخرج من أفواههم، والبعض يستخدم أشياء غير منطقية، وبعض الخطباء من حين لآخر يقولون في كلمتهم البلاغية شيئا مقنعا وهم يحرصون على مراعاة القواعد في فنونهم البلاغية، والتلاميذ في كل المدارس يتنافسون في حفظ الأشعار ويقنعون بتعليم مبادئ القواعد في الزمن الماضي[1].

أما عن مظاهر الحياة العامة في مدينة لندن، فكان الأهالي يشتغلون بأنواع مختلفة من العمل فمنهم من يبيعون أشياء مختلفة، ومن يتعاقدون على أنماط مختلفة من العمل، ويوزعون في كل صباح في أماكن مختلفة وحوانيت، بالإضافة إلى ذلك يوجد في لندن على ضفة النهر الذين يشربون الخمر سواء في السفن أو الأقبية أو الذين يبيعونها وهم الخمارين، ويوجد العديد من المطاعم المشهورة في مدينة لندن، والتي يوجد بها أنواع مختلفة من الأكل مثل أطباق اللحم المشوي والسمك سواء مشوي أو مقلي أو مسلوق كبيرا وصغيرا، وكانت هناك كذلك اللحوم في المطاعم حيث اللحم الناشف للفقراء بينما اللحوم الدقيقة كانت للأغنياء[2].

---

(1) Cantor (N. F.) op. cit., p. 240.
(2) Cantor (N. F.) op. cit., p. 240.

أما عن اللهو والتسلية فكان يوجد العديد من الساحات والملاعب للمصارعة وخاصة مصارعة الطيور الصغيرة، ولو ذهب أحد سكان المدينة إلى الشاطئ للتنزه على النهر سيجد كل ما يحتاجه مع الباعة مهما كان، أما عن الجنود المسافرين الذين يدخلون المدينة أو يرحلون منها في أي ساعة ليلا أو نهارا بحيث لا يبقون لفترة طويلة فعليهم التوجه إلى ضفة النهر ليحصلوا على طعامهم، وكل يوم جمعة من كل أسبوع يقومون بعمل عرض للخيول الأصلية لتعرض للبيع للبارونات والفرسان ويأتي عدد كثير إلى هذا المكان إما للمشاهدة أو للشراء[١]، وأضحت مدينة لندن من ضخامة الثروة في عهد الملك ستيفن في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي[٢].

وهكذا كانت كل المدن الإنجليزية قد حصلت على قدر كبير من الحكم الذاتي قبل أن تنتهي العصور الوسطى، وكانت المدن الأوفر عددا والأقوى سلطانا بصفة عامة هي المدن الداخلة ضمن الأراضي الملكية وذلك لسببين أولهما: أن الملوك كانت لديهم مشروعات أضخم من مشروعات نبلائهم، ومن ثم كانوا أشد حاجة إلى المال، ولكنهم كانوا أبعد نظرا من النبلاء، ولذا كانوا أكثر استعدادا لبيع الحريات مقابل مبالغ تدفع لهم، وكانت السلطة الملكية في حد ذاتها ضمانا أقوى للمواطنين وحماية لهم وأوثق من تجاوز الشريف لحدود سلطته واعتدائه على حقوق الغير، أو من تعسف أي بارون مجاور، أو من مجرد حماية أي بارون أو أسقف، لذلك كانت المدن الملكية هي أوفر المدن حظا، أما أقلها حظا فكانت تلك المدن التي يتولاها أسقف أو رئيس دير، ذلك أن هؤلاء كانوا محافظين بحكم الضرورة.

---

(1) Cantor (N. F.) op. cit., p. 240.

(٢) فشر: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

ونبدأ بقولنا بأن ممتلكاتهم لم تكن في الواقع ملكا خاصا لهم، وإنما كانوا حراسا عليها فحسب، ومن ثم كان محظور عليهم بتاتا بحكم القانون التصرف في ممتلكاتهم، ويضاف إلى هذا التحفظ القانوني التحفظ الطبيعي لرجل الدين، ويلاحظ أن هذه الطوائف الكنسية، وإن كانت في معظم الأحيان تنوء تحت عبء الديون، فقلما تدهورت الحالة الباعثة على اليأس التي كان عليها البارون أو الملك[1].

***

خامسا : القلاع والحصون

يعد معركة هستنجز سنة ١٠٦٦م ووقوع إنجلترا في قبضة النورمان، كان يتوقع نشوب العديد من الثورات، وقد دعم الملك الانتصارات التي كان قد حصل عليها ببناء القلاع في المواقع ذات الأهمية الحربية؛ ومما لاشك فيه أن الملك قد أجاز لكبار أتباعه أن يبنوا قلاعا لأنفسهم مماثلة للقلاع التي بنيت بأمره لتشرف على المدن، وتؤمن طرق المواصلات مع نورمانديا أو لتتحكم في الطرق المهمة، وأكبر الظن أنه شجعهم أن يبنوا هذه الحصون، بل ربما كان يحث

---

(1) لقد كافح أهالي لندن ضد سادتهم الدينيين، وهؤلاء السادة هم أسقف مدينة لين – Lynn – التي تعرف الآن بمدينة "كينجزلين" وكانت تعرف في تلك الوقت باسم مدينة "الأسقف لين" وكذلك رئيس الدير في مدينة القديس ألبان – ST. Albans – وبيوري وسانت أدموند – ST. Edmunds – وبيوتون – Button –.

انظر في ذلك:

- ج. ج. كولتون: المرجع السابق، ص ٩١.

- Trevlyan, op. cit., pp. 124 – 125.

كبار أتباعه على بناء قلاع مماثلة لأنفسهم، ونتيجة هذا أن شـيد كـل واحد من باروناته قبل أن يموت قلعة في للموقع الذي رأى أنه المركز الإداري لأملاكه(١).

أهمية القلاع والحصون في إنجلترا:

كانت تدعى القلاع في العصور الوسطى على حد قول المؤرخ "جونسون" فـي التـاريخ الإنجليـزي بـ "عـش النسـر" The Vulturenest upo the crag – فلقد لعبت دورا هاما في التـاريخ الإنجليزي والنورماني على حد سواء، واحتشدت هذه القلاع بالجيوش والقلاع النورمانية الباكرة في إنجلترا، وغالبا ما كانت تبنى على حافة منحدر صخري أو على جانب نهر، وعلاوة على ذلك يُختار لها مكان حصين جدا، والقلعة كانت يمكن أن تشيد مشتركة في المدن الإنجليزية التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي في شستر ويورك، وعادة ما تبنى فـي المدن التي تُحكم ذاتيا داخل أو خارج المدينة الإنجليزية(٢).

وكانت القلاع والحصون النورمانية الباكرة قد شُيدت في بدايتها بالأخشاب، وكانت تبنى فوق جبل أو أماكن مرتفعة، وذلـك لأسـباب حربية خاصة بهذه المدن(٣).

والحقيقة أن هذه القلاع التي كانت تبنى بالأخشاب أو الطـوب اللبن كان يسهل تدميرها وتخريبها، لذلك بدأت هذه القـلاع تسـتبدل بالمباني الحجرية القوية(٤)، وكانت هذه القلاع تحتوي علـى أبـراج عالية جدا، ويطلق عليها في العصور الوسطى – Keep – وحوائطها

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٧١.

(2) Jounson, op. cit., p. 33.

(3) Mitchell, op. cit., p. 34.

(4) Mitchell, op. cit., p. 34.

سميكة جداء ويصل سمك السور الذي يحيط بالقلعة عشرة أقدام، وبها العديد من الثقوب وهي عبارة عن فتحات للتهوية من أعلى، وتقوم بدور المنافذ، وذلك لتسمح بأن يصوبوا سهامهم منها في حالة هجوم العدو على القلعة، وتلك الأسوار العالية التي تحيط بالقلعة من كل ناحية وتطوق القلعة من الخارج بخندق عميق ويقومون بحفرة وإسقاط المياه فيه ليعوق العدو في حالة الهجوم على القلعة، وكان السكان الموجودون داخل القلعة يسيطرون على الخندق المائي الموجود حول القلعة بواسطة جسر متحرك يقودهم إلى داخل القلعة، وهذا الجسر المتحرك يرتفع وينخفض بالأمر، وذلك عن طريق سلاسل، وإن كان هذا الجسر موجود داخل القلعة نفسها[1].

ولم يزل الأصل الأول للقلعة النورماندية يحيط به الغموض، ولكن القلاع النورماندية كانت قد أخذت مع مقدم القرن الحادي عشر طرازا واحدا محددا عظيم الأثر، وإن كان بدائي المظهر، ففي إنجلترا كان النورمان يطلقون على هذا النظام "قلعة الساحة والأكمة" والتي استطاع عن طريقها النورمان تثبيت حكمهم في إنجلترا[2].

وأمر الملوك النورمانديون القائمون على هذه القلاع أن يصمم سكان هذه القلاع منازلهم بعيدة عن بعضها البعض، حتى لو أشعل

---

(1) Williamson, op. cit., p. 42.

(٢) قلعة الساحة والأكمة كان تصميمها عبارة عن رفع التراب من أخدود محيط القلعة، وتقام به ساحة مرتفعة، يحيط بها حاجز على هيئة خوازيق مدببة، ويقام أيضا من هذا التراب مرتفع ممتد فوق الأخدود الداخلي ويقوم عليه برج القائد "الأكمة".

انظر في ذلك:

- ستنتون : المرجع السابق، ص ٧١ – ٧٢.

الأعداء النيران في القلعة حتى تكون المنازل بمنأى عن النيـران، أن يضعوا في اعتبارهم أنهم سوف يعيشون فيها لذلك كانت تتمتع بموقع جغرافي مميز وعادة ما تبنى بداخلها الطاحونة[١].

ولقد كانت لهذه القلاع عدة عيوب واضحة بوصـفها مسـكنا للإقامة الدائمة وقت السلم، ذلك أن الحياة داخل برج قائم فوق حصـن أو حتى داخل مساحة محصورة مساحتها عادية لابد أنه كـان أمـرا يبعث على الضيق الشديد بالنسبة للحاشية الكبيرة غير المنظمة التـي كانت تتبع كبار القوم في العهد النورماندي، وكان عدد كبير من القلاع النورماندية التي بنيت في أول الأمر أضيق من أن تكون مقرا دائمـا لكبار البارونات الذين كانوا يملكونها، ولهذا قامت حركة عامة تتجـه نحو سكنى الريف المفتوح، وكان لابد من قيامها بمجـرد أن اسـتتب السلم في إنجلترا، فغالبا ما كان الملوك النورمانديون يعزفـون عـن الإقامة في أي من القلاع التي أقامها مؤسس الأسرة، ويقيمون في أحد أكواخ الصيد في الغابات الملكية، ولم يكن بين القلاع إلا أكبرها وهو ما يستحق التعديل بحيث يصبح لائقا لسكنه الـدائم، وكـان اسـتبدال أسوار وأبراج من الحجارة بمنشآت الدفاع الأولى المقامة من التـراب والخشب أمرا كثير التكلفة ويستلزم وقتا طويلا[٢].

وكان منشأ البرج الحجري المربع الذي يعده المؤرخـون مـن مميزات الدفاع النورماندية بصفة عامة في عهد الملك هنري الثاني لا في عهد أي ملك نورماندي، ويبدو أن وليم الفاتح نفسه وكـان تحـت تصرفه كل موارد الثروة في بلد مفتوح لم يبن سوى قلعتين حجريتين

---

(1) Jounson, op. cit., p. 33.

(٢) ستنتون: المرجع السابق، ص ٧٠.

- White, op. cit., p. 37.

في إنجلترا وهما كلشيستر ولندن، ومازالت الأبراج البيضاء تحتفظ برونقها حتى اليوم(١).

وكانت القلعة عاملا جيدا في الحياة الاجتماعية بإنجلترا، فقد كانت الحصون التي من هذا النوع والتي أقيمت في إنجلترا قبل الغزو كلها بدون استثناء تقريبا من عمل أصدقاء إدوارد المعترف وهم النورمانديون، وأيا كان الأمر فقد كانت قليلة العدد، وشيد معظمها على حدود ويلز، حيث لا تزال قلعتا ريتشارد وإيوياس التي شيدهما هارولد في هيرفورد قائمتين تدلان على وجود حملات نورماندية قبل الغزو، إلا أن بدعة بناء القلاع هذه لم ترق للسادة المحليين في عهد إدوارد المعترف، فقد كانوا كأسلافهم يعيشون في القرى التي هم سادتها في منازل لا تختلف عن مساكن القرويين التي حولهم، وكانت هذه هي الطريقة الطبيعية للحياة، وقد احتذاها على مر الزمن من ينحدرون من أصل أجنبي، وهم الذين احتلوا المركز الذي كان يحتله السادة الإنجليز القدماء في السلم الاجتماعي(٢).

وكانت أولى القلاع النورماندية التي شيدها وليم الفاتح قلعة هستنجز، فكان أول ما فعله وليم عند وصوله هستنجز أن بنى قلعة لتحمي طريق تقهقره إذا هزم في المعركة وهي من نوع قلعة الساحة والأكمة، والقلعة الثانية كانت في بنفنسي ثم في دوفر وهذه القلاع قام بإنشائها الملك وليم بنفسه(٣).

وكان اللوردات لهم نصيب في بناء القلاع البسيطة من المئات التي شيدت، وفي القرن التالي للفتح النورماندي لإنجلترا وعلى سبيل

---

(1) Williamson, op. cit., p. 43.

(٢) ستنتون: المرجع السابق، ص ٧٥.

(3) Peter & Brian, op. cit., p. 46.

المثال قام اللوردات بأعمال الحفر لتشييد قلعة إبنجـر – Abinger – في الجنوب الشرقي لإنجلترا – وكان موقعها حصين جداء وتحتـوي على أبراج عالية للمراقبة، ويوجد حوله خندق ويصـب فيـه المـاء لإعاقة تقدم العدو وإقامة متاريس قوية، ومثبت علـى الخنـدق سـلم متحرك بالجنازير ليسمح بدخول رجال القلعة ثم يغلق بعـد ذلـك[1]. ومن أقوى القلاع التي أقامها وليم الفاتح بنفسه قلعة دوفر وتعتبر هذه القلعة مفتاح إنجلترا، واكتسبت شهرتها وقوتها في تاريخ أوروبا فـي العصور الوسطى حيث لعبت دورا أساسيا في مقاومة الأعداء، وبقيت منزلتها عظيمة وحوائطها سميكة لدرجة يصعب أو يستحيل اختراقهـا من قبل الأعداء[2].

وكان للقلاع الكثيرة التي شُيدت خلال الجيل الذي أعقب الغزو مصائر مختلفة بعضها عن بعض، فبعضها تحول إلى قصور ملكيـة مثل قصر وندسور، وبعضها خصوصا ما أقيم منها في مواقع تشرف على المدن الإنجليزية القديمـة أصـبح مقـار للحكومـات المحليـة والمقاطعات، وأصبح بعض هذه القلاع مركزا للضياع الكبيـرة يقـيم فيها كبار اللوردات ويديرون منها شئون أتباعهم، واسـتمرت بعـض هذه القلاع أجيالا كثيرة ذات شأن كبير في الدفاع عـن الـبلاد مثـل القلاع التي بنيت على طول حدود مقاطعة ويلز وخلف هذه الحـدود، لكن معظم القلاع النورماندية الأولى فقدت أهميتها العسكرية عنـدما هددت البلاد بعض الاضطرابات التي صاحبت الغزو، وبقيـت هـذه القلاع حتى يومنا هذا بدون تعديل في تصميمها وقد علتها الحشـائش بعد أن ظلت مهجورة قرونا طويلة تشير إلـى حقبـة مـن التـاريخ الاجتماعي ظلت البلاد خلالها فترة قصيرة تعتمد على المحافظة على

(1) Peter & Brian, op. cit., p. 46.

(2) Peter & Brian, op. cit., p. 47; Trevlyan, op. cit., p. 119.

النظام الاجتماعي وعلى القوة المسلحة لأولئك الذين أصبحوا سادة البلاد نتيجة لما أسفرت عنه مصادفة معركة كبيرة واحدة(١).

أسلوب المعيشة في القلعة:

أما عن المعيشة في هذه الحصون التي تعتبر ملجأ للسكان في وقت الخطر، حيث يقيم السكان داخل القلعة وبها حامية، ويقيم داخل البرج عدد من الفرسان، وقد كان البرج المحصن سكنا للورد، ويوجد داخل القلعة كنيسة تنظر في الاحتياجات الدينية، وصوامع أقيمت لخزن الغلال، وتجفيف اللحوم وكل أشكال الاحتياجات اللازمة التي يحتاج إليها المزارعون في الأرياف، والتي تساعد في تزويد الحامية، وكان السكان في أوقات الخطر يهرعون هم وقطعانهم إلى داخل القلاع، وبذلك فإن وضع الأبراج ظل قائما، ولم يكن لهذه الأبراج حياة اقتصادية، وكانت حياتها موائمة تماما للحضارة الزراعية، ومن الممكن القول أنها ساهمت في الدفاع عنها(٢). ويتوافر داخل هذه القلاع حامية عسكرية لحمايتها من إغارة الأعداء، وكذلك قطعان من الماشية وعدد وافر من المؤن الغذائية والمياه وذلك توقعا لحدوث حصار لهذه القلاع، فعن طريق المؤن تحدد فترة صمود هذه القلاع ضد الأعداء، ويوجد بها قصر السيد اللورد وعائلته(٣).

والذين كانوا يعيشون في القلاع من السكان والحامية العسكرية كانوا يجتمعون في القلعة في أوقات معينة، وذلك لبحث شئون هذه القلعة سواء حربية أو اقتصادية؛ وإن كانت الحامية العسكرية دائمة البقاء في القلعة، وذلك لتصون القلاع الملكية والعمل على بناء دفاعات قوية جديدة، وبناء نقاط المراقبة على أبعاد مختلفة.

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٤٦.

- Derry, op. cit., p. 70.

(3) Mitchell, op. cit., p. 34.

وبناء القلاع الجديدة كان كالعادة يتم بناء على أوامـر ملكيـة، فالملك له الحق وحده في أمر البناء، فيطلب منه السادة اللـوردات أن يقوموا بإنشاء القلاع، وله الحق في الموافقة أو الرفض[(١)].

وكان التجار يتعرضون لعمليات سلب ونهب، فكانوا يلجئـون للبحث عن حماية المدن الحصينة والأبراج التي قامت على مراحـل على طول الأنهار والطرق الطبيعية التي كانوا يسافرون عليها، وقـد خدمتهم هذه المدن وكانت لهم محطات خلال فصل الصيف، وكانـت مشاتي لهم خلال فصل الشتاء الشديد البرودة، وكانت أحب المدن إليهم تلك التي تقع عند مصبات الأنهار أو الأودية الضيقة، وعنـد ملتقـى نهرين أو نقطة تتوقف عندها الملاحة في النهر، ولقد كانت جميع هذه المناطق محببة لسكن التجار والمتاجرين.

وتبرز هذه القلعة بوضوح في الصورة العامة لأحداث التاريخ، فكثير ممن حاولوا أن يرسموا صورة للحياة في العصـور الوسـطى كانوا يجدونها وقد ألقت ظلالها على الوضع الاجتماعي بأكمله، ومـع ذلك فإن الإنسان يستطيع في الواقع أن يقلب صفحات لا نهاية لها من سجلات العصور الوسطى دون أن يقع بصره على اسم قلعة واحـدة، ففي غير أوقات الحرب الأهلية كانت إنجلترا أقل منها في معظم الدول الأخرى، وكان الناس العاديون باستثناء أولئك الذين كانوا يقيمون على حدود بعيدة عن المملكة يحيون حياتهم في المدينة والريف لا تزعجهم القوى المغيرة التي كانت تغير على القلعة.

أما المجتمع الذي تعارف الناس على تسميته بالإقطـاعي فقـد ترك أثره الذي لا يُمحى من التاريخ الإنجليزي في نواحي كثيـرة[(٢)]،

---

(١) هنري بيرين: المرجع السابق، ص ٤٧.

- Stenten, English Feudalism, op. cit., p. 131.

(٢) ستنتون: المرجع السابق، ص ٧٦.

وبعض القلاع النورماندية مازالت باقية حتى الآن لتبين العمل الضخم الذي قام به البنائين النورماندين[1].

***

سادسا : مظاهر الحياة العامة

المسكن:

كان أسلوب معيشة النورمانديين يختلف عن السكسونيين، فالنورمانديون أقرب إلى الترتيب والتنظيم في أسلوب معيشتهم في الحياة اليومية، فقد كانت بيوت عامة الشعب الإنجليزي بصفة عامة من الفلاحين والحرفيين وكانت ما تزال تُبنى بالطوب اللبن وكانت تغطى أسقف هذه البيوت بالأخشاب، لكن اختلفت مساكن البارونات تماما عن سابقيهم من الفلاحين، فقد كانوا يعيشون في منازل واسعة جدا ويسكنون القلاع القوية، وكانت هذه القلاع عادة ما تبنى بجانب قصر النبيل أو الأمير أو على حافة النهر[2].

وأسس النبلاء النورمانديون القصور الفخمة، وكان المبنى الرئيسي مكون من غرف كثيرة، ويوجد أيضا في أساس المنزل عدد من المقاعد الخشبية الرديئة، ويوجد كذلك في وسط الحجرة أدراج ومناضد قوية مصنعة من خشب البلوط القوي، والأرضية كانت مُغطاة بنبات السمار وذلك لتحفظ السكان في الشتاء من البرودة، ولا يستخدمون السجاد والكراسي التي كانت نادرة حتى في بيوت الأغنياء من البارونات، وكان السكان يجلسون على الأرض في منازلهم، وكان عامة الشعب الإنجليزي ينام على الأعشاب من نبات السمار أو

---

(1) Williamson, op. cit., p. 43.
(2) Williamson, op. cit., p. 42.

النباتات الأخرى، وكان يغطي نفسه بغطـــاء مصـــنوع مـــن جلـــود الأغنام[١].

والحقيقة أن أساس المنازل في العهد النورماندي بإنجلترا كـــان أفضل من العهد الأنجلو – سكسوني، فقد كان الفقراء ينـــامون علـــى الأخشاب التي يوضع عليها القش، فكان النوم رديئا وغير مريح، أمـــا السادة فكانت حجرة نومهم بها سرير من الأخشاب القويـــة، وعلقـــوا عليه القليل من الستائر المطرزة[٢].

نظام الطعام:

وكان النورمانديون في إنجلترا أكثر تنظيما في طريقة الأكـــل والشراب من السكسون، وكانوا يطبخون أفضل منهم، وطبيخهم مـــن نوع خاص حيث يُطبخ بعناية، والأتباع والخدم هم الذين يقومون بعمل الطعام، واعتنوا كثيرًا بنظافة المطبخ، وكانوا يأكلون في اليوم الواحد وجبتين فقط الإفطار يتناولونه في الساعة الثامنة صـــباحا، والعشـــاء الساعة الرابعة أو الخامسة مساءً، أما الاستيقاظ من النوم كان مبكـــرا في الساعة الخامسة صباحا، ويذهبون إلى النوم مبكـــرا كـــذلك فـــي الساعة الثامنة مساءا[٣].

ويقوم النورمان بعمل المأدبات الواسعة وتقديمها للفقراء حسب منزلتهم كما كان يحدث في عصر السكسون، ولـــم يكونـــوا يـــأكلون اللحوم بكثرة إلا في أحيان قليلة يأكلون لحم الخنزير أو اللحوم المقددة، وكانوا يحضرون إلى مناضد السادة البارونات جميع أنواع الأكـــلات

(1) Williamson, op. cit., p. 42.

- Brial & Blakeley, op. cit., p. 24.

(٢) ستنتون: المرجع السابق، ص ٢٧.

(٣) أدمون – ديمولان : المرجع السابق، ص ٣٩.

- Williamson, op. cit., p. 44.

الدسمة من السمك الطازج، والطيور، ولحم الضأن، واللحم البقري، والدجاج وغيره من أنواع الأكلات المتعددة، وهذه الأنواع المختلفة من اللحوم التي يقومون بطهيها تعطي الدليل على أن النورمان أخذوا الكثير من عادات السكسكون في الطهي، والأكثر من ذلك أنهم كانوا يطبخون هذه الحيوانات ويحملونها إلى قصور السادة البارونات سواء كانوا من النورمان أو الإنجليز[١].

ملابس السادة والعامة:

أما عن الملابس، فقد كانت السيدات يلبسن أروبة صيفية طويلة تصل إلى الأرض وذات أكمام متدلية إلى الأرض أيضا، وكذلك كانت عباءات الرجال طويلة جدا، وكان الفلاحون يلبسون جلابيب وعباءات فضفاضة تربط عند الكتف بواسطة مشبك، وكانت جميع طبقات المجتمع ترتدي قبعات وأغطية للرأس من أشكال مختلفة[٢].

وكان النورمان مغرمين بالألوان التي تبعث في النفس البهجة والسرور، وكان ارتداء الملابس حسب المنزلة الاجتماعية، حيث كانت ملابس الفقراء تختلف عن ملابس الملوك والنبلاء من حيث الزخرفة والزينة وخامة الملابس كذلك، وكان الشباب يختارون ملابسهم حسب الموضة السائدة في ذلك العصر، وأحيانا كانت الملابس طويلة وخاصة ملابس السادة، وكانوا يتحلون بسلاسل من الذهب والفضة والتي كانت تصل إلى الركبة.

وعندما وصل النورمان إلى إنجلترا ارتدوا باروكة للشعر القصير، وكانوا ينظفون وجوههم عن طريق حلاقة الذقن، ولكنهم قلدوا السكسون وأخذوا عنهم موضة الشعر الطويل[٣].

---

(1) Williamson, op. cit., p. 45.; Brial & Blakeley, op. cit., p.42.

(٢) ستنتون : المرجع السابق، ص ٨١.

(3) Williamson, op. cit., p. 45; Mitchell, op. cit., p. 39.

الزواج:

أما عن الحياة الاجتماعية، فقد كان الزواج يـتم عـن طريـق الكنيسة وكان الزوجان يقيمان بصفة أساسية في منزل الزوجية، وكان للزوج الحق في معاقبة الزوجة عندما يجد ذلك ضروريا، وذلك عـن طريق التوبيخ بالكلام أو الضرب، وكانت الزوجة تؤدي عملها بـدافع من الضمير الحي، وتقدس الحياة الزوجية وتتميز بالصـبر والحلـم، وتنظر الزوجة إلى الزوج على أنه مثل أعلى لها وفارس عظيم فـي أعظم منزلة بالنسبة لها، وزوجة الفلاح أو التاجر كانت سهلة الانقياد من غيرها، وإن كانت تغضب من مغامرات الزوج[1].

وفي مناسبات الزواج كان شهود عقد الزواج يختـارون مـن الشباب قدر الاستطاعة لتدوم شهادتهم أطول وقت ممكن، ومن مظاهر الاحتفال أن يشتري أصحاب العرس كمية كبيرة من الكرز وينثرونها بين الأطفال كتعبير عن هذه المناسبة السعيدة الهابطة مـن السـماء، وكانت هناك عادة شعبية تقضي بضرب الأطفال بالسياط ضربا مبرحا لتكون علامة مسلم بها أن هؤلاء الأطفال لن ينسوا قط هذه المناسـبة الدالة على شهادتهم على الزواج.

ومن طرائف هذه العادة أن نبيلا نورمانديا عظيم القـدر فـي إنجلترا نذر قطعة أرض قيمة لأحد الأديرة، ورأى من بـاب تسـجيل هذه المنحة أن ألبس نجله الصغير سترة من الفرو الفاخر وألقى به في اليم[2].

وعند حدوث خلافات بين الزوجين، كانت الزوجة تطلب مـن أهلها وأقاربها أن يقوموا بحمايتها لمواجهة الزوج في الوقت العصيب

---

(1) Mitchell, op. cit., p. 38; Trevlyan, op. cit., pp. 128 – 129.

(٢) ج. ج كولتون: المرجع السابق، ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

التي كانت تحتاج لهم فيه، وكان دور الكنيسة عند الخلاف بين الزوجين أن تؤيد أن يكون الطلاق هو الحل، وخاصة عندما تكون الجريمة خطيرة مثل جريمة الزنا أو الارتداد عن الدين وبخاصة من قبل الزوج، وفي هذه الحالة يحق للزوجة طلب الطلاق ولا تدخل تحت سيطرة الزوج ثانية، بالرغم من أن الزوجة ملك يمين الزوج ولكن في الحالتين السابقتين تتدخل الكنيسة في صالح الزوجة.

وعلى أية حال للزوجة الحق في أن تسامح الزوج إذا رغبت في ذلك، وحدث مشكلة من هذا النوع في إنجلترا حيث إن أدموند إيرل كورنول سب زوجته مارجريت ودخلوا المحكمة للفصل في مشكلتهم، وبعد اثنين وعشرين عاما هي عمر زواجهم عاشوها في خلافات، وتدخل رئيس أساقفة كانتربري حتى البابا نفسه في روما تدخل، ولكن باءت كل هذه المحاولات بالفشل[١].

وكان الزواج في سن مبكرة شائعا في إنجلترا، حيث أن نسبة الزواج في سن مبكرة من الشباب وخاصة من جنس الرجال صغيري السن كانت كبيرة، وهذه الممارسات كانت موجودة في إنجلترا العصور الوسطى مثلما كانت موجودة في القارة الأوربية.

والحقيقة أن الأولاد والبنات كانوا محظوظين لتوافر المساكن في إنجلترا التي كانت عبارة عن أكواخ أو منازل بسيطة في نشأتها، وتقارب الزوجين في السن كان يبعث الحياة السعيدة في زواجهم، وقامت الحياة الزوجية بينهم على أساس المشاركة "الأخذ والعطاء"[٢].

أما عن ضريبة الزواج التي كانت موضع أبحاث عديدة في العصور الوسطى، فإذا ما زوج الحائز على أرض من سيده اللورد

---

(1) Mitchell, op. cit., p. 39.

(2) Mitchell, op. cit., p. 39.

يدفع الحائز إلى اللورد مبلغا من المال يسمى ضريبة الزواج، ما لم يكن الحائز متمتعا بحريته(١).

مجالس الحكم:

كان يوجد بإنجلترا مجموعة من المجالس لتصريف شئون البلاد وفض المنازعات اليومية، وكان على رأس هذه المجالس مجلس الشرف ويتكون من الفرسان التابعين للبارونات، وكان ذا أهمية كبيرة في إنجلترا النورماندية، ويجتمع عادة في قلعة اللورد، وهي رأس مجلس الشرف لتسوية المنازعات التي كانت تنشأ بصفة مستمرة بين الحائزين المختلفين في إقطاعية واحدة، ولتلقي المعلومات من اللورد عما منحه من أراضي لأتباعه من أفراد الشرف، وللنظر في المشاكل الصعبة مثل تقسيم الضياع التي يملكها اللورد، وترتيب الخدمة العسكرية بين الأعضاء.

وكانت اجتماعات مجالس الشرف هي أصدق تعبير للإقطاع الإنجليزي حيث كانت تطبق المبادئ الإقطاعية بعيدة المدى عن تعقيدات العادات القديمة(٢).

أما عن المجالس الإقطاعية التي كانت قائمة في إنجلترا في عهد النورمانديين يقال أنها كانت أداة للضغط والاستبداد، لأنها هي الوسيلة التي كان اللوردات الأجانب يفرضون بها إرادتهم على الشعب المتذمر من أهل البلاد، وهذه المجالس كانت تثبت سلطة اللورد على رجاله الأحرار منهم وغير الأحرار، ففيها كان يعاقب من يخالف

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٧.

- Trevlyan, op. cit., p. 126.

(٢) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٨.

- Cross, op. cit., p. 87.

العرف الزراعي وتفرض الغرامات لصالح اللورد، ولكن الفلاحين التابعين لكل إقطاعية كانوا يجدون في مجلسهم مجالا للتعبير عن رأيهم الجماعي، فكان المجلس هو الحارس لتقاليد الإقطاعية، وهي مجموعة من القواعد العرفية التي جرى عليها العمل منذ القدم، ولم يكن لأي شخص حتى اللورد نفسه الخروج عليها.

ولقد كانت قوة محافظة تمثل أمام سيد المجتمع القروي، والمعارضة المفيدة التي يبديها أعضاء هذا المجتمع كانت خروج على العادات والتقاليد القديمة[١].

وكانت هذه المجالس المئوية، ومجالس المقاطعات القديمة، ومجلس الشورى الذي يقع في كل مقاطعة لجمع المال لكل مقاطعة، وكل مجلس من هذه المجالس له اختصاصات في إنجلترا. وكانت هذه المجالس تسهل عملية السيطرة على البلاد وحل المنازعات المتعلقة بالحياة اليومية[٢].

عناصر اللهو والتسوية:

اللهو والتسلية من العناصر الهامة في حياة المواطن الإنجليزي والنورماني على حد سواء وقسم إلى قسمين: قسم يتعلق بالملك والبارونات والقسم الآخر يتعلق بعامة الشعب.

أما عن ملاهي الملك والبارون فأهم ملاهيه العقلية هي لعب الشطرنج، والاستماع إلى الرواة والقصاصين، على أنه يلاحظ أن البارون لم يكن يختلف وقت ذاك كثيرا عن القن من الناحية العقلية، إذ كان إدخال السرور لقلب إحداهما كفيلا بإدخال السرور لقلب الآخر،

---

(١) ستنتون: المرجع السابق، ص ٨٨.

(2) Keith Feiling, op. cit., p. 103; Trevelyan, op. cit., p. 126; Jounson, op. cit., p. 39..

وتلك حقيقة يجب الإلتفات إليها، وإذا كانت اللاهوتيات والمؤلفات الفلسفية في عصر من العصور هي التي تعطي للباحث صورة عن العقليات البارزة في ذلك العصر، فإن الوسيلة التي تصور أحوال عامة الناس تكون عن طريق آخر، مثل المنظومات القصصية القديمة –Fabliaux– والتمثيليات الدينية – Mysteries – والأغاني ومما يدل على روح العصور الوسطى أكثر من غيره من وسائل التسلية، ولأن الفصل المضحك من قطع التمثيل الصامت ظل أهم جزء من ملاهي الناس جميعهم[1].

أما عامة الشعب الإنجليزي فيختلف لهوهم عن لهو سادتهم فقد كانوا يخرجون في الهواء الطلق، ويقومون باصطياد الصقور بالسهام، ويقومون برياضة مهاجمة الثيران، وأعظم الرياضات في إنجلترا على الإطلاق هي المباريات التي تقام في إنجلترا وتتضمن المبارزات بين الفرسان[2].

واليوم الذي تقام فيه المباراة – المبارزة بين الفرسان – يستعد لها الفرسان جيداً، ويمر الفارس طبقاً للتقاليد على الأمير أو الملك وبطانته لكي يحيي الفارس ويستعرض أسلحته، وبعد ذلك يقر أمامهم أن يقاتل حتى النهاية، ويرهن الفارس حياته للملك دفاعاً عن دين أو أن يحمي شرف سيده من أي خطر يتعرض له، والحرب تعتبر أكثر أهمية من هذه المبارزة الاستعراضية، لأن في الحرب المحارب يقاتل من أجل أرض يريد استردادها، فإذا قتل فلا بأس في ذلك، أما المبارزة فالمحارب يفقد حياته من أجل اللهو والتسلية[3].

---

(١) و. كوبلاند – ب. فيلوجرادوف: المرجع السابق، ص ٣٣.

- Cross, op. cit., p. 87.

(2) Williamson, op. cit., p. 46.

(3) Williamson, op. cit., p. 46.

وعندما يذهب الفارس إلى ساحة المبارزة كان يكسو رأسه بخوذة حديدية وأرجلهم مغطاة بالجلد، ويضعون الدرع على صدورهم، وقناع على الوجه لحمايتهم، وخليط من الجلد لحمايته من الإحتكاك بين فخذيه، وإن كان الدرع وحده لا يحمي الفارس فمعه أسلحته وكانت الأسلحة الرئيسية في المبارزة عبارة عن مزراق طويل يشبه الرمح وتحميه الدروع [1]، وعلاوة على المزراق الذي يتسلح به الفارس كان معه خنجر صغير، ويستعد الفارسان للهجوم على بعضهم للبعض، وكل فارس له طريقة غير الأخر لينهي المبارزة لصالحه، ولكن يتقابلان في نقطة واحدة تكون فيها نهاية إحداهما أو الآخر، وإذا لم تكن النهاية تعاد الكرة ثانية وثالثة حتى يكون هناك منتصر والآخر ميت [2].

والنوع الثاني وهو السائد في إنجلترا من تلك المبارزات وهي بين فارسين أو أكثر من على ظهور الخيل، والمكان الذي يحدث فيه التصارع كان فسيحا وواسعا لكنه مطوق بسور، والمتصارعون كانوا يرضون السيدات من أصحاب المكانة الاجتماعية العالية، وكذلك النبلاء الذين يجلسون في منصة الشرف، يختارون الفرسان الأقوياء البارعين في استخدام الأسلحة، و كانت الملكة الجميلة – Queen of

(١) الدروع تقريبا كانت تصنع من خشب الزيزفون ومثبتة بكسوة من الجلد المدبوغ، وغالبا ما كانت تقوى من صفائح معدنية لزخرفتها وتقويتها في نفس الوقت، فقد كان عرض الدرع حوالي ٥٥ سنتيمتر وطوله ١,٢٥سنتيمتر، أما عن السمك فيبلغ سمكه ١٦ ملليمتر. وذكرت أنا كومينن أن الدروع كانت محنية واسطوانية تحني اتجاه جسم الفارس لحمايته، ويوضع عنصر مخروطي الشكل مكان الحديد حول أنف الفارس لحمايته.

انظر في ذلك:

- Terence Wise, 1066 Year of Destiny, Doncaster, 1978, p.109.

(2) Williamson, op. cit., p. 47.

Beauty – تجلس عاليا في المنصة؛ وعادة ما يستخدم المتبارزين أسلحة للمزارق بدون قناع واقي على وجه الفارس، ويكون كل فارس في حارة وبينهم عائق – سور – ، ويتقابلان في نقطة تكون فيها نهاية أحدهم، أو لسوء حظ الفارس أن يجرح أو يطرح من فوق صهوة جواده، وفي النهاية إن لم يقتله الفارس في المبارزة يقتل هو نفسه بخنجره أو تأمر الملكة بقتله(١).

ومثل قانون الإقطاع كان قانون الفروسية – شيفالري – فإنها رتبة كان يتساوى في الحصول عليها الملك والأعيان، فمن أراد الحصول عليها يدخل أولا بصفة تلميذ ثم يرتقي إلى درجة أستاذ كل ذلك قبل الحصول على المهاميز الذهبية؛ ويقيمون لذلك احتفالا عظيما، ومن ألعاب الفرسان لعب الجريد في ساحة كبيرة على مشهد من أعيان البلاد وأشرافها، وقد انبثقت منها هيئة من الرهبان الهيكليين كان امتداد تأسيسها سنة ١١١٨م وكانوا يلبسون فوق دروعهم وشاحا طويلا على كتفه رسم الصليب مثمن الزوايا أبيض اللون، أما ثياب السلم فكانت عبارة عن ملابس بيضاء(٢).

وأدخل وليم إلى إنجلترا العادات والتقاليد النورماندية من خلال الفتح، مثل عادة دق الأجراس التي استخدمها وليم وخاصة لإطفاء الحرائق عند سماعهم أن هناك حريق مشتعل يستخدمون هذه الأجراس لتجميع الأهالي، وكانت ساعة الغروب عندهم هي الثامنة مساء في الشتاء(٣).

---

(1) Williamson, op. cit., p. 47.

(٢) ادمون – ديمولان -: المرجع السابق، ص ٣٩.

- Terence Wise, op. cit., p. 102.

(3) Williamson, op. cit., p. 14.

واعتمد الفلاح على غابة القرية كذلك للحصول على ما يحتاجه من خشب للوقود ولوازم العمارة، وهذا مع العلم بأنها ظلت في العادة من مخصصات السيد الإقطاعي، والواضح أن السيد الإقطاعي لم يحرم غابته على الفلاحين، بل كثيرا ما أذن لهم بدخولها لجمع الأحطاب، وكثيرا ما غدا ذلك الإذن وسيلة لجمع غير الأحطاب من خيرات الغابات كما يحدث في الوقت الحاضر[١].

ووجد النورمان متعتهم في الصيد، لذلك أمر الملك وليم بالصيد في الغابات العامة، وإن قصر الصيد في الغابات الملكية لنفسه أو بإذن لغيره، وأمر بإقامة الرياضات في الأراضي البور الواسعة في الهمبشري وكانوا يذهبون إلى أماكن العراء فقيرة الزرع ومساحاتها كبيرة، وعلى بعد تسعة أميال من مكانهم الرئيسي كانوا يشعلون النيران في فرح وبهجة؛ وكان وليم في بداية حكمه قد أصدر قانونا يجرم الصيد في الغابات، وكانوا يحافظون على الأشجار والنباتات والحيوانات ويقومون بحمايتها، ولرسل حراس الغابة ليراقبوا هذه الحيوانات خوفا من الصيادين.

وكان الملك يمنع اصطياد الحيوانات وقتلها وخاصة من الغزال، ووجدت قوانين للغابة تحكم هذه العملية، حتى أن الذي يقتل الإبل يحاكم أمام الملك بقلع العين، والذي يلهو بقانون الغابة يعاقب بشدة حسب القانون، لذلك حذر الملك من المعاملة الخشنة من أعوانه وحذر من التفريق في المعاملة بين الإنجليز والنورمان على حد سواء، والذين لا يمتلكون منازل ويستخدمون الغابة في الاختباء أو يقتلون الإبل الملكية ويقومون بالسرقة والنهب من أغنياء المسافرين المارين من الطرق يعاقبون وفقا للقانون الذي وضعه النورمان في إنجلترا[٢].

---

(١) و. كوبلاند ـ ب. فينوجرادوف: المرجع السابق، ص ٤٤.

(2) Williamson, op. cit., p. 17; Trevlyan, op. cit., p. 127.

وارتبطت بالغابة بعض الحرف مثل حرفة الرعي التي يقوم عليها الأهالي في إنجلترا، ويرعون الأغنام والأبقار، فإنها أطلقت للرعي في الخلاء المشاع بحراسة راعي القرية، ولم يكن في ذلك طبعا ما يساعد على تحسين نتاجها فإذا انتهى الحصاد أرسلت إلى الحقول لرعي بقايا الجذور والجذامات، أما الخنازير فأطلقها أصحابها في الأراضي الغابية في فصل الخريف لترعى جذور ثمرة البلوط – Mast – وانتقلت الطريقة من إنجلترا إلى أوروبا(١).

وكان منهم أصحاب حرف أخرى مثل مربيي الخنازير –Swineherds– ومنهم كذلك مربي النحل –Keekerpors– ومنهم من يقومون بالعمل في طاحونة السيد، وكذلك القائمون على أعمال التجارة في المدن(٢).

وفي النهاية ومن برج الكنيسة المظلم، حيث تدق أجراسها ببطء، وينبعث الصوت العالي من قصر الملك والنبلاء، كذلك من الكوخ الريفي القديم في إنجلترا، ويأتي الفلاح من حقله ويذهب إلى كوخه* ليلا ويشعل موقد النار، وعيون أطفاله كانت مليئة بالخوف ويستمعون إلى الغناء والشعر، وهم مشغولون بذلك، ويزيدون النار

(١) و. كوبلاند – ب. فيلوجرادوف: المرجع السابق، ص ٤٤.

(2) Jounson, op. cit., p. 98.

* معظم البيوت الإنجليزية كانت تبنى من خشب، وغالبا ما كانت تشب فيها الحرائق وتخرب، لذلك كانوا يضعون أجراس الحرائق كالناقوس للخطر والحذر والحيطة لمواجهة الحرائق، ومازالت في أماكن لبعض الأقطار، وتتعلق هذه الأجراس إلى وقتنا الحالي، وتدق كل مساء في فرنسا حتى الآن وتدعى – Scouxrefru – .

انظر في ذلك:

- Williamson, op. cit., pp. 14 – 15.

خشبا حتى تتوهج ويرقصون ويشربون الخمر ويلهون حتـــى يقـــرع الناقوس عن طريق بشير الشر، ويندفعون ناحية الكنيسة ويضـــربون على القيثارة وهم يلقون الشعر(١).

□□□

(1) Williamson, op. cit., p. 18.

الفصل الخامس

الحياة الثقافية في إنجلترا النورماندية

أولا : اللغـــــــة.

ثانيا : تطــور الآداب.

ثالثا : أعلام النهضة الثقافية في إنجلترا النورماندية.

رابعا : تطور المكونـــات القانونية.

خامسا : الفـــــنون.

الفصل الخامس

الحياة الثقافية في إنجلترا النورماندية

في نهاية العصور الوسطى نجد أن الإنجليز خطــوا خطــوات واسعة في مجالس الثقافة والأدب بعد أن ظلوا في أوائــل العصــور الوسطى يأخذون عن غيرهم، ولكن استطاع الإنجليز الإســهام فــي حركة النهضة الأوربية الأولى في القرن الحادي عشر والثاني عشر، ولا يمكن تحديدها بشكل معين من خلال سنة محددة؛ لذلك علينــا أن نتبعها من البداية حتــى القــرن الثــاني عشــر مــن خــلال الآداب الإنجليزية(١).

***

أولا : اللغــــــة

لدراسة التاريخ الإنجليزي صلة وثيقة بدراسة اللغة الإنجليزية ونشأتها وتطورها فاللغة مثل الكائن الحي، تولد مع الجماعة البشرية، وتزدهر بازدهارها ولا يمكن إدراك ذلك إلا بدراسة تاريخ الجماعــة وعلاقاتها بغيرها من الجماعات الأخرى(٢).

إذا عبرنا عن اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر بأنهــا لغــة عالمية لما كفى هذا التعبير، فاللاتينية عندئذ لم تكــن لغــة الإتصــال والتفاهم بين الدول بعضها البعض فحسب، وإنما استخدمت أيضا داخل مختلف بلاد غرب أوروبا في المناسبات والأغراض العامة والخاصة، ويكفي أنها ظلت في ذلك العصر لغة الكتبة ورجال الدين في غــرب

---

(1) Legge (M. D.), Anglo-Norman, in the Cloister upon Anglo-Norman Literarure, press, 1950, p. 3.

(2) Bede, op. cit., p. 1.

أوروبا، حيث استخدمت في التفاهم والاتصال بين رجال الدين ومختلف البلاد، كما استعملها الناس في الصلاة والتراتيل، كذلك كانت لغة العلم والتعليم في ذلك العصر، فالطلاب يلقنون اللغة اللاتينية في المدارس ويتلقون بها جميع علومهم، كما كانت كتبهم المدرسية قد دونت بها مما جعل اللغة اللاتينية لغة الطبقة المتعلمة والمثقفة في المجتمع الأوروبي، أما في القضاء والقانون والمحاكم فقد استخدمت اللغة اللاتينية وحدها كما دونت بها القوانين والرومانية والكنيسة(١).

وأصبحت إنجلترا جزءا من العالم اللاتيني، حيث أصبحت هي لغة الكنيسة وبالتالي لغة رجال الدين المسيحي، وكان التعليم في الأديرة الإنجليزية باللغة اللاتينية، وإن كان الأنجلو – سكسون أهل البلاد القدماء يتحدثون لهجة مختلفة فيما بينهم(٢).

ومع مجيء النورمان لإنجلترا سنة ١٠٦٦م كانت اللغة الأساسية في البلاد هي اللغة الإنجليزية، وإن حدثت كثير من المؤثرات اللغوية، وكان منها الجيد والرديء، ومن بين الفضائل الخاصة باللغة الإنجليزية استخدامها في المصادر الهامة من الكتابات الحديثة، واعتمد الأدب عليها في كل من النثر – Prose – والشعر – Verse –. وكانت دائما مرجعا للتطور(٣).

والنورمان الفرنسيون قدموا إلى إنجلترا عن طريق الفتح النورماني لإنجلترا، وكان العديد منهم في الحقبة من سنة ١٠٦٦م –

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، محمد أنيس: النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، القاهرة، ١٩٥٦، ص ١١٤ – ١١٥.

- Freeman, op. cit., p. 143.

(2) Trevelyan, op. cit., p. 131.

(3) Melkle John, English literarure from Saxon times to Gergianera, London, 1928, p.9.

سنة ١٣٦٢م والتي تبلغ ثلاثمائة عام يستخدمون اللغة الفرنسية كلغة رسمية، وعند الغزو نقلوا الفرنسية إلى إنجلترا، وأصبحت اللغة الفرنسية هي السائدة في إنجلترا في المحاكم القانونية والبلاط الملكي، وكذلك استخدمها أصحاب المناصب العليا في الكنائس والدولة وأصحاب الأراضي والمحاربين، وكان النورمان يعيشون قبل الفتح في نورماندي، وتعلموا اللغة الفرنسية تدريجيا من أهل البلاد الأصليين، وتزوج الفاتحون الإسكندنافيون من الفرنسيين، والأطفال الذين تم إنجابهم تعلموا من قبل أمهاتهن وآبائهن اللغة الجديدة(١).

وكان السادة النورمان سواءً في معاقلهم أو في مجالس الحكم أو في ميادين الصيد، بل حيثما اجتمع أولئك السادة في عمل أو لهو، لم تكن تسمع منهم إلا لسان الفرنسيين، ومعنى ذلك لم يعد ثمة أمل في تطور الحياة بانجلترا على أسس أنجلو–سكسونية خالية من الاختلاط الأجنبي، كما لم يبق ثمة احتمال لانضوائها إلى إمبراطورية إسكندناوية شاملة للبلاد الشمالية، بعد أن اجتذبها الفتح النورماني إلى دائرة الحضارة اللاتينية من جديد، وهي التي خرجت عن تلك الدائرة من القرن الخامس الميلادي، والأكثر من ذلك أن الفتح النورماني جعل إنجلترا شريكة الوارثين للحضارة الرومانية في فقههم وعمارتهم وأدبهم وقانونهم ونظامهم الاجتماعي والسياسي(٢).

وحاول النورمان أن يحموا كل أساليب حياة وعادات السكسون، وإن كانت لغة الشعب الإنجليزي قد تغيرت تغيرا كبيرا، وأصبحت لغة النورمان هي اللغة السائدة في البلاد، أما اللغة الأنجلو – سكسونية فكانت لغة الطبقة الفقيرة من الشعب الإنجليزي(٣).

---

(1) Melkle John, op. cit., p. 9.

(٢) فشر: المرجع السابق، ص ١٦١ – ١٦٢.

(3) Williamson, op. cit., p. 48.

وأصبحت إنجلترا ونورماندي الآن مجتمعًا سياسيًا واحدًا بغض النظر عن القتال الإنجليزي، فقد كانت قناة تومـــاس – Themes – تفصل ميدليكس عن شوري، وأصبحت الطبقة النورمانية الارستقراطية وكذلك الإنجليزية ممتدة في البلدين.

وتواريخ نورماندي وإنجلترا كانتا حتمًا متداخلتين نظـرًا لأن نورماندي كانت إمارة يحكمها دوق يدين بالولاء إلى ملك فرنسا، وهذا يعني أنه من الآن فصاعدًا السياسات الإنجليزية أصبحت جــزء مــن السياسات الفرنسية، ولكن الارتباط الفرنسي أصبح أعمق، والنورمان لكونهم فرنسيين أحضروا معهم لإنجلترا اللغــة والثقافــة الفرنســية بالإضافة إلى ذلك أننا لا نتعامل مع شخصية فرنسية مفردة، ولكن مع جيل ضخم فيما بعد سنة ١٠٦٦م قام بإعادة تأكيــد تــدريجي للغــة الإنجليزية(١).

وبعد الفتح النورماني لإنجلترا أصبحت هنــاك ثلاثــة لغــات مختلفة في إنجلترا، الأولى هي لغة البلاد الأصلية الإنجليزية، والثانية هي لغة الوافدين وهي اللغة الفرنسية ويتحدث بها الغزاة وعــدد مــن أهل البلاد الذين يطمعون في السلطة والسلطان، والثالثة وهي اللاتينية وهي لغة الكنائس والتقاضي في إنجلترا(٢).

وفي عام ١٠٦٦م كان أقل من ٣٠% من ملاك العقارات فــي ونشستر لا يحملون أسماء إنجليزية، إلا أنــه بحلــول ســنة ١٢٠٧م ارتفعت النسبة إلى أكثر من ٨٠%، وكانت غالبية الأســماء فرنســية مثل : وليم – روبرت – ريتشارد......، وهذا الاستعداد لقبول التــأثير الأوربي يعني وصول هذه التأثيرات إلى الفن الإنجليزي وهو الأكثــر لفتا للأنظار، ففي الهندسة المعمارية الكنسية على سبيل المثال نجد أن

(1) Kenneth, op. cit., pp. 122 - 123.

(2) Williamson, op. cit., p. 48.

الألفاظ الأوربية (روماني – قوطي) على النسق القوطي تصنف الأنماط الحديثة أفضل بكثير من نورمان أو إنجليز، وفي الواقع كان التفوق الفرنسي عظيما جدا في مجالات الموسيقى والأدب والهندسة المعمارية لدرجة أن اللغة الفرنسية أصبحت لغة عالمية حقا، وأكثر من مجرد لغة قومية يتحدث بها أي شخص أراد أن يعبر عن نفسه كشخص متحضر(١).

وكانت اللغة التي أحضرها الغزاة للنورمان معهم إلى إنجلترا هي اللغة الفرنسية – النورمانية، وكانت هذه اللغة تقسم إلى:

لهجتين عاميتين فرنسيتين – The two French Dialects:(٢).

(أ) اللهجة الفرنسية الأولى: – لم تكن تبدو مثلما نجدها الآن، وفي الحقيقة كان هناك لهجتين يتكلم بهما السكان من القنال الإنجليزي إلى البحر المتوسط وهي لغة تدعى – Hoc أو oc – وهي مشتقة من اللغة اللاتينية القديمة، وكانت تستخدم في غرب فرنسا، وكانت هذه اللهجة تدعى اللسان الروماني – Romance tongue –.

(ب) اللهجة الفرنسية الثانية: وهي تساوي لهجة – Hc – Oc* – وكانت تستخدم في الجنوب الفرنسي وهي كذلك لغة لاتينية، أما

---

(1) Kenneth, op. cit., p. 123, Williamson, op. cit., p. 48.

(2) Melkle John, op. cit., p. 10.

* Oc = Hoc وهما لهجتان مشتقتان من اللغة اللاتينية القديمة، وأحضرها إلى إنجلترا الغزاة الرومان عندما فتحوا إنجلترا في عهد يوليوس قيصر سنة ٥٤ ق.م.

أما – Uyl = Illud وهما كذلك مشتقتان من اللغة القديمة ويستعملان في الشمال الفرنسي.

انظر في ذلك:

- Melkle John, op. cit., p. 10.

اللهجة –Illud –Oyl– فهي لاتينية كذلك ويستخدمها أهالي الشمال الفرنسي، وكان هناك فاصل طبيعي بين اللغتين وهي تمتد من نهر لور –loire– أو خط يمتد من روشال – Rochelle – إلى جرنبل –Grenoble– وكانت لهجة – oyl – في شمال النهر ولهجة –Oc– في جنوب النهر، وأصبحت لهجة – oyl – في العصر الحديث تستخدم في الإيطالية – oyl – oui – وفي الجنوب –oc– وبقيت تتساوى معها، واللغة التي تدعى بيرفنسل –provencal– كانت أفضل معرفة من لسان لاتجدك – Langued'oc – وهو اسم معروف للأقاليم الغربية في فرنسا[1].

ففي الشمال الفرنسي حيث سمي اللسان الفرنسي لانج دوا – Langued oil – ولم يعرف الناس من لسان لاتجدك وهي لهجة إخوانهم من أهل بروفانس وأقطانيا في الجنوب سوى أنه أقل أجنبية عنهم من لغة الكلتيين في بريتاني، ومن لغة الشماليين في بايو[2].

وكان الفلاحون في إنجلترا يتحدثون لهجة محلية غير تلك التي يتحدثها السادة، وإن كانت اللغة قد فقدت كثيرا من القواعد النحوية الخاصة بها، ودخلت كثيرا من الكلمات الفرنسية إلى المعجم الإنجليزي، وهذه الكلمات كانت ترتبط بالحرب، والسياسة، والعدل، والقانون، والصيد، والفن، والطبخ... إلخ، واتصلت بالمجتمع الإنجليزي عن طريق تشوسر تلر – chausers taler – ويكلف بيبل – wycliffes bible – وازدادت خصوبة المعاني من خلال الكاتب الشهير وليم شكسبير – Shakespeare –، وميلتون – Milton –[3].

---

(1) Melkle John, op. cit., p. 10.

(٢) فشر: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٣) وليم شكسبير – William Shakespeare – (١٥٦٤ – ١٦١٦)، ولد وليم شكسبير في قرية صغيرة في سترتفورد في ربيع سنة ١٥٦٤، وكان من أشهر الكتاب الإنجليز على الإطلاق ومن أشهر أعماله الأدبية والشعرية=

وفي المجتمع الإنجليزي أصبحت اللغة الفرنسية ضرورية، فقد كانت لغة القانون وإدارة الأملاك، ولغة الشعر، والنثر، ولغة الأغنية، والرواية، بمعنى آخر فإن الغزو النورماندي دخل في فترة كانت إنجلترا أثناءها مثل مملكة بيت المقدس الصليبية يمكن أن توصف بحق بأنها جزء من فرنسا الخارجية "وما وراء البحار" فكانت مستعمرة ثقافية[1].

وبعد فترة من الفتح تم انصهار الإنجليز والفرنسيين، وكونوا طبقة من الكتاب الأنجلو – نورمان، وأصبحت اللغة عندهم سهلة، فقد كان الاعتماد الأول على اللغة المحلية، ثم تطور عند غزو النورمان لإنجلترا، وأصبحت اللغة الفرنسية هي الغالبة، ولكن بعد فترة أصبحت الكتابة بالإنجليزية[2].

=والمسرحية تاجر البندقية – the Merchant of Venice – الملك يوليوس قيصر – Julius Caeasar – هاملت Hamlet – الملك لير – King lear – ماكبث – Macbeth – جون مليتون – John Milton – وكان من أشهر الأدباء الكنسيين في القرن السادس عشر وله قصائد شهيرة، وكان من أتباع مذهب إعادة التعميد Anabaptists – والذين ظهروا في القرن السادس عشر، وطوائف التطهريين – Puritans – الإنجليز الذين ظهروا في القرن السابع عشر ليكونوا آخر أتباعهم.

وعلى الرغم من أن الوالدنسيين – Waldensians – وقد طردوا فيما بعد من مدن الشمال الإيطالي بواسطة الكنيسة، فإنهم بقوا في أعداد صغيرة جدا في قرى جبال الألب حتى القرن السابع عشر، وهم أولئك "القديسون المذبوحون" الذين يتحدث عنهم جون ميلتون في قصائده الشهيرة.

انظر في ذلك:

- نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ٥١٨.

- Trevelyan, op. cit., p. 132.

(1) Kenneth, op. cit., p. 124.

(2) Legge (M. D.) op. cit., p. 10.

وأدخل النورمان بعض التأثيرات اللغوية الهامة إلى إنجلترا وكانت تتركز في ثلاثة أشياء:

(١) قامت بعزل التصريفات القديمة ووضع تصريفات جديدة.

(٢) أدخلت عددًا واسعًا من الكلمات الجديدة، وأظهرت عدد من الكلمات الأنجلو – سكسونية.

(٣) طورت في أساسيات اللغة، وأكملت بناء الجمل.

والإنجليز لم يعتنوا بالقواعد اللغوية والنحوية الخاصة، وعموما بدءوا يتركون الخلافات، ويعدلون التصريفات اللغوية والنحوية لفترة طويلة قبل القرن الحادي عشر[١].

واستطاع النورمان الفرنسيون إدخال آلاف من الكلمات الجديدة إلى إنجلترا ومزجوها باللغة الإنجليزية، لتكون الثقافة الأنجلو – نورمانية، وهذه الكلمات كانت في موضوعات مختلفة مثل الثقافة، والكنيسة، والتجارة، والحروب، وكانت الجمل قبل قدوم النورمان الفرنسيين فظة وغريبة وبغيضة للسمع، وإن كان الإنجليز القدماء هم السبب في تكوين الجمل الحديثة في اللغة الجرمانية، والكلمات الإنجليزية القديمة قد أعيد تشكيلها بإزالة الزائد منها وبقيت جذورها، وكانت اللهجة جزء من الكلمة الأصلية الساقطة فكلمة – Nose- –thyrel أصبحت –Nostril– ومع مقدم النورمان الفرنسيين جاءوا ببعض الكلمات مثل:

Palace–Chair–Capinet–ress–Costume–Mail–Armaur – Spoust – Consort – Cousin.[٢]

---

(1) Melkle, op. cit., p. 10.

(2) Melkle, op. cit., p. 10.

لقد كانت اللغة اللاتينية في أخريات القرن الثاني عشر ما تزال هي اللغة المستخدمة دون غيرها في الموضوعات ذات الطابع الفني والفكري، مثل: الفلسفة اللاهوت والقانون ووثائق الكنيسة في الدولة، وظلت اللاتينية هي اللغة الأكاديمية العالمية حتى القرن الثاني عشر، وما تزال شئون الكنيسة الكاثوليكية توجه باللغة اللاتينية إلى حد كبير، ولكن بعد سنة ١٢٠٠م بدأ استخدام اللغات المحلية في العمل الإداري وساحات القضاء في الممالك الوطنية النامية.

وفي القرن الثاني عشر كان ما يزال هناك قدر هائل من الأدب يكتب باللغة اللاتينية، بل إن بعضًا من أفضل القصائد اللاتينية ظهرت بعد سنة ١١٠٠م[١].

وهكذا في إنجلترا القرن الثالث عشر أصبحت الفرنسية رغم كل شيء أكثر أهمية مما كانت عليه من قبل في الفترة التي أعقبت الغزو النورماني، وكان التعليم العالي ثلاثي اللغة، فقد كانت اللغة الإنجليزية هي الأم، ويكون الطالب ملماً باللاتينية، ويتكلم بطلاقة اللغة الفرنسية[٢].

وفيما يختص باللغة الإنجليزية كلغة ثقافية فالملاحظ حتى القرن الثالث عشر أن اللغة اللاتينية كانت هي لغة الثقافة في إنجلترا خاصة وفي أوروبا عامة، غير أنه مع مطلع القرن الرابع عشر بدأت الصورة تتغير وبلغت اللغة الإنجليزية شأناً عظيماً، وبدأت الثقافة الإنجليزية تساهم في التقدم الأوربي بنصيب وافر، ويرجع ازدهار اللغة الإنجليزية إلى فحول الشعراء الإنجليز أمثال تشوسر –Chaucer– ووليم لانجلاند –William langland– صاحب المنظومة الشهيرة بيرز بلاومان –Piers Plowman– والتي نهج

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(2) Kenneth, op. cit., p. 125

فيها الشعر الإنجليزي القديم من حيث تجانس الحروف في مطالع الأبيات[١].

ومن المهم أن نذكر أن "اللغة الإنجليزية أصبحت لغة عالمية مع بداية القرن الرابع عشر".

***

ثانيا : تطور الآداب

الأدب وثيق الصلة بالتاريخ فهو مرآة العصر، وهو التعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه، ويفصح عن دخائل البشر ويصور أحلامهم وأمانيهم، ويرسم نواحي مختلفة من حياتهم الواقعية من حياة الأفراد أو الجماعات، ومن حياة المدينة أو الريف، بل ومن النظم ومن الحال الاقتصادية، ومن العلم والفن ومن الحرب والسلام، ومن كل ما يقع تحت حس الإنسان ويدخل في نطاق إدراكه أو تصوره غالبا ما توصف بدايات الأدب الإنجليزي مع تشوسر – Chaucer –[٢].

---

(١) وليم لانجلاند شاعر إنجليزي ولد في مقاطعة شروب Shrop Shire – حوالي سنة ١٣٣٠ وتوفي حوالي سنة ١٤٠٠، وقد كتب في المشاكل الاجتماعية، وكشف عن عيوب المجتمع الإنجليزي في عصره في قصيدة رمزية طويلة بعنوان "رؤيا بطرس الفلاح" The vision of Piers plo – woman وهي قصيدة تنم عن روح الشاعر الأنجلو – سكسونية، ويميل لانجلاند في أسلوبه إلى التصوف والقوة.

انظر في ذلك:

- ج. ج كولتون، المرجع السابق، ص ٩٨.

- Legge, op. cit., p. 88.

(٢) عاصر جوفري تشوسر النصف الثاني من القرن الرابع عشر، إذ ولد حوالي سنة ١٣٤٠ وتوفي سنة ١٤٠٠، وقد أمد إنجلترا بما كانت تفتقر إليه منذ أيام الأنجلو – سكسون، ونعني بذلك الخلق والإبداع الأدبي الذي يرقى إلى=

وقبل الوصول إلى الأدب الإنجليزي الحديث مـرت إنجلتـرا بحدثين هامين في تاريخ الأدب الإنجليزي، الحدث الأول كان يتنـاول الأدب قبل الفتح النورماني – في العصر الأنجلو – سكسوني، وكـان الأدب الإنجليزي في هذا العصر عبارة عن سجل من المخطوطـات – Manasripts، وإن كانت كتابة هذه المخطوطات صـعبة للغايـة، ولمعرفتنا الشعر الأنجلو – سكسوني، فإنه كان يعتمد على أربع مـن المخطوطات التي كتبهـا السيد روبـرت كبتـون – Sir Robert Cotton– وهي الآن محفوظـة فـي متحـف بريطانيـا British– Museum – وهي كتاب أكستر – Exter Book – وأعطـي إلـى كاتدرائية أكستر، وذلك عن طريق الأسـقف ليفـراك – Leofric – وكان ذلك تقريبا بعد عـام ١٠٥٠م، وكتـاب فرسـيل – Vercelli Book – وتم العثور عليه في فرسيل بالقرب ميلان سـنة ١٨٢٢م،

مستوى يفضل بكثير ما أنتجه معاصروه في القارة، ولم يصل إلى ما وصل إليه بمحاولة تجنب التأثير الخارجي، وإنما بالغوص في أعماق الأدب الفرنسي والأدب الإيطالي والإفادة منهما، كما احتك بنماذج عديدة من الناس، وعرف حياة البلاط بزواجه من إحدى وصيفات الملكة، وأرسل في مهمات دبلوماسية خارج البلاد، وتقلد في العديد من الوظائف مما أكسبه خبرة بالناس والحياة تركت أثرها في أعماله التي خلفها لنا، وله مؤلفات - The Book of The – Dueess الذي وضعه سنة ١٣٧٠، وفي حوالي سنة ١٣٨٠ وضـع كـتاب The parli sment of fowls، ووضع كتاب – Troilusmd Criseyde– في عام ١٣٨٢، وقد نال تشوسر شهرة واسعة بعد موته مباشرة، ويكفي أن الشعراء الإنجليز في القرن الخامس عشر اعترفوا به بوصفه أستاذهم وكانوا يجاهدون في تقليد منهجه وطريقته.

انظر في ذلك:

- ج. ج. كولتون: المرجع السابق، ص ٤٢.
- Evns (B. L.); Ashart History of English literature (New York, 1942); p. 7.

والأخير في مكتبة البودليان في أكســفورد – Bodleian Library – وأعطيت عن طريق العلماء الألمان والفرنسيين إلى مكتبة الإيرل في أورندال –Aurandel– وفي مجموعة مخطوطات الســيد روبــرت كيتون في بيولف – Bewalf –[1].

وأهمية الشعر في العصر الأنجلو – سكسوني في التاريخ، تبين أنها تبدو هامة في كل شيء، لأنهم كانوا يحاربون لمواجهة مسئولياتهم في الحفاظ على المخطوطات، لتبقى على قيد الحياة، وكان الإنجليز قد أحضروا معهم ملحمة بيولف إلى إنجلترا في القرن السادس الميلادي، وفيها تاريخهم الشعري في سنة ٧٠٠م[2].

والحقيقة أن الملك ألفرد العظيم خدم الأمة الإنجليزيــة وأدبهــا لأنه حفظ تاريخ هذه الحقبة الهامة من الأدب، وكانت المدونات وعلى رأسها المدونة الأنجلو – سكسونية – Anglo-Saxon Chronical– في ونشستر وكانتربري عاصمتي وســكس وكتبــت علــى التــوالي، ويحتوي على تاريخ الأمة الإنجليزيــة طــوال العصــر الأنجلــو – سكسوني.

ولقد كان الملك ألفرد مقلا في تسجيل الأحداث الرئيسية في تلك السنوات من تاريخ إنجلترا، وقام الملك بطبــع المؤلفــات واســتعان

---

(١) ملحمة بيولف: هي ملحمة شعرية ظهرت في القرن السادس الميلادي بعد وفاة محمد (ص) بسبعين عاما فقط وذلك منذ بدايات عهد سلالة يانج العظيم في الصين. – The great Tang Dynasky in china – وهي خير مثال للشعر الأنجلو-سكسوني.

انظر في ذلك:

- مجدي وهبه: قدماء الإنجليز وملحمة بيولف، دار المعرفة ١٩٦٤.

- Evans, op. cit., p. 8.

(2) Evans, op. cit., p. 7.

بالعودة إلى الماضي أيام هنجيست –Hengist– وهورسيا –Horsa– وفي سنة ٨٩١م قام ألفرد بتجميع وترتيب الأفكار لجمع المدونات لتاريخ بلاده، وقام في البداية بوضع أجزاء تاريخ النثر الإنجليزي[1].

وبالإضافة إلى ذلك كان يوجد عدد من المدونات والقصائد الشعرية وهي ما يطلق عليها قصائد المدونات، والقصائد الشعرية وهي ما يطلق عليها قصائد المدونات الشعرية الإنجليزية – Poems in the English chorincal – وذكرت هذه القصائد الشعرية في المعارك مثل –The Battle of Brunaburh – ومثل معركة مالدون – The Battle of Maldon – وتصف الأولى موت الملك أنجار أثيلنج والثانية تصف انتصار أثلستان* على الدانيين ٩٣٧م وترجمت بواسطة تنيوسن – Tennuson – إلى الإنجليزية الحديثة، والقصيدة تخص الطبقات الحربية التي كانت تشتهر بها إنجلترا، ومن القصائد الحربية الغنائية – War Odes– ومعركة بيليتك – Baltic– والعديد من المعارك الحربية، وقصيدة معركة مالدون تخبرنا كيف أن الأيرل بيرثيلوث –Byrthonoth– من وسكس الذي قاد رجاله على شاطئ البحر وحارب فرسان الدانيين الذي حاول غزو بلاده، وانتصر عليه الدانيين وسقط الأيرل صريعاً، وسميت بتلك القصيدة بموت بيرثينوث – The Death of Byrthonoth –[2].

---

(1) Melkle, op. cit., p. 7.

* أثلستان – Athelstan – (٩٢٥ – ٩٣٩) استطاع صد هجوم الدانيين في موقعة تقشعر لها الأبدان من حوادثها، وتذوب القلوب من تتبع قصتها، وهي واقعة برونابرج – Bronaburgh – سنة ٩٣٧ والتي ألهمت ملحمة من أعظم الملاحم الأنجلو – سكسونية، وغدت مادة لقصة من أبهى القصص في أدب الشماليين.

انظر في ذلك:

- نظير سعداوي: المرجع السابق، ص ٤٩.

(2) Melkie John, op. cit., p. 8; Stenton (F.M.) op. cit., p. 119.

وفي سنة ١٠٠٠م كانت المخطوطات التي تم تدوينها مازالت على قيد الحياة، وما حدث في السبعمائة عام التالية غير معروف على وجه التحديد.

وفي عام ١٧٠٦م سجلت مكتبة السيد روبرت كيتون كمكتبة إنجليزية معترف بها في إنجلترا، وبعد ذلك بستة وعشرين عاما خربت المكتبة، وتم إشعال النيران فيها وبها المدونات الإنجليزية الشهيرة[١].

وكانت الأديرة مركز الإشعاع العلمي والأدبي في القرن الحادي عشر والثاني عشر لكثير من المفكرين في الكاتدرائيات الإنجليزية والتي نشأت في ذلك الوقت، وكذلك في الكنائس حيث تحدث المناقشات الدينية والعلمية في كانتربري وروشيستر ودرهام، وهي نماذج لمراكز الفكر الديني الممتزج بالعقلاني[٢].

وكان النمو الفكري في القرن الثاني عشر يتضمن الآداب الإنسانية شأن سائر أشكال الفكر والمشاعر، فقد شهد ذلك القرن تزايدا كبيرا في حركة التعليم، كما شهد تطور الدوافع الهامة الجديدة للتعليم، والتي كانت ذات تأثير قوي على الآداب الأوروبية حتى القرن العشرين، إلى جانب ظهور الآداب الشعبية للمرة الأولى، ذلك أن أحدا من كتاب العصور الوسطى الباكرة باستثناء سان أوغسطين وربما بوثيوس، وعدد قليل من الشعراء الأنجلو–سكسون لم يجد من يقرأ مؤلفاتهم اليوم لأغراض أخرى غير الأغراض التاريخية البحتة[٣].

---

(1) Evans, op. cit., p. 8.

(2) Haskins (C.H.) the Renaissiaeo of the Twelf century (Camgridge, 1928), pp. 46-47.

(٣) نورمان. فـ. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٦١.

أما عن نوعية الكُتّاب الذين يكتبون الأدب في القرن الثاني عشر، فقد كانت العظمى من الكتاب الرهبان الذين كانوا هم الأغلبية من قبل، والذين تميزت بهم الفترة السابقة على سنة ١١٠٠م، ويكشف القرن الثاني عشر عن كتابات غزيرة كتبها القساوسة الذين كان معظمهم من العاملين في الكاتدرائيات، وإن كانت هناك فئة جديدة من الكتاب هم طلبة الجامعات الذين كانوا من رجال الكنيسة، فضلاً عن القساوسة الذين أنتجت قرائحهم الشطر الأكبر من أدب القرن الثاني عشر، وساهم العلمانيون للمرة الأولى في العصور الوسطى في الأدب الأوروبي[(١)].

وعلى أية حال فقد كتب الكُتّاب العلمانيون في إنجلترا أشعاراً ومؤلفات دينية عن حياة القديسين وإن كانت باقية حتى الآن، فضلاً عن كونها مليئة بالقصص الأنجلو – سكسونية ممزوجة بالشعر القديم، وعبر الشعراء الإنجليز القدامى عن شعرهم في الأحلام، وكانت هناك قصة جوديث – Judith – وهي مثيرة، وقريبة من الشعر الأنجلو – سكسوني[(٢)].

وكان الإنتاج الأدبي في العصور العالية وافراً ومتنوعاً بغزارة، إذ كان الشعر مكتوباً باللغة اللاتينية التقليدية – اللغة العالمية للطبقة المثقفة في العصور الوسطى – وكذلك اللغات العادية التي ظهرت منذ عهد بعيد في الأقاليم المختلفة في العالم المسيحي[(٣)].

---

(١) نورمان. ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٦١ – ٤٦٢.

- Williamson, op. cit., p. 48.

* جوديث - Judith - : قصة شعرية مثيرة قريبة من الشعر الأنجلو – سكسوني، وتحكي قصة طغيان جوديث، وتصف تفوق الجنس البشري.

انظر في ذلك:

- Evans, op. cit., p. 10.

(2) Evans, op. cit., p. 10.

(٣) س. ورن هلستر: المرجع السابق، ص ٢٤٣.

وقد شهد القرن الثاني عشر كذلك ظهور ما يعرف بـ"الشعر اللاتيني العلماني"، وهو عبارة عن قصائد عاطفية، وأغنيات تدور حول موضوعات غير دينية، ويذكر فيها الشاعر مغامراته العاطفية والمرات التي يقبل فيها علي شرب الخمر، وإن كانت هذه القصائد "الشيطانية" تحض على مغريات الحياة الماجنة، وفسرت في بعض الأحيان علي أنها تقرير دقيق عن الحياة التي كان طلبة الجامعة يحيونها، والمثل والقيم التي كانت سائدة فيما بينهم، وهذا الرأي لا يصمد للنقد أكثر مما يصمد للتفسير المماثل لما يكتبه الطلاب الأمريكيون المعاصرون في صحفهم؛ إذ كانت الخمر والنساء والغناء تمثل جزءا هامشيا في حياة طلاب القرن الثاني عشر، بل إنها كانت أقل أهمية مما هي في حياة طلاب اليوم(١).

وتلك واحدة من القصائد للعلماء المترحلين تظهر تطاولا ووقاحة، وكتبها متعمدا ضد قانون الإيمان المسيحي:

"أؤمن بالروح القدس والكنيسة الكاثوليكية المقدسة..." تم تحويرها إلى:

أؤمن بالخمر المناسب لي.
أؤمن "بحانة مضيفي".
أكثر من إيماني بالروح القدس.
فالحانة هي محبوبتي.
أما الكنيسة فليست لي.

تلك المشاعر الوجدانية، يجب ألا ينظر إليها على أنها تدل على الإتجاه الكاسح نحو مذهب اللاإراديين – الذين يؤمنون بالماديات

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٦٢ – ٤٦٣.

فحسب – Agnasticisn – وأنها أساليب للتعبير عن مميزات العصور الوسطى، وتتعلق بحركة التطرف – Radicalism – للدارسين غير الملتزمين والتي شاهدتها كل العصور[1].

إن الموقف المستهزيء بالهيراركية الكنسية، والذي يفرض نفسه من ثنايا القصائد الجولياردية يحمل بعض الأهمية والمغزى، ولكن علينا أن نتذكر أن مؤلفي هذه القصائد الجوليارديه، أكثر دنيوية من ترانيم سان برنارد التي كرسها للعذارء؛ ولكن مسحة التشاؤم الشبابية الواضحة فيها لا تختفي وراءها من أخلاق عميقة في الدين في العصور الوسطى في تقويم الشعر الجولياردي وما يشابهه من شعر الطلبة في القرن الثاني عشر، وينبغي التأكيد على أن أولئك الكتاب الذين أعلنوا أنهم عقدوا العزم "على أن يسقطوا جثثا هامدة في الحانة" وهم أنفسهم الذين كانوا يستمعون بإنتباه شديد إلى محاضرات أبيلارد ومواعظ برنارد، فبعد أن أنهى كبير الشعراء –Atchpoet– ** وصف

---

(1) س. وارن. هلستر: المرجع السابق. ٢٤٤.

* الجولياردييون – Goliards – وهم مجموعة من الشعراء الجوالين ينسبون إلى أب أسطوري، هو – Golias وكانت قصائدهم عاطفية، وتعرف باسم الشعر الجولياردي – Golidatdie poetry – كانت أشعارهم تحض على مغريات الحياة الماجنة.

انظر في ذلك:

- نورمان ف. كانتور: المرجع السابق. ص ٤٦٢ ، ٤٦٣.

- Cantor (N. F.), op. cit., p. 225.

** - Atchpoet – وهو كبير الشعراء وهو شاعر لاتيني مجهول، وقد أطلق عليه هذا الاسم تعبيرا عن إعجاب الجوليارديين به، وكان واحدا من أفضل الشعراء الجوالين، امتدح قصائد الحب والخمر والنساء، ويبدو من قصائده أنه عاش في ريف منطقة الراين بألمانيا. وقد انتقد الكنيسة وتتناول قصيدته الشهيرة "الاعتراف" قصة شاعر يخوض في الرذيلة والخمر والنساء، وهي=

حياته الماجنة كسكير مقامر وزير نساء، يتوسل إلى الرب كي يمنحه الرحمة والخلاص، كما يتطلع إلى تحية الملائكة الذين ينشدون القداس لخلاص الروح في فرح أبدي.

ولقد كان الشعر الجولياردي تعبيرا عن مدى التنوع والتعقيد في حياة القرن الثاني عشر، ولكنه لا يصلح دليلا على الموقف العلماني الحقيقي، فعلى العكس يوضح هذا الأدب كيف أن موجة التدين الجديدة قللت من حدة عصيان الطلاب، وكيف ساعدت على تحول البوهيميين الشبان في الحي اللاتيني إلى رجال مسئولين، لم يكتب لطيشهم أن يبقى سوى في صورة خيالية يرسمها الحنين إلى الماضي[1].

والحقيقة أنه لا يوجد في الأدب الإنجليزي القديم كله ما يمكن أن نقارنه بملحمة بيولف في سيطرتها وسيادتها في الشعر الكلاسيكي، ومن المؤكد أن مؤلف هذه الملحمة كان قد قرأ أعمال فرجيل (٧١ - ١٩ ق.م) والذي كان أعظم كتاب اللاتينية القدماء، وظل إنتاجه محورا لكثير من الدراسات الأدبية والفكر الروماني واللاتيني، أو بعض الملاحم اللاتينية الشهيرة، وإن بقى عدد قليل من الشعر خصوصا ملحمة بيولف والقصص الشعبي الأنجلو-سكسوني[2].

ولقد توارث إنجازات الأدب اللاتيني في القرن الثاني عشر خلال المؤلفات الكثيرة، التي كتبت باللغات المحلية آن ذاك، فقد كان

= مصادر إلهامه التي تمهد إلى طريق الفردوس، وفي أشعاره يتمنى أن يموت في حانة خمر.

انظر في ذلك:

- نورمان ف. كانتور: المرجع السابق. ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق. ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

(2) Evans, op. cit., p. 10.

من الشائع في الأوساط العلمانية في العصور الوسطى الباكرة أن تستخدم اللغة المحلية العادية، ولكنها العمل الأدبي الوحيد الذي كتب قبل سنة ١١٠٠م أو سنة ١٠٥٠م لأن هناك صعوبة كبيرة في تاريخ هذه الأعمال الأدبية، ويتألف من الشعر الأنجلو-سكسوني الذي نعتبر قصيدة البيولف خير مثال عليه، فاللغة الفرنسية التي ظهرت بشكل متميز منذ القرن التاسع انبثاقا من اللغة الرومانية – Lingua Romana – التي كانت هي الصيغة الدارجة من اللاتينية الكلاسيكية، وقد أنتجت أول مؤلفاتها الأدبية قبل أو بعد سنة ١١٠٠م بعشرين عاما أو ثلاثين عاما، كذلك بدأ استخدام اللهجات الرومانسية الأدبية في التعبير الأدبي في الوقت نفسه تقريبا وربما بعده بقليل، حيث كانت اللغة اللاتينية ذات تأثير شديد على الأدب الشعبي، فإن المؤلفين لم يبدءوا في استخدام اللغة الدارجة سوى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وقد أدى الغزو النورماني لإنجلترا، وما نتج عنه من تحويلها إلى تابع ثقافي إلى إعاقة تطور الأدب المحلي الإنجليزي حتى القرن الرابع عشر، والحقيقة أن نمطا من اللغة الفرنسية الهجينة ظل يستخدم في السجلات القانونية والحكومية الإنجليزية حتى منتصف القرن الخامس عشر[(١)].

والحقيقة أن الكتب والمكتبات كان لها دور كبير في حركة الأدب في إنجلترا، وعن أهمية الكتب ذكر – هسكنز – نقلا عن الذين يعيشون في الأديرة في العصور الوسطى قولهم: "دير بدون كتب كحصن بدون ذخيرة".

والكتب التي توجد في هذا الدير يمكن بعد الإطلاع عليها تحديد ثقافة الموجودين في هذا الدير عن طريق نوعية الكتب التي يقرءونها[(٢)].

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق. ص ٤٦٤.

- Trevelyan, op. cit., p. 132.

(2) Haskins, op. cit., p. 71.

وشجع الملوك والأمراء على العلم ودراسة الأدب، وكان من الأمراء الذين اهتموا اهتماما بالغا بالأدب في إنجلترا روبرت جلوستر الذي كان من أعظم المؤيدين للأدب والأدباء في إنجلترا، وقام بجمع أعمال وليم سالسبوري، الذي يعتبر أعظم رجال عصره لما تتصف به كتاباته من رومانسية[1].

وكان من أشهر ملوك النورمان الذين شجعوا العلم الملك هنري الأول الذي اكتسب لقب بوكلارك – Beauclerk – "عالم جيد"، أو "الملك العالم" نظرا لاهتمامه بالتعليم، فقد قام بترجمة خرافات أسوب – Asop –، وكان هنري محبا للعلم فنشط حركة التعليم، وأرسل إرساليات من أبناء شعبه إلى بلاد الأندلس لدراسة الطب والرياضيات، فضلا عن المدارس التي أقامها في بلاده لدراسة العلوم واللغة اللاتينية[2].

ويروى عن كيفية التدريس في كمبريدج آن ذاك أن التلاميذ كانوا يجتمعون للسنة الأولى من دخولهم المدرسة في قاعة كبيرة؛ وفي السنة الثانية ينفرد كل أستاذ إلى غرفة مخصصة، ففي الصباح يبدأ الأستاذ في تدريس الصرف والنحو، وفي الساعة السادسة منطق أرسطو، والساعة التاسعة تفسير فلسفة شيشرون وكنتيليان، وقبل الساعة الثانية عشرة أمثولة من الكتاب المقدس مع شرحها، وكانوا يستعملونها في تلك المدرسة بدلا من الأشعار المكسونية، وكانوا يشرحون أقاصيص بعض أبطال الزمان مثل الإسكندر الأكبر وأرثر وشارلمان وغيرهم[3].

---

(1) Haskins, op. cit., p. 57.

(٢) أدمون – ديمولاند: المرجع السابق، ص ٣٤.

- Mitchell, op. cit., p. 78; Williamson, op. cit., p. 31.

(٣) أدمون – ديمولان : المرجع السابق، ص ٣٤.

وهكذا كان للتطور الأدبي المحلي في القرن الثاني عشر أثره الشامل على مجالات حركة الثقافة الراقية، كما كانت له بعض التأثيرات على أحوال الحياة الاجتماعية، كذلك لعب الأدب المحلي دورا في تطور الملكيات الوطنية، ذلك أن نمو الآداب المحلية في القرن الثاني عشر ضمنت مكانا للغات الدارجة في المجتمع الأوربي. وهذا التشرذم والتفكك اللغوي والفكر الاجتماعي الذي عاناه المجتمع الأوروبي في القرن الثاني عشر كان بمثابة التمهيد الحتمي قبل بزوغ النزعة الوطنية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر[١].

***

ثالثا: أعلام النهضة الثقافية
في إنجلترا النورماندية

هؤلاء هم الذين حملوا على أعناقهم الثقافة الإنجليزية.

(١) بيده:

في البداية لابد لنا أن ننوه بدور المؤرخ الشهير بيده –Bede– (٦٧٣ – ٦٧٥م)، فهو بحق يمثل خلاصة النتاج الفكري لأوروبا الغربية، ويعتبر من أعظم شخصيات ذلك العصر بكتابة التاريخ الكنسي – The Ecclesiastical of English People – وانفرد هذا الكتاب بمكانة خاصة بين جميع المؤلفات التي ألفت في العصور الوسطى، ويعتبر بيده أول مفكر إنجليزي استطاع أن يتحدث إلى العالم الحديث والمعاصر في موضوعات شتى في دقة ووضوح ويعد الكتاب مصدرا أساسيا في معرفة تطور المجتمع المسيحي، ونظمه

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق. ص ٤٦٧ -٤٧٧.

- Haskins, op. cit., p. 49.

الأولى في إنجلترا، وهو أول مفكر إنجليزي ينادي بضرورة تقدم الجنس البشري عن طريق المعرفة والدين[١].

وقضى بيده معظم حياته في الدراسة في دير جيرو –Jerro– ولم يسافر أكثر من سفره بين جيرو ويورك، وجعل سفره في سبيل الدراسة والتعرف على التاريخ وحياة القديسين، وقضى معظم سنى حياته بين الأعمال العلمية والدينية، وجعل بيده ديره في جيرو أعظم مركز للحضارة في أوروبا، واستطاع هذا الرجل بعد دخول المسيحية إلى إنجلترا عن طريق الرهبان الذي أرسلهم جريجوري الأول أن يوطد أركان المسيحية كرجل مسيحي، وكتابة التاريخ الكنسي دليل على ذلك.

وكانت حياته تبدو بسيطة، وقد أحضر الرهبان الأيرلنديين إلى إنجلترا واستقروا فيها، وقد كتب معظم أعماله باللغة اللاتينية، وأعطانا وصفًا عن حياة السكان الأوربيين والتي فقدت لفترة طويلة بعد وفاته، وتعرضت البلاد لغزو الدانيين الذين دمروا كل أشكال الحضارة الإنجليزية، وأحدثوا الكثير من التخريب في الأديرة الإنجليزية[٢].

(٢) ألفرد العظيم:

الملك ألفرد العظيم (٨٤٩ – ٨٩٩م): كانت شخصيته من أعظم شخصيات التاريخ الإنجليزي، وكفى دليلا على ذلك ما قام به من جليل الأعمال في فترة حياته الذاخرة، فقد كان محاربًا عظيما ذا دراية بكل شيء عن النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والأدبية، فكان بحق محاربًا وعالما وأديبا وإداريا عظيما[٣].

---

(1) Bede, op. cit., p. 3.

- ا. ل. رواس: المرجع السابق، ص ٣٠.

(2) Evans, op. cit., pp. 10 – 11.

(3) Evans, op. cit., p. 11.

وأصبحت إنجلترا في عهده أقوى البلاد، فقد أسس المدارس والأديرة، وأسس في بلاطه مدرسة لأبناء النبلاء كما تولى رعاية البحث العلمي، واستدعى آسر – Asser – لتثقيف نفسه وشعبه من بلاد الغال، وشجع الأديرة على أن تكون مراكز للعلم والتعليم والبحث، بل إنه نفسه كتب في التاريخ والجغرافيا مؤلفات تعتبر أول ما كُتب نثرا في اللغة الأنجلو–سكسونية[1].

ويعتبر ألفرد أيضا مؤسس النثر الإنجليزي – Fatherf English Prose –، وأعماله الأدبية العظيمة كانت تحتوي على الترجمات التي أمر بترجمتها، وإن قام عليها هو بنفسه وتحت إشرافه وحمايته، وقام بالعديد من الترجمات لإفادة الشعب الإنجليزي وكان منها:

- كتاب أورسيوس تاريخ للعالم – Orosius's History of The World –
- كتاب بيده التاريخ الكنسي – Bede's Eccle siastical History –
- كتاب سلوي الفلسفة لبوئثيوس – Consolation of Philospphy –

وقام بإحضار كتاب أوغسطين إلى إنجلترا سنة ٥٩٧م، وأرسل ألفرد نسخة من الترجمات الأخيرة لهذه الكتب إلى الأساقفة في مملكته[2].

والواقع أن في شخصية هذا الملك كثيرا من الجاذبية وبساطة الروح، مما يجعل صورته تنفذ من خلال القرون الماضية إلى صميم

---

* آسر – Asser – (٨٣٧ – ٩٠١) وهو أسقف من ويلز استعان به ألفرد لتثقيف شعبه، وعاش في القصر الملكي، وكتب تاريخ حياة الملك ألفرد.

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٣٧٧، حاشية ٣.

- Melkle John, op. cit., p. 10.

(2) Melkle John, op. cit., p. 11.

قلوب الإنجليز، وقد صدق أحد المؤرخين حين قال: إن مثل الملك ألفرد كمثل المؤرخ بيده، إذ يشعر الإنجليز نحو كل منهما بأنه لا يماثله أحد من عظماء الرجال بمختلف الأمم، وإنما يشبه أحسن ما أنجبته إنجلترا من العظماء[1].

(٣) بونيفيس:

ومن شخصيات ذلك العصر كذلك بونيفيس – Boniface –، وأصله من ديفونشير بأقصى الجنوب الغربي من الجزيرة، وهو أعظم قدرا من معاصره بيده في تاريخ الثقافة الأوروبية، إذا تطلع شخصيته على القارئ من خلال العصور المظلمة وهي تتألق إنسانية ونورا وجلاذبية، وهو المبشر الذي أدخل ألمانيا إلى حظيرة المسيحية، ونظم الكنيسة الألمانية كما أصلح الكنيسة ببلاد الفرنجة، وهو في الواقع شخصية هامة في تاريخ العالم، والمهم أن نذكر أن ذلك العصر الباهر لم يكن أعظم ما في التاريخ الإنجليزي قبل الفتح النورماني فحسب، بل إنه لا يقل قيمة وأهمية عن أعظم عصور التاريخ الإنجليزي في الأزمنة الوسيطة والحديثة، لأنه ليس ثمة شك في أن اعتناق الإنجليز للمسيحية قد فتح لهم عالما جديدا أكثر مما فتحه لهم عصر النهضة[2].

(٤) ألفريك:

ألفريك – Aelfric – (٩٥٥ – ١٠٢٠م) وهو راهب إنجليزي استحق لقب مؤسس قواعد اللغة أو النحوي – Grammaticus – وقام بعدد من المؤلفات مما كان لها أكبر الأثر في إثراء الحركة الأدبية في إنجلترا العصور الوسطى، وكان منها الأسفار الخمسة في

---

(١) أ. ل. رواس: المرجع السابق، ص ٢٨.

- Evans, op. cit., p. 10.

(٢) أ. ل. رواس: المرجع السابق، ص ٢٨.

العهد القديم – Portions of The Penta Teuch – وكتاب يســوع المسيح – Joshua – وكتاب العدل – Judges –، وكتاب عن وظيفة الجناس الاستهلالي للنثر – Book Jobi to alliterative Prose – وكتب أيضا عن المحاضرات الأخلاقية – Homilies –، وكتاب عن الكنيسة في المواعظ الكنسية – Sermons –، وألف كتاب عن حيــاة القديسيــن – Lives of Saints – وكتاب فــي قواعد اللغة اللاتينية – Latin Grammar – وكتاب عن المحادثــة – Connersaron – وينظر إليه على أنه مؤلف المعجم – Lexicogirapher – بالإضافة إلى القاموس الإنجليزي اللاتيني الــذي ألفــه – Latin – English Dictionary –[١].

(٥) ولفستان:

ولفستان – Wlfstan – وكان تلميذ ألفريك، وقد تولى منصب رئيس أساقفة يورك في الفترة من سنة ١٠٠٢ – ١٠٢٣م، وكانت له مؤلفات مثل أستاذه في المواعظ والأخلاق، وغيرها من الكتب باللغــة الإنجليزية، وحول ولفستان كتب أستاذه من اللاتينية إلى الإنجليزية[٢].

(٦) حنا سالسبوري:

حنا السالسبوري – John of Salisbury –، كان واحدا مــن أبرز الشخصيات الثقافية في القرن الثاني عشر في إنجلترا، وتعلم في فرنسا وعمل بإيطاليا، ثم عاد فيما بعد إلى إنجلتــرا واختــتم حياتــه العلمية في فرنسا، حيث شغل منصب أسقف شارتر، ولقد كانت حركة الإبداع الثقافي في القرن الثاني عشر حركة أوروبية، كما أن الشعور

(1) Melkle John, op. cit., p. 6.

(2) Melkle John, op. cit., p. 6.

القومي فيها كان ضئيلا، فلم يكن هناك إحساس على الإطلاق بالتقسيمات التي تصنعها الحدود السياسية على القادة المثقفين[1].

كانت أعماله في باريس وشارتر أعمال علمية ذات جدوى – فهو يصف لنا بعد أن عاد إلى باريس بعد غيبة طالت سنينا عديدة، حيث وجد الأساتذة والطلاب يتابعون نفس المناقشات دونما تقدم محمود، اللهم في زيادة غطرستهم بل إن هذه الأعمال كانت في رأيه تشكل خطرا على الأسس التي يقوم عليها عالم الفكر المسيحي، ومن هذه الناحية كان حنا متفقا مع دامياني، وسان برنارد اللذين عاصراه في موقفهما المعادي للفكر، بيد أنه لم يسايرهما في الاستعاضة عن الطريق الجدلي لمعرفة الرب بالطريقة الصوفية، والحقيقة أن عقلية حنا سالسبوري كانت عقلية رجل أخلاقي، إذ أنه لم يكن مهيئا بطبيعته لتقبل المدخل العلمي أو المدخل العاطفي لفهم الحياة[2].

---

(١) كان حنا قسا إنجليزيا من أصل اجتماعي غامض، وربما كان من أصل متواضع، وفي مطلع شبابه وفد إلى مدرستي شارتر وباريس لينال حظه من الدراسة في ثلاثينات القرن الثاني عشر، وتتلمذ على يد كبار علماء الجدل اللاهوتي في ذلك الزمان، وتمدنا رواياته الحية عن أساتذته ورفاق دراسته ببعض من أهم معلوماتنا عن بداية الجامعات الفرنسية، ثم توجه إلى روما بحثا عن وظيفة، وأصبح سكرتيرا للبابا أدريان الرابع Adrian – IIII (نيقولاس برسكبير) الذي كان في مطلع النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وكانت خلفية هذا البابا في الشئون البابوية رجل إنجليزي الأصل من نتاج المدارس الفرنسية وفي سنة ١١٢٥ عاد حنا إلى إنجلترا لكي يصبح سكرتيرا لثيوبالد رئيس أساقفة كانتربري.

انظر في ذلك:

- نورمان كانتور: المرجع السابق، ص ٤١٤ – ٤٣٨.

- Cantor, (N. F.), op. cit., p. 216.

(2) Evans, op. cit., p. 11.

وقد أنتج حنا عدد كبيرا من مؤلفات الأدب اللاتيني حتى يقال عنه أنه من واضعي القواعد اللغوية والنحوية من حلاوة أسلوبه في اللغة اللاتينية، وكان إنتاجه غزيرا من الأدب اللاتيني شعرا ونثرا[1].

وكان من رأيه أنه لا ضرورة للكشف عن الحقيقة، لأنها معروفة بالفعل وإنما المشكلة هي في كيفية تلقين الحقيقة للجيل الصاعد، ففي كل مكان حوله كان يمكنه أن يرى التأثيرات المفسدة للتعليم والثروة والسلطة الجديدة، كما كان بمقدوره أن يلمس نفس الآثار المدمرة الناجمة عن تقويض القيم القديمة، ومن ثم فإن حنا السالسبوري إن لم يكن مبتدعا لأحد المذاهب التعليمية الأساسية في الحضارة الغربية، فهو واحد من أفصح المعبرين عن ذلك المذهب القائل بأن وظيفة للتعليم وظيفة أخلاقية وليست فكرية، فالمطلوب من المدارس وفقا لرأيه أن تكون هي المحافظة على القيم التقليدية وتعاليمها، ومن ثم مجابهة الآثار المفسدة للسلطة الفكرية والمالية والسياسية، فضلا عن تعليم الناس كيف يحيون حياة صالحة وقد أحزن حنا كثيرا أن يرى الفنون الحرة* تفقد أهميتها، وتزوي في مرتبة ثانوية في الجامعات الجديدة حيث يوجد أساتذة الجدل المتغطرسون الذين يفتقرون إلى الإحساس بالمسئولية، وكان يعتقد أن السبيل الوحيد لتعليم الناس أسس الحياة الصحيحة يوجد في طيات الأدب العظيم الذي

---

(1) Evans, op. cit., p. 11.

* الفنون الحرة - Sevenarts - والتي انقسمت إلى مجموعتين: المجموعة الثلاثية -Trivium- وتشمل النحو والبلاغة والجدل ، والمجموعة الرباعية -Quadaivium- وتشمل الموسيقى، الحساب، الهندسة، الفلك.

انظر في ذلك:

- سعيد عاشور: النهضات الأوروبية، المرجع السابق، ص ١٠٧.

خلفه التراث الكلاسيكي الذي كان يتوارى في غياهب النسيان أمام زحف الجوانب الفلسفية والعلمية في ذلك التراث[١].

ولقد كانت تعاليم حنا السالسبوري هي أنقى صيغة ظهرت للنزعة الإنسانية المسيحية، كما أنه فاق معاصريه في إدراك مدى التأثير المفسد للسلطة.

وإذا كان التراث الكلاسيكي قد أثمر من حيث تحديد الرؤية الأخلاقية للطبقات الحاكمة في أوروبا منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين، فإن ذلك يكشف باستمرار عن اتساع مدى النفع الكامل في العلاج الذي اقترحه حنا السالسبوري للمشكلة التعليمية. ولكن معاصريه الذين غرهم التعليم والثروة والسلطة، لم يكونوا على استعداد لسماع نصيحته، إذ أن الفنون الحرة كانت قد فقدت أهميتها في الجامعات ولم تجد النزعة الإنسانية المسيحية التي نادى بها حنا من يأخذون بها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وإنما وجدت لنفسها أتباعا في بترارك ومور وأراسموس.

ولقد كانت الرؤية الأخلاقية عند حنا السالسبوري مماثلة لمذاهب الإنسانيين في عصر النهضة، سواء من حيث اهتمامهم بالحفاظ على القيم الإنسانية في المجتمع من خلال التعليم الكلاسيكي، أو من حيث فشلها في إدراك مزايا وإمكانيات العلم والفكر التأملي[٢].

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٣٩ – ٤٤٠.

- Davis, op. cit., p. 50.

(٢) بترارك ومور وأرسموس كانوا من الإنسانيين، والشاعر بترارك هو الذي يعرف بأبي الحركة الإنسانية، وهؤلاء كانوا يعرفون بالإنسانيين، حيث كان الإنسان هو موضع بحثهم واهتمامهم، وقد اهتم هؤلاء بالبحث عن الحقائق في كنوز المعرفة القديمة الرومانية والإغريقية فاكتشفوا المعلومات الحديثة التي كان يجهلها الغربيون من قبل، وعكفوا على دراسة المخطوطات القديمة لتفسير=

ويذكر – هسكنز – أن حنا السالسبوري لمدة ثلاثين عاما كاملة كان مركزا للعلم في إنجلترا فقد كان بحق قائدا لحركة الأدب ليس فقط في إنجلترا، ولكن في أوروبا كلها، وذلك نتيجة لأفكاره ورحلاته المتعددة بين فرنسا وإيطاليا[١].

وكان حنا السالسبوري من رجال الدين والسياسة والأدب والفلسفة حتى إنه لم يوجد كاتب في العصور الوسطى ضارعة في سعة أفقه وعمق إطلاعه، وتفهمه للأدب الكلاسيكي، ويبدو أنه تأثر إلى حد كبير في أسلوبه بكتابات شيشرون، الذي كان في نظر حنا سالسبوري أعظم كتاب اللاتينية.

وقد رأى حنا أنه لا تنافر بين المسيحية والتراث الروماني؛ لأن العنصرين تداخلا وانصهرا معا، ليتكون منهما العالم المسيحي الروماني.

والحق أن حنا يُعتبر أنضج ثمرة أنتجتها مدرسة شارتر حيث درس في شبابه، ومات وهو أسقف[٢].

وأطلق حنا السالسبوري لنفسه العنان في تأليف الشعر والنثر باللغة اللاتينية، ودارت مناقشات بينه وبين خصومه ومؤيديه، وإن كان الباعث على ذلك هو أن القرن الثاني عشر حظى بدراسات الأدب القديمة.

= ما جاء فيها من الوثائق المكتوبة، وأظهروا اهتماما بالغا باللغات القومية مثل الإيطالية والإنجليزية والفرنسية.

انظر في ذلك:

- نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٤٠.

(1) Haskin, op. cit., p. 50; Davis, op. cit., p. 50.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: النهضات الأوروبية، ص ١١٠ – ١١١.

- Davis (H. W. C); Documents, op. cit., p. 50.

والحقيقة أن تاريخ الشعر الإنجليزي في عهد حنا قد تطور تطورا كبيرا، واعتني بدراسة للعقل[1]، ولقد كان الشر الكامن في المجتمع الذي عاصره حنا وأقضى مضاجعه كثيرا هو ذلك الشر المتمثل في التأثير المفسد للسلطة السياسية، أي إذلال الروح الإنسانية الناتج عن السلطة التي تجعل رجلا واحدا أو مجموعة من الرجال يتحكمون في جميع الناس، ولم يكن بغافل عن الحال داخل الكنيسة إذ أنه وجه إلى السادة الكنسيين الجشعين انتقادات مريرة، وفي إحدى المناسبات أخبر أدريان الرابع صراحة أن ما اكتشفه في روما يزعجه كثيرا، وهو ما يقوم دليلا على أن البيروقراطية المتغطرسة ترفض ما يوجه إليها من انتقادات متزايدة، وعلى أية حال فإن إنجلترا لم تعرف عواقب السلطة ونتائجها الوخيمة إلا حينما عاد حنا إلى إنجلترا في أواسط القرن الثاني عشر وواجه الجهاز الإداري العلماني لدولة آل أنجو[2].

وتمثل خطابات حنا السالسبوري ومقالاته في عام ١١٥٩م تحت عنوان البولكراتيكوس – Policraticus – وهي تتناول التنظيم الصحيح للحياة السياسية، وتؤيد النظرية السياسية القديمة للكنيسة، إذ أن حنا يصور المجتمع كله في صورة الجسد الذي تحتل الكنيسة فيه موضع القلب على حين تشغل الدولة مكان الرأس من هذا الجسد، وهو بذلك يعيد ترسيخ النظرية الهيروقراطية التقليدية، والتي تقضي بأن الدولة يجب أن تكون في خدمة الكنيسة التي تسمو عليها باعتبارها الكائن الروحي، هذا التكرار للمذهب القديم يكاد يكون عديم الفائدة، لأن حنا كان قد قضى سني حياته كلها في خدمة الكنيسة، وكان قد عاد لتوه من روما حيث قضى عدة سنوات، ولم يكن يعرف أية نظرية

---

(1) Cantor, op. cit., p. 218.

(٢) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٤٠.

أخرى، والمهم حقا فهو ترديده الهادئ، وتقييمه لمزايا المذهب الهيروقراطي في مواجهة التجربة السياسية في إنجلترا[١].

وكان حنا يفخر دائما بأن أسقفية كانتربري تحت سلطته والتي اعتبرها من أعظم المدارس من الناحية العلمية في كل أنحاء القارة الأوروبية، ويكفي أن هذه الأسقفية في عهده هي التي اعتلى رئاستها واحدًا من أعظم الأساقفة وهو توماس بيكت – Thomas Becket – وكانت الأساقفة والشمامسة قد نهجوا القوانين العديدة التي تعلموها في بولونيا، وتمتعوا بالمناقشات الحادة والمشاكل العلمية والكنسية[٢].

ولم يكن بوسع أي مراقب محايد في ذلك الوقت، وهو يعيش في إنجلترا منتصف القرن الثاني عشر مثل حنا السالسبوري أن ينكر حقيقة أن زعامة المجتمع الإنجليزي كانت للملكية ولم تكن للكنيسة، فقد كانت الحكومة الملكية تفرض إرادتها بصورة متصاعدة على الشعب من خلال نظمها القانونية والمالية، كما كانت تحول دون تحقيق أية سلطات أخرى منافسة، فقد كان السيد الإقطاعي، والأسقف، والفارس، والمزارع مشدودين إلى الارتباط بالسلطة الملكية، وهذه الحقائق التي كانت تنضج بها الحياة الاجتماعية كانت تلقي ظلالا كثيفة من الشك حول القيمة التطبيقية الحقيقية للأوغسطينية السياسية القديمة، بيد أن حساسية حنا جرته إلى منزلق الخلط بين الوجود الواقعي للسلطة والزعامة العلمانية من جهة، والمثل والقيم السياسية القديمة للكنيسة من جهة أخرى، ومقالته المسماه بولكراتيكوس عبارة عن حوار داخلي، لأن حنا كان يحاول أن يقنع نفسه بأن ظهور الدولة لم

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٤١.

- Haskins, the Renaissance, op. cit., p. 51; Cantor, op. cit. p.51.

(2) Haskins, the Renaissance, op. cit., p. 51.

يمزق هيكل النظام القديم وكيانه، ولكن مناقشاته كانت تفتقر إلى قـوة الإقناع، والدليل على ذلك هو الإبهام والغموض الذي يكتنف مقالتـه، وهو إذ يسير على النظرية الهيروقراطية التقليدية يعترف بأن نهايـة الدولة هي إدراك الحقيقة والحث على الفضيلة وهو ما يشير إلـى أن الدولة تعضد نفسها بنفسها إذا ما سعت صوب غايات أخلاقية، وهو ما يخالف الأوغسطينية السياسية بشكل دقيق وفائق الأهمية، وكان لابـد للتعديل الذي أجراه حنا للمـذهب الهيروقراطـي أن يسـتثير حنـق جريجوري السابع وسخطه، وهو أول مثال يدل علـى التحـول مـن النظرة المتشائمة إلى الدولة نحو نظرة أخرى متفائلة، وهو الأمر الذي قيض له أن يكون النغمة الدالة في الفكر السياسي طـوال السـنوات المائة والخمسين التالية، فقد كان حنا هو أول مناظر كنسـي يواجـه نتائج التغيرات السياسية في العصور الوسطى العالية[١].

(٧) هنري بلوا:

هنري بلوا – Henry Blois – هو أحـد رواد الثقافـة فـي الكنيسة الإنجليزية، وكان أسقفا لونشيستر[٢].

كان هنري بلوا من نسل الأمراء مثله مثل أخيه الملك ستيفن، وقد تعلم في دير كلوني، وكان مثقفا ثقافة رفيعة، وتم تعيينـه أسـقفا لونشيستر سنة ١١٢٩م، وكان مقتنعا تماما بآراء ومعتقدات المصلحين السابقين، تلك المعتقدات التي تقول بأنه لا يمكن أن يتحقـق الإنقـاذ والخلاص للدولة، والذي يعتبر الضمان الهام والدائم لهمـا إلا إذا تـم تعظيم وتمجيد الكنيسة[٣]، وتسـتطيع الكنيسـة أن تفـرض قوانينهـا

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٤١.

(2) William of Malmesbury, Historia Novella, op. cit., p. 25; Hiskins, The Renaissance, op. cit., p. 511.

(3) Sayles, op. cit., p. 320.

الخاصة ونظمها على الجميع ولذلك فإنه لم يتردد في أن يكون مرتبطا بالشئون الدنيوية، ويلعب دورا في السياسة الكنسية، وعندما أراد أن يفعل ذلك فإنه كان مسيطرا تماما من خلال طموحه الشخصي كي يصبح واحدًا من الرواد القياديين في الكنيسة[١].

وكتب الأسقف هنري كتابات هامة وخاصة عن القديس بولس – ST. Puls –، وقام بزيارة روما، وترك العديد من الخطابات عن القوانين الكنسية ونظمها، وأوجد في إنجلترا للعديد من المدارس والكتدرائيات، وتطورت بعده لتصبح الجامعات الإنجليزية[٢].

(٨) القديس أنسليم العظيم:

كان القديس أنسليم (١٠٣٣– ١١٠٩) الشخصية الكبرى في الفلسفة المدرسية – School Astic Philosphy – وكان إيطاليا مارس التدريس، وبمرور الوقت تم تعيينه رئيسا لدير بيك، وفي سنة ١٠٥٠ عُين رئيسا لأساقفة كانتربري، وكرئيس للأساقفة، ناضل أنسليم بقوة ضد ملوك إنجلترا من النورمان، بسبب مسألة تدخل العلمانيين في تعيين رجال الدين، وأخيرا بعد أن وافق على تسوية بحل وسط للخلافات، مات في سنة ١١٠٩، وإبان مجرى حياته الذاخرة بالأحداث وجد أنسليم وقتا للفكر والكتابة بعمق في موضوعات مثل التكفير عن خطايا البشر عن طريق صلب المسيح، وإمكانية تقديم الدليل العقلي على وجود الله، والعلاقة بين الإيمان والعقل، وشارك أنسليم بقوة في التعاليم الأفلاطونية – والأوغسطينية وكان مهتما بشكل فريد بتطوير الفكر في العصور الوسطى بسبب ثقته في أن العقل ليس متناقضا مع الإيمان، وأن العقل يمكن استخدامه لتوضيح الإيمان وتأكيده[٣].

---

(1) Sayles, op. cit., p. 320.

(2) Haskins, The Renaissance, op. cit., p. 52.

(٣) س. ورن. هلستر: المرجع السابق، ص ٢٥٨.=

وفي العقد الأول من القرن الثاني عشر قال القديس أنسليم إنه يمكن "للدين أن يبحث عن الفهم"*.

ومن خلال الفلسفة العقلانية والعلم، كما أوضح أنه يمكن استخدام المذهب الواقعي للبرهنة علي وجود الله، كما كان يجادل في مناقشاته التي عارضها توماس أكويناس في القرن الثالث عشر وتم إحياؤها فيما بعد كل من ديسكراتيس – Descrates – وليبنتـز –Leibnitz– بأنه مادامت الأفكار أشياء – Res –، ومادمنا نحمل في عقولنا فكرة عن ذلك الذي يمكن أن نفكر فيما هو أعظم منه، أي: الله فإن الله موجود بالضرورة، وكان لمكانة أنسليم الكبيرة كعالم وقديس، الفضل في تدعيم مناقشاته(١).

وعلى كل حال فإنه لم يلبث أن ظهر مذهب فلسفي مضاد في العقد الثاني من القرن الثاني عشر، وكان هناك أحد كبار المدرسين للبارزين في المدارس الفرنسية، وهو روسيلين – Rosselin –* وقد اتخذ موقفا معارضا لوجهة النظر الواقعة في فروض أنسليم، إذ أعلن أن الكليات ليست أشياء – Res –، ولكنها مجرد كلمات – Vocess– أو أسماء – Nomina – أي أن الكليات مصطلحات استخدمت للتوضيح في السياق البشري، ولكنها لم تتمتع بأي وجود مستقل خارج نطاق العقول الإنسانية الفردية، هذا الموقف الأساسي عرف بالاسمية – Nominalism – وهو المذهب الذي يعارض الواقعية– Realism بشكل مباشر، وكانت النتيجة المباشرة لتعاليم روسلين تتلخص في أنه

= - Cantor (N. F), op. cit., p. 221; Hasskins, The Renaissance, op. cit., p. 38.

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٢٥٤.

* روسيلين وهو أحد كبار رجال الكنيسة الفرنسية المشهورين، وكان قد تتلمذ على يده العديد من الطلاب وأشهرهم إيبلارد، الذي كان أبرز أساتذة زمانه.

يحتمل أن تكون الكليات موجودة فعلا، فإن وجودها لا يرتبط بتفكيرنا فيها، وبعبارة أخرى فإن العقل لا يمكن أن يصل إلى الرؤية في مذهب الاسمية، فقد كان موقف أتباع هذا المذهب تجاه قوي العقل الكامنة موقفا يزيد من أهمية الدين، فمن خلال الدين فقط كان يمكن التوصل إلى معرفة المفاهيم الكلية في الدين المسيحي.

وبنفي سلطان العقل انتهى روسيلين وأتباع مذهب الاسمية إلى جهالة مطلقة فقد كان من الصعب على أي إنسان أن ينكر صحة إيمان رسيلين، ولكن مبالغته في أهمية الدين كمنبع وحيد للمعرفة المسيحية جعله هو والاسميين يتخذون موقفا فكريا أدى إلى اضمحلال أسس المعرفة المسيحية، على حين كانت الخلفية التي قام عليها التراث الأفلاطوني في العصور الوسطى الباكرة دعما عقليا للعقيدة الدينية[(١)].

وذكر – بروك – أن أنسليم هو المفكر الذي يرغب في الحياة التأملية وينأى بنفسه عن المسئولية، وكان يتميز بوحدة الفكر والهدف، وكان عالما لاهوتيا بارزًا، وكانت قراءاته عميقة للغاية في الكتاب المقدس للأنبياء الأوائل، وقد كانت له بعض الدراسات القانونية الكنسية على الرغم من أنه لا يشير إليها كثيرا، وبعد أن أصبح كبير الأساقفة اهتم بالسلطة البابوية أكثر من الدراسات اللاهوتية، وقد كتب كتابه – Fide Trinitatis – وأرسله إلى البابا أوروبان الثاني واضعا إياه تحت حكم البابا لأن جميع القضايا يجب أن توضع تحت نظر البابا[(٢)].

وفي ثلاثينيات القرن الحادي عشر نشب نقاش واسع النطاق في المدارس الفرنسية بين الموقف الواقعي والموقف الاسمي أي: بين أتباع أنسليم ومؤيدي روسيلين، ووقف المتعلمون من رجال الكنيسة

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

- Davis, op. cit., pp. 40 – 41; Cantor, op. cit., p. 221.

(2) Brook, op. cit., pp. 149 – 150.

في شتى أرجاء أوروبا يراقبون الحوار الدائر في خوف مما قد يسفر عنه من نتائج.

وكان لابد لإبيلارد أن يتخذ موقفا مؤثرا للغاية، ذلك أنه بوصفه أبرز أساتذة زمانه، وألمع عقلية وأقوى شخصية في الجامعات، كان لابد أن تكون لآرائه تأثيرات بعيدة المدى.

والحقيقة أن إبيلارد كان قد تتلمذ على يد روسيلين ولكنه كان يستمع أيضا إلى محاضرات الواقعيين، وكان يدرك تماما أهمية النقاش وأهمية مشاركته فيه، وحين طرح آرائه في ساحة النقاش تجنب تطرفه المعهود.

وقد استنتج إبيلارد أن الكليات "صورة عامة مضطربة" وهو ما يعني أنها كانت صورة عامة تطورت في العقل من خلال الاستنباط من انطباعات عامة، ومن ثم كان رأيه أن الكليات لم تكن أشياء أو مصطلحات وإنما هي مفاهيم مفيدة ولكنها ليست حقيقية بالضرورة وكان ذلك موقفا معتدلا، ولكنه كان يميل ناحية التيار الاسمي، ومن المؤكد أنه ألقى ظلالا من الشك حول حقيقة الدعم العقلي لتعاليم الدين على الرغم من أنه لم ينكر إمكانية حدوث هذا إنكارا مطلقا[١].

(٩) وليم مالسبوري:

ولد وليم حوالي سنة ١٠٩٥ وعاش في بداية حياته كراهب لمالسبوري، وهو من أشهر المؤرخين الأنجلو-رومان، وأثرت فيه مكتبة دير مالسبوري التي تضم مجموعة من الكتب وساعدته في الإطلاع، وتولية وظيفة أمين المكتبة، وأضاف إلى مصادر تاريخ بريطانيا نتيجة لأسفاره المتعددة، وكان وليم أكثر ارتباطا بالأمراء، لذلك ذرى الأيرل روبرت جلوستر وكان واحداً من أعظم المؤيدين

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٥٣.

للأدب والأدباء وتسلم أعمال وليم مالسبوري الذي كان يُعتبر واحداً من أعظم رجال عصره في الأدب لما تتصف به كتاباته من رومانسية[1].

وقام وليم مالسبوري بنشر مجموعتين من السير والتراجم، إحداهما عن الملوك الإنجليز والثانية عن الأساقفة ومقدمي الأديرة في زمانه، والكتاب الأخير يهتم في روايته بدقائق الأمور ويحوي كثيراً من التفاصيل بدرجة اضطرت وليم إلى كتابة نسخة منقحة منه.

وفي نصف القرن التالي حدث تغير جذري من شخصيته، واكتشف الأوروبيون فن كتابة التراجم. وبحلول العقد الثامن من القرن الثاني عشر كان هذا التطور قد وصل إلى درجة أن يقوم راهب ويلزي بكتابة أسفار أربعة ملأها بروايات عن تجاربه وذكرياته، بحيث أعطانا تقريرا حيا يفيض بالمرح أحيانا عن بلاط هنري الثاني وعن السياسة الكنسية المعقدة الملتوية فضلا عن عادات الأيرلنديين البليدة[2].

وكتب وليم التراجم الملكية على نهج ما كتبه سويتونيوس، مما مكنه من إعطاء تقرير هيكلي عن الحكام دون أن يحكم عليهم. وقد تناول نموذجه في حذق تاركا لشخصياته حرية الحركة داخل إطار هذا النموذج، وأطلع وليم مالسبوري على المدونات الأنجلو – سكسونية بيتر بيروف – Peter Borough – والتي كتبها الرهبان في الكاتدرائيات مثل فولورنس وروشيستر – Florrence of Worcester – وسيمون من درهام – Simeon of Durham – في إنجلترا[3].

---

(1) Haskins, The Renaissance, op. cit., p. 57.

(٢) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٤٧.

(3) Haskins, The Renaissance, op. cit., p. 40.

وكانت آخر مؤلفات وليم مالسبوري رسالة أسماها التاريخ الجديد – Histaita Novelle – وهي تبدأ باستعراض السنوات الأخيرة من حكم هنري الأول، ثم يقودنا إلى الحرب الأهلية التي دارت رحاها في عهد ستيفن، ولم يكمل وليم هذه الرسالة إذ وافته المنية سنة ١١٤٣، وهذه الرسالة كانت أفضل أعماله، فقد استطاع أن يوظف معلوماته كشاهد عيان للحوادث التي جرت في غرب إنجلترا، كما استطاع أن يثبت فيها أدلته وبراهينه المعاصرة، وهو حريص على أن يجدنا متى كان حاضرا فيما يعرض له من أحداث، ومتى اعتمد على السماع، وكان روبرت أمير جلوستر هو أقوى معارضي ستيفن كما كان جلوستر بطل الكتاب والشخصية الغالبة على أحداثه، وهكذا نجد أنفسنا في خضم التيارات السياسية[1].

(١٠) أوردريك فيتاليس:

ولد –Orderic Vitalis– بالقرب من شروسبيري –Shrewsbury– في ١٦ فبراير سنة ١٠٧٥[2].

ويعتبر كتاب التاريخ الكنسي من أهم مؤلفات أوردريك على الإطلاق، وكان كتابه عبارة عن تاريخ عام للنورمان وكان في حاجة إلى المصادر الأساسية لكي يعتمد عليها في كتابه، وهذا الكتاب خليط من التاريخ السياسي والديني، ويصف فيه الشعب الإنجليزي والنورماني معا، وتأثر أوردريك بكتاب – Gesta Norman Norumdu cum – لوليم مقدم دير جيميجي – Jumieges –[3].

(1) William of Malnsubry, Historia Novella, op. cit., p. 1.
(2) Ordeticus, op. cit., p. 2.
(3) Ordeticus, op. cit., p. 32.

وتعددت الأجزاء التي كتبها أردريك، فالجزءان الأول والثاني ربما يكون قد انتهى من كتابتهما في نهاية سنة ١١٣٦، وتكلم في الجزئين عن مولد المسيح وحياة الرسل والقديسين والبابوية والإمبراطورية، وكانا يتضمنان العادات والتقاليد الخاصة بأسيبوس القيصري، ومن الجزء الثالث حتى السابع كانت عبارة عن تناول الأديرة ودراسة لحياة الرهبان، والأجزاء من الثامن إلى الثاني عشر كان يتكلم فيها عن النورمان، وتأثر أوردريك بكتابات دودو راهب دير سان كونتين – Dudo of st. Quentin – في أنه ذكر قصة أسطورية الملامح عن غزو نورماندي واستمر المؤرخون من غير النورمان بصفة عامة في رسم صورة النورمان بإسلوب مؤرخي القرنين التاسع والعاشر(١).

وبدأ أورودريك قبل هذا الكتاب في كتابة تاريخ سان إفرول Saint Evroul – وانطلق في سبيله، فكتب تقريرًا عن مؤسس الدير والمحسنين الذين أغدقوا على هذا الدير، ونموا الدير وحرصوا على رفاهيته، ثم تقلبات الدهر وما حدث له، ووجد أوردريك نفسه مضطرا أن يكتب ضمنا عن تاريخ الأسرة النورمانية التي كانت لأفرادها علاقة بالدير وكتب كذلك تاريخ الدوقية(٢).

وعندما وصل أوردريك سن السادسة والسبعين عاما أعجزته الشيخوخة عن الكتابة وكان قد جمع كتاب التاريخ الكنسي والذي يعتبر تاريخ عن العالم المسيحي أكثر من كونه تاريخ عن النورمان أنفسهم، وكما ذكرنا بدأ أوردريك الكتابة بتجسيد المسيح ويستمر حتى وفاته، وحاول أن يجعل من هذا الكتابك كتابا شامل على قدر الإمكان(٣).

---

(1) Ordeticus, op. cit., p. 34.

(2) Ordeticus, op. cit., p. 59.

(3) Ordeticus, op. cit., p. 39,

(١١) جفري مونموث:

- Geoffrey of Monmouth - (١١٠٠ - ١١٤٥) كان جفري قسيسًا ولد وعاش في بلاط للملك هنري الأول، وكان الأدب الإنجليزي في عهده قد امتلك مقدمة لمخزون من الرومانسية الغنية، وقد كتب جفري اثنى عشر كتابا باللغة اللاتينية من (١١٣٢ - ١١٣٥)، ظل يكتبها تحت رعاية أسقف لنكولن ونشرها في سنة ١١٣٦، وكتابه من أشهر كتب التاريخ وأسماه "تاريخ بريطانيا" -The History of the Britons-، وانبثقت من هذه الكتب الرومانسية السائدة في ذلك العصر، وكانت كتاباته علامات في تاريخ الأدب، وأثرى في الشعراء والأدباء والقصاصين بكتاباته[1].

وزعم جفري وربما كان غير محقق في زعمه، أنه كشف في مخطوط قديم في إكسفورد " تاريخ ملوك بريطانيا "، ولكنه كان يتألف من قصص يبدو واضحا أنها شاعت وانتشرت في ويلز زمنا طويلا، وإذا كانت ويلز موطن جفري، ومن المحتمل أن آرثر كان شخصا حقيقيا عاش في القرن الخامس[2].

---

(1) Melkle John, op. cit., p. 11.

(٢) آرثر - Arthur - بطل أسطوري من البريتون الكلتيين، نسجت حول شخصيته روايات، وأعمال أدبية كثيرة. والشخصية الأسطورية التي تميز المدونات التاريخية في القرن الثاني عشر وما بعدها، ربما يكون لها أساس من الصحة التاريخية ففي سنة ٥٤٠ كتب المؤرخ الكلتي جلداس - Gildas - عن أنه في مطلع القرن السادس نجح محارب يدعي آرثر في صد الغزو الأنجلو-سكسوني في غرب بريطانيا، وكسب عددًا من المعارك أهمها معركة مونس بادونيس - Mons Badonis - في القرنين التاسع والعاشر، ووضعت المدونات التاريخة آرثر باعتباره زعيما مسيحيا حارب ضد الأنجلو-سكسون الوثنيين، ومنذ بداية القرن الثاني عشر تحولت الشخصية إلى=

وانتشرت الأسطورة الأرثرية باتجاه الشرق في أنحاء أوروبا بسرعة تمثل سرعة انتشار وباء من الأوبئة التي عرفتها العصور الوسطى، وأعطت هذه الملحمة مجالا خصبا كنموذج لمولد الرومانسيات في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا[1].

وكان هناك، اثنين من الأدباء النورمان، وهما جيفري جمر – Geoffrey Gaimar – وروبرت وويس – Robert Wace – فقد حولا الشعر الفرنسي إلى الإنجليزية، ومن الكتاب الإنجليز المشهورين

=شخصية أسطورية، وهي شخصية الملك أرثر الذي قضى في التجوال، وحدثت له معجزات عديدة، وحين تولى العرش فتح بلادا أوربية مثل أسبانيا وإيطاليا، وكان يعقد في بلاطه "دائرة مستديرة" يجلس حولها اثنا عشر فارسا، يرمزون إلى الحواريين الذين صاحبوا المسيح، ويمثلون فكرة الفارس الكامل، ولكن موردرد – Morderd – ابن أخته أعلن العصيان وغزا مملكته، وكان أرثر جريحا بجرح بالغ، فلجأ إلى جزيرة أفالون – Avalon – مع أخته الساحرة مورجان – Morgain- التي كان يمكن رؤية أرضها من بعيد، ولا يمكن الوصول إليها، أي: أنها كانت كالسراب، وبقى هناك زمنا طويلا في انتظار الوقت المناسب لكي يعود وينقذ انجلترا من الغزاة الأجانب، وهذه الرواية الأسطورية صارت منذ سنة ١١٦٠ أساسا لأعمال أدبية كثيرة ظهرت في فرنسا، ولاسيما في بلاط شمبانى، وكان الملك آرثر وفرسانه الاثنى عشر موضوعات لكثير من القصائد والروايات الخيالية، التي تمجد الفروسية الفرنسية، وتمجد الفرسان الفرنسيون كمحاربين مؤمنين وحكماء مسيحيين كاملين وعند نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر تزايد عدد هذه القصائد وكتبت بعضها بالألمانية، وبذلك بدأت أكثر الموضوعات شعبية في أدب العصور الوسطى.

انظر في ذلك:

- نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٧٣، حاشية ٧.

- Haskins, op. cit., p. 57.

(1) Melkle John, op. cit., p. 12.

كذلك ليومن – Layamon – وروبرت جلوستر الذي ترجم أشعار ويس إلى الإنجليزية في ذلك الوقت، والقصيدة التي كتبها ويس تدعى–حروب البريتون– Geste des Britons – والتي أكملها بعد تتويج هنري الثاني ملكاً على إنجلترا[١].

ولقد أبرز الفاتح النورماني لإنجلترا طبقة من العلماء والمثقفين الذين يغلب على مؤلفاتهم الطابع الديني واللغة اللاتينية، ومنهم ولترماب (١١٤٠–١٢٠٠) وهو مؤلف الشعر الجوليـاردي* الذي امتزجت فيه قصة الجويل المقدس بقصة الملك آرثر وجعلت لهما مغزى أخلاقيا ودينيا[٢]، وويس (١١٢٤– ١١٧٤) وهو الذي شهد عملية الفتح النورماني في إنجلترا من بدايتها، وكتب في إسهاب تفاصيل الحملة في قصيدته "الرومان على الطريق"، وهي عبارة عن قصة تاريخية موزونة في حوالي عام ١١٧٢، وذكر أن والده أمده بمعلومات عن الحملة، وكانت له أشعار عديدة وقصص منها قصة برو –Pro– وقصة ديور –Dewr– حتى في العلوم شهدت الثقافة الأنجلو–نورمانية أمثال ولشرمالفون العالم الشهير الذي شهد كسوف الشمس عام ١٠٩٢م وحاول حساب اختلاف الوقت بين إنجلترا وإيطاليا[٣].

***

(1) Melkle John, op. cit., p. 12.

* الجوليـارديـن - Goliards – مجموعة من الشعراء الجوالين ينسبون إلى أب أسطوري هو – Goliards – وكانت قصائدهم عاطفية وغير دينية:

انظر في ذلك:

- نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(2) Legge (M. D.), op. cit., p. 88.

(3) Cam. Med, H.ist., Vol. v, p. 499; Melkle, op. cit., p. 13.

رابعا : تطور المكونات القانونية

انصبت الدراسات القانونية في العصور الوسطى على مجموعتين واضحتين من القوانين المدنية، والتي تمجد الملوك، وكان المتفقهون في القانون يعملون تحت إمرتهم، والقانون الثاني هو القانون الكنسي. وكان آباء الكنيسة اللاتينية هم القائمون عليه، ويعالج المراسيم والمجامع وغير ذلك، وتلاقى القانون المدني والكنسي في نقطة خلاف واحدة في ذلك الوقت، وهي التقليد العلماني، وسوف نعالج كل قانون على حده.

القانون المدني:

إن غموض التاريخ القانوني النورماندي عشية حملة وليم الفاتح على إنجلترا غير معروف بالتأكيد، ولتوضيح الفترة التي انقضت منذ تسوية الشماليين في نوستريا -Neustria- فلم تكن هناك قوانين مكتوبة ولا كتب عن القوانين، ولكن كل ما هناك هو صكوك قليلة جدا، في حين أن المؤرخين ليس لديهم الكثير ليُروى عن البنية القانونية للدوقية النورماندية، وما نقل أو روي غير معتمد دائما على الأصول والمصادر[1].

أما عن انجلترا فكانت تختلف عن الدوقية، ففي نفس الفترة أمدنا المؤرخون بقانون الملك إدوارد المعترف – Laws of Edward– ومعها قوانين أثيلستان –Aethelstan– أدموند --Edmund– إدجار –Edgar– أثلرد –Aethlred– وكانوت –Cunt– وأمدونا أيضا بمجموعة كبيرة من الكتب والكتابات عن القوانين الخاصة بسجلات الأرض – Land Book – حتى في الأيام

---

(1) Frederick (P.) & Matland (F. W), The History of English Law, Vol. 1., press, 1953, p. 64.

الماضية، بعد أن أصبح الدوق النورماندي ملكا لإنجلترا، وإن كانت الدوقية النورماندية بطيئة لتلحق بركب الإنتاج القانوني[١].

أما عن أصل القانون النورماني، فهو مستمد من أصل فرنسي، ومازالت القضية المطروحة لمدة قرن أو ما يقرب من ذلك بعد تسويتهم في نوستريا، وتوصلوا إلى أن القانون النورماني كان أصله أسكندنافي بصورة أساسية ولسنا مدعوين لمناقشة ذلك، وبصفة عامة فقد أعترف به لمدة قرن ونصف على الأقل، وقبل معركة هستنجز فإن النورمان كانوا فرنسيين في لغتهم، وقانونهم، وفخورين حقا بتاريخهم الماضي، مستعدين تماما للنضال ضد الفرنسيين أهل البلاد الأصليين، لو أن حكمهم الذاتي تعرض للخطر، ومازال النورمان ينظرون إلى الفرنسيين كعضو في الدولة أو مجموعات الدول التي تدين لهم بالولاء.

ولا يمكن أن نعترف بالطاعة للملك في باريس، وكانت اللغة الفرنسية هي لغتهم المنطوقة، واللاتينية هي لغتهم المكتوبة، ولكن اللاتينية في فرنسا هي أسلوب وثائقهم القانونية، وهي أسلوب المحكمة العليا في فرنسا، وإن كان القليل من مصطلحاتهم القانونية إسكندنافية المصدر، وأخيرا ظهر العرف النورماني، وأخذ مكانه بين العادات الفرنسية الأخرى[٢].

وتأثرت القوانين النورمانية بالقوانين القديمة المكتوبة مثل: قوانين الفرنجية – Lex salica – والقوانين المحلية لملوك الكارلونجيين – Karloingian – وقوانين الميروفنجيين – Merovingian – ولم تعد قادرة على مواجهة الجرائم، ومن ثم فإن

---

(1) Frederik & Matland, op. cit., p. 64; Cross, op. cit., p. 80; Trevelyan, op. cit., p. 118; Wood Ward, op. cit., p. 23.

(2) Frederick, & Matland, op. cit., p. 66.

القانون النورماني تأثر كذلك بالعادات الأنجلو–سكسونية القديمة، وجاهد النورمان قدر الإمكان ليقتصدوا في الأحكام الإنجليزية القديمة ذات النصوص الأجنبية[١].

واتخذ الملك وليم وخلفاؤه من بعده لأنفسهم جميع ما وجدوا في إنجلترا من قديم التقاليد، وعلى رأسها القوانين التي وضعها الملك إدوارد المعترف ولم يغيرها، فاعتبر وليم نفسه الوريث الشرعي لإدوارد المعترف وظلت القوانين والعادات الأنجلو – سكسونية مرعية في إنجلترا النورماندية، رغم ما استحدث النورمان بها من متجددات، وذلك بفضل ما عكف النورمان أنفسهم على إدخاله في الحكم من نظام مركزي شديد مما أثر أكبر الأثر في حياة الأمة الإنجليزية[٢].

وعلى أية حال لم يقم وليم بسن قوانين جديدة في بداية حكمه لأن قوانين إدوارد المعترف كانت موضوعة بشكل جيد ونظامي، أما عن قوانين الفاتح، فهي عادات وتقاليد أكثر منها قوانين، فكانت عبارة عن الاجتماعات التي يعقدها وإن كانت قد تغيرت تدريجيا من حشود وجموع الشعب الإنجليزي إلى جموع النورمان، وإن جدد بعض القوانين التي وضعها إدوارد، ولكن بشكل ضئيل، واستحدث القليل من القوانين وقال عنها إنها في صالح الشعب الإنجليزي تماما، بينما كان يوجد اختلاف بين الإنجليز والفرنسيين، فقد كانت اللغة في البداية تعوق الحوار وإن كانت توجد بعض الكلمات المشتركة، وأحضر وليم معه عددا كبيرا من الفرنسيين إلى إنجلترا، حتى عندما وضع إدوارد هذه القوانين كان متأثرا جدا بالقوانين الفرنسية، لأنه عاش فترة شبابه في فرنسا، ولكنه يعد من الشعب الإنجليزي، وعاش الشعبان

---

(١) فشر : المرجع السابق، ص ١٦٤.

(2) Frederick & Matland, op. cit., p. 65; Jounson. op. cit., p.39.
- Trevelyan, op. cit., p. 127.

الإنجليزي والنورماني سويا في إنجلترا بأمان، ولكن النورمانيين غالبا ما كانوا يقتلون سراء والقوانين الخاصة كانت تحميهم، ولو لم يوجد القاتل كان يدفع ثمن الجريمة المئات من الإنجليز، والغرض من ذلك الحفاظ على القوانين لحماية الإنجليز والنورمان[1].

ووضع وليم قانونا وهو عبارة عن بنود عشرة واجبة التنفيذ The Jenarticles of William – وهذه البنود منسوبة إلى ولـيم، والنسخ الأصلية التي عثر عليها في أوائل القرن العشرين كلها تتفق على هذا، وتحتوي على بعض التشريعات الأصلية للملك، واهتم اهتماما بالغا بجريمة القتل في البند الثالث، وكتب كذلك عن المحاكم النورمانية وإجراءاتها، وهذه البنود القانونية التي وضعها وليم[2]:

(١) في البداية نقول فوق كل شئ إله واحد لابد أن يقدس في المملكة كلها، وأن المسيح واحد لابد أن نؤمن به ولابد أن يبقى السلام والأمن لتتحقق العدالة بين الإنجليز والنورمان.

(٢) أرغب بالمثل أن يكون كل الرجال الذين أحضرتهم معي أو الذين جاءوا من بعدي سيستمتعون بحمايتي.

(٣) إذا قتل أحدهم سيقوم الحاكم بالقبض على القاتل خلال خمسة أيام إذا أمكن ذلك، وإذا لم يستطع، فإنه سوف يبدأ في دفع ستة وأربعين قطعة فضة لي من ممتلكاته طالما أن القاتل ظل هاربا.

(٤) وعلى أية حال عندما تنتهي ممتلكات الحاكم ولم يقبض على القاتل ستقوم المقاطعة التي حدثت فيها الجريمة بدفع المبلغ المتبقي.

(1) Freeman, op. cit., p. 119; Trevelyan, op. cit., p. 128.

(2) Barrow & Edward, op. cit., p. 153.

(٥) لكل فرد فرنسي في عصر الملك إدوارد أن يسمح له بالحصول على حقوقه مثل أي فرد إنجليزي، وسوف يتم الدفع له طبقا للقانون الإنجليزي.

(٦) إذا استدعي رجل فرنسي رجلا إنجليزيا بسبب شهادة زور أو قتل أو سرقة، والتي تعني في الإنجليزية سرقة مفتوحة والتي يمكن إنكارها فإن الرجل الإنجليزي سيدافع عن نفسه بأي طريقة يفضلها، وسيحاكم إما عن طريق الكي – بالحديد الساخن – أو المحاكمة عن طريق معركة.

(٧) كل فرد ينوي الاحتفاظ بحالته كرجل حر سيكون في تعداد المملكة، ليخضع للمحاكم الكلية والجزئية في إنجلترا لضمان العدالة، ويحاكم طبقا لذلك إذا ارتكب أي ذنب، والذي أتم إصدار هذا المرسوم هو جلوستر[١].

وكان هناك شك في أن النورمان والإنجليز يحتكمون إلى الرب في جرائم القتل، وإذا لم يعثر على القاتل كانوا يلجئون إلى امتحان الحديد الساخن لمعرفة إذا ما كان المتهم بريئا أم مذنبا، وسمح وليم لهذه الطريقة النورمانية- البدائية أن تدخل إلى إنجلترا، وهذه الأعمال التي قام بها وليم رهن للمحافظة على الشعب والمحافظة على عرف وتقاليد هذه الأمة، ومنع وليم تجارة الرقيق عن طريق التجار الوسطاء الذين كانوا في رأيه يخونون البلاد، وهذا الخطر من جانب الملك والإيرلات أيضا، ومنع وليم عقوبة القتل حتى ولو كان من الثوار[٢].

(1) Barrow & Edward, op. cit., p. 154; Dietz, op. cit., p. 39; Cross, op. cit., p. 80.

(٢) لقد كانت العادة في إنجلترا قديما أن يستباح دم الثائر، ولكن لختلف الأمر في عهد وليم الفاتح، وذلك عندما وقع في قبضته الثائر روجر إيرل هيرفورد بعد هزيمته سنة ١٠٧٥، وقام الملك وليم بسجنه، ولم يعدمه كما هو العرف؛=

ولقد تجلت عبقرية حكومة وليم وقدرتها من خلال التجديدات القانونية القليلة التي وضعها، ففي سبيل فض المنازعات بين كبار البارونات خولت إلى محاكم المقاطعات حق استجواب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة أو المحلفين -Juries- كما أطلق عليهم فيما بعد، وكان الأنجلو - سكسون قد استخدموا مثل هؤلاء المحلفين أحيانا لتوجيه التهم الجنائية في ساحة المحاكم الشعبية، ولكن ملوك فترة ما قبل الغزو كانوا من العجز بحيث أنهم لم يدركوا قيمة هذا النظام، فتلاشى واختفى قبل القرن الحادي عشر، كذلك جلب وليم الفاتح نظام الاستجواب إلى إنجلترا مرة أخرى دون أن يعرف شيء عن التجارب الفاشلة معه، وهو النظام الذي يمكن أن نجد أصوله في العصر الكارولنجي.

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر كان نظام التحري بواسطة المحلفين، يستخدم في القضايا الجنائية وفي القضايا المدنية على السواء، ثم صار أساس العملية القانونية الإنجليزية[1].

ولقد ساهم القرن الثاني عشر في الحضارة الغربية بالمحامي المحترف ذو الأهمية الفائقة، ففي العالم القديم لم يكن المحامون أكثر من أشباه محترفين، إذ كان تدريبهم يعتمد على البلاغة أساسا، ولم يكن فيهم سوى عدد قليل يمتلكون ناصية العلوم القانونية.

=ولم تصبح الثورة ضد الملك جريمة من أخطر الجرائم إلا بعد أن ظهرت فكرة الخيانة المقتبسة من القانون الروماني.

انظر في ذلك:

- ستتون: المرجع السابق، ص ٨١.

- Freeman, op. cit., p. 119.

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٣٨٣.

- Freeman, op. cit., p. 119.

أما في القانون العرفي الجرماني، فلم يكن هناك المحامي المحترف، فقد كانت التقاليد القانونية والحفاظ عليها مسئولية المسنين من أفراد الشعب الجرماني، بل إن القضاة لم يكونوا يتلقون تدريبا محدداً، ولم يحدث قبل القرن الحادي عشر أن ظهر المحامي المحترف الذي تدرب من خلال تعليم صارم في العلوم القانونية[1].

وكان يوجد محامون في عهد الملك وليم الفاتح، وإن لم يكونوا محامين مهنيين وبعضهم مثل روجر سالسبوري (١١٠٢ – ١١٣٩) ويدين بقدر كبير من تقدمه إلى قدراتهم الخاصة، ومن هذه الطبقة كان رالف باسيت – Ralfh Basset – وابنه ريتشارد، وكان بعضهم عن الجانب الآخر مستأجرين ثانويين مثل جيوفري دي كلينتون – Geoffrey De Clinton – والذي أصبح باورًا في بلاط الملك، وكان بعضهم بارونات من الطبقة المتوسطة مثل والتر ايسبيك – Walter Espec – ولـيم دي البيني – William de. Albini – وكان هؤلاء القانونيين في البداية يحصرون أنفسهم في سماع القضايا المتعلقة بمصالح الملك، ولكن بمرور الوقت جذبت شهرتهم وخبرتهم كقضاة متمرسين في بلاط الملك[2].

وكان الملك يتقاضى من هؤلاء القانونيين مبالغ كبيرة لكي يسمح لهم بحضور قضاياهم، وبالتدريج بدأ إرسال رجال القانون في مجموعات حول الأرض الخاصة للملكة لكي يتقاضوا في إدعاءات العرش، وهنا امتدت سيادتهم بشكل تدريجي للطريق أو الفكرة البسيطة القائلة بأن جميع القضايا التي تهدد سلام وأمن الملك هي

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤١٦.

- Frederick & Metland, op. cit., p. 77.

(2) Cam – Med – Hist, vol. v., p. 533; Keith Feiling, op. cit., p.104.

قضايا تتعلق بالملك، وبذلك تدخل القانونيون في إطار الدعاوى التي يجب أن تتم أمام موظف ملكي، وبهذه الطريقة تحولت المحاكم المحلية لترتبط بالمحاكم الملكية.

وكان القانونيون يهدفون إلى نشر القانون المعياري في البلاد، ليبنى على ممارسات محاكم الملك وبلاطه، ولكن لا نعتقد أنه كان هناك نية بأن يحل رجال القانون محل المحاكم المحلية، وعلى العكس كان بلاط الملك أقل انتظاما في جلساته، والعدل فيه كان أكثر تكلفة بحيث يقدم خدمات للمتقاضيين؛ ذلك لأن قضاياهم اليومية ظلت المحاكم المحلية هي دور القضاء المعتادة لها[١].

وكانت أكثر مآثر حكم هنري الأول، أن جعل الجميع يحضر المحاكم المحلية في نفس الوقت والمكان الذي يحدده، كما كان الحال في عصر الملك إدوارد المعترف، وكلما كانت المحاكم المحلية في خطر، فإن ذلك لا يعود إلى تدخل قانوني للملك، ولكن من المحاكم البارونية والقروية الأخرى التي تنافسها، وهنا قام هنري بحماية المحاكم العامة القديمة وأرسى المبدأ القائل بأنه إذا كان هناك خلاف بين اللورد صاحب الأرض والمستأجر فيتم القضاء في ذلك أمام المحاكم العامة وليس أمام المحاكم الخاصة[٢].

---

(١) كانت توجد في إنجلترا محاكم كلية – Shire Courts – ومحاكم جزئية – Hundred Courts – وكلها تابعة للملك ؛ فجعل منها محاكم إقطاعية – Manorial Courts – في طول البلاد وعرضها، وكان نواب الملك هم الذين يشرفون على هذه المحاكم، ولكن القضاه كانوا يتصرفون بحرية في إدارة المقاطعات بشكل قانوني.

انظر في ذلك:

- Trevelyan, op. cit., p. 187; Cam. Med; Hist, vol. v., p. 534.

(2) Cam. Med. Hist., vol. v., p. 534; Dietz, op. cit., p. 39.

وليس هناك مجال للمقارنة بين سجل الملكية للأراضي وكتب القوانين التي وضعها إدوارد الفاتح وهنري الأول، وأقدم السجلات المالية والقضائية التي انتقلت إلينا من التاريخ السابق منقولة عن الوثائق الإنجليزية، ولقد أمدت القانون الإنجليزي برسالتين صغيرتين اندمجا معا ونشرا تحت عنوان "Letresanicen Coutumier"، وكانت أصغر من قوانين جلان فيل -Glanvill- وكذلك من براكتون - Bracton - ومازلنا نملك نفس الإعتقاد بأن الفاتحين النورمان كان لديهم ولو قليل من القانون المكتوب[١].

وكان لظهور قوانين جستنيان في القرن الثاني عشر أثره على القوانين الموجودة، فقد كانت الدراسات القانونية مرتبطة بمصالح البابوية وتم الكشف مصادفة عنها، وهي نسخة منسية من كتاب مجوعة القوانين المدنية - Corpus Juris Civilis - في إحدى المكتبات الإيطالية، ولقد كانت مجموعة القوانين المدنية هي أكبر مجموعة قانونية تم جمعها، وكانت تصور القانون في الدولة على أنه انعكاس للقانون الطبيعي، أي: مبدأ العقلانية في الكون.

وقد جعلت قوانين جستنيان السلطة مطلقة في إصدار القوانين وتنفيذها كان رهنا لمشيئة الإمبراطور، فقد كان هناك زعم بأن القانون يوجد أصلا بين الشعب الروماني ولكن ما يسمى بقانون الملك - Lex Regia - هو الذي يجعل الشعب يتنازل عن سلطاته التشريعية إلى الإمبراطور الحكيم الخير، وأن الهدف من القانون هو تحقيق المساواة والعدالة[٢].

---

(1) Frederic & Matland, op. cit., p. 65.

(٢) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤١٨.

- Cantor, (N. F.), op. cit., p. 211.

والنظام القانوني الروماني في القرن الثاني عشر، كان يشوبه عيبان، فلم يكن ثمة جزاء يوقعه القضاة عقابا على الكذب وشهادة الزور، إذ كان المفروض دوما أن المحلفين رجال ذو حكمة بالغة ونزاهة وعزيمة حقا، والعيب الثاني والأكثر خطورة يتعلق بوضع المحكمة والهيئة القضائية كأدوات في الدولة، فإن القضاة الذين ينظرون في قضايا الجنايات التي ترتكب ضد الدولة كان قضاة تابعون للدولة وموظفين، فتحولت المحكمة إلى أداة للظلم والاستبداد وأثرت قوانين جستيان في كل أنحاء أوروبا عن طريق مجموعة القوانين المدنية[١].

وكانت إنجلترا هي البلد الأوربي الوحيد التي لم يخضع نظامها القانوني لتأثير مجموعة قوانين جستيان خضوعا كاملا، فبينما كان القانون المدني يتسرب داخل النظم القانونية في ألمانيا وفرنسا، وفي القرن الثاني عشر كان القانون الإنجليزي يسير في إتجاه آخر، ويطور النظم والمؤسسات والمبادئ التي كانت تختلف اختلافا مبنيا عن الأسس النظرية والإجراءات التي يقوم عليها القانون الروماني، وكان لهذا البعد أثره العميق على كل من الحكومة والقضاء في إنجلترا في العصور التالية، وهو يشكل واحدا من أبرز الأمثلة الدالة على طريقة تأثير التغيرات الثقافية في القرن الثاني عشر، ويمكن أن تتجنب السؤال الذي يطرح نفسه عن السبب في أن إنجلترا قد طورت نظامها القانوني الخاص بمنأى عن النظام القانوني الروماني، وكثيرون من المؤرخين الإنجليز تجاهلوا هذه المشكلة تماما، وافترضوا ببساطة أن القتال الإنجليزي كان كافيا لأن يبعد إنجلترا عن التغيرات الكبرى التي كانت تجري في القارة[٢].

---

(1) Cantor, (N. F.), op. cit., p. 213.

(٢) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٢٦.=

وعلى أية حال فإن هذا السبب ليس صحيحا، لأن إنجلترا في القرن الثاني عشر كانت تابعة ثقافيا لفرنسا، وذلك أن الفن الإنجليزي والأدب والتطور الديني في القرن الثاني عشر كان واقعا تحت التأثير الفرنسي إلى حد كبير. فلماذا كان القانون الإنجليزي خارج نطاق هذا التأثير الثقافي؟! وليس حقيقيا أن مجموعة قوانين جستنيان لم تكن معروفة في إنجلترا، وقد كان هناك واحد من أبرز العلماء البولونيين يقوم بالتدريس في إنجلترا منذ أربعينيات القرن الثاني عشر، كما كان كثيرون قد تلقوا تعليمهم في فرنسا وإيطاليا، وأدى الغزو إلى طمس معالم القانون الروماني في إنجلترا بحيث صار النظام القانوني الجرماني هو الذي يحكم الممارسات والمذاهب القانونية الإنجليزية، ولم يكن الحكام الأنجلو-نورمان بعد الغزو يهتمون بالحفاظ على القانون الإنجليزي، ولم يكن ثمة ما يدفع الملوك الإنجليز بعد سنة ١٠٦٦ إلى التحمس في المدلولات السياسية في القانون الجرماني[١].

وهكذا يبقى السؤال مطروحا: لماذا بقيت إنجلترا خارج منطقة القانون الروماني؟!

إن الإجابة على هذا السؤال تبرز من طيات الجدول الزمني لأحداث القرن الثاني عشر، ولأن الملكية الأنجلو- نورمانية كانت تسبق أي حكومة أخرى في أوروبا بنصف قرن على الأقل، من حيث تطور مؤسساتها المركزية، فإنها أحجمت في النهاية عن قبول القانون الروماني.

- Frederick & Metland, op. cit., p. 109.

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٢٧.

- Cantor (N. F.) op. cit., p. 214; Frederic & Matland, op. cit., p.78.

وخلال فترة تأسيس السلطة الملكية في إنجلترا فيما بين سنة (١٠٦٦ – ١٠٣٥)، لم تكن نصوص مجموعة قوانين جستنيان متاحة في مناطق شمال الألب التي لم تكن تحصل على حاجتها من خريجي مدارس القانون الجديد للعمل في الأجهزة الإدارية، فقد تعين على الحكومة الملكية، وهي تبني سلطتها أن تستخدم كافة ما يتاح لها، على الرغم من أن هذا المتاح لم يكن مناسبا لبناء السلطة الملكية المركزية المطلقة، وقد أبقى الملوك الأنجلو-نورمان على المقاطعة والمحاكم المائة، والتي ترجع إلى الأصول الجرمانية، كما استمر نظام المرافعة الشفوية، واستمر التعذيب كوسيلة للتحقيق في الإجراءات الجنائية، وفرض العقوبات وجمع الغرامات المالية وغير ذلك[1].

أما عن القانون الإقطاعي، فالمعروف أن وليم هو الذي طور النظام الإقطاعي، وإن لم يكن هو الذي أدخله ووضع قواعد إمتلاك الأرض التي كانت في يده ووزعها على أتباعه،وأصبحوا بذلك خاضعين للقانون الإقطاعي، ولأن الأقطار التي فتحت لم يجر عليها تنظيم قانوني مثلما أجرى الفاتح في إنجلترا، وقد بين في قوانينه العلاقة بين المؤجر والمستأجر، وكان من أكبر المعادين للقانون الإقطاعي في إنجلترا ولم تسنح لهم الفرصة لإظهار تحاملهم الشديد ضد القانون الإقطاعي[2].

ولقد أعاد القانون الإقطاعي الذي صارت عليه المحكمة الملكية لهذا التراث الجرماني قوته، فقد كان الملك يرأس المحكمة الملكية، إلا أنه لم يكن يسيطر عليها سيطرة كاملة، إذ كانت التغيرات التي تجرى

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٢٨.

- Dietz, op. cit., p. 39.

(2) Frederic & Matland, op. cit., p.66-67; Dietz, op. cit., p.39; cross, op. cit., pp.86-87.

في القوانين تتم بموافقة الكبار، وهو الأمر الذي يتناغم مع التقاليد الجرمانية القاضية بالسلطة التشريعية للشعب.

لقد حسن وليم الفاتح من الإجراءات الجرمانية البالية غير الفعالة، عندما أدخل نظام الاستجواب الفرنجي النورماني وكلف القضاة أن يستخدموه في القضايا المدنية[1].

ففي إنجلترا مثلا جرت العادة النظر في الأحكام بواسطة محاكم أعلى منذ أوائل الحكم النورماني عن طريق محكمة الملك مع العلم بأن ذلك لم يخلو من معارضة البارونات، ويشرح ذلك قضية قامت في إنجلترا زمن وليم الفاتح بسبب نزاع بين جندولف أسقف روتشيستر وبيكوت الوكيل الملكي في مقاطعة كمبريدج حول أرض قضت المحكمة بشأنها في مصلحة الوكيل الملكي، غير أن تدخل أودو أسقف مدينة بايو أدى إلى دعوة اثنى عشر رجلا من عدول المقاطعة للتصديق على الحكم بتأدية اليمين في محكمة الملك، ثم تحدى هذا اليمين راهب كان وكيلا لأسقف روتشيستر في أرض متنازع عليها، فتحتم على العدول المساكين أن يقبلوا امتحان النار، أو ينكروا اليمين الذي أقسموه.

ومن الطريقة الغير مباشرة التي جرى بها هذا التدخل للسلطات في هذه القضية ما يدل على أنواع الصعوبات التقليدية التي حالت دائما دون إعادة النظر في حكم من الأحكام[2].

والواقع أن القانون الإنجليزي القديم هو الذي كان يتم استخدامه في هذه المحاكم بطريقة منطقية وذكية، فقد استخدم كلا من الفاتح

---

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٢٨.

- Frederick & Metland, op. cit., p. 88.

(٢) و. كوبلاند – ب. فينوجرادوف: المرجع السابق، ص ٩٦ – ٩٧.

- Jounson, op. cit., p. 41.

وهنري الأول قوانين إدوارد المعترف، ولكن الحمد النورمانديين كانت لديهم صعوبة كبيرة في التأكيد على ماهية ذلك القانون[١].

ولكي يساعدهم الملوك النورمانديون في ذلك، أمروا رجال الترجمة بالعمل، ليس فقط في ترجمة قواعد القانون الإنجليزي القديم، ولكن أيضا من أجل تنظيمها وتبويبها، ونتيجة لذلك أنتجوا عددا وافرا من القواعد القانونية الطيبة التي استخدمت من أجل تنسيق القواعد القانونية القديمة في إنجلترا، وأن يضعوها في شكل يمكن تنفيذه، وكان المثالان الأكثر أهمية في ذلك هما كوادري بارتتيوس Quadri – Partitus – وليجي هنريس – Leges Henrici – وقد أصدر مجلداتهما القانونية تقريبا بين عامي (١١١٣ – ١١١٨)، وتم التعرف عليهما عن طريق كتاب فرنسيين غير معروفين، ولقد أخبرانا بالعديد من القواعد القانونية المهمة، وأوضحت بشكل خاص أن العمد النورمانديين كانوا يحاولون بشكل حماسي الحفاظ على الأفكار الإنجليزية القديمة[٢].

وفي نهاية القرن الحادي عشر كانت مظاهر الضعف في القانون المدني تكاد تتوارى أمام الخدمات الكبيرة التي يمكن لهذا القانون أن يسديها لكل من الحكومة والمجتمع الأوربي[٣].

القانون الكنسي: –

لقد كان القانون الكنسي في فترة تكوينه وتشكيله في النصف الأول من القرن الثاني عشر محكوما بمفاهيم القانون المدني وإجراءاته إلى حد بعيد، ففي منتصف القرن الحادي عشر كان العلماء

---

(1) Cam. Med. Hist., vol. v., p. 535.

(2) Cam. Med. Hist., vol. v., p. 535.

(3) Frederic & Matland, op. cit., p. 79.

الكنسيون قد بدءوا في محاولة تنظيم القوانين الكنسية وجمعوها من بين طيات الكم الهائل غير المرتب من الأحكام، والتراث المتراكم منذ العصور الوسطى الباكرة.

وكان أول من بدأ هذا العمل الصعب اثنان من أبناء الأساقفة من الشمال وهم بيرشر الرومسي – Burcher of Worms – وإيفو الشارتري – Ivo of Shartars – في سنة ١٠٥٠، وكان القانون الكنسي يتألف من مجموعة متوارثة من التصريحات والأحكام التي أخذت عن الكتاب المقدس وكتابات رجال الكنيسة وآبائها والمجامع الكنسية والباباوات والأساقفة[1].

وفي العصور الوسطى الباكرة تم عمل مجموعات مختلفة غير رسمية من القوانين الكنسية، وكان أشهر تلك المجموعة التي تنسب زورا إلى القديس إيذيدور الإشبيلي، والتي عرفت تحت اسم – Pesuudo Isdorian Dectretals – وكان على الجيل الأول من القانونيين الكنسيين أن يجابهوا كمًا ضخما من المواد التي وضعت سويا دون الالتزام بأي مبدأ نقدي أو عقلي، والتي كانت تحوي الاقتراحات القانونية التي يتعارض كل منها مع الآخر بل تتضمن بعض المواد المزورة[2].

ولقد كان النورمان هم أداة التوجيه والإشراف على القوانين الكنسية وذلك لأنهم سيطروا على الكنيسة، وحل رجال الكنيسة من النورمان محل الأنجلو – سكسونيين؛ لذلك أشرفوا على القوانين الكنسية، وكان هناك خلاف دائم في إدماج القوانين المدنية والكنسية في مجموعة قوانين واحدة تحت مؤسسة واحدة وهي الدولة[3].

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٢٢.

- Frederick & Metland, op. cit., p. 75.

(٢) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٢٢.

(3) Frederic & Matland, op. cit., pp. 74 - 75.

وكانت الكنيسة دائما تبحث عن قوانين توضع لتخفيف ويـــلات الحروب في العصور الوسطى؛ لذلك ابتكرت الكنيسة في عهد ولـــيم الفاتح ما يسمى بهدنة الرب – Truce of God – وكان وليم يأمل أن تنتقل من نورماندي إلى إنجلترا لتخفيف العداء الإقطاعي بين العائلات في إنجلترا ذات الدماء الواحدة، وبالفعل انتقلت هذه الدعوة إلى إنجلترا وعاد التسامح[١].

وعندما قام الملك وليم الفاتح بتعديل القـــوانين الكنســـية فـــي إنجلترا، عمل على مراعاة كل العاملين في الكنيسة، ووضـــع لـــذلك كتاب الرضا الروحاني سنة ١٠٧٠، وهو عبارة عن بيان أصدره بناء على نصيحة من كبار أساقفته ومفكريه القانونيين، وقرروا أن يعـــدلوا القوانين الغير مرضية والخاصة بالعدالة في الكنيسة[٢].

وأرسل كتابه المتعلق بالرضا الروحاني سنة ١٠٧٠ إلى كـــل الحكام في أنحاء المملكة وجاء فيه:

"من وليم ملك الإنجليز بفضـــل الـــرب إلـــى رولـــف برتـــار وجيوفري دي ماندفيل وبيتر فالوجنس ولكل الرجال المـــؤمنين مـــن مواطني أسكس وهيرتفورد تحياتي: لتعلموا جميعا وليعلم كل رجـــالي في إنجلترا أنني قررت بنصيحة عامة من رؤساء الأســـاقفة، وأهـــل المشورة في مملكتي تصحيح القوانين الأسقفية التي لم تكن متفقة مـــع القانون الكنسي، وقد أمرت وألزمت الجميع بسلطتي الملكية، ومن الآن فصاعدا لن يقدم أي أسقف أو رئيس الأساقفة قضاياهم فـــي محـــاكم مدنية بل في محاكم خاصة بالأساقفة، وسيتم استدعاؤهم طبقا لقـــوانين الأساقفة المتعلقة بأي سبب، وعن طريق هذه المحكمـــة يـــتم اختيـــار

(1) Frederic & Matland, op. cit., p. 75; Cantor (N. F.), op. cit., pp. 175 - 176.

(2) Barrow & Edward, op. cit., p. 148.

المكان لحضورهم إليه، ويتم إعلان أسمائهم في الأسقفية الخاصة بذلك الغرض، ويتم التحقيق معهم طبقا للقانون الكنسي، وإذا رفض أحد الأساقفة المثول أمام المحكمة الأسقفية سيتم إعلانه مرة وثانية وثالثة، وإذا لم يحضر يتم عزله، وإذا تطلب الأمر حضوره بالقوة فإن قوات الملك أو الشريف يحضرونه بالقوة، وإذا لم يحضر أمام محكمة الأسقف عند إعلانه يدفع غرامة كبيرة لكل المدعين، ومنعت بسلطتي أي شريف أو مسئول ملكي أو علماني أن يتدخل في هذه القوانين التي تتعلق بالأساقفة، ولن يتعرض أي رجل ديني للعقاب والسجن بدون حكم من رئيس الأساقفة[1].

وعمل رجال القانون الكنسي على توضيح أن مركز البابا في الكنيسة قرينا لمركز الملك في الدولة، وأن تترك القوانين الكنسية إلى البابوية.

ومنذ السنوات العشر الأولى من القرن الثاني عشر كان كافة القانونيين الكنسيين قد تدربوا تدريبا مكثفا في القانون المدني، وكانوا يرون في البابا إمبراطور مطلق السلطات في مملكته للكنيسة العالمية، وهذا العمل الدءوب بتجميع القانون الكنسي وتصنيفه أتى ثماره في – Decretum – والذي أصدره المشرع والمبعوث البابوي جراتيان – Gratian – سنة ١١٤٠[٢].

---

(1) Barrow & Edward, op. cit., p. 148.

(٢) هذه المجموعة تعرف باسم – Dectetum Gratiani – وهي عبارة عن القرارات والمراسيم والأحكام البابابوية وصدرت حول مختلف النظام القانون الكنسي – Decretals – وكانت هذه في الأصل خطابات بابوية مرسلة إلى الأساقفة إجابة على أسئلة أو تقارير أو دعاوى، وقد جمعها جراتيان حوالي سنة (١١٤٠ – ١١٤١) وتحتوي المجموعة على ما يقرب من أربعة آلاف إشارة إلى مصادر كنسية عديدة مثل الدساتير الرسولية ونصوص آباء=

وعكف جراتيان على تجميع القوانين الكنسية ليواصل بذلك العملية التي كانت قد بدأت منذ قرن من الزمان على مبادئ القانون الكنسي، ووضع عنوانا لمجموعته وهي القوانين الكنسية المتنافرة Conco Rdantia Discordautium Canonum – وهي عبارة عن عنوان يشي بالمنهج الذي استخدمه جراتيان، إذ أنه وضع كل مبدأ متناقض وراء الآخر، أي أنه يضع النظرية في مواجهة النظرية المضادة لها، ثم يقوم بمناقشة هدفها بغية الوصول إلى حل منطقي للمتناقضات، وعندما كانت مصادره تختلف عند نقطة ما، كان هو الذي يقرر ما يدعم نظرية سمو السلطة البابوية[1].

ولكن القوانين في إنجلترا زمن وليم الفاتح اختلفت لأن السلطة الدينية كانت متمركزة في يده وليست في يد البابوية أو الكنيسة الإنجليزية، ولم يضع الملك في إعتباره تنفيذ القوانين الكنسية الصادرة من البابوية في روما، وكان يتصرف مثل الحكام المستنيرين ذوي العقول المتفتحة، فقد كانت فكرة الكنيسة المركزية في إنجلترا التي يتحكم فيها البابا غير مستساغة في إنجلترا؛ لأن وليم تحكم في القوانين الكنسية والتعيينات والمراسلات مع البابوية، وأصبحت الكنيسة الإنجليزية بقوانينها الكنسية تدور في فلكه، ووضع التشريعات القانونية الخاصة بالكنيسة والأساقفة بناء على هذا الأساس[2].

=الكنيسة، والقوانين الصادرة عن المجامع الكنسية فضلا عن المراسيم البابوية سواء كانت أصلية أو مزورة وكانت تتضمن قرارات مجمع اللاتيران سنة ١١٣٩.

انظر في ذلك:

- نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٢٣.

- Trevelyan, op. cit., p. 130.

(١) نورمان ف. كانتور: المرجع السابق، ص ٤٢٤.

(2) Brook, op. cit., p. 132; Trevelyan, op. cit., p. 129.

ووضع وليم الفاتح تشريعاته الكنسية الخاصة بالقانون الكنسي، وتعتبر في معظمها قوانين كنسية جديدة وضعها وليم الفاتح ومن أهمها:

(١) لن أسمح لأحد من الأساقفة في مملكتي وتحت سلطتي أن يتسلم خطابات من البابا في روما دون أن تعرض علي شخصيا في البداية.

(٢) لن أسمح لكبير الأساقفة في كانتربري وكذلك كبير أساقفة يورك عندما يرأس حشد من الأساقفة أن يوافق أو يحظر أي شئ يخص الكنيسة إلا إذا كان متماشيا مع إرادتي.

(٣) لن أجيز للأساقفة بأن يستدعوا أي بارون بدون تصريح علني مني شخصيا، وأي وزير يتهم بالزنا أو أي ذنب أخلاقي لا يتم عزله أو توقيع عقوبة كنسية عليه بدون موافقتي شخصيا[١].

وكانت القوانين الكنسية التي وضعها وليم سارية في كل أنحاء المملكة، وميز وليم بعض المدن بقوانين كنسية، وكان من هذه المدن مدينة لندن في سنة ١٠٧٥، وفي العام التاسع من حكم الملك وليم لإنجلترا عقد اجتماعًا في كنيسة القديس بولس الرسول في لندن وتم دعوة الأساقفة ورؤساء الأديرة وكل التابعين للكنيسة وعلى رأسهم رئيس أساقفة كانتربري – لانفرانك – وكذلك الأسقف جيوفري – كوتانس أسقف لندن، وفي هذا الاجتماع جددت بعض التشريعات القانونية على النحو التالي[٢]:

---

(1) Barrow & Edward, op. cit., p. 54.

(2) Barrow & Edward, op. cit., p. 154.

أ- أعطى الملك وليم حق الترتيب في الأسقفية للأسقفيات الإنجليزية كالتالي: رئيس الأساقفة من كانتربري ثم أسقفية يورك وبعدها أسقفية لندن ثم في المركز الرابع أسقفية ونشستر ثم الأسقفيات الصغيرة بعد ذلك.

ب- اتباع قرار البابا الذي يحظر وجود كبير الأساقفة في الأسقفيات الصغيرة، والذي قام بذلك الحظر جلالة الملك.

والتصريح القانوني الذي أصدره وليم منح ثلاثة من الأساقفة ليتحركوا من الأسقفيات في المدن الصغيرة إلى الأسقفيات في المدن الكبيرة وهم:

- هيرمان من شيربورن إلى سالسبوري.

- Hermann From Sherborne to Salisbury.

- وستجاند من سيلسي إلى شيشستر.

- Stigad from Selsey to Chichester.

- بيتر من لتشفيلد إلى شستر.

- Prter from Lichfield to Chester.

ج- وإتباعا لمجلس الفيرا – Elvira – والمجمع الحادي عشر لتوليدو – Toledo – لن يستطيع أي أسقف أو رئيس دير أن يعطي قرارًا بقتل أي رجل، وكان ذلك خارج سلطته[1].

خامسا: الفنون

الفنون مرآة العصر، ولقد كان للفنون الأنجلو- نورمانية أسلوب مميز وطراز من نوع خاص.

ولا نبالغ إذا قلنا أن ما خلفه ذلك القرن من آيات الفن بشكل عام يرجع أصله إلى إنجلترا، فمجموعة الطرز المعروفة باسم

(1) Barrow & Edward, op. cit., p. 156.

المجموعة الإنجليزية – Opus Anglicanum – زينت بنماذج ورسوم إنجليزية خالصة، وكذلك مجموعة الأقمشة المزركشة المعروفة باسم ستائر بايو – Beyeux Tapestry – من صنع الإنجليز، رغم أنها نسبت إلى إحدى مدن نورماندیا وكذلك ظهرت النماذج القوطية في كل من إنجلترا وفرنسا في وقت واحد(١).

وإن كانت العصور الوسطى العالية من أشهر فترات التاريخ في فن العمارة الغربي، والنمط المعماري الذي راج في أوائل العصور الوسطى وهو ما يطلق عليه النظام الرومانسكي Romanesque Style– بأقسامه الفرعية وهي الكارولنجي، والسكسوني، والنورماني، وكانت الظاهرة المشتركة في أقسام هذه الطرز الرومانسكية هي العقد النصف دائري، وهذا ما يميزه عن الطراز القوطي ذي العقد المدبب(٢).

على أن دراسة الفنون المعمارية في إنجلترا تتطلب الرجوع إلى سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد، حين نهضت مدرسة معمارية في نورماندیا نهضة قوية وأسرعت الخطى في سبيل التقدم، وكان من آثارها كنيسة دير جومبيج – Jumieges – التي استغرق بناؤها عشرين عامًا، من سنة ١٠٤٨ – إلى سنة ١٠٦٨، وقيل إنها سمت على كل بناء معاصر لها في أوروبا، وشهد إدوارد المعترف بناء هذه

---

(1) Brial & Blakeley, op. cit., p. 32.

(٢) لفظ رومانسكي يطلق على الفنون التي اشتقت أصولها من الدولة الرومانية بعد ذلك، مثلما اشتقت اللغة الرومانسكية أصولها من الرومانية أي اللاتينية.

انظر في ذلك:

- ج. كرامسب – أ. جاكوب: تراث العصور الوسطى مجموعة بحوث، ط١، ترجمة محمد بدران، مصطفى زيادة، القاهرة، سنة ١٩٦٣، ص ٩٣.

- Peter Brodan, op. cit., p. 40.

الكنيسة أثناء إقامته في نورمانديا وعرف أسرارها المعمارية، فلما عاد إلى إنجلترا وصار ملك عليها أمر بإعادة بناء كنيسة دير وستمنستر على نموذج كنيسة دير جوميج حيث تشبهها مشابهة تامة، بل دلت الحفريات التي أجريت أن دير وستمنستر كان صورة طبق الأصل للدير الفرنسي، ولاشك في أن أحد المهندسين المشهورين في الفن المعماري انتقل إلى إنجلترا للإشراف على هذه المباني، وامتازت كنيسة ويستمنستر بحجمها الكبير وشكلها الصليبي، ومن نوافذ هذا البرج يدخل الضوء إلى الفناء الوسيط وكأنما يدخل من نوافذ القبة[١].

ويبدو أن بناء كنيسة الملك إدوارد التقي بدأ حوالي سنة ١٠٥٠، وأن الاحتفال بتكشيفها تم قبيل الغزو النورماندي – وذلك في أغلب الظن – قبل أن يبدأ بناء الأقسام الأخرى في دير وستمنستر، وأول هذه الأقسام هي منامة الرهبان، وهي لا تزال قائمة حتى العصر الحاضر، ويدل شكل بنائها على أنها بنيت حوالي سنة ١٠٧٠، ولأنها لا تخرج من الناحية المعمارية للعلمية من أن تكون تكرارا لكنيسة إدوارد المعترف، حيث بنيت جميع عقود السقوف وجميع النوافذ والأبواب بحجارة فخمة المظهر متعاقبة اللون بين الزاهية والقاتمة[٢].

ولقد ابتكر في إنجلترا فن معماري من طراز جديد اسمه العمودي – Prependicular – تميزا له عن الطراز الفرنسي Flambayont– واتسمت مباني الكاتدرائيات والكنائس والكليات والجامعات وبيوت الأعيان بالطراز القومي، وكانت تتميز بالجمال والتنسيق وتناسب الأجزاء[٣].

---

(١) ج. كرامب – أ. جاكوب: المرجع السابق، ص ٩٣.

- Peter Bardan, op. cit., p. 40.

(٢) ج. كرامب – أ. جاكوب: المرجع السابق، ص ٩٤.

- Davis, op. cit., p. 50.

(3) Peter Brodam, op. cit., p. 38.

إن التحول من طراز فن العمارة الذي راج في أوائل القـــرون الوسطى إلى الطراز القوطي يمكن أن يفهم أيضا على أنه تقـدم فــي القواعد العامة للهندسة المعمارية، إذ كانت القنطرة المستديرة إحــدى المقومات المعمارية الرئيسية في طراز الكنائس التي بنيت في أوائــل القرون الوسطى، وكان تصميم السقف قائما على إضــافات متعـددة القناطر المستديرة مثل العقد الأسطواني والعقد المتقاطع وذلــك مــن طراز فن المعمار الذي راج في أوائل القرون الوسطى، واحتاجت تلك السقوف الحجرية الثقيلة إلى جدران سميكة لحملها، وبها نوافذ كانــت بالضرورة قليلة وصغيرة، ونقلت الكنيســة المقامــة وفقـا للطــراز المعماري الذي راج في أوائل القرون الوسطى شعورا قويا بالوحــدة والصلابة الراسخة، فقناطرها الضخمة وعقودها وجـدرانها والجـزء الداخلي المظلل والمعتم، كل ذلك أعطى صورة خادعة للبصر[١].

ويذكر – فريمان – أنه لم يكن يوجد في ذلك الوقت فنون كثيرة في الغرب الأوروبية ما عدا فن العمارة – المباني – واهتموا كثيــرا بالزخرفة كفن عالمي في الحس، فقد أحدث الفتح النورماني لإنجلتــرا درجة كبيرة من التقدم في فن العمارة في الكنائس والقلاع والمنــازل، والتي كانت بصفة عامة من الخشب، وفي القرن الحادي عشر كــان الإنجليز يبنون قبة الكنائس بشكل دائري كما كــان يفعـل الرومــان القدماء في أوروبا الغربية، وكان الفن متأثرا كذلك بالفن الإيطالي[٢].

وهذا الأسلوب الزخرفي خاص بمباني الجنوب الشــرقي مــن فرنسا أكثر مما هو خاص بمباني نورماندي، مع العلم بأن هذا التعاقب

---

(١) س. و. وارن. هلستر: المرجع السابق، ص ٢٤٩.

(2) Freeman, op. cit., p. 145.

- كان إنتاج الفن في فرنسا من قبل النورمان ذا شكل وأسلوب مميز وخاصة فن العمارة الذي نشأ مع بداية ١٠٥٠، وفي الواقع تنوع تشكيله الرومانسكي القديم وأيضا شكل الفن القوطي التي تم تنظيمها.

في الألوان وارد في رسوم ستاتر بايو الشهيرة، مما يدل على أن الأسلوب الزخرفي التعاقبي صار في حد ذاته مثيرا للابتهاج حيث أنه أضحى مستخدما في زخارف الطلاء، ولمدة قرون أو أكثر صار من المألوف في الزخارف الداخلية بمختلف الأبنية أن تدهن الجدران والعقود بشرائط وفواصل متعاقبة من ألوان قاتمة وباهتة، ومازال باقية في وينشستر وسانت أولبنز[١].

وفي القرن الحادي عشر بدأ الرجال استنباط طرق جديدة في الفن المعماري وبدون البحث عن النماذج الرومانية القديمة بقبابها الدائرية، فقد كونوا نموذجا محليا جديدا بأجزاء مختلفة.

وكانت هذه واحدة من الأشكال التي تطلق عليها الفن المعماري الروماني والذي ظهر بقوة في إيطاليا وفي جنوب وشمال فرنسا، وتميز النورمانديون في عهد وليم الفاتح بأسلوب معماري رائع[٢].

وقد اعتاد علماء الآثار أن ينسبوا مجموعة المباني التي قامت في إنجلترا أثناء القرن التالي للفتح النورماني –الثاني عشر– إلى

---

(١) كاتدرائية سانت أولبنز من أقدم الكنائس النورماندية في إنجلترا وقد شيدها في سنة ١٠٧٧ – ١٠٨٨ بول الكانيلي أول رئيس نورماندي لدير سانت أولبنز.

والأجنحة المستعرضة هي خير ما بقي من أجزاء البناء، إلا أن شرفة المرنمين التي تمتد على طول الفجوات الشرقية الثلاث من صحن الكنيسة، والفضاء الذي تحت البرج نفسه جميعها أعمال نورماندية أصلية، وقد روعي المحافظة على الخطوط الرئيسية لتصميم بول الكانيلي الأصل ككل ما حدث بعد ذلك من إضافات وما تم من ترميمات.

انظر في ذلك:

- ج. كرامب. أ. جاكوب: المرجع السابق، ص ٩٤.
- ستنتون: المرجع السابق، ص ٧٣.
- Davis, op. cit., p. 50.

(2) Freeman, op. cit., p. 164; Trevelyan, op. cit., p. 128.

الطراز النورماني الفرنسي، ولأن هذا القرن شهد نشاطا كبيرا في البناء والتجارب المعمارية المباشرة في إنجلترا ونورمانديا، وتأثر كل من البلدين بمؤثرات أجنبية خاصة، ويضاف إلى ذلك أن الإنجليز الذين كان منهم ولاشك معظم الصناع والبنائين في العصر النورماني أسهموا بشيء من الأفكار المعمارية التي تحتويها أساليب بناء تلك الأبنية النورمانية، ومن الأدلة على ذلك كاتدرائية درهام، وهي البناء الممتاز بقوته الفنية الرائعة، ويبدو أن حجارتها أودعت شيء من الروح اللومباردية، والواقع أن بعضا من التقاليد المعمارية الجرمانية هي التي أثرت في عناصر الفن النورماني في تغطية السقوف بالأقبية المضلعة سنة ١١٠٣، وذلك ميزة تمتاز بها العمائر القوطية[١].

---

(١) إن خير ما يمثل العمارة الكنسية النورماندية هي الكاتدرائية الرائعة في دورهام التي شيدها الأسقف كاريليف سنة ١٠٩٣، وأهم أجزائها شرفة المرنمين والجناح المستعرض، ولكن الصحن بأعمدته المستديرة ذات الحليات المحفورة والمصبوبات المتعرجة هي أيضا عمل نورماندي ضخم. ومعبد الجبل القائم في الطرف الغربي من البهو هو أيضا من عمل النورمانديين في عهود متأخرة حوالي سنة ١١٧٥. وأن المنظر الداخلي لكاتدرائية درهام والذي لا يتخلله شيء يحجبه عن العين ويبعث في النفس رهبة، فطولها ٤٦٩ قدما، وطول صحن الكاتدرائية ٢٠٥ قدم، وعرضه ٨٠ قدم، وارتفاعه ٧٢ قدما، ونرى هنا أعمدته مفردة ومستديرة بين كل منها دعامة ملفوفة مكونة من أعمدة وحليات وزخارف محفورة ذات طابع نورماندي قوي، وخلف الجناح المستعرض غرفة المرنمين الضخمة وهي أقدم أجزاء المبنى، وتؤدي إلى كنيسة المذابح التسعة التي أنشئت في القرن الثالث عشر، وتضم ضريح القديس كثبرت، يوجد بها السفح المشجر على نهر وير الذي تقام أعلاه كاتدرائية درهام، ويبنى البرجان الغربيان وارتفاعهما ١٤٤ قدما، وأعيد بناء البرج المتوسط الكبير الذي يبلغ ارتفاعه ٢١٨ قدما في القرن الخامس عشر. انظر في ذلك:

- ستنتون: المرجع السابق، ص ٦٦ – ٧٤.
- ج. كرامب - أ. جاكوب: المرجع السابق، ص ٩٥.

ويذكر المؤرخون أن سقف جناح المرتلين في هذه الكاتدرائية – درهام – يرجع إلى سنة ١١٠٦، ويعتبر الفنيون كاتدرائية درهام أثرا هاما من آثار الفنون، وكانت كاتدرائية درهام أثرا هاما من آثار الفنون الأوروبية في هذا العصر، وقد دعا هذا بعض المؤرخين إلى القول بأن الإبداع الحقيقي للطراز النورماني كان أثناء الغزو النورماني لإنجلترا[١].

ومن الثابت أن كاتدرائية درهام تأسست طبقا لنظام معماري أقدم تاريخيا من الفتح، غير أن طرازا أحدث عهدا وهو نظام الكنائس الذي يشمل رواقا دائريا حول المذبح، تتشعب من خلفه الأروقة الصغيرة وعرفت مثل هذه الأساليب الأجنبية في إنجلترا بعد الغزو مباشرة، إذ توالى حينئذ استيراد التحف الفنية الصغيرة المنحوتة من المرقد الأسود[٢].

وقد ذكر الأساقفة الجدد أن الكنائس الإنجليزية كانت صغيرة جداء لذلك أعادوا بناءها على مساحات كبيرة وبالطبع بالشكل المعماري الجديد، ولفترة ظل الطراز القديم الإنجليزي شائعا في بقية أوروبا الغربية، ولكن بنهاية القرن الحادي عشر أخذ الطراز النورماني ينتشر في إنجلترا، وفي القرن الثاني عشر أصبحت المباني أكثر سمكا وأقل ارتفاعا، وبدأ استخدام الأحجار في البناء أكثر وأكثر، وانتشر الطراز الجديد للمنازل والمباني الأخرى[٣].

والهندسة المعمارية الكنسية كانت قريبة الشبه بالكنائس الرومانية والكاتدرائيات القوطية، وبالرغم من أن الكنائس المبنية في إنجلترا كانت دائما تحتوي على عناصر إنجليزية معروفة إلا أن

---

(1) Freeman, op. cit., p. 146.

(٢) ج. كرامب. أ. جاكوب: المرجع السابق، ص ٩٥.

(٣) ج. كرامب. أ. جاكوب: المرجع السابق، ص ٩٥.

التصميمات التي كان يعدها المهندسون والفنانون جاءت من الخـــارج وأحيانا من عالم البحر المتوســط – إيطاليــا – صــقلية – والدولــة البيزنطية –، ولكن التأثير القوي المباشر كان مــن ناحيــة فرنســا، والدليل على ذلك أن المهندس المعماري الفرنسي وليم مــن ســينس William of Sens – والذي استدعى ليعيد بنــاء مبنــى الإنشــاء لكاتدرائية كانتربري سنة ١١٧٤ بعد الحريق التي تعرضت له، وعلى نحو مشابه عندما أعاد الملك هنري الثالث بناء دير ويستمنستر كــان متأثرا بدرجة كبيرة بالنماذج الفرنسية[١].

وأدخل هنري الثاني عناصر جديدة في الطرز الإنجليزية وهي الأسلوب الإنجيفي الرومانسيكي، وكان له طابع خاص وأسلوب فنــي مميز[٢].

□ □ □

[1] Kenneth, op. cit., pp. 122 – 123; Mitchell, op. cit., p. 101.

[2] ج. كرامب. أ. جاكوب: المرجع السابق، ص ٩٧.

- Davis, op. cit., p. 50.

النتائج

النـــتائـــــج

التي توصلت إليها في بحثي

تنظر الدراسات التاريخية الحديثة إلى الفتح النورماني لإنجلترا سنة ١٠٦٦ على أنه أخطر من مجرد غزوة حربية قام بها فريق من المغامرين للسيطرة على بلد من البلاد وإدخاله تحت حكمهم.

حقيقة أن أغلبية هؤلاء المغامرين الذين نجحوا في فتح إنجلترا وفدوا من نورماندي، ولكنهم جروا في ركابهم عددا كبيرا من الناطقين باللاتينية، وهؤلاء شاركوا في عملية الفتح ثم أخذوا نصيبهم من الغنائم والأراضي المفتوحة وانتشروا في البلاد ليتركوا أثرا أعمق من مجرد الأثر الحربي.

ومع أن النورمان أنفسهم الذين غزوا إنجلترا في القرن الحادي عشر كانوا قد أصبحوا فعلا قبل ذلك الغزو جزءا من الأمة الفرنسية الناشئة بعد أن استقروا في نورمنديا وتأثروا بعوامل البيئة الجديدة وحضارتها، حتى صار الغزو النورماني لإنجلترا في حقيقة جوهره غزوا فرنسيا حضاريا.

الاتصال مع البلاد الأخرى:

ولابد أن نميز بحذر التأثيرات السريعة للغزو النورماني والتغيرات التي كونها في البداية وبين النتائج الأخيرة التي تركت أثرا على كل العصور التي تبعته، فقد ظهر أن معظم الشعب الإنجليزي قد فقد قوميته، وحريته، وقوانينه، ولغته.

لكن في الحقيقة نجد أن الغزو النورماني والذي ظهر وكأنه دمر كل هذه الأشياء، إلا أنه بالفعل قام بحفظ الأشياء بشكل أكمل.

وكانت أهم نتائجه إخراج بريطانيا من عزلتها النسبية وتقوية الصلات بينها وبين كل أجزاء القارة الأوربية، وجعلها عضوا عاملا في تطور الحضارة الغربية، فلقد كان تعاملها – إنجلترا – في البداية مع أسـر وعشائر في أراضي أسكندنافيا، وألمانيا، وفنلندا، ولكـن بعـد الفـتح أصبح تعاملها مع المتحدثين بالفرنسية اللاتينية مثل دوقية نورمانـدي ومملكة فرنسا وإيطاليا.

وكانت البداية عندما تزوج إثلرد من إيما وأثمرت هذه الزيجـة عن إدوارد المعترف الذي أصبح ملك إنجلترا وسيطر كـذلك علـى أجزاء واسعة من أيرلندا وفرنسا، وعين الفرنسيين في مناصب عليـا بإنجلترا وكان ذلك بداية الاتصال بين فرنسا وإنجلترا، وتزاوج بعـد ذلك الإنجليز من الفرنسيين والعكس، وازدادت بذلك التجارة الخارجية حيث كانت التجارة الإنجليزية القديمة مقصورة فقـط علـى ألمانيـا وفنلندا، ولكن بعد الفتح أقامت تجارة عظيمة مع دوقيـة نورمانـدي وفرنسا وإسكتلندا وأيرلندا والدانمرك، وتوقفت بريطانيا عن أن تكون عالما خاصا بنفسها، وأصبحت جزءا من العالم – أوروبا الغربية –.

تأثير الغزو على الكنيسة:

كانت الكنيسة الإنجليزية قبل الفتح ذا اسـتقلال عظـيم عـن البابوية في روما وكذلك الكنائس الغربية الأخرى، وبعد الفتح تـدخل البابوات بشكل محدد سمح به وليم وذلك عندما طلب مـن البابـا أن يحكم بينه وبين هارولد وكان الملوك قبل وليم قد وضعوا القوانين التي تنظم الكنيسة الإنجليزية، وبدأت صرخة رجال الدين بالمطالبة بالحرية والتحرر من كل ما يتعلق بالقضاء، وأن يتم محاكمتهم وفقـا لمحـاكم كنسية خاصة بهم، وقام وليم الفاتح بإصلاحات جذرية في الكنيسة، فقد قام بفصل المحاكم الدينية عن الدنيوية، وأكد على المسـتوى الخلقـي الرفيع لرجال الدين، وشجع على الإكثار من عقد المجـامع الدينيـة،

وأكثر من بناء الكنائس والأديرة والكاتدرائيات، ويبدو أن الكنيسة في إنجلترا كانت أعظم شأناً.

الحروب الأجنبية:

منذ الفتح النورماندي لإنجلترا بدأت تدخل في حروب قارية، ولقد دخلت فرنسا وإنجلترا في حروب طاحنة بسبب دوقية نورماندي التي كانت جزءاً من ممتلكات فرنسا، وتتبع إنجلترا لأن دوقها كان ملكا لإنجلترا، واستمر الصراع لسنين عديدة على الرغم من غزو فرنسا لنورماندي، فقد سيطر ملك إنجلترا على ممتلكات عظيمة في فرنسا وخاصة في دوقية أكوتين، فقد ظلت تحت سيطرة الملوك الإنجليز لفترة طويلة بعد فقدان نورماندي، لذلك أصبحت إنجلترا قوة قارية اشتركت في حروب قارية عديدة واستمرت في صراع طويل مع فرنسا.

تأثير الفتح على القوة الملكية:

أحد أهم نتائج الفتح النورماني كانت ولاشك قوة وسلطة الملوك، فقد احتفظ الملوك النورمان بكل السلطات والحقوق وكذلك العوائد المالية وأضافوا مصادر أخرى للدخل، والملك كان يُنظر إليه بطريقتين الأولى: أنه حاكم مطلق والآخرين أعضاء، والثانية رئيس الدولة ومعه رؤساء القوم وحكام المقاطعة يشاركونه في الحكم، وهاتان الطريقتان كانتا معروفتان في أوروبا وكذلك إنجلترا، وعرف وليم الفاتح كيف يستخدم كلا منهما لتقوية سلطته الملكية، فقد كان من الأرجح أن المملكة سوف تنقسم إلى إمارات منفصلة كما كان في ألمانيا وفرنسا، ولكن وليم احتاط لعدم حدوث ذلك في إنجلترا، وأصدر قانونا جعل فيه كل أراضي المملكة ملكا له وكل رجل في المملكة يدين بالتبعية الإقطاعية له.

فالملوك النورمان كانوا قادرين على فرض الضرائب، ويستطيعون كذلك أن يجمعوا الأمة للقتال، ويستدعوا حكام المقاطعات لكي يقدموا خدماتهم الحربية ويقدموا الأموال اللازمة، وأصبح تحت سيطرة الملك جيش قومي وجيش إقطاعي قوي، وأصبحت الملكية الإنجليزية ميراث للملوك النورمانديين، ولم يكن هناك اختيار مما كان يقدر لها الزوال، وظلت النزعة الوراثية منذ الفتح هي القانون لفترة طويلة.

القانون والإدارة:

لقد رأينا أن وليم الفاتح والملوك النورمانديين من بعده قد أحدثوا تغيرات طفيفة في القانون، ولم يحدثوا تغيير رسمي في شكل الحكومة أو الإدارة، وأحيانا كانوا يعيدون تسمية الأشياء القديمة بأسماء أخرى جديدة، تجعلنا نشعر أن اختلافا كبيرا قد حدث، مثال ذلك أن أطلق النورمان على اسم (مقاطعة Shire) اسم (كونتيه – County) وكذلك لقب ضابط الملك الأول – الشريف – تم تسميته – نبيل – ولكن الشريف لم ينادى عليه بالنبيل وهي نفس معنى الشريف ولقب الملك باسمه، ولكن جميع الأمة – مجلس الحكماء – تم تسميتها بالبرلمان.

ولم يكن التغيير مفاجئا فقد تم خطوة خطوة، فعندما يقدم الفاتحون على إنهاء أو تصفية مؤسسة أو جماعة ينشأون البديل بسرعة حتى لا يحدث تغير جذري ومفاجئ يغير مصالح البلاد، ورغم أن الفتح وحد العناصر المتنافرة إلى أمة واحدة، فقد قام وليم الفاتح باستبدال النورمانديين بالإنجليز وحلوا محلهم في تولي المناصب العليا في البلاد، والحقيقة أنه بدون تغيير سريع وهدم الأشياء القديمة ووضع قواعد جديدة لا يمكن للدولة أن تتقدم، ومن الخطأ القول إن المؤسسات الإنجليزية القديمة قد تحطمت وشيد بدلا منها مؤسسات

نورماندية، ولكن من الصحيح القول إن المؤسسات الإنجليزية القديمة قد تغيرت بطرق جديدة تم استقدامها على يد النورمانديين.

تأثير الفتح على اللغة:

لقد أحدث الفتح النورماني تغيرًا باللغة الإنجليزية، وإذا لم يتم الفتح النورماندي فإن اللسان الإنجليزي كان ولاشك سوف يتغير كثيرا في مدة الثماني قرون بالمثل كما حدث في اللغات الأوروبية التي تغيرت بشكل كبير، ولم تتغير أي لغة أوربية مثل الإنجليزية لأنها لم تتعرض لنفس الأسباب التي أدت بها للتغير، فاللغة الإنجليزية عند حدوث الفتح كانت لغة صافية ونقية كلغة لم تستعير أي كلمات من لغة أخرى، ولكن بعد الفتح تم إدخال بعض الكلمات من ويلز وعدد كبير من اللاتينية، ولقد احتفظنا بالقواعد النحوية (تعريف الأسماء والأفعال) وهي نهايات الكلمات وتم الاحتفاظ بها تماما بدون تغيير.

ومن ناحية أخرى فإن النورمانديين بعد استعمارهم لفرنسا نسوا لغتهم الاسكندنافية وتحدثوا الفرنسية والإنجليزية، وعند غزو إنجلترا نقلوا اللغة الفرنسية معهم إلى إنجلترا، ولذلك فإن اللغة التي انتشرت في فرنسا مثل اللاتينية فقدت قواعدها القديمة وتم استبدالها بأخرى جديدة وكان تأثير النورمان على الإنجليزية مضاعفا فقد فقدنا تقريبا كل تصريفات الكلمات ، وكنا سنفقدها كلها إذا لم يكن هناك الفتح؛ لأن اللغات الأخرى فقدت معظم أو كل تصريفاتها. وسرعان ما تحدث المواطنون الإنجليزية والفرنسية جنبا إلى جنب بدون تأثير لإحداها على الأخرى.

ولقد كانت الفرنسية هي لغة الفن والأدب، واللاتينية لغة الكنيسة والتعليم، والإنجليزية لغة الأهالي، وبعد مائة وخمسين عاما من الفتح لم تعد الفرنسية تستخدم في الوثائق العامة، وتعلم

النورمانديون الإنجليزية وبدءوا يستخدمونها بشكل شائع مع نهاية القرن الثاني عشر.

تأثير الفتح على التعليم والأدب:

مما لاشك فيه أن كل الأمور الخاصة بالتعليم أحدث فيها الفتح النورماني تأثيرا سريعا في إنجلترا، ولكن الحروب الدانمركية عرقلت التعليم، ومع حب الملك إدوارد المعترف للأجانب وخاصة الفرنسيين إلا أنه لم يسمح بتشجيع الدارسين الأجانب، ولكن مع قدوم وليم تغير كل ذلك والدليل على ذلك هو تعيين لانفرانك وأنسليم كأول رئيسين لأساقفة كانتربري بعد الفتح، وكانوا من أكبر الدارسين في ذلك الوقت، واهتموا اهتماما بالغا بالعلم والعلوم.

وكان في إنجلترا خلال القرن الثاني عشر كتاب إنجليز لامعون ولدوا وعاشوا في إنجلترا وكتبوا باللاتينية كما كان معتادا وقتها، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكتابات تكتب بالإنجليزية إلى حد ما، وفي نفس الوقت كان الأدب الفرنسي حديث العهد وأخذ جذوره من الأدب الإنجليزي، حيث أن الكتب الفرنسية القديمة مكتوبة بالنثر والفرنسية الجديدة، وانتشر النثر بين الكتاب النورمان بسرعة في نورماندي وإنجلترا، وهكذا كتب " واس " قصة فتح النورمان لإنجلترا، وكتبوا كذلك مؤلفات عن التاريخ الإنجليزي والأساطير، واستمر لفترة بعد الفتح في إنجلترا يعمل ثلاث لغات الفرنسية واللاتينية الإنجليزية وتمت الترجمات من اللاتينية والفرنسية القديمة إلى الإنجليزية.

تأثير الفتح على الفن:

في تلك الفترة لم يكن هناك فنون كثيرة في غرب أوروبا ماعدا فن العمارة والزخرفة وخاصة زخرفة الكنائس والكتب، وفي ألمانيا وإنجلترا ظهر فن الزخرفة وكان قد انتشر، لكنه كان فنا عاليا في الصين.

وفي زخرفة المباني أحدث الفتح النورمانــدي تقــدما ملحوظــا عندما نتحدث عن المباني، فإننا نبدأ بالحديث عن الكنــائس والقــلاع والمنازل والتي كان منها جزء كبير مايزال يبني بالأخشاب، واعتــاد الإنجليز في بناء الكنائس أن تكون قبة الكنيسة على شكل دائري كمــا يفعل الرومان القدماء، في القرن الحادي عشر عندما بدأوا في استنباط طرق معمارية جديدة وبدون البحث عن النماذج الرومانيــة القديمــة بقبابها الدائرية وكونوا نموذجا محليا مختلفا.

وفي عهد إدوارد المعترف جاء هذا الطراز الجديد لإنجلترا بين موضات نورمانية مختلفة، وأخذ في عهد وليم جذوره المتينة، حتى أن الأساقفة الجدد في إنجلتــرا اعترضــوا علــى الكنــائس الإنجليزيــة الصغيرة، وأعادوا بناءها على مساحات كبيــرة، وبــالطبع بالشــكل الجديد.

ولفترة ظل الطراز الإنجليزي القديم شائعا في بقيــة أوروبــا الغربية، وكذلك ظل مستخدما في المباني الصغيرة، ولكن بنهاية القرن الحادي عشر أخذ الطراز النورماندي ينتشر في كل أرجاء إنجلترا.

تأثير الفتح على فنون الحرب:

وكان من أهم فنون الحرب التي استحدثها النورمان في إنجلترا بناء القلاع والحصون التي لم تكن أقل أهميــة مــن بنــاء الكنــائس والمنازل، فما زالت لها طابعها النورماني الخاص، فلم يكن الإنجليــز يملكون قلاعا قوية يمكن أن تحميهم من العدو، فأول من أدخل القلاع إلى إنجلترا هو إدوارد المعترف، فقــد شــيد حصــونا قويــة علــى الاستحكامات القديمة، وكانوا يشيدون أبراجا حجرية أحيانا ويحيطون هذه الأبراج بخنادق مائية عميقة.

وعندما جاء الغزو النورماني، شيد وليم قلاعا وحصونا قويــة جدا، وكان أولها قلعة هستنجز لتحمي تقهقره لو لم يحقق النصر ثــم قلعة دوفر القوية، والسبب في إنشاء هذه القلاع هو أن الأعداء كــانوا

يحاصرون المدن لفترة طويلة، فكانت القلاع مليئة بـالمؤن والسـلاح لتصمد أكبر فترة ممكنة في وجه العدو، واستخدم النورمـان طـرقهم الخاصة في القتال ونقلوها إلى إنجلترا.

وأحدث النورمان تغيرا كبيرا في الأسلحة وطرق الحرب، فلقد كان المحاربون الإنجليز يحاربون كمشاة، ولكن النورمان أدخلوا إلـى إنجلترا نظام الفروسية وتقسيم الجيوش، فقد كانـت أسـلحة الفـارس تتكون من الرمح والقوس والسهم والسـيف وكـذلك دبـوس لكسـر الدروع، في حين كانت أهم أسلحة الإنجليـز هـي الفـأس والبلطـة الدانمركية وكانت سلاحا تدميريا وكذلك الرماح، واستبعدت الرمـاح لعدم فعاليتها في الحرب، وكان الفرسان النورمان أحيانا يحاربون مثل الأنجلو-سكسون كمشاة، ومع مرور الوقت أصبح رماة السهم أقـوى أفراد الجيش الإنجليزي.

وهكذا رأينا أن الطريقة الخاصة بالفتح النورماني تعـود إلـى طبيعتهم الخاصة، ومميزات شخصية وليم التي انعكست على انجلترا، فلم يلغ القوانين القديمة، ولكنه بالتدريج قام بتعـديلها وفـي النهايـة حفظها، وفي النهاية عمل الفتح النورماني من أجل صالح إنجلترا.

□ □ □

الملاحق

(1) The Penitential Ordinance of Bishop rmenfrd of ion after the Battle of Hastings 100 This penitential ordinance to be imposed on those who had fought at Hastings and taken art in the subsepuent campaign was drawn up by the Norman bishops in Normandy and confirman by papal authority wxercised by the legate Ermenfrid, bishop of Sion . it suuvives in several early episcopal copies in England, and, in tne words of one of it's most recent editors' may be acceptde With confidence as an autbentic document'

This is the institution of penance according to the decrees of the bishops of the Normans, confirmed by the autherity of the supreme pontiff by his legate Ermenfrid bishop of sion ,to be imposed upon those whom William duke of the Normans by his command 24...and who before this decree were his men and owed him military service as their duty.

I - Whoever knows that he has killed in the great battle is to do one year's penance for each man slain.

2 - Whoever struck anoter but does not know if that man was thereby slain, is to do 40 days penance for each case, if be can rememenger the number, either continuously or at intervals.

3 - Whoever does not know the number of those be struck or killed shall, at the discretion of his bishop, do penance for one day a wddk for the rest of his life, or if be is able, make amends either by building a church or by giving perpetual alms to one.

4 - Those who struck on one yet wished to do so are to do penance for three days.

5 - Clerks who fought, or were armed for the purpose of fighiting , because they are forbidden to fight are to do penance according to the indtitutions of canon law as if they had dinned in their own country. The penance of monks is to be determined according to their rulr and the judgement of their abbor.

6 - Those who fought motivated only by gain are to know that they owe penance as for homicide; but because they fought in public war the bishops out of mercy have assigned them three years' penance.

7 - Archers who do not know how many they killed or wounded without killing are to do penance for three Lents.

8 - That battle aside, whoever before the con secration of the king killed anyone offering resistance as he moved thrkingdom in search of supplies, is to do one year's penance for each person so slain. Anyone, however, who kikked not in search of supplies but in looting, is to do three years' penance for each person so dlain .

9 - Whoever killed a man after the king 's comsecration is to do penance as for wilful homicide, with this exception, that if the perdon killed or struck was in arms against the king the penance shall be as above.

10 - Tose who committded adukterids or sapes or fornications dhall do penance as though they had thus sinned in their own countries.

11 - Similarly concerning the violation of churches. Things taken from a church are to be restored to the church from which they were taken if possible. If this is not possible they are to be given to some other church. If such restoration is refused, the bishops have decreed that no one is to sell or buy the property.

(ا) المرسوم الإصلحى للأستف إيرمنفريد أسقف سيون بعد معركة هستنجز

هذه هي بدائل الكفارة طبقا لقرار أساقفة النورمان مؤكدة بسلطة البابا السامية وبسلطة الكنيسة كأسقف "لسيون" يتم تطبيق الكفارة على هؤلاء الذين خاضوا المعركة مع الدوق وليم الفاتح، والذين كانوا من رجاله ويدينون له بالخدمة العسكرية ينفذون قرار الكفارة كالتالي :

(١) أي شخص أيا كان يعلم أنه قتل شخصا في المعركة العظيمة عليه أن يقدم كفارة سنوية على كل رجل قتله ٠

(٢) أي شخص أصاب أخ له ولا يعرف إذا كان قد قتل أم لا فعليه أن يقوم بكفارة إما متواصلة أو منفصلة ٠

(٣) الشخص الذي لا يعرف عدد الذين أصابهم أو قتلهم سوف يقوم بأداء كفارة لمدة يوم في الأسبوع في حضور الأسقف طيلة حياته وإذا كان يستطيع القيام بعمل كفارة إما عن طريق بناء كنيسة أو إعطاء شخص ما زكاة أبدية ٠

(٤) الذين لم يصيبوا أحدا في المعركة، ولم يكونوا يتمنون ذلك عليهم القيام بالكفارة ثلاثة أيام فقط ٠

(٥) الموظف الذي حارب أو تم تجنيده لغرض القتال وخاصة من رجال الكنيسة فقد حرم على رجال الكنيسة القتال ٠ فإن عليهم أداء كفارة طبقا للبدائل الموجودة في القانون الكنسي، وكفارة رجال الكنيسة أن تتبع لكل رئيس دير هو الذي يوقع العقوبة على التابعين له في الدير ٠

(٦) والذين حاربوا فقط من أجل الربح فأنهم مدينون بكفارة ككفارة القتل مرتزقة يحاربون من أجل المال - فعلى الأساقفة أن يحكمون عليهم بكفارة لمدة ثلاث سنوات بلا رحمة ٠

(٧) رماه السهام الذين لا يعرفون عدد قتلاهم أو عدد الجرحى عليهم كفارة لمدة ثلاث مرات – الصوم الكبير – (مائة وعشرون يوما) ٠

(٨) أي شخص قتل رجل في أرض المعركة قبل تتويج الملك بحثا عن مؤن عليه أن يؤدى كفارة لمدة عام لكل شخص قتله، وأي شخص لم يقتل بحثا عن مؤن ولكن من أجل السلب والنهب فعليه أداء كفارة ثلاث سنوات عن كل شخص قتله ٠

(٩) من قتل شخصا بعد تتويج الملك فعليه كفارة قاتل عنيد وإذا كان الشخص المقتول أو المصاب يحارب الملك فعليه كفارة كالسابقة ٠

(١٠) الذين قاموا بارتكاب جريمة الزنا والاغتصاب أو أي فسق عليهم كفارة كبيرة كما تحددها بلادهم ٠

(١١) وفيما يتعلق بانتهاكات الكناس فالأشياء التي أخذت من الكنيسة يجب أن تعوض وتعاد مرة أخرى للكنيسة من حيث أخذت إذا أمكن ذلك ٠

وإذا لم يكن ذلك ممكن فعليهم أن يردوا إلى أقرب كنيسة لهم. ومنعت الكنيسة بيع أو شراء ما يخص الكنيسة ٠

***

(2) Pope Gregory Vll to William the Conqueror, 1080:-

Pope Gregory VII to William the Conqueror, reminding him of past favours and support and obedience (1080 - April 24)

Gregory the bishop, Servant of the servants of God , to William, King of the English, greeting and apostolic benediction It is Known to you, I believe, most eminent son, how great is the love I have always borne you, even before I rose to the supreme height of the papacy, what effevtive concern I have shown in your affairs and, moreover, with what zeal I Labuured that you might rise to the dignity of kingship For Which reson one may say that I sufferde great infamy through the mutterings of certain brethren that by my exertions on your behalf I encouraged so great a sfaughter . but in fact I konow that, as God was my witness, I did this in good faith, trusting in the grace of God and not vainly, in the virtues which were in you, whereby the higher you rise the better disposed you dhow yourself towards God and Holy Church, even as now you have cause to give thanks to Him ... (The Letter goes on to repuest William's suppout and pbedience in general terms) .... Given at Rome, 24 Aprkl , in the third Indiction (1080) .

(٢) خطاب البابا جريجورى السابع إلى وليم الفاتح سنة ١٠٨٠م :

من الأسقف جريجورى خادم خدام الرب إلى الملك وليـم ملـك الإنجليز ودوق النورمان الشهير تحياتي :

" أنه من المعروف لك يا ابني المؤمن العزيز مقدار الحب الذي أكنه لك حتى قبل أن أصل إلى هذا المنصب الرفيع من البابويـه "، ويا له من إهتمام مؤثر الذي أوضحته في قضاياك، أو أكثر من ذلـك الحماس الذي اجتهدت من أجله وهو أن تصل إلى شرف الملك ٠ ولقد عانيت كثيرا من أجل الخزي خلال إبتهـالي لإخـوتي فـي الـدين وجهودي للتأثير على الناس لصالحك ولأنني كنت قد فعلت ذلك بنيـة طيبة ولثقتي في فضل الرب ورحمته وليس طمعا في فضل أو ميزة منك، والرب شاهدا عليه والذي به ارتفعت إلى السلطة البابوية وقررت العمل من أجل الرب والكنيسة المقدسة حتي لو كنـت أنـت الـذي تتسبب في إعطاء الشكر للرب"

ويستمر الخطاب يطالب جريجورى بدعم وليم له والطاعة له في كل الأحوال ثم تسليم الخطاب في روما ٢٤ أبريل سنة ١٠٨٠م٠

(3) william the Conqueror to Pope Gregory v 11 ,1080:

william the conqueror to pope gregory v 11 refusing fealty and promising the arrea rs of peters penc e 1080 summer

The appearance of this famotis letter in lanfranc' s collected correspondence presumably indicates that be at least drafted it . A covering Letter in Lanfranc's name Went with it , ending' 'I pressented the text of your message and your abovementioned Legate with what skill I could to my Lord the king; I commended it to him but without success, Why he has not complied with your wishes in sll respects the Legate himself is explaining to you both orally and in a letter, Gregory VII's demand for fealty has not survived and was probably made orally by his legate, Hubert, To Gregory, most exalted pastor of Holy Church, William, by the grace of God king of the English and duke of the Norman s , sends greetings and the assurance of friendship. Your Legate Hubert , who came to me , holy father, has on your behalf directed me to do fealty to you and your successors

and to reconsider the money payment which my predecessors used to send to the Roman Church.

The one proposition I have accepted; the other I bave not. I have never desired to do fealty, nor do I desire it now; for I neither promised on ray own behalf nor can I discover that my predecessors ever performed it to ;ypurs As to the money, for almost three tyars it has been collected without due caer , while I was engaged in France . But now that by God's mercy I have returned to my kingdom, the sum slready collected, when the opportunity arises, by the legate of our faithful scrvant archbishop Lanfranc.

(٣) خطاب وليم الفاتح إلى البابا جريجورى السابع سنة ١٠٨٠م

من وليم الفاتح البابا جريجورى السابع يرفض فيه الطاعة الولاء للبابا، ويعده بدفع ديونه وهذا هو نص الخطاب : " من وليم ملك إنجلترا ودوق النورمان المتوج بفضل الرب والمتعهد بدوام الصداقة وتأمينها إلى البابا جريجورى السابع أكثر قساوسة الكنيسة المقدسة إجلالا ٠ إن مندوبكم هيربت والذي جاء إلى من طرفكم يا أبى المقدس، وجهني لأقوم بأداء يمين الولاء والطاعة لك ولإتباعك من بعدك وأن أضع في إعتبارى دفع المال الذي اعتاد أسلافنا أن يرسلونها إلى الكنيسة في روما ٠

والاقتراح الأول الخاص بالولاء والطاعة قد رفضته لأنني لم أرى أحد أسلافي من قبل قد قام بذلك، ولن يقوم أحد من أتباعي من تقديمها لك أو لأحد من أتباعك، وبالنسبة للمال بس القديس بطرس فقد تم تجميعا على مدار ثلاث سنوات لأنني كنت خارج حدود مملكتي في فرنسا، ولكن بحمد الرب قد عدت إلى المملكة فقد جمعت المال وسيرسل لك مع مندوبكم هربرت وسوف نستمر بعون الرب في إرسال المال في موعده مع خادمنا المخلص لانفرانك رئيس أساقفة كانتربرى، وأدعوا الرب لنا بالرخاء لمملكتنا لأننا إعتنينا بأتباعك عناية عظيمة وتحياتنا لك " ٠

وإن ظهور هذا الخطاب الشهير في مجموعة لانفرانك يعتبر دليل قوى على أنه على الأقل قد كتب مسودة هذا الخطاب ٠

(4) Lanfranc to Pope Alexander 11 , (1072 /3) :

Lanfranc to Pope Alexander I I begging to be released from the offace of archbishop (1072 , December 25 - 1073 , April 21)

To Pope Alexanedr , the highest pastor of the holy Church, Lanfranc , an unworthy bidhop , offers canonical obedience.

I do not Know to whom I may more appropriately unfold my misfortunes than to yor , father, who have vrought these misfortunes upon me . When William duke of the Normans had removed me from the community at bec, where itook the religious habit, and I was in charge of the monastery ay Caen , I was unepual to ruling a few monks; so I cannot conceive by what judgement of almight God I have at your insistence been made the overseer of many and numberless peoples. Although that duke, now King of the English, endavoured in many different ways to bring this about, his Labours were in vain. He could not win his point from me until finally your own legateds came to Normandy, 166 .

Ermenffrid , bishop of Sion, and Hubert, cardinal of the holy Roman Church; they assembled the bishops, abbots and magnates of that country and in their presence commanded me by the authorith of the apostolic see to assume the government of the clurch of Canterbury. I pleaded failing strength and personal unworthiness, but to no purppose ; the excuse that the language was unknown and the native races barbarous weighed nothing with them either, In a word: I assented, I came, I took pffice . Now I endure daily do many troubles and vexations and such spiritual starvation of nearlv anvthing that is good; I am continually hearing, seeing and experiencing so much unrest among differnt people, such distress and injuries, such hardness of heart , greed and dishonesty, such a decline in goly Church, that I am weary of my life and grieve exceedingly to have lived into times like these """ I imp lire you for God's sake and your own soul's, as you bound me by your authority that could not lawfully be disputed, to free me from bondage, using that same authority to break the dlackle of this drty and giving me leave to return to the monastic life, which I love more than anything else. I do not deserve to have a petition rejected which I implire you to grant me so devoutly, so urgently and for

such excellent reasons ...... Onanother point, when I was in Rome and by God's grace hd the privilege to see and talk with you in person, you ssked me to visit you the following year about Christanes and dtay in the paiace (palatium) at your expense for three months or longer. but I could not have done this without great inconvenience, both physical and financial; God and his angels are my witness. There were many different factors preventing me , more than canbeincluded in the brief comass of a letter. but if the King above grant me life and health with sufficient means, I do ling to visit the holy apostles and both you and the boly Roman Church, if this is to come about, I urge you to entreat God mercifully to grant long oife to my lord the king of the English, to establish himin securith from all his enemies and to stir up his heart to love Him and His holy Church with all gidly devotion While the king lives we have peace of a kind, but after his death we expect to have neither peace nor any other benefit.

(٤) خطاب لانفرانك إلى البابا ألكسندر الثاني سنة ١٠٧٢ :

" من لانفرانك إلى البابا ألكسندر الثاني يتوسل إليه من أجل إعفائه من منصب رئيس أساقفة كانتربرى في ٢١ أبريل سنة ١٠٧٢ إلى البابا ألكسندر كبير قساوسة الكنيسة المقدس، الأسقف لانفرانك – غير المستحق – يقدم طاعته وولائه لكم . لم أجد أحد يا أبى المقدس غيركم لكي أفضى له سوء حظي سواكم. والذي تسبب في جلب الحظ السيء إلى هو الدوق وليم دوق النورمان عندما قام بنقلي من زعامة دير بك لإدارة الكنيسة في – كان – وأداء المشاعر الدينية الخاصة بها . سيدي أنا لم أكن قادرا على إدارة رهبان قليلين لذلك لا أستطيع أن أتخيل بأي حكم من أحكام الرب القادر على كل شيء أن أكون بإلحاح منك قادرا ومراقبا على عدد لا حصر له من الناس. وعلى الرغم من أن الدوق الذي أصبح ملك لإنجلترا حاول معي بشتى الطرق ولكن جهودهم ذهبت هباء. ولم يكن لينال مني حتى قمت أنت مؤخرا بإرسال مندوبك إلى نورماندى إيرمنفريد أسقف سيون وهربرت كاردينال الكنيسة الرومانية المقدسة وقاموا بتجميع الأساقفة ورؤساء الأديرة والأعيان في البلاد وفي حضور الجميع، وأعطوا أمرا لي بسلطة الرسل بتعييني رئيسا لأساقفة كانتربرى .

فإنني أطلب منك من أجل الرب كما ربطتني بسلطتك والتي لا سبيل قانوني لتركها أن تحررني من هذا الارتباط باستخدام نفس سلطتك في فسخ قيود هذا الارتباط، وأن تعطيني حريتي لأعود لحياتي الكهنوتية والتي أحبها أكثر من أي شيء آخر وأنا لا أستحق أن ترفض طلبي وإنني لأرجوك أن تنظر إلى بعين العطف من أجل تلك الأسباب ومن ناحية أخرى عندما كنت في روما وبفضل الرب قد حصلت على امتياز أن أراك وأن أتحدث معك شخصيا . وقد طلبت مني أن أزورك في العام التالي في رأس السنة والإقامة في قصر (بالاتيوم) وعلى

نفقتك الخاصة لمدة ثلاثة شهور أو أكثر· ولكنني لم أستطيع ذلك ؟ جهدى ومالي والرب وملائكته هم شهود على· وهناك عوامل أخرى كثيرة مختلفة منعتني أكثر من أستطيع إرفاقها في هذا الخطاب، وإذا ملحنى الرب الحياة، ووافق الملك وليم ومنحنى الوسائل الكافية سوف أقوم بزيارة الأديرة المقدسة وزيارتكم وزيارة الكنيسة المقدسة، أتوسل إليك يا سيدي أن تدعو الرب أن يمنحنى حياة طويلة لسيدنا ملك إنجلترا، ويحفظكم من كل أعداوه وأن يرعى الرب والكنيسة المقدسة، وبينما يعيش الملك فإننا نحظى بالسلام، ولكن بموته لا نحظى بأي سلام· الحقيقة عندما نقرأ هذا الخطاب بالمقارنة بالسياسة الدينية لوليم ولانفرانك نظن أنهما اتفقا على كتابة لتهدئة البابوية في روما· لأن وليم حظر دخول أو إرسال أية خطابات للبابا لذلك فإن وليم قد قراءة وخاصة أن وليم ولانفرانك عملا معا من أجل الدولة والكنيسة ·

(5) Lanfranc to Roger earl of Hereford (1075) :

Earl Roger was the son and heir of William fitz osbern ; the Conqueror's closest friend (d. 1071) . In the following three letters lanfrancis acting in his puasi - secular capacity as not only a principal councillor of the king but a principal minister in his absence oversead . The changing tone of the letters echoes the political facts as the young Roger takes part in the so - called' Rebellion of the Earls' . Lanfranc, by the grace of God archbishop, greets his dearest son and friend earl Roger and sends him his blessing,

Our lord the king of the English greets you snd all of us as his faithful subuects (fideles) in whom he places great trust, commanding us to do all in our power to prevent his castles (castlla sua) from being handed over to his enemies; may God avert such a disaster. I urge you then, as I must urge the dearest of my sons - whom God knows I love wholeheartedly and long to serve, wgose father too I loved like my own soul - to be so scrupulousin this matter and in all your duty as a vassal of our lord the king (el deomni fidelitate domini nostri regis) that you may have praise of God and the king and

all good men. Never forget your father's disinguished career; the faithfl service he gave his lord, his zeal in winning great possewwions and how honourably he beld what he had won.

On another point, the king has ordered his sheriffs not to hold any courts within your lands until th himself returns to Wngland and xan hear personally the matters in dispute between you and those sheriffs.

I wish that I could speak to you in person If that is desire too, let me know where we can meet and discuss both your affairs and the Interest of the king. For my part I am ready to meet you at whatever place you may name.

You are asked to see that Beringer, who brings you this letter, has a just settlement with those men whom be accuses of having stolen his horse.

The Lord almighty bless you and direct your whole life in righteousness.

(٥) خطاب لانفرانك إلى روجر إيرل هيرفور سنة ١٠٧٥م

من لانفرانك رئيس الأساقفة بفضل الرب، يحيي ابنه العزيز وصديقه إيرل روجر ويرسل له تحياته لك، ونحن نضع ثقة عظيمة بك، ولك أن تأمرنا بما تراه لتحمي قلاعه من أن تقع في يد الأعداء لا قدر الله، لذلك فأنا أحثك كواجب على أن أشجع أعز أبنائي، والذي يعلم الرب أنني أحبه بكل قلبي طوال خدمتي، والذي كنت أكن كل الحب لوالده أيضا أكثر من روحي . ونحن لا ننس مجرى حياة أبيك والخدمات الإيمانية التي قدمها للملك في حراسة بلفور.

ومن ناحية أخرى فقد أمر الملك بأن لا يرأس أي من الشرفاء أي محكمة في نطاق أرضه وسلطته حتى يعود إلى إنجلترا ويستمع شخصيا لمناظرة بينك وبين هؤلاء الشرفاء وأتمنى أن أتكلم معك شخصيا وإذا كانت تلك هي رغبتك أيضا فرجاء أن تخبرني عن المكان الذي نستطيع أن نتقابل فيه ونناقش كل مخاوفك واهتماماتك. ومن ناحيتي أنا جاهز لمقابلتك في أي مكان تحدده .

ومطلوب منك أن تقابل بيرنجر الذي سيحضر لك هذا الخطاب.

والرب يرعاك دائما ويهديك للصواب .

(6) Lanfranc to the same (1075) :

Lanfranc by the grace of God archbishop, greets his dearest son and friend, earl Roger and sends gim his blessing.

I grieve more than I can say at the unwelcome news I gear of you .

It would not be right that a son of earl William - 2 man whose sagacity and loyalty to tis lord and all his Friends is renowned in many lands - should be called faithless and be exposed to the slur of perjury or any Kind of deceit. On the contrary, the don of such a great man should follow his father's example, and be for others a pattern of integrity and loyalty (fidelitaatis) in all respects. I therefore beg you, as a son whom I cherish and the dearest of friends, for the sake of god and your own good name, efyou are guilty of such conduet to return to your senes ; and if you are not, to demonstrate this by the clearest possible evidence. In either case, come and see me; tou have an unqualified addurance that ypu will not be hinderde in any way by me or by the King's men either in making the uourney or in returning home.

(٦) "خطاب من لانفرانك إلى روجر "

من لانفرانك رئيس الأساقفة بفضل الرب إلـــى ابنـــه وصـــديقه العزيز الإيرل روجر تحياتي:

وإنني حزين من أن أستطيع أن أصف الأخبار غير السعيدة التي سمعتها عنك فلن يكون من الصواب أن أحد أولاد الإيرل ولـــيم ذلـــك الرجل المطيع ذو الذكاء والطاعة للحاكم وكل أصدقاءه ذو الشهرة في المملكة، فإن بن رجل عظيم لابد أن يتبع نموذج والـــده، وأن يكـــون نموذجا للآخرين في المجد والكرامة لذلك فإنني أرجوك كابن وكـــأعز أصدقائي ومن أجل الرب إذا كنت مذنب من أي جانب أن تعود إلـــى ضميرك. وإذا لم تكن كذلك فعليك بتوضيح ذلك بشتى الدلائل الممكنة، وعلى أية حال تعالى لمقابلتي، وإنك لن تكون ممنوع بأي طريقة مـــن مقابلتي أو ممنوع من رجال الملك بعمل رحلة أو العودة للمنزل .

(7) Lanfranc to the same (1075) :

Lanfranc , by the grace of god archbishop, to his onne - time deardst son and friend earl Roger; may he have sound judgement and some concern for his souk ' s welfare.

I grieve for you inexpressably , for Ged knoes H loved you and desired with all my heart to love and serve you. But because the Devil' s promoting and the advice of evil men have led you into an enterprise which under no circumstances should you have attemptes , neccessity has Forced me to change my attiitude and turn my affection not so much into hate as bitterness and the severity of justice .I have sent messengers, I have sent letters not once but a second time inviting you to conme to me; to receive counsel for your soul from me your father in god and true friend, and on better advice to abandon the foolish undertaking which tou had planned.

You would not do so . Therefore I have cursed and excommumicated you and all your adherents by my authority as archbishop; I have cut you off from the holy precincts of the Church and the assembly of the faithful, and my pastoral authorty I have commanded this to take effect throughout the whole

land of England. I can free you from this bond of angthema ongy if you seek my lord the king' s mercy and if you render satisfaction to him and the other men whose property you have unjustly seized.

(٧) " خطاب من لانفرانك إلى الإيل رويد روجر "

من لانفرانك رئيس الأساقفة، الرب لابنـــه العزيـــز والصـــديق روجر ربما يكون لديك بعض الاهتمام لروح الخير ٠

" إنني حزين لتعذر تفسير أفعالك، ويعلم الرب كم أحبك وأتمنى من الرب أن يعود الحب والمودة بيننا ثانية وأنقــذك، ولكــن بســبب نصائح الشياطين أتباعك والتي أدت بك إلى طريق مسدود مع الملك، وتحت أي ظروف كان يجب عليك ألا تقوم بها ٠ والضرورة دفعتنـــي لأن أغير شعوري وأن أغير مودتي نوعا ما إلى كراهية وحكم قاسي، ولقد أرسلت لك رسولي للمرة الثانية أدعوك فيها لزيارتي، لأقوم بعقد مجلس تصفية مكون مني أنا –لانفرانك– وأصدقائك في انـــدين مـــن القساوسة وأن أقدم لك النصح لإبعاد الغباء الذي يتولى علي٠ وإذا لـــم تحضر فإنني ألعنك وألعن كل أتباعك بسلطتي كرئيس للأساقفة٠ وقـــد أسقطتك من تبعية الكنيسة المقدسة بسلطتي الكهنوتية وآمر بتنفيذ ذلك على كل أراضي إنجلترا٠ وقد أعفيك من كل ذلك فقط إذا جئت لتبحث عن رحمة الرب وأن ترضيه وأن تعيد كل الممتلكات التي اغتصـــبتها إلى أصحابها ٠

(8) Writ of William the Conqueror concerning the city of London (1067) :

King William announces that the city of London shall enjoy all the rights which it had in the time of king Edward, including the right of inheritance, and that be will defend its liberties, 1067 , This famous writ still survives among the City records, together with its seal (now detached). dated by general consent to 1067, it obviousty belongs to early years of the conquest because it is written in the vernacular and in a good old English hand. Facsimile.

King William sends friendly greetings to William the bishop (of London) and Geoffrey the mayor (portreeve) and all the burgesses in London both French and English. And I declare to you that it is my will that you both shall be entitled to all the rights that you were entitled to in king Edward's day. And it is my will that every child shall be his father's day. And Al will not allow any man to offer you any wrong. God Keep you.

(٨) مخطوط وليم الفاتح بخصوص مدينة لندن سنة ١٠٦٧م

أعلن وليم أن سكان مدينة لندن سوف يستمتعون بكل الحقوق التي نالتها في عهد الملك إدوارد المعترف، بما في ذلك حق الميراث والحرية ٠

وكتبت هذه الوثيقة في السنوات الأولى من الفتح باللغة العامية وبخط واضح جدا بالإنجليزية القديمة "صورة طبق الأصل" ٠

"الملك وليم يرسل تحياته كلها محبة إلى وليم أسقف "لندن" وجيوفرى رئيس بلدية "بورتريف" وكل سكان مدينة لندن سواء كانوا: إنجليز أو فرنسيين. وأنا أعلن لكم أنهما إرادتي أن كلاكما (الأسقف ورئيس البلدية كممثلين للسلطة العلمانية والكنسية في المدينة) سوف تخول لكم كل الحقوق التي كنتم تستحقونها في عهد الملك إدوارد ٠ وكذلك هي إرادتي أن كل طفل سوف يكون وريث والده بعد وفاته ولن أسمح لأي شخص مهما كان أن يصيبك بأي أذى "لندن" حفظك الله ٠

وهذا المخطوط والذي منحه وليم لمدينة لندن محفوظ في سجلات الجيلدهول :

" إنني أريد أن تكوني جديرة بكل هذه القوانين التي كانت لكي في عهد الملك إدوارد ولن أسمح لأي رجل بأن يمسك بضرر " وليم الفاتح ٠

(٩) أسماء البابوات المعاصرين للفتح النورماني :

م	اسم البابا	من	إلى	شرعية البابا
١	إسكندر الثاني	١٠٦١	١٠٧٣	
٢	هنريوس الثاني	١٠٦١	١٠٧٣	غير شرعي
٣	جريجوري السابع	١٠٧٣	١٨٥	
٤	كلمنت الثالث	١٠٨٠	١١٠٠	غير شرعي
٥	فيكتور الثالث	١٠٨٧	—	
٦	أوربان الثاني	١٠٨٨	١٠٩٩	
٧	باسكال الثاني	١٠٩٩	١١١٨	
٨	ثيودريك	١١٠٠	—	غير شرعي
٩	ألبرت	١١٠٢	—	غير شرعي
١٠	سلفستر الرابع	١١٠٥	١١١١	غير شرعي
١١	جلاسيوس الثاني	١١١٨	١١١٩	
١٢	جريجوري الثامن	١١١٨	١١٢١	غير شرعي
١٣	كالكستس	١١١٩	١١٢٤	
١٤	هنريوس الثاني	١١٢٤	١١٣٠	
١٥	كلستن الثاني	١١٢٤	—	غير شرعي
١٦	أنوسنت الثاني	١١٣٠	١١٤٢	
١٧	أناكليتوس الثاني	١١٣٠	١١٣٨	
١٨	فيكتور الرابع	١١٣٨	—	غير شرعي
١٩	كلستين الثاني	١١٤٣	١١٤٤	
٢٠	لوكيوس الثاني	١١٤٤	١١٤٥	
٢١	ايوجنيوس الثالث	١١٤٥	١١٥٣	
٢٢	أنسطسيوس الرابع	١١٥٣	١١٥٤	

(١٠) أسماء الملوك النورمانديين لإنجلترا :

م	اسم الملك	من	إلى
١	وليم الأول الفاتح	١٠٦٦	١٠٨٧
٢	وليم الثاني	١٠٨٧	١١٠٠
٣	هنري الأول	١١٠٠	١١٣٥
٤	ستيفن بلوا	١١٣٥	١١٥٤

الأصول والمراجع

أولا : المصادر والوثائق الأجنبية

ثانيا : المراجع الأجنبية

ثالثا : التراجم العربية والمعربة .

أولا : المصادر والوثائق الأجنبية :

(1) Barrow (G . W . S) & Edward (M .) ; Documents Medieval History, Vol. V , Suffolk, 1984.

(2) Bede ; Ecclesiatical History ofTh English Nation, Trans by. Potter, New york, 1955 .

(3) Bland & Tawney; Select Documents In English Economic History , London, 1956 .

(4) Brial (L .) & Blakeley (G. C .) Documents In English History, New york ,1975.

(5) Cantor (N .F .) ; The Medieval World 300 - 1300, secand printing , New york, 1963 .

(6) Davis (H . W . C) ; Documents Europe From 800 To 1789, London, 1930.

(7) Evns (B . L .) ; Ashart History Of English Literature, New york, 1942.

(8) Henery Bettenson ; Documents Of Christian Church, London, 1944 .

(9) MeIkle (G . M . D .) ; English Literature From Saxon Times To Gergianera , London, 1928 .

(10) Ordericus (V .) ; Ecclesiastical History, Trans by . M . Chibnall , Cambridge, 1979 .

(11) Rolles Series; Thechronicles and Memorialso Of Great Britain and Irenland During The Middle Ages, London, 1958.

(12) Thatcher (0 . J .) & Nceal (E. H .) ; Asource Book for Medieval History, New york, 1905.
(13) Willam ofMalmesbury; Historia Novella, Trans .K.R. potter, Edinburgh , 1955 .
(14) Willam of Po tiers ; Gesta Cuillelm Ducis Normannorumet Regis Ang10rum , Trans. R. Foreville , Paris, 1952 .
(15) Willam of New burgh; Historia Rerum Anglicarum , Inchronicles of The Reigns of, Willam 1 , Willam 11 , Henrey 1 and Stephen, Trans by . Howlett, 2 V ols , R.S, 1884 1885.

ثانيا : المراجع الأجنبية :

(1) Adams (G . B .) ; The History of England From The Norman Conquest to The Death of John 1066 - 1216 , New york, 1905 .
(2) Arthur (B. M. A.) ; Aneconomic History of The British Isles, London 1935 .
(3) Brook (Z . N .) ; The English Church and Papacy From The Conquest to The Reign John, Cambridge, Press, 1939 .
(4) Brook (Z . N .) ; The Saxon and Norman Kings, Cambridge, 1936.
(5) The Cambridge Medieval Histroy , Vol. V , Cambidrge , 1926 .

(6) Coulton (M . A .) ; Medieval Panarma The English Scance From Conquest to Refrmation , Vol. 1 , Press, 1949 .

(7) Coulton (M . A .) ; Social Life in Britain From The Conqust to The Refromation , Cambridge, Press 1918 .

(8) Cross (A . L .) ; Ahistrory of England and Greater Britain, New york 1921 .

(9) Cunningham (F. B . A .) ; English in Fluence on The United States, Cambridge, Press, 1916 .

(10) Davis (H. W . G .) ; England Under The Normans and Angevins , London, 1930 .

(11) Derry (T . K .) , Blount (C. H .) , Jarman (J . L .) , Carlisle (J . S.); Great Britain History From EarliestTimes to The Present Day, oxford, Press, 1962 .

(12) Dietz ; Apolitical and Social History of England, New york 1937 .

(13) Douglas (D. C .) ; n, Willam The Conqueror, The Norman Act Upon England, Bristal , 1964 .

(14) Douglas (D . C .) ; Willam The Conqueror" Duke and king" in , Loyn (e . d .) The Norman Conquest, New york ,1966.

(15) Esme(W.S.); The History of British Civilization London 1933 .

(16) Fliche (A .) ; Histoire Du Moy Enage , L Europe Occidentale De 888 A 1125 , To Me 11 , Paris, 1930.

(17) Frederick (p .) , Matland (F . W .) ; The History of English Law, Vol. 1 , Press ,1953.

(18) Freeman (E.); Ashart History of Norman Conquest of England, Oxford, Press, 1922 .

(19) Jounson (p.); History of The English People, London, 1972 .

(20) Gdwin Smith; History of England , New york, 1949 .

(21) Hskins (C. H.) ; The Norman in Europe History, New york,1915 .

(22) Hskins (C . H .) ; The Renaissance of The TwelfCentury, Cambridge, 1928 .

(23) Hernchaw; England in The Making, Vol. 1 , London, 1963 .

(24) Keith Feiling ; Ahistory of England, From The Coming of The English to 1918 , London, 1950 .

(25) Kenneth (0 . M .) ; The Oxford History of Britain, Nwe york, Press , 1983.

(26) Legge (M . D .) ; Anglo - Norman, in The Cloisters Upon Anglo Norman Literature, Press, 1950 .

(27) Lemmon (G . H .) ; " The Campaingn of 1066 " Leyon (ed .) The Norman Conquest, London 1969 .

(28) Lioyd (S .) ; The Norman Conquest, London ,1967.

(29) Lipson (E .) ; The Economic History of England in The Middle Ages, Vol. 1 , London 1937.

(30) Mitchell (R . J .) , Leys (M . D . R.) ; History of English People London 1950 .

(31) Mowat (M . A .) ; Anew History of Great Britain From The Roman Couquest to The Present Day, Press, 1926 .

(32) Peter (B .) , Brian (S .) ; Regional History of England The South East From A. D. 1000, London 1988 .

(33) Petit (C . H .) Dutailis ; The Feudal Monorchy in France and England, from the tenth to thirteenth, century, London, 1949 .

(34) Poole (A.L.) ; From Domesday Book to Magna carta 10871216 , second edition, press, 1955 .

(35) Sayles (G.O.); The Mediaeval Foundion of England, press, 1950.

(36) Stenton (F . M .) ; English Feudalisam 1066 - 1166, Oxford, press, 1932 .

(37) Stenton ; Anglo - Saxon England, press, 1943 .

(38) Stenton ; English Society in The Early Middle Ages 1066 - 1307 , penguin, 1959 .

(39) Terence Wise; 1 066 Year of Destiny, Doncaster, 1978 .

(40) Trevelyan (G.M.); Ashortened History of England , New York, 1942.

(41) Vinogradoff(P.); Villainage in England, Essays in English Mediaeval History, Oxford, Press, 1892.

(42) White lock (R . J .) ; The Beginning English Society The Anglo Saxan period, penguin Book, 1959.

(43) White (R. J .) ; The Harizon Concise History of England, New York,1971 .

(44) William Ashley; The Eonomic Organisation of England, London 1933.

(45) William Hunt, Poole (M. A.) ; The Political History of England, Vol II , New York, 1920.

(46) Williamosn & Others; English History From the Norman Conquest to The Wars of The Roses, London, 1899 .

(47) Wood ward (E. L .) ; History of England, London, 1947 .

ثالثا : المراجع العربية والمعربة :

(١) أدمون ديمولان : سر تقدم الأنجلو – سكسون، ترجمة فتحي زغلول، مكتبة الرحمانية – (القاهرة – ١٩٤٦).

(٢) أ ٠ ل ٠ رواس : التاريخ الإنجليزي، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثالثة، دار النهضة المصرية، (القاهرة ١٩٥٨م)٠
(٣) ج ٠ ج ٠ كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، الطبعة الأولى، دار المعارف (الإسكندرية –١٩٦٤م) ٠
(٤) جوزيفا داهموس : سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الطبعة الثانية، (الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٢)٠
(٥) ج ٠ كرامب – أ ٠ جاكوب : تراث العصور الوسطى، مجموعة بحوث، ترجمة محمد بدران مصطفى زيادة، الجزء الأول (القاهرة – ١٩٦٣)٠
(٦) زينب عبد المجيد عبد القوى : دور إنجلترا في الحروب الصليبية ١١٨٩–١٢٩١م (رسالة دكتوراه منشورة – كلية الآداب – جامعة الزقازيق – ١٩٨٥) ٠
(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى، التاريخ السياسي، الجزء الأول، الطبعة السابعة (الأنجلوالمصرية ١٩٩٤) ٠
(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور : النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة (القاهرة – ١٩٥٦م) ٠
(٩) س ٠ ورن ٠ هلستر : أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر (لأنجلو المصرية – ١٩٨٨) ٠
(١٠) محمد محمد الشيخ : الفتح النورماني لإنجلترا، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثاني، دار المعارف (القاهرة – ١٩٨٣)٠

(١١) نظير سعداوى : تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور الوسطى والقديمة، دار النهضة العربية (القاهرة – ١٩٦٨) .
(١٢) نورمان ف . كانتور : التاريخ الوسيط – قصة حضارة البداية والنهاية – ترجمة قاسم عبده قاسم، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، (دار المعارف – ١٩٨٦).
(١٣) لا . أ . ل . فشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار المعارف (القاهرة – ١٩٥٠) .
(١٤) هنرى بيرين : تاريخ أوربا في العصور الوسطى، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ترجمة عطيه القوصى (الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٦) .
(١٥) و . كوبك ند – ب . فينوجرادوف : الإقطاع في أوربا في العصور الوسطى، ترجمة مصطفى زيادة، الطبعة الثالثة دار النهضة المصرية (القاهرة – ١٩٥٨).

□ □ □

هذا الكتاب

يهدف هذا الكتاب إلى إلقاء الضوء على وضع إنجلترا تحت حكم النورمان في الفترة من (١٠٦٦:١١٥٤م).

وكذلك الجهود التي قام بها النورمان من أجل تأسيس الملكية الإنجليزية، وقيام وليم الفاتح بإرساء قواعد هذه الملكية الجديدة ، ثم رد فعل الشعب الإنجليزي من عمليات الفتح النورماني لبلادهم، وكذلك الجهود التي قام بها النورمان خلفاء وليم الفاتح من أجل تأسيس هذه الملكية الإنجليزية في عهد وليم الثاني وهنري الأول وستيفن، واختلاف وجهة نظر كل منهم تجاه ثورات الشعب الإنجليزي.

كذلك القيام بالإصلاحات الكنسية في إنجلترا، وبروز الحزب البابوي في عهد أنسليم، ثم عصر ستيفن وما ساده من فوضى واضطراب في كل أنحاء البلاد. وأيضا نتعرف على الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الجذرية التي أدخلها النورمان إلى أنجلترا .

كذلك نتحدث عن الثقافة في إنجلترا النورماندية، والمؤثرات الجرمانية على اللغة، وتطور الآداب الإنجليزية ، وكذلك تطور المكونات القانونية وأعلام النهضة الثقافية الذين أثروا في أدب وثقافة البلاد، وفي النهاية الأسلوب الفني الرائع الذي ساهم فيه الإنجليز والنورمان معا ليكون بذلك الفن الأنجلو-نورماني

